عفواً سيادة الرئيس

صفحات من مذكراتي عن أروقة الاذاعة



د.عوض إبراهيم عوض

عفواً سيادة الرئيس

دار المؤتمن للنشر والطباعة والتأليف
2017م
فهرسة مكتبة المؤتمن، بدار الإحسان

عوض إبراهيم عوض
عفواً سيادة الرئيس
493 ص؛ 17×24 سم

الطبعة الأولى سبتمبر 1998م
الطبعة الثانية سبتمبر 2017م

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

* * *

وتلك الأيام نداولها

بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا

ويتخذ منكم شهداء والله

لا يحب الظالمين.

* * *

صدق الله العظيم

﴿ الفهرست ﴾

الموضوع	الصفحة
الفهرست	5
إهداء	9
استهلال	11
الفصل الأول (الإذاعة حلم الملايين)	25
الالتحاق بالإذاعة	27
خطوات البداية مع ياسين معنّي	54
أحمد قباني يواصل التدريب	59
رسالة من عيسى بن مريم	67
الفصل الثاني (أحداث على الطريق)	71
انقلاب المقدم حسن حسين	73
أول لقاء مع الرئيس نميري	79
انقلاب العميد محمد نور سعد	90
الفصل الثالث (مواعيد سطرتها الأقدار)	109
الصدفة التي قادتني للعمل بالتلفزيون	111
في صالون فراج	116
تكوين منتدى الحروف	121
واشتعلت النيران في الطائرة	135

حواشة للمذيع..147
الفصل الرابع (أيام مع الرئيس نميري)........................157
عيد الاستقلال بدنقلا..159
مع الرئيس إلى تركيا..167
زيارة أيا صوفيا..181
الوصول إلى بوخارست..190
الخنزير أم العَرَقي؟..192
إسرائيليات يرقصن على أنغام سيد خليفة........................195
الدولار وصاحب القُبُعة..197
وحدي مع الأوباش..200
محكوم بالإعدام في طائرة الرئيس..206
أغلى رسالة في العالم..215
الفصل الخامس (بين أم درمان وكردفان)........................219
جولة في ربوع كردفان..221
العقيد القذافي يقصف إذاعة أم درمان........................232
في شيكان بعد مئة عام..237
إنشاء إذاعة كردفان..246
الفصل السادس (الثقافة والصراع السياسي)........................269
مهرجان الشعراء الشباب بالعراق..271
لقاء الرئيس صدام حسين..289

ليلة شعرية ببغداد 302
وليلة أخرى بالموصل........................ 303
جهاز الأمن يُتابعني........................ 306
محكوم بالإعدام يطلب مقابلتي بسجن كوبر........................ 309
أسبوع الأخوة بين مصر والسودان بدمنهور........................ 329
الموسم الثقافي السادس بمصر........................ 340
زيارة الجنوب مع نميري........................ 348
العيد في جوبا........................ 352
العمل بإذاعة وادي النيل........................ 357
الصراع المصري السوداني بإذاعة وادي النيل........................ 366
الفصل السابع (سنوات الديمقراطية)........................ 373
العودة إلى السودان........................ 375
ماذ قلتُ في محضر التحقيق........................ 377
إنشاء إذاعة عطبرة........................ 381
عملي كمراسل لصوت أمريكا........................ 386
الذكرى الأولى للانتفاضة........................ 389
تعييني كبيراً للمذيعين........................ 398
انتخابات الجمعية التأسيسية 1986م........................ 400
إلى الاتحاد السوفيتي مع الصادق المهدي........................ 404
أيام في باريس........................ 406

من باريس إلى موسكو...411
الطواف بالكريملين...416
متحف الإرميتاج..431
حفل السفارة بموسكو...436
أيام بجمهورية أوزبكستان...437
مسقط رأس الإمام البخاري..443
ديمقراطية الصادق تتغلب على مخاوف الأمن.....................449
تعييني محرراً بصحيفة الأضواء.......................................452
كل شيءٍ جائز إذا غضب صدام.......................................454
واحتوانا أمير الكويت...461
زيارة دولة قطر...465
الزيارة المستحيلة لأبو ظبي..466
وقرر الملك فهد حسم المشكلة.......................................467
وتعلق الوزير بأستار الكعبة..469
لقاء الملك فهد بالطائف..469
مذيع 87 ومجلة الموعد...472
مهرجان المربد بالعراق...474
قُبةُ المهدي في ليالي السمر..478
نهاية الديموقراطية الثالثة...480
مؤتمر السلام والتنمية بكردفان.......................................486
كلمة أخيرة...488

إهداء:

إلى كل زملاء المهنة من الإذاعيين الذين عايشتهم خلال السنوات التي قضيتها بهذا الصرح العظيم. إلى كل المستمعين الذين كانوا زاداً لي في طريق العطاء الطويل بين أروقة الإذاعة، وإلى كل من يقرؤون هذه السطور أهدي عصارة تجاربي مع الإذاعة التي أعتز بها وأفخر ما حييت. وإلى كل من يفكر في الانخراط في سلك العمل الإذاعي أقول إنَّ هذا هو طريق المبدعين الرائعين، فلا تبخلوا على أنفسكم ومستمعيكم بنشر المعرفة مهما اختلفت ضروبها، وستكون لكم ذكرياتٌ حتماً ما دمتم تعملون في هذا المجال المليء بالأسرار.

عوض



* * *

استهلال

في صيف عام 1960م كانت مدينتنا الصغيرة (**النهود**) قد تزينت بأبهى حللها، وبدت كعروسٍ في كرنفالها السعيد. خرجت على بكرة أبيها، تستقبل الفريق إبراهيم عبود رئيس المجلس العسكري الأعلى الذي جاء لافتتاح مشروع المياه بالمدينة. لم يصدق الأهالي الطيبون أنهم سيذوقون طعم الماء الزُلال بعد سنوات العذاب التي قضوها يشربون من مياه الآبار المُرة والحفائر التي تملؤها مياه الأمطار في فصل الخريف، لتكون ملاذاً أوحد للدواب والبشر على حدٍ سواء.

كنتُ طفلاً يافعاً في الخامسة من عمري. وجذبتني أمي من يدي، حافي القدمين، حاسر الرأس، عاري الجسد، إلا من قميصٍ قصيرٍ من الدمور لا يكاد يُخفي آثار الجراح التي سكنت على ركبتي الصغيرتين اللتين لم تعرفا ركوب السيارات ولا حتى الدواب التي يكثر استخدامها بين أهالي المدينة.

كنتُ أحسبُ أننا ذاهبينِ كالعادة لشراء حزمة من القصب لأغنامنا الثلاثة. ولذلك حملتُ معي حبلاً صغيراً تعودت على حمله دائماً لأربط به حزمة القصب التي نشتريها من منزل (**عبدُ اللهِ ود**

الفكي علي) بقرش صاغ. ولكن عندما خرجنا من بوابة المنزل، قالت لي أمي: ((**ضع هذا الحبل جانباً فنحن لسنا ذاهبين لجلب القصب للأغنام، وإنما نحن ذاهبان لاستقبال الرئيس**)). قلتُ لها: ((**من هو الرئيس؟ ولماذا نذهب لاستقباله؟**)) قالت: ((**هو الرئيس إبراهيم عبود، وقد جاء اليوم ليفتتح مشروع المياه في مدينتنا**)).

كانت الدهشة قد عقدت لساني مما سمعت، لأنني لم أفهم شيئاً. وفي الواقع لم أكن أعرف من الدنيا سوى حدود بيتنا الصغير، وسوق بشير الذي نذهب إليه دوماً لشراء الخضروات واللحوم وحطب الحريق وحاجيات الطعام الأخرى.

ثم إنني أعرف منزل (**عبدُ اللهِ الراعي**) الذي نذهب إليه كل صباح لنسلمه أغنامنا الثلاثة ليرتع بها في المراعي والحقول المنتشرة حول المدينة التي تحفها كثبان الرمال وتحتويها غابات السنط والهجليج والصمغ العربي من كل الجهات. وكان عبدُ اللهِ الراعي يعيد الأغنام في المساء لتركض نحو البيوت وكأنها على موعدٍ مع عشيقٍ جميل افتقدته طوال سويعات النهار. تأتي راضيةً مطمئنةً إلى مرابطها في طرف الحوش الكبير.

كانت تلك هي حدود معرفتي بالحياة. ليس فيها استقبال الرئيس ولا وداع الوزير. ولكن لا بأس مادام الذهاب سيكون مع أمي التي كثيراً ما تصحبني معها بحكم أنني ابنها الوحيد، حيث كان أبي قد رحل إلى دار الخلود وأنا لم أبلغ الأربعين يوماً من عمري. ولم

يسعد برؤية ابنه الصغير، لأنه توفي إثر علة لم تمهله طويلاً بمدينة جوبا بجنوب السودان التي كان يعمل بها إبان مولدي بمدينة النهود في الحادي والعشرين من شهر حزيران يونيو عام 1955م. وكانت أسرتنا الصغيرة المكونة من الأم (**آمنة**) والشقيقتين (**ثريا**) و(**درية**) تخطط للسفر بالمولود الجديد إلى جنوب السودان حيث يعمل الوالد هناك. وأثناء الاستعداد للرحيل أتى الناعي يحمل خبر الوفاة. وبقينا منذ ذلك اليوم بمدينة النهود نعيش في كنف الجد (**الحاج أحمد نور**).

وبقيت الوالدة كعشرات الأمهات من نساء المدينة تؤدي دورها في تربية الأيتام الذين لم تبلغ أكبرهم سناً الرابعة من عمرها آنذاك. خرجتُ مع أمي بعد أن ألقيتُ بالحبل الصغير خلف باب الزنك العتيق في بيتنا بحي (**الشايقية**) بمدينة النهود، وما أن وصلنا إلى الشارع حتى هالني ما أحدثته يد التغيير في مدينتنا الصغيرة.

فالأشجار لم تعد هي الأشجار، حيث طُليت جذوعها بلون أبيض لم تألفه من قبل. والشارع لم يعد هو الشارع، فقد رُصَّت على جانبيه قطع الطوب التي طليت هي الأخرى باللون الأبيض. ووُزعت قصاصاتٌ من الورق الملون على خيوطٍ تصل الأشجار والأعمدة بعضها ببعض. وكانت أقواس النصر والثريات قد وُضعت في كل مكان. وعلى هامات البيوت رفرفت أعلام السودان بألوانها الثلاثة

الأزرق والأصفر والأخضر، تتحرك يمنةً ويسرة مع نسمات الهواء الذي بدا عليلاً ذاك الصباح. وكانت زغاريد النساء تنبعث من على البعد تُمازجها هتافات الرجال بأعلى أصواتهم ابتهاجاً بافتتاح مشروع المياه لأول مرة في تاريخ المدينة. نظرتُ إلى كل ما حولي، فحسبت أنني قد دخلتُ الجنة التي كثيراً ما كان يحدثنا عنها مولانا الشيخ (**محمد أبو نانا**) الذي كنا ندرس على يديه في خلوة المسيد الملحقة بمسجد الحي الصغير. كان الشيخ أبو نانا يقوم بتحفيظ أطفال الحي آيات الذكر الحكيم، ويأمر الجميع بطاعة الآباء والأمهات قائلاً: «**إذا أطعتم أباءكم وأمهاتكم فإنَّ الله سيدخلكم الجنة**».

حسبتُ أنني قد دخلت الجنة وسط ذلك الكرنفال البهيج، وسألت أمي بكل جدية: «**هل هذه هي الجنة؟**» فضحكت ضحكةً عميقةً وقالت: «**كلا، وإنما كل هذا من أجل الرئيس**».

وسط ذلك الكرنفال البهيج، ظهر موكب الرئيس (**عبود**) من بعيد، تسبقه سيارات الإنذار بأبواقها العالية، ومن خلفها موكبٌ من العربات الصغيرة ذات الألوان الزاهية. وكانت عدسات المصورين تبعث أضواءها التي أضافت للكرنفال بريقاً زاد من حجم الاندهاش.

وكان أكثر ما يثير الدهشة هو شكل تلك السيارات الصغيرة المكشوفة. حيث كانت سيارات الحي لا تتعدى لوري التراب العتيق الذي يقوده (**الشيخ المبارك**) أو (**أبو الشينة**) والذي يأتي أمام

المنازل في الصباح حاملاً التراب من حُفَرِ الجير ورجالاً هم في لون التراب يحملون أدوات البناء العتيقة من كوريق وطورية ومسطرينة. وظلَّ هذا اللوري لسنواتٍ عديدة هو الشريان الحقيقي لمن يريد ترميم بيته المتهدم من فعل الخريف أو عوامل الفناء الطبيعية للبيوت في المدينة. وكان الشكل الثاني للسيارات في الحي هو سيارة إسعاف المستشفى بغطائها الأخضر العتيق، والتي ظلت تمر أمام البيوت كل صباح حاملة العم (**عبد القادر الشايقي**) أو العم (**حسن علوي**) ذاهبينِ إلى المستشفى أو عائدينِ إلى تناول طعام الإفطار بالمنزل ثم العودة للمستشفى أو المجلس الريفي.

وفي بعض الأحيان كانت اللواري السفرية تمر في الشوارع الضيقة بين البيوت حاملةً المسافرين أو العائدين من السفر بأمتعتهم وحاجياتهم التي يشترونها من القرى المتناثرة حول طريق الأبيض النهود أو طريق الفاشر. كان هذا هو عالم السيارات في الحي، ليس من بينها صالوناتٌ أنيقةٌ مكشوفة كهذه التي يمتطيها الرئيس، ولا تلك التي تطلق صفارات الإنذار أمام الموكب المهيب. ولذلك كانت الدهشة أكبر من كل تصورات أهل الحي وأهل المدينة كافةً.

نزل الرئيس (**عبود**) من سيارته على مقربة من المكان الذي كنا نقف فيه مع جمهرةٍ من الرجال والنساء المصطفين لاستقباله. وكان يلوح بكلتا يديه للمستقبلين، ويحييهم بعصاً صغيرة كانت

في يده اليسرى. كانت أمي قد أحكمت قبضتها على يدي حتى لا أضيع منها وسط ذلك الزحام. وفي تلك الأثناء عزفت الموسيقى السلام الجمهوري وألحاناً حماسية على آلات النفخ التي تلاصفت تحت وهج الشمس. وتبعتها دقات الطبول المدوية، فتردد الصدى من كل أرجاء المكان. وازداد الطرب في فؤادي، خصوصاً عندما اختلط ذلك المشهد بتدفق المياه لأول مرة في المدينة عندما أدار الرئيس صنبور المياه إيذاناً ببدء مرحلة جديدة في حياة النهود.

هتف الحاضرون من أعماقهم وصفقوا لذلك الماء الزلال. وتجاوبت النساء بالزغاريد والحداء الذي شق عنان السماء. وفجأةً تقدم طفلان صغيران في حوالي الخامسة من العمر نحو الرئيس، وألبساه طوقاً من الزهور. وانحني الرئيس للطفلين الذين وضعا طوق الزهور على عنقه، فقبلهما على خديهما ثم صافحهما بحرارة وعادا إلى حيث كانا يجلسان.

هنا جُنَّ جنوني لأن الطفلين كانا يرتديان زِياً عسكرياً لم أره قبل ذلك. وحسبت أنهما ضابطان صغيران من ضباط البوليس. حتى النياشين الذهبية والزرائر اللامعة كانت تزين صدريهما، مما زاد من فرط هيامي، وتمنيتُ أن يكون لي مثل ما لهما.

كان الطفل الأول ابن قاضي المدينة، والثاني ابن الضابط التنفيذي لمجلس بلدية النهود. وبعد أن سلم الرئيس عبود على الطفلين وبقية المستقبلين جلس على كرسيه المميز وسط كبار

المدعوين، وبدأت مراسم الاحتفال. انتابني شعورٌ جارف بأن أذهب إلى الرئيس وأسلم عليه، عسى أن أحظى بقبلة منه على خدي كما فعل قبل قليل مع الطفلين الذينِ ألبساه طوق الزهور. وأخبرتُ أمي برغبتي في الذهاب إلى الرئيس وطلبتُ منها أن تُطلق يدي. رفضتْ أمي بشدة ذلك الطلب وانتهرتني قائلةً:

((**إنت مجنون يا ولد؟ سيضربك البوليس إذا فكرت في هذا الأمر مرةً ثانية**)).

قلت لها: ((**لماذا يضربني وهو لم يضرب الأطفال الذين سلموا على الرئيس وألبسوه الزهور، وهم الآن يجلسون بالقرب منه؟**)). قالت: ((**ليس كل الأطفال، وأرجوك ألا تفكر في هذا الأمر مرة ثانية**)).

هنا انتابني إحساسٌ أشد بضرورة الذهاب خصوصاً وأنَّ الرئيس لم يكن يبعد كثيراً عن المكان الذي اخترناه للوقوف وسط المستقبلين. وفجأةً وبلا مقدمات نزعتُ يدي وهرولتُ نحو الرئيس وسط عيون المئات من البشر الذين كانوا ينظرون إليه. ولم أشعر إلا وحذاء الشرطي السميك يركلني بعنف شديد والسياط تُلهب ظهري.

وبأسرع من لمح البصر كان رجل الشرطة قد قذف بي بعيداً عن منصة الرئيس. ولم يكتَفِ بذلك وإنما انهال عليَّ ضرباً بالعصا حتى نزف الدم من جسدي على قميص الدمور القصير. وهنا علا

صراخ جميع الأمهات في وجهه ألا يضرب هذا الطفل الصغير الذي لم يقترف ذنباً يستدعي كل هذه القسوة. ولم يلتفت الشرطي إلى صرخات النساء ولا إلى صرخات أمي التي أفزعها ما رأت وسط ذلك الهرج الذي أثارته محاولاتي اليائسة لتحية الرئيس. وانهال الناس على ذلك الشرطي يسبونه بأشد الألفاظ على سلوكه القاسي. وبشكلٍ أشبه بالهستيريا حملتني أمي والدماء تسيل على جسدي وعادت إلى البيت بعد أن تبددت كل بهجتها بلقاء الرئيس.

عادت تحملني إلى البيت باكية العينين، حزينةً على ابنها الصغير الذي مزقت ظهره سياط الشرطة. وكنتُ أبكي بحرقة شديدة لأنني لم أتمكن من تحية الرئيس مثل بقية الأطفال. ومنذ تلك اللحظة رسخ في خاطري شيء يُسمي التحدي. وغلب على خيالي شيء يسمي الطموح. وآليتُ على نفسي أن أكون في مقام الرئيس.

ولكي أصدق القارئ القول فإنني كلما تحدثتُ مع أحد رؤساء الدول الذين أتاحت لي طبيعة مهنتي في المستقبل أن ألتقي بهم، وأتحدث إليهم، وأدخل في بيوتهم، وأشارك في المؤتمرات التي يعقدونها، وآكل في موائدهم، وأتجول بين ردهات قصورهم، تذكرت تلك المحاولة الأولى في حياتي للقاء الرئيس.

كان ذلك هو (**الفريق إبراهيم عبود**) رئيس المجلس العسكري لحكومة 17 نوفمبر 1958م التي أطاحت بأول حكومة

وطنية في السودان، وهي حكومة الأميرالاي (**عبد الله خليل**) الذي فاز بالأغلبية في الانتخابات التي أعقبت الحكومة الانتقالية الأولى بقيادة الزعيم (**إسماعيل الأزهري**). لقد أتاحت لي الظروف فيما بعد أن أكون قريباً من الرئيس. أي رئيس مرَّ على السودان، كما يتضح من خلال هذه الصفحات التي تحكي العديد من المواقف والذكريات.

حيث التقيتُ خلال عملي بعدد كبير من رؤساء وزعماء العالم من بينهم الرئيس الروماني الذي هزَّ أركان العالم بصلفه وجبروته نيكولاي شاوشيسكو، والرئيس المصري الراحل محمد أنور السادات، وخلفه الرئيس حسني مبارك، والرئيس التركي تورقوت أوزال، والرئيس العراقي صدام حسين، والأمير جابر الأحمد الصباح أمير دولة الكويت، والملك فهد بن عبد العزيز آل سعود عاهل المملكة العربية السعودية، والسيد نيكولاي ريجكوف رئيس الوزراء السوفيتي، والسيد جورج بوش نائب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الذي أصبح فيما بعد رئيساً للجمهورية في أخطر مراحل الصراع حول فرض النظام العالمي الجديد، والشيخ حمد بن خليفة آل ثاني ولي عهد دولة قطر الذي أطاح بوالده فيما بعد وأصبح أميراً على البلاد، والرئيس الليبيري صمويل دو، والرئيس الإثيوبي منقستو هايلي مريام، والرئيس الصومالي محمد سياد بري الذي عصفت به أهوال القبلية والصراعات السياسية، والمناضل نلسون مانديلا الذي أصبح

فيما بعد أشهر رئيس جمهورية في العالم قبل أن يتنحى لنائبه في الحزب، والسلطان عزلان شاه ملك ماليزيا، والملكة تونكو أنيس ملكة كلانتان. وفي السودان جميع الزعماء بدءاً بجعفر محمد نميري الذي حكم البلاد لأطول فترة بعد الاستقلال، ثم مروراً بالمشير عبد الرحمن محمد حسن سوار الذهب الذي أصبح رئيساً للبلاد دون إرادته، والصادق المهدي الذي أتت به الديمقراطية الشعبية ثلاث مرات ثم عصفت به الرياح العسكرية، وأحمد الميرغني، وعمر حسن أحمد البشير وغيرهم من الزعماء السياسيين والدينيين والحكام والوزراء.

لقد فرضت عليَّ طبيعةُ مهنتي أن أكون قريباً من هؤلاء الرؤساء في معظم الأحيان. وعايشت معهم الكثير من الأحداث التي لم تجد كلها الطريق إلى النشر والإعلام، ولذلك آليتُ على نفسي أن أسردها من خلال هذه الصفحات.

لقد أتاحت لي الظروف أيضاً أن ألتقي بمن هم في أهمية رؤساء الدول أو أكثر من صناع الفكر والعلم والثقافة والفنون بأشكالها المختلفة. ليس في وطني فحسب وإنما على مستوى العالم أجمع. حيث عايشت الكثيرين منهم ممن تقتضي الأمانة أن أذكر تفاصيل ما عايشته معهم في هذه السطور لأهميتها.

ومن هؤلاء الأشخاص المفكر الذي هزّ العالم بمواقفه الفكرية عندما كان وجودياً، وعندما أصبح ماركسياً، ثم عندما

أصبح مسلماً، وهو روجيه غارودي، والشاعر العربي الكبير نزار قباني، والشاعر البريطاني روجر هاردي، والكاتب رجاء النقاش، والأديب أنيس منصور، والمفكر الفرنسي جاك بيرك، والروائي الطيب صالح، والناقد جابر عصفور، والناقد عبد القادر القط، والكاتب عبد المنعم الصاوي، والكاتبة المغربية خناتة بنونة، والمخرج مدكور ثابت، والمخرج صلاح أبوسيف، والممثلين ماجدة الصباحي، ومحمود ياسين، وفريد شوقي، والمطربة فايدة كامل، والشاعر عبد الوهاب البياتي، والشاعر الأسباني أنطونيو غالا، وعدد لا يحصى من الوزراء والسفراء والصحفيين والإعلاميين العرب والأفارقة والآسيويين والأوربيين، والمئات من نجوم المجتمع بالسودان وخارجه.

ولهذه الأسباب وهذه الظروف التي أتاحت لي مادةً خصبةً للتوثيق والدراسة فقد ظل هاجس الكتابة يراودني منذ زمان بعيد، خصوصاً وأن عملي بالإذاعة ثم طبيعة المهن التي تعاملت معها لاحقاً قد أتاحت لي الكثير من المشاركات الفاعلة في أحداث مهمة، وساعدت في إشباع واحدة من أكثر الهوايات المفضلة لديَّ وهي هواية السفر حول العالم.

فسافرت إلى روسيا، وإنجلترا، وفرنسا، ورومانيا، وتركيا، وبلغاريا، وألمانيا، وهولندا، وبلجيكا، ولكسمبرج، وأوزبكستان، وصربيا، وسلوفينا، ويوغسلافيا، ومصر، والسعودية، والأردن، والعراق، وقطر، والكويت، وإثيوبيا، واليمن، وإرتريا، وأفريقيا الوسطى، والكميرون،

وتشاد، وتونس، وليبيا، والمغرب، وسنغافورة، وبورنيو، وإندونيسيا، وبروناي، والهند، وماليزيا، التي أكتب منها هذه السطور. وفي حقيقة الأمر فإنَّ هذا النوع من الكتابة يستدعي ذاكرة ثاقبة وطاقة على تجميع المعلومات. وأحسب أن طبيعة عمل أي صحفي أو إذاعي تتيح الكثير من الفرص لتجميع الذكريات وتوثيق الأحداث.

فضلاً عن ذلك فإنني ظللتُ طوال عمري أكتب المذكرات يوماً بعد يوم، حتى ملأت هذه المذكرات عدداً من المفكرات الصغيرة التي كان يهديها لي جدي (**الحاج أحمد نور**) طوال سنوات الدراسة مع مطلع كل عام جديد. ولما كبرتُ وكبرت الأيام والأحداث أصبحت صفحات المفكرات أصغر من أن تحمل الأحداث اليومية فتحولت إلى دفاتر وكراسات كبيرة ظلت تلازمني أينما حَلَّ بي المقام. ولعلها قد أصبحت الآن واحدة من أهم المراجع التي أسهمت في تأليف هذا الكتاب.

وعندما بدأت مراجعة المفكرات القديمة في أوائل السبعينيات وما تلاها وجدتها مليئة بأسماء أصدقاء الطفولة: (**محمد ياسين، النور حسن، محمد عبد الله الجدع، علي عبد القادر، أزهري التجاني، محمد عبد الرحمن تاجو، عادل دبوجة، بدر الدين إدريس، محمد عمر النيل، سليمان فضل الله، محمد الدرديري نمر، حمودة محمد إبراهيم، عثمان النور، كمال محمد أحمد، الأمين خليل أحمد، معتصم المغواري، أحمد خليل جيب الله، محمد أحمد أبكر، عثمان**

مكي الخليفة، معتصم مكي أبو ورقة، محمد خضر، يوسف أحمد العبيد، جلال مكي النذير، شوقي عباس، وعبد المنعم يوسف الخضر). ومن الأماكن (**مركز الشباب، نادي الهلال، نادي حيدوب، دكان حمودة، قهوة أبو جريس، مطعم بانقا، فينوس، ميدان الكورة، السينما، والمدرسة**).

كانت معظمُ صفحات المذكرات في تلك المرحلة تحوي مضموناً واحداً يتكرر في أغلب الأيام مثل (*ذهبنا مع الأصدقاء إلى محلات فينوس وتناولنا بعض قطع الباسطة، ثم ذهبنا إلى دكان حمودة ووجدنا فلان وفلان، في المساء ذهبنا إلى السينما أو محلات أبجريس بنادي السلام وشربنا الكاكاو باللبن وهكذا*). وعلى بساطة تلك المذكرات إلا أنها قد حافظت قطعاً على مبدأ التوثيق حتى كبرت أحجامها ومضامينها مع الأيام.

شيء آخر لا بد من الإشارة إليه، وهو أن عملي بالإذاعة والتلفزيون قد أضاف الكثير لهذه المذكرات. حيث إنَّ هذين الجهازين قد أضافا بعداً اجتماعياً ووطنياً ما كنتُ أطمع فيه لولاهما. حيث أتاحا بُعداً آخر بالدخول في عالم الشهرة التي هي بطبيعة الحال ضريبة يدفعها كل من عمل في هذا المجال. وقد اقتضى ذلك كثيراً من المسؤولية والحيطة والحذر، لأن الشهرة سلاحٌ ذو حدين إن لم تقطعه قطعك. وكانت هذه المسؤولية قد فرضت الكثير من الاهتمام بالمستمع والمشاهد في كل التحركات

والسكنات داخل الأستوديوهات وخارجها. وقد آليت على نفسي أن أنشر هذه المذكرات رغم أن بعضها ذو طبيعةٍ شخصية لأنها ترتبط بالعديد من الشخصيات العامة. وقد حدثت كثيرٌ من الظروف والملابسات أتاحت لي متابعة العديد من المناسبات الأدبية والثقافية والفنية والسياسية والدينية والاجتماعية والتي كنتُ شريكاً في العديد منها، فرأيتُ أن أسطرها بين صفحات هذا الكتاب.

والطريف في الأمر أن أول حرف أخطه من هذه السطور كتبته وأنا جالسٌ على مقعدٍ صغير بين الأدغال في أقصى مكان من جنوب شرق آسيا، والتي يعتبرها أهل الغرب عموماً نهايات العالم من الجهة الشرقية. ولم يكن يخطر ببالي في يوم من الأيام أنني سآتي إلى هذه البقاع أو أمكث فيها ناهيك عن كتابة هذه السطور بين أشجارها الباسقة وطبيعتها العجيبة. حيث إنني أكتب الآن على ضفاف بحر الصين الجنوبي في قرية تسمي قاوانج Gawang، وهي تتبع لولاية سرواك المتاخمة لإندونيسيا في جزيرة بورنيو. وعموماً أدعوك عزيزي القارئ لتتصفح هذه السطور، وكلي أملٌ أن تجد فيها ما يدعوك لقراءتها، أو الاستمتاع بها أو الاندهاش من بعض المواقف.



الفصل الأول

الإذاعة حلم الملايين

الفصل الأول

﴿الإذاعة حلم الملايين﴾

***

الالتحاق بالإذاعة

خرجتُ في صبيحة اليوم الأول من شهر آذار مارس عام 1975م، وكان البرد قارساً في ذلك الصباح، حيث ما زال فصل الشتاء مخيماً على المدينة. خرجت من منزل ابن عمي (**عبد المنعم عمر عوض**) بالخرطوم، حي السجانة، الذي سكنت فيه منذ أن أتيت إلى العاصمة بعد انتهائي من امتحان الشهادة الثانوية بمدرسة النهود، وتوجهتُ صوب مبني الإذاعة بأم درمان. فاليوم ستُعلنُ نتائج قبول المذيعين الجدد. حيث إنني كنتُ قد جلستُ لامتحان المذيعين في الثالث والعشرين من شهر شباط فبراير المنصرم أي قبل أسبوعٍ من ظهور النتيجة.

لم أذق طعم النوم طوال الأسبوع الماضي، بعد أن دخلت غرفة الامتحان التي هي أستوديو (E) بالإذاعة، مع الأستاذ (**عبد الوهاب أحمد صالح**) نائب كبير المذيعين آنذاك، وهو الذي أخبرني أنَّ النتيجة ستظهر بعد أسبوع. لم يكن تقديمي للعمل بالإذاعة محض صُدفة، ولا فرضته الظروف. ولم يكن من أجل البحث عن وظيفة،

كما يفعل العديد من شباب بلادي الذين كثيراً ما تفرض عليهم الظروف أن يرتضوا بأي مهنة تسنح لهم. وإنما كان تقديمي للإذاعة عن رغبةٍ، ومع سبق الإصرار على مدى سنوات عمري. حيث رسخت الإذاعة في داخلي، وعشقتها وتشبعتُ بحبها، وارتويت من تقمصها حتى الثُمالة. وكان إحساسي أنه لا يوجد شخصٌ في الوجود تعلق بمهنةٍ كتعلقي بالإذاعة قبل أن أراها، بل وقبل أن أبرح مدينتي الصغيرة وأنا بعد يافعٌ في مراتع الصبا بين كثبان الرمال.

كانت بداية التفكير في الإذاعة في شهر تشرين أول أكتوبر عام 1965م. حيث كنتُ يومها تلميذاً صغيراً بالصف الرابع الابتدائي بمدرسة النهود الغربية (ب). وعندما كنتُ أتصفحُ مجلة (**الإذاعة والتلفزيون**) التي كانت تُسمى مجلة (**هنا أم درمان**) كان في وسط صفحاتها حوارٌ مع الأستاذ الإذاعي (**علي محمد شمو**). وفي صدر اللقاء سأله المحرر: «**ما الذي يعجبك في عملك كمذيع؟**» وردَّ الأستاذ علي شمو قائلاً:

«**أنا بطبعي مولعٌ بالأدب والثقافة والفنون، خصوصاً غناء الحقيبة. وقد أتاح لي عملي كمذيع بالإذاعة أن أكون لصيقاً بالأدباء والفنانين. ولذلك عندما أقدم أي واحد من المطربين ليغني في تلك الفترة التي كان الغناء فيها حياً على الهواء، فإنني أقدمه ثم أتنحي عن الميكرفون لأنخرط مع الكورال**». قرأت هذه السطور للأستاذ علي شمو عشرات المرات، وأحسست أنني قد وجدتُ ضالتي.

حيث أيقنتُ أنَّ هذه هي المهنة التي تحقق طموحاتي في الحياة. فأنا مولعٌ بالأدب والثقافة والفنون منذ أن تفتحت عيناي على الدنيا. ولن يهدأ لي بالٌ إن لم أحقق هذه الرغبة التي ملأت عليَّ حواسي ومشاعري وتفكيري منذ ذلك اليوم. ومن يومها وأنا أتحدث مثل المذيعين، وأتصرف مثل المذيعين، وأتقمص شخصيات المذيعين، حتى وأنا سائرٌ على الطريق من المدرسة إلى البيت بعد انتهاء الدروس.

كنتُ كثيراً ما أقرأ لنفسي نشرات أخبارٍ أنسجها من الخيال لإذاعةٍ أنا مذيعها ومطربها ومستمعها الوحيد. وكنتُ أجد نفسي في ذلك الخيال العريض الذي ما غاب يوماً خلال تلك المرحلة المبكرة. وكنتُ أحياناً أمارس دور الناقد فأقول لنفسي: «**هذا مستوى غير مُشَرِّفْ، عيب يا عوض**». وأضحك من نفسي عندما يُطل أحد المارة، فألوذ بالصمت، رغم أنَّ نفسي تحدثني بأني قد بلغتُ شأواً بعيداً في مهنة الإذاعة وأنا بعدُ تلميذٌ بالمدرسة.

بعد أيام من قراءتي لحوار الأستاذ علي شمو بمجلة الإذاعة والتلفزيون جاء إلى فصلنا بالمدرسة الأستاذ (**زين العابدين البشير**)، وكان ناظراً لمدرسة النهود الغربية (ب) وقال: «**ستكون لدينا غداً جمعية أدبية بفناء المدرسة، وأرجو من التلاميذ أن يشاركوا بمواد من إنتاجهم لتقديمها في الجمعية**». كانت تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها كلمة جمعية أدبية. ولم أعرف المقصود بها، حتى أوضح لنا الناظر معناها وما أراده منا. عندئذٍ ذهبت إلى البيت

منتشياً بتلك الفكرة وبدأت أكتب قصيدةً للجمعية الأدبية. مكثتُ أكثر من ثلاث ساعات أُطوع القلم الرصاصي الذي شحذت سنته بموس الحلاقة على عادة أبناء الأرياف، وذلك من أجل تأليف قصيدة أشارك بها في الجمعية الأدبية. وأخيراً كتبتُ أبياتاً حسبتُ أنها شعرٌ رصين وأطلقتُ عليها اسم (**تحية المدرسين**).

ثم ما لبثتُ أن كتبتُ قصيدةً أخرى مماثلة سميتها (**تحية الطلبة**). وحملت القصيدتين اللتين لم تتجاوزا في مجملهما العشرين بيتاً وذهبتُ إلى ناظر المدرسة وراعي الجمعية الأدبية. وما أن سلمته القصيدتين حتى بادرني بقوله: «**هذا عمل جميل، وستقدمه على المسرح بنفسك اليوم**».

جاءت ساعة الصفر، وقدّمني أحد الأصدقاء وهو التلميذ (**عثمان أحمد مدني**) لكي أقرأ القصيدة الأولى. وبعد ذلك قال لي الناظر اقرأ القصيدة الثانية فقرأتها أمام حشد من تلاميذ المدرسة وبعض المدرسين والآباء الذين جاءوا لحضور الجمعية. وبعد تقديم القصيدتين قال الأستاذ زين العابدين وهو ما زال جالساً على كرسي الخيزران: «**خلاص عوض أصبح شاعراً من اليوم**».

كنتُ سعيداً بذلك التعليق وتلك التسمية، التي ظللتُ بعدها مواظباً على تقديم فقرات من إنتاجي في الجمعية الأدبية حتى انتهى العام الدراسي وانتقلنا للمرحلة الوسطى. كانت المدرسة التي التحقنا بها هي مدرسة النهود الأهلية الوسطى، والتي

كانت في أول بداياتها. حيث كنا نحن أول دفعةٍ نشأت عليها المدرسة. وكنا فصلاً واحداً فقط من اثنين وأربعين تلميذاً. وكانت هيئة التدريس تتكون من شخصين لا ثالث لهما هما: الأستاذ (**محمد آدم شني**) مدير المدرسة، والأستاذ (**صالح حمزة عبد الباقي**) الذي تخرج لتوه من مدرسة الفاشر الثانوية.

كان كلاهما حريصين على رفع مستوى التلاميذ وتقديم الأنشطة الثقافية والعلمية، لأن المدرسة كانت في بدايتها، وكان لا بد لها أن تثبت وجودها بجانب المدرسة الأميرية العريقة، التي ظلت الوحيدة بالمدينة منذ سنوات الاستعمار، لا يضارعها في تقديم تلك الخدمة إلا معهد النهود العلمي الأوسط والمعهد الإسماعيلي الذي أسسه الشيخ (**مكي الخليفة**) أحد رجال الطريقة الإسماعيلية الشهيرة بكردفان.

لقد قبلنا التحدي، وبذلنا أقصى ما يمكن من جهد، حتى أحرزت المدرسة في نهاية المطاف نتائج أذهلت أهل المدينة وفاقت كل توقعاتهم، حيث نجح جميع التلاميذ والتحقوا بالمرحلة الثانوية ما عدا اثنين لم يحالفهما الحظ فأعادا الجلوس لامتحان الدخول في العام التالي. كانت تلك المرحلة بداية التفكير في البحث عن الذات. وقد ساعد على ذلك تشجيع أساتذة المدرسة، خصوصاً الأستاذ (**صالح حمزة عبد الباقي**) الذي كان مولعاً بالأدب والثقافة والأنشطة الاجتماعية المختلفة. وقد كان هو الآخر مبدعاً في مجال

العطاء الفني. حيث كان يكتب الشعر ويعزف على العود ويقوم بتلحين الأناشيد والأغنيات العاطفية. وكنا نزوره في منزله الذي أصبح مزاراً لكثير من التلاميذ الذين وجدوا فيه صديقاً أكثر من كونه مربياً أو معلماً في مدرسة. ورغماً عن بُعد منزله الذي يقع في الطرف الآخر من المدينة إلا أننا كنا نحرص على الذهاب إليه مع الأصدقاء ميرغني الشيخ صالح، وبدر الدين إدريس ومحمد عمر النيل وأحمد حسن محمد.

وكنا نستمتع بالقصائد الشعرية والأغنيات التي يقوم بتلحينها. وشيئاً فشيئاً وجدنا أنفسنا في وسطٍ مليء بالشعر والأدب والغناء إضافةً إلى الأنشطة الرياضية والعلمية المكثفة بالمدرسة. وبدت المسألة أكثر نضوجاً عندما جاء إلى مدرستنا بعد فترةٍ وجيزة معلمٌ آخر هو الأستاذ (**عبد الرحمن مصطفى النعيمة**) الذي أصبح فيما بعد د. عبد الرحمن مصطفى.

كان الأستاذ عبد الرحمن شعلةً من النشاط، خصوصاً فيما يتعلق بالبحوث الاجتماعية، والليالي الثقافية بشتى ضروبها. حيث كان شغوفاً بإجراء البحوث والدراسات الميدانية من مواقع الأحداث. وكان يعتمد في كل ذلك على التلاميذ النشطين المنخرطين في جمعية البحوث التي أنشأها بمجرد التحاقه بالمدرسة. ورغم أنه كان متخصصاً في مادة التاريخ، إلا أن اهتماماته قد تجاوزت التاريخ إلى كل ضروب المعرفة والثقافة المختلفة. وكانت دهشتنا عندما طلب

منا في أحد الأيام أن نذهب إلى بيوت الخمر والأنادي في قاع المدينة لنجري بحثاً ميدانياً هناك مع بائعات الخمور والسُكارَى. لم نتخيل في أول الأمر أنه كان جاداً وأننا سنذهب بزينا المدرسي إلى تلك الأماكن المشبوهة، ولكنها عبقرية أستاذنا عبد الرحمن الذي أقنع إدارة المدرسة وأعضاء الجمعية بأهمية الذهاب إلى ذلك المكان، وإجراء بحث اجتماعي من داخله. وبالفعل أخذنا أوراقنا وأقلامنا وذهبنا إلى (الأنداية).

لقد راعنا ما رأينا فيها، نفرٌ من المتسكعين ومدمني الخمر من رجالٍ ما كنا نحسب أنهم يذهبون إلى هناك. ورغم أنهم قد فوجئوا بوجودنا بينهم، إلا أنهم كانوا في غاية السخاء بإعطائنا كل المعلومات التي طلبناها، والتي كانت فاتحةً لكثير من الموضوعات التي قمنا بدراستها فيما بعد.

وكانت أول مرة نعرف فيها أن السبب الرئيسي في تفشي ظاهرة الإدمان وسط الرجال والنساء هو وجود الفراغ القاتل في حياتهم، وعدم انخراطهم في أي نشاط عام يشغلهم عن ممارسة الرزائل، فضلاً عن ضعف الوازع الديني، وقلة فرص التعليم. وكان من الأسباب أيضاً إغراء أصدقاء السوء الذين انخرطوا في مثل ذلك السلوك وأدمنوا ارتياد هذه الأماكن. ولما انتهينا من إجراء ذلك البحث المثير شعرنا بأهمية الجمعية وأثرها في المجتمع. حيث عرف كل أهل المدينة أن مدرستنا قد اقتحمت تلك البيوت المشبوهة

وكشفت ما بداخلها بغرض معالجة تلك الظاهرة المدمرة. وكانت النتيجة أن تخلى عدد كبير من الرجال عن تلك العادة مخافة أن يفتضح التلاميذ أمرهم، خصوصاً وأن بعضهم كان له أبناء في نفس المدرسة. وعلمنا أن الأستاذ عبد الرحمن إنما كان يهدف إلى تلك النتيجة من خلال تشجيعنا على إجراء تلك البحوث.

كما أنه كان يريد بذلك أن يغرس في نفوس التلاميذ حب البحث والدراسات العلمية، علَّ وعسى أن تسهم هذه الدراسات في استنباط حلول للمشاكل الاجتماعية التي استشرت في مجتمعنا بشكلٍ خطير.

بعد نجاح تلك التجربة قادنا الأستاذ عبد الرحمن إلى سجن مدينة النهود وطلب منا هذه المرة أن نُجري مقابلات مع السجناء حول الأسباب التي دعتهم لارتكاب الجرائم، والتي تسببت في الزج بهم بين غياهب السجون. ولم يكن هذا بالأمر الهين. حيث إنَّ مجرد مقابلة السجناء، أو دخول أسوار السجن، كان بالنسبة لنا أمراً محفوفاً بالمخاوف والخطر.

ولكن رغم ذلك جئنا متحمسين بحكم ما تعلمناه من التجربة الأولى التي صقلتنا إلى حدٍ كبير وعلمتنا مواجهة الأحداث. كان عدد التلاميذ المشاركين قد تضاعف هذه المرة، بحكم أن الجمعية قد اكتسبت سمعة طيبة في المدينة، جعلت الكل يطمح في الانضمام إليها. كنا أربعين تلميذاً هذه المرة. وقد أتينا إلى

السجن تملؤنا المخاوف والرهبة. وبدأ الحوار أولاً مع ضابط السجن المسؤول السيد (**أحمد صديق العوض**)، ثم مع السجناء والسجينات. وكانت المشكلة أن جميع التلاميذ قد أحجموا عن تقديم أسئلة للسجناء أو للضابط من هول رهبة السجن، فوجدتها فرصةً ذهبيةً لي لألعب دور الصحفي في ذلك اليوم. وبالفعل تقدمت بالعديد من الأسئلة لكل الأفراد الذين استضفناهم داخل السجن.

لم يشاركني أحدٌ من الزملاء الذين ظلوا مستمعين طوال الحوار بمن فيهم الأستاذ عبد الرحمن، الذي ظلَّ يرمقني بنظرات التشجيع والتقدير كلما وقعت عيني على عينه أثناء الحديث. وأدركتُ حينها أن الرجل كان يود أن يغرس الثقة في نفسي لمواصلة المشوار. وفي الختام كانت الحصيلة معلوماتٍ غزيرة جمعناها من داخل السجن عن دور السجون في تربية وتهذيب النزلاء، وأهمية الدور العقابي في ردع كل من تسول له نفسه الوقوع في مزالق الإجرام.

وعندما بدأنا في كتابة تقارير الرحلة وتسجيل حصيلة ذلك اليوم شدَّ الأستاذ عبد الرحمن على شعر رأسي قائلاً: «**ستكون يا عوض صحفياً وإعلامياً في يومٍ من الأيام إذا ما واظبتَ على هذا النهج**». كانت تلك العبارات بمثابة القنديل الذي أضاء الطريق لتلميذ يطمح أن يكون رقماً صحيحاً على خريطة الحياة. وحسبتُ أن الطريق قد بدأ ينفتح أمامي لأرسم خطوط المستقبل الذي يحتاج

إلى كثيرٍ من الجد والمثابرة. وأيقنت أن الانكباب على المناهج الأكاديمية وحدها لا يكفي، بل لا بد من صقل الذات بالعديد من المعارف والتجارب والممارسات التي لا توفرها فصول الدراسة النظامية.

ومرت سنوات المدرسة الوسطى مليئةً بالنشاط والبحث عن الكيان الخاص وصقل مواهب الطفولة لتثري سنوات الرجولة. وفي السنة النهائية للمرحلة الوسطى دعانا الأستاذ عبد الرحمن للتفكير في إقامة ندوات ثقافية وفكرية بالمدرسة. وقد اختار لذلك مسرح المدرسة بعد أن انتقلت في ذلك العام من مقرها القديم الذي كان منزلاً صغيراً بحي (**أبو دَقَلْ**) إلى حي المدارس في مباني مدرسة (**ود بندة**) التي تم ترحيلها من النهود إلى مدينة ود بندة بحدود كردفان.

كان المقر الجديد للمدرسة أكثر ملاءمةً لليالي الثقافية بحكم توسطه بين المدرسة الأميرية للأولاد ومدرسة البنات الوسطى والمعهد الثانوي الذي تحول فيما بعد إلى مدرسة النهود الثانوية والمدرسة الشمالية التي قامت على أنقاض المعهد العلمي القديم. حيث شجع هذا الوسط الجديد على تكثيف نشاط الجمعيات الأدبية والأنشطة الثقافية وليالي السمر. ولما لم يتقدم أي تلميذ باقتراح لندوةٍ أو محاضرة حسبما طلبه منا الأستاذ عبد الرحمن فقد آليتُ على نفسي أن أقود زمام تلك المبادرة. ومرةً أخرى جئتُ إلى

مكتبه وطلبتُ منه أن يسمح لي بإقامة محاضرتين بالمدرسة، واحدة بعنوان (**المجتمع السوداني إلى أين؟**)، والثانية بعنوان (**الأدب والفن في السودان**).

وسألني الأستاذ عبد الرحمن عن مدى استعدادي لتقديم هاتين المحاضرين على مستوى المدينة لأنه بصدد دعوة الآباء والأعيان، فأجبته بأنني على أتم استعداد. كانت عبارات التشجيع التي قابلني بها قد بددت المخاوف في نفسي. وتحدد للمحاضرة الأولى أول يوم خميس في ذلك الأسبوع.

وزعنا الدعوات للآباء وأولياء الأمور وتلاميذ المدارس المجاورة. وأقيمت المحاضرة، التي قدمني فيها الأستاذ عبد الرحمن بنفسه. وفي ختامها أعلن عن المحاضرة الثانية في أمسية يوم الخميس القادم. كان التشجيع أكبر من جميع تصوراتي، مما جعلني أشعر بالفخر في ذلك الوقت المبكر من حياتي المدرسية.

وكان أكثر ما أسعدني أن عدداً من الأصدقاء والمدرسين، ومنهم الأستاذ محي الدين يوسف ضيف الله والأستاذ يوسف ماكن، والأستاذ علي زين العابدين قد بدءوا ينادونني بلقب المحاضر. وتطور هذا اللقب بعد فترة وجيزة إلى لقب المذيع، وكأن الجميع قد أدركوا رغبتي العارمة التي كادت أن تصل إلى حد الجنون في الالتحاق بمهنة الإذاعة في مستقبل الأيام. كان لقب المذيع قد بدأ يلتصق بي عندما قدمتُ حفلاً غنائياً في أحد أيام العطلة الصيفية

بمنزل مولانا (**الشيخ عباس الفكي علي**) فقيه المدينة ومفتيها وعالمها الأول. حيث أقيمت في ذلك اليوم مأدبة كبيرة بمناسبة ختان أنجال الأستاذ (**التيجاني عباس**) مدير المدرسة الابتدائية وقتها.

وكان الأستاذ التيجاني قد أطلق عليَّ ذلك اللقب بمجرد نزولي من المسرح الذي قدمتُ فيه أحد مطربي المدينة واسمه (**عيسى أحمد عبد الله**) ليقدم وصلةً غنائيةً في ذلك الحفل. ومن يوما ظل لقب المذيع ملازماً لي إلى يومنا هذا. كنتُ أشعر بالفخر والسعادة عندما يناديني أحدهم بذلك اللقب، وكأني بالفعل قد صرتُ مذيعاً. وبدأت تُسندُ إليَّ مهمة تقديم الندوات والليالي الثقافية والفنية بالمدرسة. ثم تطور الأمر أكثر من ذلك، عندما أصبحتُ في منتصف المرحلة الثانوية مقدم البرامج على مستوى المدينة.

لم أكن أتردد عندما تأتي إليَّ دعوةٌ من أي جهة لتقديم أي احتفال أو ليلةٍ للسمر، خصوصاً عندما بدأ (**مركز الشباب**) بقيادة الأستاذ (**حامد التوم العركي**) في تقديم الليالي الثقافية والفنية في نهاية كل شهر ترفيهاً عن أهل المدينة. وكنت أتناوب في تقديم تلك الليالي مع الأخ الصديق (**عبد المنعم يوسف الخضر**) الذي احترف الغناء فيما بعد وتخلى عن ممارسة دور المذيع تاركاً الساحة لي وحدي. وكانت المدرسة الثانوية اتصالاً للمرحلة المتوسطة من حيث الأنشطة الثقافية والندوات الشعرية. حيث أصبحت التجربة

الشعرية أكثر نضوجاً والتزاماً في تلك المرحلة. وذلك بحكم التنافس الكبير الذي نشأ بين شعراء المدرسة ومنهم كمال محمد أحمد الذي التحق فيما بعد بإذاعة أم درمان، والشريف أحمد حسين، وعبد الرحمن مَساعَد الذي كان مشهوراً بلقب الشاعر، وعمر إبراهيم أحمد، وعبد الإله عمر الشريف، والربيع علي عثمان، إلى جانب شعراء المدينة المعروفين أمثال عبد القادر منعم منصور، وبشير البدوي عبد الساتر، وعبد الرحمن الشيخ شبير، وجلال مكي النذير، وعثمان النور، وإبراهيم صافي، وغيرهم.

وكان معظم شعراء المدرسة يذهبون في الأمسيات إلى دكان عثمان النور الذي أصبح صالوناً أدبياً خرجت من ثناياه العديد من الأعمال الشعرية الرائعة. وكان الشاعر الكبير (**حدباي أحمد عبد المطلب**) يأتي إلى مدينتنا بين الحين والآخر بغرض التجارة وتفقد الأصدقاء، فنستمتع بجلساته الرائعة وحديثه العذب وشعره الأخاذ وحكاياته عن شاعر الوطنية الكبير (**خليل فرح**) الذي كان صديقاً له طوال حياته، حيث ظلَّ حدباي راويةً لشعره وملماً بكل صغيرة وكبيرة عنه.

كانت قضايا الأدب والفن والثقافة هي أكبر همومنا بالمرحلة الثانوية. وفي يومٍ من الأيام نشرت لي مجلة (**هنا لندن**) قصيدة كتبتها عتاباً لصديق لي من أبناء مدينة أم روابة اسمه (**حمزة باهي عبد الرحيم**). وقد كان حمزة كثير الخلف للمواعيد،

حيث وعدني يوماً بالزيارة وانتظرته طوال اليوم فلم يأت. وأثناء الانتظار أمسكت ورقةً وقلماً وكتبتُ تلك القصيدة التي أسميتها (**لمن أنشدته طرباً فلم يطرب**).

كادت الدنيا لا تسعني عندما نُشرت تلك القصيدة بمجلة هنا لندن واسعة الانتشار على مستوى العالم. وكان نبأ نشرها قد أتاني من الصديق (**محمد ياسين محمد أحمد**) الذي أصبح فيما بعد أحد أشهر الطيارين في شركة الخطوط الجوية السودانية. جاءني محمد في الصباح الباكر يحمل نسخةً من المجلة، وأطلعني على قصيدتي منشورةً بها.

أحسستُ يومها بأن الكون لا يسعني. وأيقنتُ أن في ذلك اعترافاً بما أكتب، وشهادةً لا تقدرُ بثمن من هيئة الإذاعة البريطانية التي أكن لها كل التقدير والاحترام. وبعد ذلك توالى تعاملي مع تلك المجلة. حيث نشرت فيها بعد ثلاثة أشهر من ذلك قصيدة أخرى بعنوان (**رحماكِ**)، ثم قصيدة (**طرفُكِ الباكي**).

كانت جميع تلك القصائد قد نُشرت خلال عام واحد، مما جعل قضية الشعر تأخذ مساراً أكثر جديةً في حياة الصبي الذي بدأ يحس أن أبواب الشهرة قد بدأت تنفتح أمامه. وفي أحد الأيام ونحن بالصف الثاني بمدرسة النهود الثانوية زارنا الكاتب والشاعر الشاب (**فضيلي جماع**) حاملاً أول إنتاجه الأدبي رواية (**دموع القرية**). وأقام بالاشتراك مع جمعية الثقافة بالمدرسة ليلةً ثقافية أمها جميع

الطلبة وعدد من الأساتذة. وتحدث فيها عن ذلك الكتاب ثم قرأ عدداً من قصائده الشعرية. كنا محتشدين حوله كالفراشات التي تبحث عن ضوءٍ يبث شعاعه بين الفيافي ليضيء لها الطريق. وكنا سعداء ومعجبين إلى أقصى الحدود بذلك المسعى الذي بدأه فضيلي نحو عالم الأدب العريض، خصوصاً وأنه من أبناء محافظتنا الذين ظهروا مبكراً من خلال مهرجان الشعراء الشباب، حيث فازت قصيدته (**كردفان تصحو**) بالمرتبة الثالثة بين عشرات المشاركين من بقاع السودان المختلفة. وكان أحد الفائزين في تلك المسابقة في مرحلةٍ لاحقة صديقنا وزميلنا بالمدرسة الشاعر (**عمر إبراهيم أحمد**) بقصيدته (**هونكايا**)، مما زاد من غبطتنا وفخرنا، واطمأنت نفوسنا على مسارنا الأدبي والثقافي.

انتهت المرحلة الثانوية في عام 1975م، ولم أتقدم بطلب التحاق لجامعة الخرطوم مثلما يفعل جميع الطلاب، فاستدعاني الأستاذ (**أحمد جريقندي نعيم**) وكان المشرف على فصلنا وقال لي: ((**لماذا لم تتقدم بطلب لجامعة الخرطوم وهي أعرق الجامعات في البلد؟**)) قلت له:

((**أنا لا أريد ذلك، لأنني قد رسمت مستقبلي من الآن، وهو أن أكون مذيعاً بالإذاعة. وإنني الآن أسابق الزمن لأحقق تلك الرغبة. ثانياً كان والدي رحمه الله يحب مادة القانون حباً جماً، وقد بلغني من ابن عمي أحمد التيجاني عمر أن والدي كان يقول له إذا رزقني**

الله ولداً فسأجعله يدرس القانون. وهاأنذا أريد أن أحقق رغبة والدي ورغبتي في آنٍ واحد. وهذا لا يتحقق إلا بدراسة القانون بجامعة القاهرة فرع الخرطوم التي ستتيح لي أن أكون طالباً ومذيعاً في نفس الوقت. وذلك لأن جامعة القاهرة لا تمانع أن يكون الطالب موظفاً أثناء سنوات الدراسة. وأجمل ما في الأمر أن الإذاعة الآن لا تمانع في قبول المذيعين بشهادة الثانوية».

ضحك الأستاذ جريقندي وقال لي: «**هذه فلسفة أولاد آخر الزمن**». بعد ذلك انتهت امتحانات الشهادة وأُعلنت النتائج عبر الراديو، وكنتُ من الناجحين بحمد الله، فحزمت أمتعتي وركبت القطار المسافر إلى الخرطوم شأني شأن كل أبناء السودان الذين تبدأ معركة الحياة الحقيقية معهم بعد نيل تلك الشهادة.

وفي الخرطوم تسلمت شهادتي من وزارة التربية والتعليم، ونسخت منها نسختين تقدمتُ بإحداهما إلى معهد التكاليف حيث التقديم للدراسة بكلية القانون بجامعة القاهرة والثانية إلى وزارة الثقافة والإعلام طالباً العمل كمذيع بإذاعة جمهورية السودان.

كان تقديمي للإذاعة بطريقة غير روتينية، حيث أخبرت ابن عمي الأستاذ (**أحمد التيجاني عمر عوض**) الذي كان يعمل مديراً للمناهج بوزارة التربية والتعليم ثم محاضراً بجامعة أم درمان الإسلامية برغبتي في العمل الإذاعي. وطلبتُ منه أن يساعدني في التقديم بحكم علاقاته الوطيدة بالمسؤولين في مختلف مرافق

الدولة، فاعترض بشدة على ذلك الاتجاه وقال لي: «**إن هذا الوسط الفني وسط سيئ السمعة، ولن أجامل أبداً بإدخالك فيه وأنت في هذه السن الصغيرة. وإنني أرى أن من واجبك أن تتفرغ أولاً لدراسة القانون الذي يحتاج منك إلى جهد كبير ثم تلتحق بعد ذلك بوظيفة محامٍ أو قاض وهي من الوظائف ذات الاعتبار الخاص في السودان**». قلت له: «**إن الإذاعة هي رغبتي الأولى والأخيرة، وهي تجري في شراييني مجرى الدم، وما لم أحققها فلا مجال أطرقه حتى الممات. وهذا القانون ما تقدمتُ إليه إلا لأنك أخبرتني قبل سنوات بأنَّ تلك هي رغبة والدي الذي لم أره في حياتي**».

قال لي: «**إذن لماذا لا تحقق رغبة والدك حتى نهاية المطاف وتعمل بمهنة القانون في القضاء أو المحاماة؟**» قلتُ له: «**إنني لا أستطيع أن أجامل في عواطفي. وكفاني أن أحقق رغبة والدي عن طريق الدراسة التي حتماً ستفيدني كثيراً، أما كمهنة فلا أحسب أنني سأنجح في ذلك، رغماً عن قناعتي المطلقة واحترامي الشديد لمهنتي القضاء والمحاماة**». قال لي: «**عموماً أنا ما زلتُ مصراً على رأيي في هذا الوسط الفني والإعلامي السيئ، لأنه وسطٌ مليءٌ بسوء الأخلاق**». قلتُ له: «**إذن لماذا نتركه يغرق في الخطيئة؟ أليس من واجبنا أن ننخرط فيه بغرض الإصلاح ووضع لبنات الحياة الفاضلة فيه؟**» قال لي: «**لا أحسب أنكم تستطيعون ذلك، فهذا وسط استعصى على من قبلكم إصلاحه**». عند هذا الحد توقفتُ عن الحوار

مع أخي التيجاني عمر، لأنني شعرتُ باستحالة إقناعه بالسماح لي بالعمل في الإذاعة. وتركته وذهبتُ إلى أخٍ آخر من أبناء عمومتي هو (**التيجاني عبد الله بدر**) الذي كان يعمل مديراً للمبيعات بمصنع جوالات البلاستيك بالخرطوم بحري. وكان وقتها من كبار الشيوعيين الذين تعقبتهم حكومة جعفر نميري بعد القضاء على حركة هاشم العطا في تموز يوليو 1972م لسجون مراراً، حتى خرج منها بأعجوبة. أخبرته بما دار بيني وبين أخي الأكبر التيجاني عمر فقال لي:

«في الواقع إن الأخ التيجاني ينطلق من حرصه على مصلحتك، وهو يعلم عن الأوساط الفنية والإعلامية أكثر مما تعلم. أما بخصوص عدم اقتناعه بأنك تستطيع الإسهام مع غيرك في إصلاح هذه الأوساط فإن التيجاني لم يكن موجوداً بالسودان طوال السنوات الماضية التي أكمل فيها جيلكم المرحلة الوسطى أو الثانوية لأنه ظلَّ بمصر لسنواتٍ عديدة. ولذلك فإن اختلاف وجهات النظر بينكما أمر طبيعي. وهذا شيءٌ يفرضه عدم تلاقح الأفكار بحكم البعد الجغرافي الذي يؤدي دائماً للبعد الوجداني. وعموماً لا تنزعج فسوف يتحقق لك ما تريد، فقط عليك أن تقنع التيجاني في المستقبل بأن اختيارك للإذاعة هو الاختيار الصحيح، وأنك يمكن أن تقود إصلاحاً من خلالها كما تقول». قلتُ له: **«سأفعل ذلك إن شاء الله، ولكني أريدك أن تساعدني في دخول**

الإذاعة، لأنني أجهل الطريق إليها، ولا أعرف بها أحداً». قال لي: «**في واقع الأمر أنا لا أعرف أحداً بالإذاعة، ولكنني أنصحك أن تذهب إلى السيد بابكر أحمد كابوس مساعد الوكيل بوزارة الثقافة والإعلام، فهذا رجل أعرفه تماماً، وهو شخصٌ ممتاز إذا لمس لديك موهبةً حقيقية فلن يتوانى في فتح القنوات أمامك، وإذا شعر بغير ذلك فلن يتردد في أن يقول لك إنك لا تصلح لهذا العمل**». قلتُ له: «**هذا هو الرجل الذي أريده**».

وبعد أسبوع من ذلك الحوار ذهبتُ إلى مكتب الأستاذ بابكر أحمد كابوس الذي كان يعمل وقتها وكيلاً بالإنابة لوزارة الثقافة والإعلام بعد أن أخبرني التيجاني بأنه اتصل به. لم يسمح لي السكرتير بالدخول، وإنما تسلم مني الطلب الذي سطرته بعناية فائقة لطلب وظيفة مذيع بالإذاعة. وقال لي السكرتير: «**سأقوم بتسليم طلبك إلى سيادته الآن، ويمكنك المرور علينا خلال الأسبوع القادم لتعرف النتيجة**».

جئتُ في الموعد المحدد لأسأل عن النتيجة، فأجابني السكرتير بأنْ أَمُرَّ عليه بعد أيام. وظللتُ أتردد عليه من وقت لآخر فيقول لي: «**لقد نظر الوكيل في طلبك، ولكنه لم يتخذ القرار بعد**». وبعد تكرار تلك الإجابة غضبتُ من ذلك السكرتير، وبدأت أشك في صحة ما يقول. وفي أحد الأيام خرجت من المنزل قاصداً وزارة الثقافة بعد أن حزمتُ أمري على ألا أسأل ذلك السكرتير وإنما أقتحم

المكتب وأسوي أموري بنفسي مع السيد كابوس. وصلتُ إلى المكتب، ولحسن حظي لم أجد ذلك السكرتير، فدخلت مباشرةً على سيادته دون استئذان. نظر إليّ الرجل باندهاش، خصوصاً وأنه لم يرني من قبل، وقال لي:

((**مرحباً ماذا تريد؟**)) قلتُ له: ((**أريد أن أعرف نتيجة الطلب الذي تقدمتُ به بخصوص التحاقي بالإذاعة**)). قال لي: ((**أي طلب؟ أنا لم أستلم أي طلب بهذا الخصوص، ثم إن طلبات التقديم للإذاعة لا تأتي إلى هذا المكتب، وإنما تذهب رأساً إلى إدارة الإذاعة بأم درمان**)).

قلتُ له: ((**إذن فإنني قد أصبحتُ ضحيةً لكذب هذا السكرتير الذي ظل يماطلني طوال الشهر الماضي بأنك قد نظرت في طلبي ولم تتخذ القرار بعد. وهاأنذا أكتشف بعد كل هذا الانتظار الطويل أنك لم تسمع حتى بهذا الطلب**))

قال لي: ((**ولكني قلتُ لك إنَّ طلبات التعيين يجب أن تقدم للإذاعة وليس لهذا المكتب**)). قلتُ له: ((**نعم يا سيدي، ولكن ما ذنبي أنا حتى أنتظر كل هذه الأسابيع بسبب تمويه السكرتير، ثم ما دامت الإذاعة تابعة لوزارة الثقافة والإعلام فلماذا لا تحسم لي الأمر هنا، خصوصاً وأنني قد أضعت زمناً طويلاً بالانتظار حتى لا أبدأ من نقطة الصفر مرةً أخرى؟**)). قال لي ((**ماذا تريد بالضبط؟**))

قلتُ له: ((**أريد أن أكون مذيعاً بإذاعة أم درمان، لأنني أحس بأن لدي رغبةً شديدة ومقدرة على هذه المهنة التي لن يهدأ لي بالٌ إن**

لم أحققها. فقد ظللتُ أحلم بها وأعد لها نفسي طوال سنوات العمر». ضحك الأستاذ كابوس من أعماقه وقال لي: «**تفضل يا بُني فإنني والله قد أعجبتُ بهذا الإصرار وهذه الشجاعة والثقة التي تتحدث بها. ولكن ألا ترى معي أنك ما زلت صغير السن على هذه المهنة الصعبة؟**» قلتُ له: «**كلا يا سيدي، فالإذاعة عملٌ إبداعي يحتاج إلى الموهبة الفنية، والموهبة لا تعرف الأعمار ولا التجارب. وروعة العمل الفني أن يبدأ في سنوات الصبا والشباب حتى يعطيه الإنسان كل طاقاته التي حباه اللهُ بها في هذه المرحلة. وأنا أشعر أنّ لديَّ موهبةً وطاقة لأداء هذا العمل، فقط أرجوكم أن تتيحوا لي الفرصة لإثبات ذلك**».

وسألني: «**من الذي دلَّكَ على الإذاعة؟**» فحكيتُ له كل تاريخي وحكاية المجلة التي سردتها في بداية هذا الكتاب. وفي الحال تناول التلفون وفوجئت به يقول: «**ألو، صالحين، مرحباً، معي هنا شابٌ تقدم للعمل بالإذاعة وله رغبة شديدة في أن يكون مذيعاً، وأنا أحسب أنه قد يصلح لهذا العمل من خلال حواري القصير معه الآن. عموماً سيأتي إليك، وأرجو أن تمتحنوه، وإذا نجح يمكنكم الاستفادة منه، وإلا فليس لدينا أي التزام نحوه**». ووضع الأستاذ كابوس سماعة التلفون وطلب مني أن أذهب في الحال للإذاعة لمقابلة مديرها الأستاذ محمد خوجلي صالحين. أحسستُ أن تلك أولي خطوات البداية. وشكرتُ الرجل على ذلك اللقاء الطيب وصافحته بحرارة

قائلاً: ((**ستجدني إن شاء الله عند حسن ظنك، ولن أخذلك ما حييت**)). ثم خرجت من مكتبه متوجهاً صوب الإذاعة. دخلت على مكتب الأستاذ صالحين، فهالني في بداية الأمر ضخامة صوته الذي ينبعث من المكتب فيسمعه كل المارة حتى في الطابق الأرضي للإذاعة. دخلتُ عليه فقال لي:

((**ما تفتكر أن عمل المذيع يعتمد على الزرائر الملونة والقمصان المزركشة، إذا نجحتَ في الامتحان وقبلناك هنا فلا بد أن تكون ملماً بكل علوم الدنيا**)). قلت له: ((**حاضر**)). قال لي: ((**سنمتحنك امتحاناً عسيراً لنرى إذا كنت تصلح أو لا تصلح**)). قلت له: ((**حاضر**)). قال لي:

((**حنجهجهك**)). قلت له: ((**حاضر**)). قال لي: ((**حنطَلّعْ روحك**)). قلتُ له: ((**حاضر**)). قال لي: ((**المذيع لا بد أن يكون معلماً للناس وليس باحثاً عن النجومية والشهرة فقط**)).

قلت له: ((**حاضر**)). قال: ((**هذه الإذاعة مثل البحر تماماً السمك الكبار فيها دائماً يأكل السمك الصغار**)). قلت له: ((**حاضر**)). قال لي: ((**اذهب بهذه الورقة إلى كبير المذيعين الأستاذ عباس بانقا ليحدد لك وقت الاختبار**)). قلتُ له: ((**حاضر**)). قال لي: ((**إنت إيه حكايتك كل شيء حاضر حاضر !!**)). قلتُ له: ((**إن هذه الإذاعة هي هوايتي منذ أن عرفت معنى الهواية، ولا أكاد أصدق أنني الآن أضع خطواتي على أولى عتباتها. ولذلك كل ما أتمناه الآن أن**

أجد نفسي مذيعاً بينكم». قال لي: «**حاضر**»، فضحكتُ من أعماقي وخرجت من مكتبه إلى مكتب كبير المذيعين. وجدت هناك عدداً من الأشخاص جالسين في مكتب كبير المذيعين لعلهم جاءوا للأستاذ عباس بانقا كبير المذيعين أو نائبه عبد الوهاب أحمد صالح. ولم أعرف منهم أحداً، فقال لي الأستاذ عباس بانقا: «**أنا مشغول جداً هذه الأيام، وأرجو أن تذهب للأستاذ عبد الوهاب أحمد صالح نائب كبير المذيعين لإجراء الاختبار لك**».

في تلك الأثناء قابلني المذيع (**ميرغني الرحمابي**)، وكنتُ قد تعرَّفتُ عليه أثناء تجوالي بين ردهات الإذاعة، فسألني: «**ماذا تم في أمر امتحانك؟**» قلتُ له: «**سأحضر لذلك يوم السبت القادم مع الأستاذ عبد الوهاب أحمد صالح**». قال لي: «**إني أحذرك أن تجلس للامتحان مع عبد الوهاب، لأنه رجل صعب ويستحيل أن ينجح عنده أحد. ولذا عليك مراجعة عباس بانقا ليقوم هو بإجراء الامتحان لك، وإلا فثق أنك لن تعمل بهذه الإذاعة**».

دارت برأسي الكثير من علامات الاستفهام والحيرة. ماذا أفعل وأنا إنسانٌ جديد على هذا الوسط، ولا حول لي ولا قوة. وأخيراً توكلتُ على الله وعزمتُ أن أجيء للاختبار في موعده المحدد مع الأستاذ عبد الوهاب أحمد صالح. وقررت أن أستجمع كل مواهبي ومقدراتي بغرض النجاح والظفر بلقب المذيع الذي هو حلمي الأول والأخير. وجئت في اليوم المحدد للامتحان، فأخذني الأستاذ عبد

الوهاب إلى أستوديو (E) بالطابق الأرضي. وكان معه الفني (**محمد نور عوض**) الذي قام بتسجيل الاختبار على الشريط كما يحدث دوماً في اختبارات المذيعين الجدد.

كان الاختبار عبارة عن قراءة نشرة أخبار قصيرة، وبعض الأبيات الشعرية وقصاصة من إحدى الصحف. ثم طرح عليَّ بعد ذلك العديد من الأسئلة المنوعة في قواعد اللغة العربية من نحوٍ وصرفٍ وبلاغة. ثم انتقل إلى المعلومات العامة التي تركزت معظمها على جغرافية السودان والأحداث السياسية العربية. وبعد الامتحان قال لي: «**ستُعلن النتيجةُ بعد أسبوع، ويمكنك معرفتها من مدير الإذاعة مباشرة**». انقضى الأسبوع الذي لم أر أطول منه في حياتي. حسبته يوماً بيوم، وساعةً بساعة، ولحظةً بلحظة. وجاء يوم النتائج، فتوجهت صوب الإذاعة، وصعدت السلم الخشبي الصغير الذي تعثرت فيه خطواتي عدة مراتٍ قاصداً مكتب المدير.

كان عدد كبيرٌ من المتقدمين للعمل الإذاعي قد دخلوا الامتحان، وينتظرون النتيجة مثلي. دخلتُ على مكتب السكرتير الخاص لصالحين واسمه عبد السيد حسين. وقد ظلَّ عبد السيد هذا سكرتيراً لصالحين طوال أيام إدارته للإذاعة، حيث لم يكن صالحين يؤمن بمبدأ السكرتيرات من النساء. وقفتُ أمامه وقلتُ له: «**إنني أريد مقابلة السيد المدير لمعرفة نتيجتي في امتحان المذيعين**». وكانت فرائصي ترتعد من شدة القلق والخوف من المجهول. لم

يسمح لي عبد السيد بالدخول إلى مكتب المدير. وبدلاً من ذلك تبرع بإعطائي النتيجة من رأسه دون الرجوع إلى الورق وقال: ((**للأسف لم يتم قبولك ضمن المذيعين الجدد**)).

لم أكد لحظتها أصدق أذني، ولم أقو على الوقوف على قدمي، وأحسستُ أن الدنيا كلها قد أظلمت في ناظري. وانتابني شعورٌ بالفتور لم أحسه من قبل. وتسمرت الكلماتُ في فمي. فالإذاعة هي الأمل الوحيد الذي لم أفكر يوماً في سواه، فما هذا الخبر المؤلم في هذا الصباح الحزين والمؤلم؟

وبينما أنا في تلك الدوامة التي اعترتني وعبد السيد ينظر إليَّ في إشفاقٍ واندهاش انفتح باب المدير فجأةً، وخرجت منه المذيعة الشهيرة محاسن سيف الدين التي لم أرها من قبل، رغم أنها من نفس المدينة التي جئتُ منها. وتحولت عيناي من عبد السيد إلى باب المكتب الذي انفتح فجأةً. رمقني صالحين من داخل مكتبه فناداني قائلاً: ((**تعال يا بقاري**)). لم أكن أحسب أن ذلك النداء يخصني لأنني لستُ من أبناء قبيلة البقارة. وتلفتُ يمنةً ويساراً وخلفاً وأماماً فلم أجد أحداً غيري، فقال لي صالحين: ((**نعم أنتَ تعال**)).

دخلتُ عليه أجرجر خطاي التي لم تقو على المسير من هول الصدمة والمفاجأة التي فجرها كلام عبد السيد معي. ووقفتُ أمام صالحين مذهولاً مما يدور بخاطري. نظر إليَّ باسماً وقال: ((**مبروك، لقد نجحت في الامتحان، وقررنا قبولك ضمن مجموعة المذيعين**

الجدد، ويمكنك أن تحضر شهاداتك غداً وتسلمها لعبد السيد حتى تكتمل إجراءات تعيينك». ومرةً أخرى سرت في داخلي أحاسيس لم أفهمها ولا أستطيع أن أصفها. تشابكت الكلمات في فمي وأنا أسأله: «**هل صحيحٌ أنني قد تمَّ قبولي عندكم مذيعاً بالإذاعة؟**» قال لي: «**نعم، وسيبدأ تدريبك فوراً مع بقية المذيعين الذين اجتازوا الامتحان**». قلتُ له: «**إذن ما هذا الذي قاله لي عبد السيد؟**». ونظرتُ إلى الخلف فإذا بعبد السيد يتابع حديث المدير معي فناداني قائلاً: «**إنتَ مُش إسمك عصام هينو؟**» قلتُ له: «**كلا فأنا اسمي عوض إبراهيم عوض**». قال لي: «**أنا آسف يا أخي، إفتكرتَ إسمك عصام هينو، لكن ألف مبروك، فأنت اسمك في أول قائمة المقبولين التي أمامي**».

يا الله، لقد تبدل الحزن في أقل من لمح البصر إلى فرح كبير. لم أعرف كيف أداري ذلك الإحساس الغامر الذي سرى في جسدي من قمة الرأس إلى أخمص القدمين. وهل سأقوى على كل هذه الأحاسيس المتضاربة التي تجمعت حولي في أقل من عشر دقائق. ودارت بخاطري آلاف التساؤلات، هل صحيحٌ أنني سأكون مذيعاً يا عبد السيد؟ قال نعم، بل وإنك تعتبر مذيعاً من الآن وما عليك إلا إحضار الأوراق لإكمال إجراءات التعيين. كما يمكنك أن تأتي بعد هذا بصورة منتظمة إلى الإذاعة حتى تتأقلم على جو العمل أثناء هذه الإجراءات. خرجتُ من مكتب المدير ونزلتُ درجات السلم التي

انزلقت فيها قدمي ثلاث مرات من فرط الفرح الغامر الذي اعتراني والذي فاض من قلبي على فمي فصرت أحيي كل من أرى. خرجتُ من باب الإذاعة المطل على نهر النيل قبالة المسرح القومي، وظللتُ أمشي على الرصيف المحاذي للنيل.

كان الجو صحواً في ذلك الصباح الشتائي الجميل. وزاده جمالاً ما يدور بداخلي من إحساس بالانتصار. وكنتُ أبتسم لكل من أراه في الطريق، وسرعان ما تتحول تلك الابتسامة إلى ضحكةٍ ليس لها ما يبررها. لم أركب سيارةً ولا حافلة وإنما آثرتُ المسير على قدمي لأمتع النفس بالتفكير في وضعي الجديد بعد أن تحقق الحلم الكبير. تصورتُ أن كل الناس الذين حولي يشيرون إليَّ بالبنان، ويقولون هذا هو المذيع عوض. كنتُ أغني بأعلى صوتي، ولم أحفل بالمارة الذين يمشون على جنبات الطريق.

وبدأت أقرأ بعض نشرات الأخبار التي نسجتها من خيالي مثل أيام المدرسة المتوسطة. وتصورت أنني داخل الأستوديو مع كبار المذيعين. تقمصتُ كل الذين عرفتهم بدءاً بعبد الوهاب أحمد صالح، ومروراً بعبد الرحمن أحمد وعمر الجزلي وعلم الدين حامد وحمدي بدر الدين وأحمد قباني ومحمد خوجلي صالحين وغيرهم. وفجأة وجدتُ نفسي أمام المنزل في حي السجانة بالخرطوم.

يا للهول، كيف مشيتُ كل هذه الأميال التي تقطعها السيارات بشق الأنفس، لستُ أدري. إنها خلجات النفس البشرية التي

لا تعرف المستحيل. وجدت نفسي أمام باب المنزل، ففتحته بفرحٍ غامر، واستلقيتُ على سريري أتأملُ في المستقبل الذي ينتظرني، وأجترُّ ذكريات الأيام الخوالي.

خطوات البداية مع ياسين مَعَنّيْ

لم يغمض لي جفنٌ طوال تلك الأيام. وأحضرتُ شهاداتي للإذاعة، وتم تعييني كمذيع تحت التدريب في صبيحة يوم الثامن من شهر أيار مايو عام 1975م. وألحقني الأستاذ صالحين بوحدة الأخبار الصوتية التي قد تأسست برئاسة الأستاذ (**حمزة مصطفى الشفيع**)، وقال لي: «**يمكنك أن تبقى في هذا القسم أثناء فترة التدريب، وبعد الانتهاء سيتقرر ما إذا كنتَ ستتحول إلى قسم المذيعين أم تبقى بالأخبار الصوتية**». لقد أسس الأستاذ حمزة هذه الوحدة، ووضع لها لبنات البداية، واستقطب لها عدداً من شباب الإذاعيين حتى أصبحت جزءاً من الإدارة السياسية التي أنشأها فيما بعد، ثم تخلى عنها لظروف التغيير التي شملت جميع هياكل الإذاعة في عامي 91، 1992م.

كان بوحدة الأخبار الصوتية في تلك الفترة الزملاء عبد المنعم إسماعيل شيبون، يعقوب الفضل، جمال السماني، حمزة فضل الله الذي تخلى عن العمل الإذاعي بعد حصوله على درجة البكلاريوس في الطب وانخرط في مجال العمل الطبي، على حمودة

الطاهر الذي ترك العمل الإذاعي ليدخل في مجال العمل الحر بمدينة أم درمان، عادل الطيب الذي ترك العمل الإذاعي وانتقل إلى كلية الشرطة التي تخرج فيها ضابطاً برتبة نقيب في أواخر عام 1978م، الصادق يحيى الذي ترك العمل الإذاعي وغادر السودان لدراسة هندسة الطيران ثم التحق بشركة الخطوط الجوية السودانية ليصبح واحداً من مهندسيها الكبار.

ثم جاء بعد ذلك عبد الحميد إبراهيم، ووفاء أبارو، وكرم الله حسين، وعاطف أحمد الذي سافر إلى الاتحاد السوفيتي للالتحاق بإحدى جامعاته، وعبد القيوم عاشميق. لقد كان لي شرف العمل مع معظم هؤلاء الشباب بوحدة الأخبار الصوتية في أول أيام التحاقي بالإذاعة. وبقيتُ هناك لمدة الأشهر الستة الأولى من عملي والتي كنتُ أحضر خلالها دورات التدريب اليومية مع الزملاء على يد الأستاذ (**ياسين حسن مَعَنِّيْ**).

وللحقيقة شعرت بالحزن في البداية عندما تم وضعي بتلك الوحدة دون الزملاء الجدد الذين انضموا لمكتب المذيعين. إلا أن الأستاذ حمزة الشفيع قد أقنعني بأن ذلك الوضع أفضل كثيراً بالنسبة لي من حيث أنه سيتيح لي فرص التعلم وممارسة العمل الإذاعي الحقيقي قبل بقية الزملاء. وذلك لأن طبيعة تلك الوحدة تقتضي أن نجري الحوارات، ونعد فقراتٍ صوتية لبرنامج عرض الصباح وهكذا. في حين سيظل الزملاء الذين ذهبوا لقسم المذيعين

مباشرة مجرد مراقبين أو مستمعين طوال فترة التدريب. اقتنعت بكلام الأستاذ حمزة، خصوصاً وأنَّ الأستاذ صالحين قد أكده لي في أول جولةٍ زارنا فيها بوحدة الأخبار الصوتية بعد التحاقي بها. وكان مدربنا هو الأستاذ ياسين مَعَنِّيْ أحد كبار الإذاعيين الذين وضعوا لبنات العمل الإذاعي بالسودان. وظل قارئاً للأخبار، ومقدماً للبرامج على مدى عقودٍ من الزمان، ثم تخلى عن العمل الإذاعي وتفرغ للعمل الإداري بمحافظة الخرطوم. ثم ترك كل ذلك ليبقى بمنزله في السنوات الأخيرة. ونسبةً لما له من خبرةٍ طويلة وثقافة وإلمامٍ عريض بهذا المجال فقد تعاقدت معه الإذاعة على تدريب المذيعين الجدد في ذلك العام. والتدريب الإذاعي هو الخطوة الأولى التي تسبق نزول المذيع إلى الميكروفون. وهو المحك الذي تتحدد بعده صلاحية المذيع أو عدمها، حيث يعقبه امتحان شامل لتصفية الدارسين، فيبقى من يصلح بقسم المذيعين ويتحول الباقون إلى أقسام أخرى حسب صلاحية كُلٍ منهم وقُدراته. وبدأت جلسات التدريب المكثف والمحاضرات مع الأستاذ ياسين مَعَنِّيْ، الذي كان في غاية الالتزام والانضباط.

كنا إثني عشر إذاعياً جديداً هم (**إسحق عثمان، محمد الفاتح السموأل، حسن سليمان، عبد العظيم عوض، علي سلطان، إكرام الصادق، عباس ساتي، عوض إبراهيم عوض، عبد المنعم الكتيابي، أحمد عبد الله حنقة، عصام الدين أحمد سعيد، وإلهام عبد**

الرحمن). وكانت أيام التدريب تنقسم إلى قسمين أحدهما نظري والآخر عملي. وكان التدريب النظري عبارة عن محاضرات ودروس في فنون العمل الإذاعي والأداء الصوتي والتحرير وقراءة الأخبار وإجراء المقابلات. في حين كان الجانب الثاني هو تطبيق هذه الدروس عملياً من داخل الأستوديو.

كان معظم التدريب العملي يتمثل في قراءة نشرات الأخبار والمواد الجادة كالتعليقات السياسية والتحليلات، وأقوال الصحف، وما إلى ذلك. وكان الأستاذ ياسين يُحضر إلينا مجموعةً من أوراق الأخبار التي يأخذها من أرشيف قسم الأخبار بالإذاعة لنقوم بقراءتها. وكان كثيراً ما ينتقد أسلوب تحرير تلك الأخبار وأخطاء الصياغة والأخطاء النحوية أو المطبعية التي تصاحبها. ثم يقوم بتصحيح تلك الأخبار ويضع لها البدائل الصحيحة، مما عمق فينا الحس النقدي والتقويمي منذ تلك الفترة المبكرة من عملنا بالإذاعة.

بعد ذلك يبدأ كل واحد من المتدربين في قراءة ما لديه من أخبار أمام بقية الزملاء الذين يجلسون حول طاولةٍ دائريةٍ كبيرة، لتسهل علينا متابعة بعضنا البعض أثناء القراءة. وكان المطلوب من كل واحد أن يلاحظ أخطاء زملائه ويدونها في دفتره لنقوم بمناقشتها بعد الانتهاء من القراءة. كانت تلك الفترة مليئةً بالطرائف لا سيما عندما يكون دور القراءة على الزميل (**أحمد عبد**

الله حنقة)، حيث إنه دائماً يجد في أخباره التي يأخذها عشوائياً خبراً فيه كلمة نيو يورك New York المدينة الأمريكية الشهيرة وهو لا يقدر على نطقها حيث يقول (نيور يورك) ويضحك الجميع، ويصر الأستاذ ياسين مَعَنِّيْ على حنقة أن يقرأ هذه الكلمة صحيحةً، فيعيدها حنقة مراتٍ ومرات، فلا تأتي إلا (نيور يورك).

وظل هذا الأمر يتكرر دائماً حتى انتهينا من فترة التدريب. وكان الأستاذ ياسين يقول له: «**يا حنقة إذا لم تقرأها صحيحةً فالأفضل لك أن تبحث عن عملٍ آخر غير هذا**»، وبالفعل فقد مكث حنقة فترةً قصيرةً بالإذاعة ثم تحول إلى العمل الصحفي الذي حقق فيه نجاحاً كبيراً حتى أصبح مديراً لمكتب صحيفة الأنباء الكويتية بالخرطوم ومن هناك انخرط في العمل الحر الذي حقق منه أموالاً طائلة تقدر بالملايين. استمر الأستاذ (**ياسين مَعَنِّيْ**) في التدريب لفترة من الزمن وأجرى الاختبارات اللازمة للمذيعين، ثم توقف بحكم أنه كان أساساً خارج الإذاعة في تلك الفترة وقد جاء بدعوة من المدير (**محمد خوجلي صالحين**) لتدريبنا.

وكانت الإذاعة قد طلبت منه في تلك الفترة أن يسجل برنامجاً سياسياً هو عبارة عن قراءات لكتاب (**جعفر نميري الرجل والتحدي**) الذي أعده الصحفي المصري (**عادل رضا**)، وهو كتاب حوى الكثير عن شخصية نميري. وقد استقى عادل رضا مادته بشكلٍ أساسي من الأستاذ محمد محجوب سليمان السكرتير الصحفي

للرئيس نميري. طلب الأستاذ ياسين من الزميل (**عبد العظيم عوض**) الذي كان يتدرب معنا أن يسجل له شعار البرنامج بصوته فأحسسنا بسرور بالغ أن يكون من بيننا مَنْ يسجل شعاراً لبرنامج يُفترض فيه أن يكون مهماً وكبيراً لأنه عن رئيس الجمهورية. وكانت تلك بمثابة الشهادة والضوء الأخضر لمجموعتنا بالانخراط في مجال العمل الفعلي. وظللنا نستمع للبرنامج يومياً لمتابعة صوت عبد العظيم.

أحمد قباني يواصل التدريب

بعد انتهاء فترة الأستاذ ياسين مَعَنِّيْ تعاقد الأستاذ محمد خوجلي صالحين مع الإذاعي القدير الأستاذ (**أحمد قباني**) ليكمل تدريب المجموعة الذي لم يبق له سوى شهرٍ واحد لنبدأ بعده دخول الأستوديوهات والظهور عبر ميكروفون الإذاعة. كان اختيار الأستاذ أحمد قباني للتدريب مصدر فخرٍ للجميع بحكم أنه من الإذاعيين المتميزين خصوصاً عندما كان يقرأ نشرة أخبار الساعة العاشرة من صباح يوم الجمعة على مدى أكثر من عشر سنوات.

كان الجميع يتابعونه بشغف شديد وهم غارقون في تموجات صوته الأخاذ الذي ينبعث من أعماقه ليعانق أسماع الملايين من معجبيه. تمَّ التعاقد مع أحمد قباني ليُكمل تدريب المذيعين الجدد مقابل ألف جنيه كانت مبلغاً كبيراً من المال وقتها. وكان الأستاذ

قباني يعمل وقتها بدولة رومانيا التي سافر إليها في النصف الأول من السبعينات بغرض الدراسة في معهد السينما ببوخارست. وقد صور فيلماً سينمائياً مع فريق من الممثلين الرومان لعب فيه دور أحد العبيد في رواية تاريخية. ولما أبدى له البعض امتعاضهم من ذلك الدور الذي قام به في الفيلم قال لهم: ((**هل تتوقعون أن أكون إمبراطوراً رومانياً وأنا بهذا اللون**)).

كان أحمد قباني مدرسةً قائمةً بذاتها في فنون الإذاعة، له أسلوبه الخاص وبصماته المميزة في كل ما قدمه من برامج بدأت في أوائل الستينيات وانتهت بتركه للعمل وخروجه من السودان مع زوجته الإذاعية القديرة عفاف صفوت حيث هاجر إلى العراق وانخرط في صفوف حزب البعث العربي الاشتراكي حتى أصبح مديراً لمؤسسة السينما بالعراق ثم عاجلته المنية بعد ذلك في النصف الثاني من عقد التسعينات.

استمر أحمد قباني في إجراء التدريات المتبقية، ثم بعد ثلاثة أسابيع أصدر أمراً بأن يبدأ بعض المتدربين النزول للمايكرفون وهما شخصي الذي تقرر له أن يبدأ بإجراء المقابلات الإذاعية والزميلة (**إكرام الصادق**) التي اختار لها الأستاذ أحمد أن تبدأ بتقديم برنامج الإذاعة والمستمع مع الأستاذ (**صالح محمد صالح**) الذي أصبح مديراً للإذاعة فيما بعد والذي كان يُعد البرنامج ويقدمه في ذلك الحين. كان ذلك القرار مصدر سعد وطمأنينة لأنه يُعتبر

تتويجاً للجهد الذي بذلناه في أيام التدريب واعترافاً باجتياز المرحلة وبداية العمل الفعلي. بعد ذلك نزلنا مع بقية الزملاء لنعمل في مجال الربط بالأستديو ثم قراءة الأخبار المحلية ثم نشرات الأخبار الرئيسية. وكان الزميل (**حسن سليمان**) أول من قرأ نشرةً للأخبار في مجموعتنا وهي نشرة الساعة الثانية عشرة إلا ربعاً ليلاً حين اعتذر عنها الزميل الراحل (**كمال محمد الطيب**).

ذهبت للأستاذ حمزة مصطفى الشفيع قبيل انتهاء التدريب وأخبرته بأن الأستاذ أحمد قباني قد أجازني لتسجيل المقابلات الإذاعية وبذلك أعتقد أنني قد تجاوزت مرحلة التدريب ولابد لي من الانتقال إلى قسم المذيعين لبداية مرحلة جديدة من العمل الإذاعي.

قال لي حمزة: ((**في الواقع أنا أريدك أن تنتقل إلى قسم المذيعين لأن هذه رغبتك واختيارك، ولكنني أريدك أن تبقى معنا لفترة أخرى حتى نكمل إجراء بعض المقابلات والتقارير التي بدأناها، ثم تنتقل إلى قسم المذيعين خصوصاً وأنَّ تدريب زملائك الآخرين لم يكتمل بعد**)).

أحسست بشيء من التردد، ولكني قبلت اقتراح حمزة الذي لم يكن بمقدوري أن أرد له طلباً، فهو الذي أعطاني الثقة بالنفس وعلمني أبجديات الخروج بميكروفون الإذاعة لتسجيل التقارير الصوتية، مما جعلني أزداد ثقةً في العمل رغم مصاعب البداية.

حملتُ جهاز التسجيل وتوجهتُ إلى جامعة أم درمان الإسلامية حيث أجريتُ أول لقاءٍ إذاعي في حياتي مع البروفيسور (**كامل الباقر**) مدير الجامعة. وكان ذلك في صبيحة اليوم الثامن من شهر تموز يوليو عام 1975م أي بعد شهرين من التحاقي بالإذاعة. والطريفُ في الأمر أنني كنتُ شغوفاً بإظهار إسمي من خلال الراديو وأردتُ أن يعرف الجميع أنني قد صرتُ مذيعاً، فكتبتُ اسمي في ورقةٍ صغيرة وضعتها أمامه وقلتُ له: «**هذا هو اسمي إذا احتجتَ إليه أثناء التسجيل**».

فهم البروفيسور ما أرمي إليه وابتسم قائلاً: «**هل أنت مذيعٌ جديد؟**» فأجبته بنعم. وما أن بدأ الحوار حتى قال: «**أشكر الأخ المذيع عوض إبراهيم عوض على إتاحة هذه الفرصة..**» واستمر يردد اسمي كلما وجد لذلك موضعاً في حديثه الذي استمر زهاء العشرين دقيقة. عدتُ للإذاعة وسلمتُ الشريط للأستاذ حمزة الشفيع الذي أدخلني معه أستوديو (B) لسماع المقابلة ونقلها على شريط مغنطيسي من شريط الكاسيت بغرض إذاعتها في برنامج عرض الصباح. وفجأة أوقف حمزة الشريط وقال لي: «**إيه العبث دا؟ هل تريد أن تُفصل من هذه الإذاعة؟ كيف تذكر إسمك ستَّ مرات في لقاء لا يتجاوز العشرين دقيقة؟**»

اضطربت أوصالي من ذلك الحديث الصعب الذي ما تصورت أنني سأسمعه. وفجأةً خفف الأستاذ حمزة من لهجته وقال

لي: ((**إذا كنت تريد النجاح فلا تتعجل الشهرة التي سوف تأتيك لا محالة**)). وقام بمسح جميع عبارات الشكر التي تضمنت اسمي. وأذيع الشريط دون أن أظفر بنشر اسمي في أول عملٍ لي بالإذاعة ولكني وعيتُ الدرس تماماً بعد ذلك.

ثم سجلت اللقاء الثاني وكان من داخل الاتحاد الاشتراكي السوداني مع السيدة (**آمنة خير الله**) عضو أمانة المرأة التي استضفتها في يوم 10 تموز يوليو عام 1975م. والطريف أنها سألتني قبل اللقاء عن اسمي لتشكرني فتذكرت حديث حمزة وقلت لها: ((**لا داعي لذلك لأن اللقاء قصير ولا يتجاوز العشر دقائق**)).

بعد ذلك تم توزيع مجموعتنا على الأقسام فذهبت إلى قسم المذيعين مع الزملاء حسن سليمان، إسحق عثمان، على سلطان، محمد الفاتح السموأل، عبد العظيم عوض وإكرام الصادق. وذهب عباس ساتي وأحمد عبد الله حنقه إلى قسم المنوعات، وإلهام عبد الرحمن إلى القسم السياسي وعصام الدين أحمد سعيد ناصر إلى شئون الموظفين ثم بعد ذلك انتقل إلى إذاعة صوت الأمة عند إنشائها، أما عبد المنعم الكتيابي فقد عاد إلى مكتب إعلام عطبرة الذي جاء منه لحضور التدريب.

انخرطنا في سلك العمل من خلال وضعنا في جدول المذيعين. كانت جداولنا في البداية تتراوح ما بين فترة الصباح من العاشرة إلى الثانية وفترة الليل من الثامنة والنصف حتى ختام

الإرسال. وقد عرف الناس أصواتنا بشكل مكثف حيث كنا نحرص على الحضور يومياً للإذاعة متصيدين أي فرصةٍ للتحدث من خلال الميكروفون ولم نشعر بإعياء أو تعب.

كان من حسن حظي عندما التحقتُ بالإذاعة في أول سنوات البداية أن كانت بها بعض العناصر الشابة المبدعة والمخلصة التي تعلمنا منها كل فنون العمل وأساليبه. وكنتُ من الذين أسعدهم الحظ برعايةٍ خاصة من الأستاذين (**صلاح الدين الفاضل**) و(**ليلى المغربي**). كنتُ قد التقيت بالأستاذ صلاح لأول مرة في مسرح الفنون الشعبية بأم درمان حيث كان يقدم عرض التخريج من معهد الموسيقى والمسرح لمسرحيته (**ستة شخصيات تبحث عن مؤلف**) وكان وقتها يتأهب للتخرج من معهد الموسيقى والمسرح بقسم الدراما الذي عمل فيه بعد ذلك محاضراً غير متفرغ. كان صلاح إلى جانب دوره كمخرج للنص ممثلاً في أحد أدواره البطولية.

وكان أول ما لفت انتباهي أنه يؤدي دوره من وسط الجمهور وليس على الخشبة حيث يفاجئ الجميع أثناء العرض حينما تُسلط عليه الأضواء الكاشفة من وسط المشاهدين فيتحدث بصوتٍ عالٍ كأنه خارج النص ثم يتحرك تدريجياً نحو الخشبة التي ما أن يصعد إليها حتى يكون نصف دوره قد انتهى في ذلك المشهد. وصفق الجمهور لتلك اللفته البارعة والجديدة على مسرحنا السوداني. قابلت الأستاذ صلاح الدين الفاضل بعد العرض وهنأته على ذلك

النجاح المتفرد وأخبرته بأنني أرغب في العمل بالإذاعة وأنني أقوم بإكمال الإجراءات اللازمة في هذه الأيام حيث أتردد على الوزارة والإذاعة كثيراً. رحب بي صلاح وقال لي ستحقق ما تصبو إليه لأنك رجل فنان، ولم يزد على ذلك. وبعد اكتمال إجراءات تعيني بالإذاعة دخلتُ على الأستاذ صلاح في أستوديو خليل فرح فوجدت معه الأستاذة (**ليلى المغربي**) وكانا يسجلان برنامج أصداء. شدّني صلاح من شعر رأسي وقال لي: «**خلاص إنتَ دخلتَ الإذاعة وأصبحتَ مذيع، أجلس على هذا الكرسي لتتعلم**».

كانت تلك أول دعوة أتلقاها لتعلم العمل الذي سعيتُ إليه بنفسي فجلستُ كالتلميذ الصغير أنظر تارةً لصلاح وتارةً لليلى وأتأمل الأستوديو من سقفه إلى البلاط ولا أكاد أصدق أنني قد صرتُ واحداً من هذا الكيان البديع وهذا النسيج الفنان. ومنذ تلك اللحظة نشأت صداقةٌ حميمة بيني وبين الأستاذ صلاح والراحلة العظيمة ليلى المغربي التي كان رحيلها فاجعةً لم أتمالك النفس تجاهها وأنا بعيدٌ عن أرض الوطن.

كانت ليلى إنساناً متفرداً في عنايتها بي كمذيعٍ ناشئ وكانت تدعوني لتسجيل جميع حلقات برنامجها (**أصداء**) الذي يصادف تسجيله أيام الجمعة دائماً ويذاعُ في الجمعة التي تليها. وفي إحدى المرات طلبتْ مني ليلى أن أكتب لها موضوعاً قصيراً لتقدمه ضمن فقرات برنامج أصداء فكتبته وكانت دهشتي أن قرأته كاملاً

بلا تعديل مما زادني ثقةً بمقدرتي على الكتابة. وظلتْ تستكتبني مراتٍ ومرات حتى فاجأتني يوماً بدعوتها لي للتسجيل معها بصوتي من داخل الأستديو.

كان واضحاً أنها أرادت أن تعلمني العمل الإذاعي بذلك الأسلوب الراقي وهو الذي عهدناه عنها طوال عملنا بالإذاعة. ثم رويداً رويداً بدأت تشركني في ذلك البرنامج بجرعاتٍ أكبر حتى تركَتْه لي برمته في عام 1977م لأقوم بإعداده وتقديمه عندما سافرت للالتحاق بزوجها في الولايات المتحدة الأمريكية. أصبحت مجموعتنا أكثر التصاقاً بالميكرفون، وازدادت ثقة الإذاعة فينا حيث أُسندت إلينا العديد من البرامج ونشرات الأخبار الرئيسية. وبدأنا نجرى المقابلات الإذاعية بمختلف أشكالها ونسافر ضمن الوفود الإذاعية لعمل التغطيات خارج العاصمة. والتصقنا بالمستمعين بشكلٍ أكبر حتى أصبحنا لا نبرح الإذاعة.

وبعد فترةٍ وجيزة من ذلك بدأت كل الصحف والمجلات تكتب عنا خصوصاً الأستاذ الصحفي (**ميرغني البكري**) الذي كان أول من تحدث عنا وتنبأ لنا بمستقبلٍ زاهرٍ من خلال مجلة الإذاعة والتلفزيون الأسبوعية. وقد جاءني بالأستديو ومعه مصور المجلة والتقط لي صورة بالأستديو لأول يوم أقرأ فيه نشرة أخبار. وهي الصورة التي اخترتها لتكون في صفحة غلاف هذا الكتاب لدلالتها ورمزيتها الكبيرة التي تعنيها بالنسبة لي. وانخرطنا بعد تلك

المرحلة في المناسبات العامة حيث أصبحنا نشارك المواطنين العديد من مناسباتهم الخاصة والعامة. وانهالت علينا الخطاباتُ من كل بقاع السودان بعضها يهنئ بأدائنا وبعضها يُشيد بأصواتنا وبعضها يُرشدنا إلى الطريق السليم. كانت أهمُ رسالة أتسلمُها في تلك المرحلة من البروفيسور (**يوسف بدري**) عميد كلية الأحفاد الجامعية التي دبجها بأجمل عبارات الإطراء والتوجيه لي في مسار العمل. وقد ذهبتُ إليه مراراً في داره الملاصقة لكلية الأحفاد بمدينة أم درمان وشكرته على تلك الرسالة والتوجيهات المفيدة.

رسالة من عيسى ابن مريم

في يوم من الأيام ونحن ما زلنا نُسمى بالمذيعين الجدد وصلت إليَّ رسالةٌ بالبريد، وعندما فتحتها وجدتُها تقول:

الأخ المذيع عوض إبراهيم عوض،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، كما تعلم أخي عوض فإنَّ الله أنزل رسوله محمداً خاتماً للأنبياء ووعد بمجيء عيسى في آخر الزمان ليحكم بكتاب الله وهاهو وعد الله قد أُنجز وأنا عيسى أبن مريم شاء لي القدر أن أُبعثَ في أرض السودان ومنها إلى بلاد العالم أجمع. وقد بدأت الدعوة سراً لمؤازرة الحق، فحدث من معك ليتبعوني إن أرادوا خلاصاً وستصلك الرسائل تباعاً للإسهام في نشر

هذه الدعوة. وأرجو أن تبلغ تحياتي للمذيعة اللامعة ليلى المغربي فأنا معجب بصوتها كل الإعجاب.

إمضاء عيسى بن مريم

كِدتُ أن آخُذَ تلك الرسالةَ مأخذ الجد لولا ختامها، وقلت للزميلة ليلى المغربي لقد تسلمتُ هذه الرسالة بإمضاء عيسى بن مريم وهو معجب بصوتك حتى الثمالة، فقالت لي: ((**إنني قد تسلمتُ مثل هذه الرسالة عشرات المرات**)).

وبعد أيامٍ وصلت إليَّ رسالةً أخرى من مستمعة في ود مدني اسمها أسمهان قالت فيها بالحرف الواحد: ((**إنني من المعجبين إلى حد الثمالة بصوتك الأخاذ وأدائك الجميل وقررتُ أن أكون شريكة حياتك، وإذا لم تتقدم لأهلي وتخطبني فسوف أنتحر في صباح اليوم الأول من شهر أغسطس القادم**)).

وطرحتُ تلك الرسالة على الزميل والصديق المطرب (**الطيب عبد الله**) الذي كان يعمل معنا وقتها بالإذاعة وكان مكتبه مجاوراً لمكتبي آنذاك، فقال لي: ((**إذا انشغلت بمثل هذه الرسائل فإنك حتماً ستصاب بالجنون فدعها لشأنها وواصل مشوارك**)).

بعد فترة وجيزة من نزولنا الميكروفون طلب مني قسم المنوعات أن أجرى حواراً فنياً مع مطرب ناشئ اسمه فتحي حسن.

وأجريتُ اللقاء بالفعل حيث غني ذلك المطرب عدداً من أغنياته الخاصة وبعض الأغنيات المسموعة وفي ختام اللقاء قلتُ على سبيل التشجيع والمجاملة: «**أرجو من الإخوة المستمعين أن يشاركونا برأيهم حول هذا الصوت الجديد، وإذا كانت هناك أي مقترحات أو توصيات لمساره الفني فمرحباً بها**»، وانتهى اللقاء.

وفي صبيحة اليوم الرابع من بث اللقاء على الهواء تسلمتُ أكثر من مائة رسالة في بريد واحد وفتحتها فإذا بها جميعاً تقول: (*استجابةً لطلبكم بالمشاركة برأي المستعين حول المطرب الناشئ فتحي حسن فإننا نقول إنه أعظم صوتٍ مر على السودان حتى اليوم ونرجو إجراء المزيد من اللقاءات الفنية معه والسماح له بتسجيل كل أعماله الفنية بالإذاعة*).

كانت كل رسالة تحمل توقيعاً مختلفاً مثل رابطة مستمعي الإذاعة بالقماير، أبناء الدناقلة بالفاشر، اتحاد الحرفيين ببورتسودان وهكذا.. ونسي مرسل تلك الرسائل أن يغير الخط حيث جاءت جميعاً بنفس الخط ونفس الأسلوب ونفس الورق ونفس الظروف، بل ونسى أن يوزعها على مكاتب بريد مختلفة فجاءت جميعاً تحمل ختم بريد أم درمان ونفس التاريخ. الشيء الوحيد الذي لم ينسه الكاتب هو الأسماء والعناوين، حيث جاءت كل رسالةٍ تحمل اسماً كاملاً لأحد الأشخاص مختلفاً عن الآخرين وعنواناً مختلفاً. واستدعاني مدير الإذاعة الأستاذ محمد خوجلي صالحين

إلى مكتبه حيث بعث إليَّ سكرتيره عبد السيد حسين، وهي عادة صالحين عندما يريد أمراً من أحد، فإما أن يبعث عبد السيد أو العم عوض الحسين الذي ظلَّ ساعياً بالإذاعة طوال سنوات صالحين ومن أعقبه من المديرين. ولما ذهبتُ إليه وجدتُ أمامه عشرات الرسائل مثلها، وكانت جميعها تدعو لاستضافة ذلك النجم الصارخ مراراً وتكراراً بالإذاعة. فقال لي صالحين: ((**ما رأيك في هذه الرسائل؟**)). قلتُ له: ((**لقد استلمت اليوم نفس هذا العدد من الرسائل أو أكثر منه**)). فقال صالحين: ((**وما رأيك في هذا الأمر؟**)) قلتُ له: ((**أعتقد أنَّ المسألة أوضح من الشمس، وهي أنَّ هذا المطرب أراد أن يخلق لنفسه دعايةً ورواجاً بهذا الأسلوب المكشوف**)). فقال لي صالحين: ((**أرجو أن تذهب الآن إلى رئيس قسم المنوعات وتخبره أنَّ هذه هي آخر مرة يدخل فيها هذا المطرب بابَ الإذاعة**)).

وذهبت إلى رئيس القسم الأستاذ (**السر محمد عوض**) وأخبرته بذلك، فكانت البداية والنهاية لذلك الصوت الذي ما سمعت به بعد ذلك اليوم. بقيت ملاحظة صغيرة أود تسطيرها هنا وهي ألا يخلط القارئ بينه وبين المطرب المعروف (**فتحي حسين**) صاحب أغنية (**العزيزة**) للشاعر الرقيق (**سعد الدين إبراهيم**).



الفصل الثاني

أحداث على الطريق

الفصل الثاني

﴿أحداث على الطريق﴾

* * *

انقلاب المقدم حسن حسين

في صبيحة الجمعة الخامس من أيلول سبتمبر عام 1975م كان مقرراً أن أذهب إلى الإذاعة في الصباح الباكر لتسجيل حوارٍ مع السيد (**كامل محجوب**) أمين الفكر والدعوة بالاتحاد الاشتراكي السوداني، وصحوت كعادتي عند الفجر وذهبتُ إلى المصلي الصغير بالقرب من منزلنا بحي السجانة وهو يُطلُّ على شارع الحرية الشهير الذي يربط كل جنوب الخرطوم بشمالها.

وبعد صلاة الفجر خرجنا نتجاذب أطراف الحديث مع بعض الأصدقاء أمام المسجد. وفجأةً خرج علينا أحدهم من منزله يحمل جهاز راديو صغير وقال: «**حدث انقلاب في الحكومة**». التف الجميعُ حوله بسرعة، وكان الأمر واضحاً، حيثُ بدأت الإذاعة في بث المارشات والموسيقى العسكرية.

كان المفروض أن أكون بالإذاعة في الساعة الثامنة صباحاً، وكانت الإذاعة قد بدأت إرسالها كالعادة في الساعة السادسة صباحاً وليس بها غير المارشات العسكرية وصوت الزميل (**كمال

محمد الطيب) يقول: «**أيها المواطنون سيذيع عليكم المقدم حسن حسين عثمان بياناً هاماً بعد قليل فترقبوه**». وبعد لحظات تقاطرت جموعٌ غفيرة من المواطنين إلى الشارع، وتعالت الأصوات التي امتزج بنبراتها شيءٌ من الخوف والفرح والترقب كعادة أهل السودان في مثل هذه المناسبات. لم أجد سيارةً تقلني إلى الإذاعة رغم أنني كنتُ على أهبة الاستعداد لذلك. ووقفت بالشارع مع جموع المواطنين أنتظر ما تسفر عنه الأحداث، وكنتُ أحمل في يدي جهاز راديو وتسجيل من طراز ناشيونال كنتُ قد اشتريته قبل أيام قليلة من وقوع الانقلاب.

كان معظم الناس متلهفين لسماع بيان عسكري بأي شكلٍ من الأشكال، حيث إن معظمهم قد ضاق بالتوجهات المتناقضة لحكومة مايو خلال سنواتها الخمس الأولى. ولكن لم يجرؤ أحد على الإفصاح عمّا في نفسه مخافة أن تكون النتيجة شيئاً مخالفاً لتوجهات الشارع في تلك اللحظات. وبعد حوالي ساعة من سماع المارشات العسكرية والتكهنات واللغط الذي ملأ الشارع قال الزميل كمال محمد الطيب:

«**أيها المواطنون إليكم البيان الهام الذي يقدمه المقدم حسن حسين عثمان**». وضغطتُ على زر التسجيل لأسجل بيان المقدم حسن حسين الذي جاء نصه كما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، هو الأول والآخر والذي به وحده النصر والذي هو وحده من قبل ومن بعد، أيها المواطنون السلام عليكم ورحمة الله أجمعين وبعد، حين قامت ثورة مايو وعدت الناس بالحرية وبالعدل وبالوحدة الوطنية وبالاستقرار والبناء والرخاء فكان نصيب الحرية في مهدها القهر والاضطهاد منذ البداية فصادرت حرية الفكر والتعليم وأممت الصحف وأغلقت الجامعة الإسلامية وأغلقت منابر الحرية في جامعة الخرطوم في الوقت الذي أطلقت فيه أيدي الانتهازيين الفاسدين والعملاء والسفهاء. سقط المخلصون المجاهدون ضد الاستعمار وفي سبيل استقلال البلاد سقطوا جماعاتٍ جماعاتْ وظلت السجون وما تزال ممتلئةً بأخيار الناس وتحولت بذلك جمهورية السودان الديمقراطية إلى دولة جواسيس بوليسية لا يفصح الناس عن شكواهم إلا بعد التلفت وفي غير أمن كما صودرت حرية المواطنين السياسية وصودرت كذلك أموالهم وشردوا من أعمالهم حتى ملأوا الآفاق وأُزهقت أرواحهم ودُفنوا أمواتاً ووري التراب أحياناً عليهم. ولم تترك الثورة المشئومة دعامةً للعدل إلا وهدمتها واضطهدت وقهرت المواطنين في أنحاء السودان المختلفة وأعلنت بذلك أنها حققت الوحدة الوطنية. وحين امتدت أيدي إخواننا الجنوبيين إلى الشمال لم تمد لها الثورة المشئومة أيادٍ مرفوعةً لتصافحها بل مدت إليها أيادٍ قذرة مرتعشة

ملطخة بالدماء ثم أحالت تلك الثورة المشئومة ما كان يرجى من استقلال إلى فوضى واضطراب غرقت فيه أجهزة الحكم جميعاً واكتسحت موجاته العاتية حرمة القضاء وتماسك البوليس وكرامة الخدمة المدنية وغزت صفوف الجيش وأفقدته صفته اللازمة في ربطه وانضباطه وأفسدت أجهزة العلم والتربية ثم صادرت أموال الناس واغتصبتها وجمعت الضرائب حتى من أفواه الجائعين وبعثرت كل ذلك جميعاً متعاً على موائد احتفالاتها التي لا تنقطع ورشاوى لسدنتها وجواسيسها وعملائها حتى عم الفساد قواعدها وكياناتها وحل الشقاء والغلاء محل وجود الرخاء وصادقت قوانينها على ذلك في ضلال. وكنا لهم بالمرصاد ولم يسمعوا لنصحٍ واستكبروا استكباراً. أيها الشعب السوداني الكريم نيابةً عنكم آمر بالآتي:

- أولاً حلَّ الاتحاد الاشتراكي
- ثانياً حلَّ مجلس الشعب
- ثالثاً حلَّ مجلس الوزراء
- رابعاً حلَّ جهاز الأمن القومي
- خامساً حلَّ جهاز توتو كورة

ونيابةً عنكم آمر بالإفراج فوراً عن جميع المعتقلين السياسيين في السجون. أيها الشعب السوداني مبادؤنا التي أقدمها لتلتزموا بها وتلتفوا حولها هي:

- أولاً استقلال الجامعة
- ثانياً استقلال القضاء
- ثالثاً حرية الصحافة
- رابعاً حماية البلاد ضد الفاشية
- خامساً إقامة ديمقراطية سليمة

نستودعكم الله في رحاب الديمقراطية الوطنية، والسلامُ عليكم ورحمةُ الله.

مقدم حسن حسين عثمان

انتهت إذاعة البيان وهاجت حركةُ الشارع في لمح البصر، حيث تقاطرت جموعُ الناس من كل مكان تهتف وتتجول في الطرقات بشكلٍ عشوائي. وبدأت حركة سير بعض المواصلات تنتظم في الشارع بحذرٍ شديد. خرجت من البيت بعد أن أعدتُ جهاز التسجيل الذي سجلتُ عليه بيان المقدم حسن حسين وصممتُ على الوصول إلى الإذاعة بأي وسيلة. كانت جميع الطرق المؤدية إليها مغلقةً والمتاريس في الشوارع. وتسللتُ عبر الأزقة المؤدية إلى مبني

السجن ثم عرجت شرقاً حتى اقتربتُ من المبني الذي دخلته من البوابة الرئيسية بعد أن تبين الجنود المدججون بالسلاح هويتي. وكان المشهدُ فظيعاً، رأيت الزميلة (**صفاء محمد حِرِّكْ**) مُغمىً عليها وسط مجموعةٍ من العساكر بالقرب من إحدى الدبابات المعطبة في وسط الممر المؤدى من البوابة إلى داخل الإذاعة.

وهرولتُ نحوها فوجدت أن السبب هو أُذُن بشرية مقطوعة وملقاة بالقرب من الدبابة والدماء تسيل من حولها. وكان أحد الجنود يخرج لحماً آدمياً من داخل الدبابة ويلقي به خارجها في مشهدٍ بشعٍ وفظيع ومقزز. ولم أتمالك نفسي من ذلك المشهد الذي ما زال عالقاً بذهني إلى اليوم.

كانت تلك التجربة مهمةً في حياتي وأنا أضع أولى خطواتي في مجال العمل الإعلامي وأنا في تلك السن الباكرة. حيث شعرت بأنَّ عنصر المخاطرة ومواجهة المواقف المؤلمة والصعبة هو جزءٌ أساسي لمن يتصدى لممارسة مهنة الإعلام.

وتذكرتُ المئات من الصحفيين، والمراسلين، والمصورين، والمخبرين، الذين يرابطون بالخنادق مع الجنود أثناء المعارك الشرسة من أجل أن يُعطوا القراء والمستمعين والمشاهدين مادةً إعلاميةً حية من موقع الحدث.

وكانت ملابساتُ ذلك اليوم بمثابة النافذة التي فتحت لي آفاقاً جديدة للتعامل مع مهنة الإذاعة من منظور جديد ليس هو

فقط ما قادني للعمل الإذاعي من لقاء الفنانين والأدباء والمبدعين، وإنما المسألة أكبر بكثير، حيث إنها قد تقتضي فضلاً عن ذلك التعرض لكثيرٍ من المخاطر ومنها مواجهة الدبابات واستنشاق البارود. وهذا ما حدث فيما بعد أثناء ممارستي لمهنة الإذاعة كما أرويه من خلال السطور في فصول هذا الكتاب.

أول لقاء مع الرئيس نميري

بعد أن هدأت الأحداث وعادت الحياة إلى طبيعتها في شوارع العاصمة قرر رئيس الجمهورية القيام بزيارة للإذاعة. وكان الهدف المعلن للزيارة هو تفقد الإذاعة وتقديم الشكر والعرفان للعاملين بها على تأدية دورهم الوطني في استقرار الأمن وربط المواطن بما يدور حوله من أحداث. واستعدت الإذاعة لاستقبال الرئيس خصوصاً وأنَّ مثل هذه الزيارات نادراً ما تتم في الظروف الطبيعية.

ويبدو أنَّ الكثيرين قد خططوا لطرح مشاكل الإذاعة ومطالبها المؤسسية والفنية. ووسط مظاهر الاستعداد والتنظيم والنظافة التي قادها (**محمد خوجلي صالحين**) مدير الإذاعة بنفسه وصل الرئيس نميري ومعه الأستاذ (**أحمد عبد الحليم**) وزير الثقافة والإعلام، حيث استقبله لدى الباب الأستاذ (**صالحين**) مدير الإذاعة والأستاذ (**معاوية حسن فضل الله**) نائب مدير الإذاعة والأستاذ (**محمود أبو العزائم**) نائب مدير الإذاعة ومدير إذاعة صوت الأمة

السودانية فيما بعد. كنا جلوساً على الكراسي أثناء دخول نميري فأشار إليَّ الأستاذ صالحين الذي دخل قبله إشارةً خفية بأن أسلم على الرئيس واقفاً وليس جالساً ففعلت وفعل ذلك بقية الزملاء بالقسم.

ومرَّ الرئيس على الجميع ولما وصل إليَّ سألني عن طبيعة عمل القسم فأدهشني وقوفه وسؤاله لي دون بقية الزملاء، وكان تفسيري الوحيد لذلك هو أنه قد أراد اختباري بحكم صغر السن، حيث إنني كنتُ وقتها أصغر الموظفين سناً في القسم وربما في أقسام أخرى عديدة في ذلك الوقت.

وأخبرته عن طبيعة عمل الأخبار الصوتية التي تعتمد على تسجيل التقارير وتحليل الأحداث من خلال صُناعها وإجراء الحوارات الإذاعية المتخصصة من مواقع الأحداث إلى غير ذلك. شدَّ على يدي وطرح عليَّ سؤالاً «**من أين أنت؟**» قلت له: «**من أبناء كردفان**». فقال لي: «**من أي مكان في كردفان؟**» قلت له: «**من مدينة النهود**». قال لي: «**وإيه طبيعة شغلك أنت بالقسم**»، قلت له: «**أنا مذيع جديد والآن أحضر مع بقية الزملاء الجدد دورة التدريب التي نظمتها لنا الإذاعة**».

وهنا أكمل صالحين إجابتي بقوله: «**لقد قمنا بتعيين أكبر دفعة من المذيعين الجدد قوامها اثنا عشر شخصاً من الأصوات الجديدة، وأحضرنا لهم الأستاذ الإذاعي ياسين مَعَنِّيْ لتدريبهم الذي**

سيكتمل قريباً وينزلون إلى المايكروفون». شدَّ الرئيس على يدي مرة ثانية مودعاً فقال له صالحين: «**هذا واحد من الشباب الجدد الذين دققنا كثيراً في اختيارهم هذه المرة للعمل كمذيعين**». فقال له الرئيس: «**يبدو أنه شاب ناصح**». أعجبتني إشادة صالحين أكثر من إشادة الرئيس بحكم أنه الرجل المختص وقائد زمام العمل الإذاعي الذي سأعمل به بقية العمر. بعد ذلك خرج نميري ومرافقوه من الغرفة متوجهين إلى المكتب المجاور وهو مكتب التنسيق.

شجعني ذلك السؤال وتلك الوقفة الخاصة التي خصني بها الرئيس أن أخرج معه إلى المكتب المجاور، بل وأن أتجول معه في كل الأقسام التي زارها حتى ختام جولته. وكنت في قرارة نفسي أشعر بأنَّ الأمر بالنسبة لي ليس مجرد سير خلف رئيس جمهورية، وإنما هو إحساسٌ داخلي يختلف عن الآخرين ظلَّ يدفعني لفهم هذه الطبقة من النبلاء كما سماها سُقراط، والتي شاءت لها الظروف أن تمسك بزمام الحكم دون غيرها.

وحسبما يرى العالم القانوني لمبروزو فإنَّ تقاطيع وجه الإنسان تشير إلى طبيعة تكوينه خصوصاً المجرمين. حيث وصل في نظريته التي سماها (**السيكوباتية**) Psychopath إلى أن التفرس في شكل المجرم يعطيك مفاتيح التعرف عليه. وكما أنَّ شكل المجرمين متميز فإنَّ كاريزما Charisma الزعامة تعطي تفرداً في سحنات القادة والزعماء. انتابني إحساسٌ قوي بالتفرس في شكل هذا الرجل لمعرفة

حقيقة ما قرأته عن الكاريزما وعن نظرية سقراط ونظرية لمبروزو المعاكسة. ولذلك كنت شغوفاً بأن أفهم الرجل عن قرب، وأتفحص في ملامح وجهه وتقاطيع شكله الذي ظللت أقرأه من على البعد. وقادني الفضول إلى التعرف على أسلوبه في الحديث وطريقته في الرد وأسلوبه في طرح السؤال وكيف يُصغي للآخرين وكيف ينفعل وكيف يتحرك وكيف يضحك وكيف يغضب وكيف يحكي النكتة وكيف يتجاوب مع الآخرين.

لم يكن الأمر بالنسبة لي حدثاً عابراً ومجرد زيارة رئيس يكرهه الكثيرون ويحبه الكثيرون، وليست القضية بالنسبة لي مجرد ابتهاج لحظة بمصافحة شخصية مهمة أو مشهورة أو لها دور في تاريخ الوطن، وإنما كانت القضية بالنسبة لي أكبر من ذلك بكثير وهي معرفة صناع التاريخ عن قرب. فالرجل جزء من التاريخ لا محالة، وشخصيته أكثر الشخصيات التي نالتها أقلام القادحين والمادحين، وأكثر الشخصيات التي انقسم الناس في تقويمها ما بين كاره إلى حد البغض ومحب إلى حد التقديس، وما بين معارض إلى حد حمل السلاح ومؤيد إلى حد الاستماتة في الدفاع، وما بين عدوٍ لدود وصديق حميم، وما بين نافر من مجرد ذكر اسم النظام ومتمسح بأهدابه ليظفر بمنصب أو جاه أو مسؤولية. لذلك آليت على نفسي أن ألتقط القفاز وأقرأ الرجل عن قرب. وتجولت معه في كل المكاتب رغم أني كنت أعلم علم اليقين أن ذلك لم يرض رجال

الأمن الذين يحيطون به من كل الجوانب. وقد لا يُرضي حتى مدير الإذاعة الذي أراد أن يكون الجميع في مكاتبهم لا يبرحونها حتى يغادر الرئيس المبنى. ولكنها طبيعة تكويني الشغوف بالغوص في أعماق الأشياء أكثر من التعامل مع قشورها، والرغبة الملحة في قراءة ما وراء السطور أكثر من معاينة العناوين، والتعرف على الشخصيات عن قرب أكثر من الاكتفاء بما يقوله الناس عنهم. لقد قادتني تلك الطبيعة لأن أفرض نفسي على تلك الجولة رغم كل شيء.

وفي حقيقة الأمر كانت تلك الجولة بالنسبةِ لي فرصةً لأقنع نفسي بأنني الآن أخطو خطوة عملية في سبيل معرفة ومعايشة من يصنعون التاريخ. ولم يخل الأمر من نزوة نفس بشرية لعبت ظروف التكوين دوراً في تأجيجها في داخلي، حيث تذكرت وأنا أجيب على سؤال الرئيس عن موطني وطبيعة عملي حادثتي مع الفريق إبراهيم عبود في أيام الطفولة، والتي أسهمت بدورها في أن أكون في هذا المكان وأن أتصرف هذا التصرف.

دخل الرئيس مكتب المذيعين فدخلتُ معه. وكان المكتب نظيفاً ومرتباً وقد جلس عليه كبير المذيعين الأستاذ (**عباس بانقا**) ونائبه الأستاذ (**عبد الوهاب أحمد صالح**) وجلس بعض كبار المذيعين على طاولة كبيرة الحجم وضعت بعناية في وسط المكتب الممتد لمسافة ثمانية أمتار. ورغم أن هناك عشرة كراسي صغيرة

وضعت حول تلك الطاولة، إلا أنّ الجميع قد ظلوا وقوفاً ما عدا الرئيس الذي لم يجلس على الكرسي الذي دعاه الوزير للجلوس عليه وإنما جلس على حافة منضدة كبير المذيعين وبدأ يتجاذب أطراف الحديث مع من حوله بما أوحي بأنَّ تلك الجلسة ستكون قصيرة.

ودار الحوار مع مدير الإذاعة والسيد أحمد عبد الحليم حول الإذاعة ودورها المنشود. وفي تلك الأثناء طلب أحد الإذاعيين الذين كانوا يمشون خلف الرئيس في جولته وهو (**عبد المنعم إسماعيل شيبون**) الفرصة في التحدث فأذن له الرئيس بقوله تفضل، فقال شيبون:

«يا سيادة الرئيس إنك ظللت طوال عمر الثورة تبني وتعمر في حين ظل غيرك يهدم ويحطم القيم والأخلاق. وإنك تريد أن تتطور جميع المرافق وأهمها الإذاعة التي هي لسان حال الدولة في حين أن غيرك يقوض هذا البناء الكبير ويدمر أبجديات المهنة وأنا أعني بذلك محمد خوجلي صالحين الذي يقف أمامك الآن».

وهنا توتر جو اللقاء الذي بدأ ودياً وأخوياً. ونظر كل واحد إلى رفيقه وكأنه يتمنى أن تبتلعه الأرض من شدة الحرج الذي أحدثته عبارات شيبون أمام الرئيس وأما الوزير وأمام صالحين. فصالحين هو رجل الإذاعة المهيب ذو الشخصية القوية التي لم يكن أحد يتصور أن يتجرأ أحد للنيل منها بتلك الطريقة المباشرة أمام

رئيس الجمهورية. واستمر شيبون يحكي عن فساد الإدارة والأخطاء التي تقوم بها وعدم مواكبتها لبرامج الثورة إلخ.. هنا قال نميري لشيبون: ((**إذا كانت لديك هذه التظلمات أو الشكاوى ضد المدير فلماذا لم تقم برفعها مكتوبةً للمسؤولين عن طريق القنوات الرسمية المعروفة؟**)) قال شيبون: ((**لقد فعلت ذلك يا سيادة الرئيس ولكن صالحين هذا قام بتمزيقها ولم يرفعها إلى الجهات الأعلى لأنها تدين أسلوبه وتكشف أخطاءه في إدارة العمل**)). فقال له نميري: ((**وكيف عرفت ذلك وهو من الأسرار التي لا تُعلن؟**))

قال شيبون: ((**لم يَعُد هناك سرٌّ يا سيادة الرئيس، فكل شيء قد أصبح مكشوفاً ولا ضابط لشيء**)). وبدا أن الجو قد ازداد ارتباكاً وحرجاً، فسأل الرئيس صالحين: ((**ما قولك في هذا الكلام؟**)) فقال صالحين:

((**إنني أولاً أشكر الأخ شيبون على هذه الشجاعة التي طرح بها رأيه أمام السيد الرئيس، ولكني أقول إنه كاذب في كل ما ادعاه من رفع شكاوى عن طريقي وقمت أنا بتمزيقها. وأتحداه أن يثبت ذلك. ثم إنَّ شيبون يا سيادة الرئيس ينطلق من زاوية الإحباط العام فهو أولاً شقيق للسيد أسد شيبون الذي يعمل بالقصر الجمهوري ويعرفه الجميع كشخصية اجتماعية مرموقة ولم يستطع عبد المنعم أن يحقق مثل تلك الشخصية فأراد أن يدخل من المداخل الخطأ على رقاب الآخرين. ثم إنه يعلم علم اليقين أنني أنا**

الذي انتشلته من السقوط عندما تم إبعاده من مكتب إعلام الأبيض بدعوى أنه أحد كوادر الحزب الشيوعي المحلول فوقفت معه في تلك المحنة وأدخلته الإذاعة مذيعاً تحت التدريب، ولما لم يثبت نجاحاً في ذلك المضمار ألحقته بقسم الأخبار الصوتية فهل يكون هذا جزاء الوفاء بأن يسيء إليَّ أمام الرئيس في هذا الجمع من أهل الإذاعة؟»

قال شيبون: «**يا سيادة الرئيس إنَّ هذا الكلام الذي قاله صالحين يعتبر تأكيداً لقولي وإدانةً له وليس فضلاً بأي حالٍ من الأحوال، فإذا كنت أنا شيوعياً كما يقول فلماذا يحتضنني ويدخلني أهم مرافق الدولة الإعلامية؟ أليست هذه جريمة في حق الوطن؟**»

هنا شعر نميري أنَّ الجو لم يعد صالحاً في ذلك المكتب لمواصلة الزيارة التي أرادها وديةً وتفقديةً لأهل الإذاعة خصوصاً وأنه وعد كثيراً بزيارة العاملين بها عرفاناً بدورهم الكبير في نشر وتوطيد دعائم النظام السياسي كما أشار إلى ذلك مراراً في لقاءاته الشعبية. وقام النميري من جلسته وتحرك نحو الباب قائلاً: «**عموماً يا أخ شيبون أرجو أن يُرفع هذا الأمر بالقنوات الرسمية وعندها سننظر ماذا نفعل**». انتهى اللقاء بالإذاعيين، وخرج الرئيس إلى سيارته التي كانت تقف أمام مدخل الاستقبال الداخلي للإذاعة وغادر هو ومن ةكان معه من مرافقين. بعد ذلك دعا صالحين

جميع العاملين إلى اجتماع عاجل بأستديو (B). وفي الاجتماع احتشد كل أهل الإذاعة فخاطبهم صالحين والغضب يسبق عباراته قائلاً: «**إنكم جميعاً قد شهدتم هذا السلوك الجبان من الأخ شيبون، وأنا أطلب شيئاً واحداً لا ثاني له وهو أن تدين الإذاعة ممثلةً في هذا الجمع الحاشد من العاملين هذا السلوك المشين وهذا الشاب الذي تجرأ وأساء كل تلك الإساءات كذباً واختلاقاً وزوراً ونفاقاً، وإذا لم تحدث هذه الإدانة الجماعية من كل أبناء الإذاعة فهذه هي استقالتي من هذا العمل والأفضل أن أبقى بمنزلي من المواصلة في هذا الجو النتن**».

ثم خرج صالحين إلى مكتبه ينتفض من الغضب، وقد تبعته نظرات العاملين الحائرة بين الصفوف. تقدم الأستاذ (**محمود أبو العزائم**) الذي كان يرأس الاجتماع وحاول تلطيف الجو ما أمكن. وطلب باسم الحاضرين من شيبون أن يعتذر عن ذلك الموقف الذي أربك زيارة الرئيس وأحرج مدير الإذاعة الذي لا يشك أحد في جهوده الكبيرة من أجل الإذاعة والإذاعيين، بل ولا يمكن لأحدٍ أن يشك في علاقاته الطيبة مع الجميع خصوصاً شيبون الذي يدرك حجم الدور الذي لعبه صالحين في تعيينه بالإذاعة وكان يمكنه أن يقوم بفصله دون تردد لولا أنه غلّب الجانب الإنساني في الأمر. فقال شيبون: «**إنني مندهش من هذا التناقض، كيف يصفني صالحين بالشجاعة أمام رئيس الجمهورية ثم بعد سويعات يصفني بالجبن**

والنزالة ويطالب بإدانتي؟» شعر الجميع أن ذلك السؤال سيعيد الموقف إلى نقطة الصفر من جديد فأصروا على شيبون أن يسحب تلك التساؤلات ويرضخ لروح المجلس الذي يريد أن يحسم الأمر بالتي هي أحسن. وأخيراً تراجع شيبون واعتذر عمّا بدر منه بعد أن أثار كثيراً من الشجون في نفوس الإذاعيين الذين لم يألفوا مثل تلك المواقف طوال عمر الإذاعة.

وفرض الاجتماع عليه أن يعتذر لصالحين الذي عاد إلى الاجتماع ليستمع للاعتذار أمام الجميع. وتمَّ التصالح رغماً عن كل ما حدث. شيءٌ غريب حدث بعد ذلك، حيث جاء صالحين إلى مكتبي بعد ثلاثة أسابيع من هذا الحادث ووجد معي شيبون الذي كان يجيب في تلك اللحظة على سؤالي له عن الأسباب التي ساقته لقول ذلك الكلام أمام نميري. وشعرتُ بالحرج الشديد لمجيء صالحين في تلك اللحظة بحكم وجود شيبون، ولكن صالحين هذا الرجل العظيم فاجأنا بابتسامةٍ عريضة سبقت قوله لشيبون:

«تعرف يا شيبون لديَّ فكرة ممتازة لبرنامج جديد يمكنك أن تنفذها لشهر رمضان المقبل وهي برنامج خاص بصناعة الحلو مُر، كيف بدأت صناعته؟ ومَنْ هي أول امرأة قامت بذلك؟ وهل هناك شعوب غيرنا تصنع هذا المشروب الرمضاني الخاص؟ ثم كيف يتم تخمير العجين من البداية؟ وأي نوع من الدقيق هو الأنفع لصناعته؟ وما هي البهارات المستخدمة فيه؟ ولماذا تصاحب صناعة

الحلو مُر طقوسٌ كثيرة نعرفها جميعاً حيث تجتمع النساء في أحد البيوت ويمكثن يوماً كاملاً في إعداده لينتقل العمل في اليوم التالي إلى بيت آخر وهكذا؟ ثم لماذا لا تفكر بعض الجهات في تصنيعه بصورة تجارية من خلال مصنع متخصص كمصنع الكِسرة مثلاً؟»

انفرجت أسارير شيبون لمجرد الفكرة، ولعله قد حسب أنَّ قنوات التواصل بينه وبين صالحين قد انقطعت إلى الأبد. وعلى الفور بدرت منه ابتسامةٌ عريضة أعقبها بقوله: «**إنها فكرة رائعة بلا شك، وسأبدأ في تنفيذها على الفور إنْ شاء الله بعد وضع التصور الكامل لها وستكون برنامج الموسم بلا منازع**». وخرج صالحين من الغرفة ليكمل جولته في بقية المكاتب والتي تعود عليها منذ أن أصبح مديراً للإذاعة. نظرتُ إلى شيبون بعد أن ارتسمت علامات الرضا على وجهه وقلتُ له:

«**بصراحة إنَّ هذا الأمر أكبر من مجرد فكرة برنامج، وإنما هو في الحقيقة موقفٌ إنساني يُعَبِّر عن قيمة العفو عند المقدرة والصفح عن بني الإنسان. وهو موقفٌ لا يمكن أن يصب إلا في إطار الرصيد الإنساني الكبير لشخصية هذا الرجل العظيم محمد خوجلي صالحين**». وأمَّنَ شيبون على حديثي الذي دعمته مواقف صالحين فيما بعد. ومرَّت الأيام، وعادت المياه إلى مجاريها بين الاثنين، ولكنَّ جو الإذاعة سرعان ما توتر بعد شهورٍ قليلة. والسبب في

هذه المرة لم يكن زيارة نميري وإنما محاولة الإطاحة به وبحكومته التي جاءت مفاجئة لكل الأوساط السياسية والعسكرية.

انقلاب العميد محمد نور سعد

ففي صبيحة يوم الجمعة 2 تموز يوليو عام 1976م انقطع الإرسال الإذاعي وعاشت المدينة على أعصابها لساعات لم تدرك فيها ما حدث، وملأت رائحة البارود وأصوات الرصاص أرجاء الخرطوم، وخرج المئاتُ إلى الشوارع يستفسرون عن الخبر ويتبادلون التكهنات حول ما يجري، هل هو انقلابٌ مجهول الهوية؟ أم أنه حدثٌ أكبر من ذلك؟ ولا مجيب.

إنَّ انقطاع الإرسال الإذاعي في فترات الصباح ليس أمراً مألوفاً إلا إذا كان هناك ما يبرره. ومن التجارب الانقلابية السابقة أصبح الانقطاع يعني تغيير النظام ولكنه لا يطول بهذا الشكل في التجارب السابقة. كان الجميع يتساءلون وقد جاءني الكثيرون من سكان حي السجانة يستفسرون عما حدث بحكم عملي في الإذاعة، إلا أنني كنتُ مثلهم تماماً لا أعلم شيئاً عما يدور حولنا. ووقفتُ مع الجميع على الشارع نتساءل عن سبب انقطاع الإرسال الإذاعي طوال هذا الوقت. كنتُ أحمل معي جهاز تسجيل ملحق بالترانزستور أبحث فيه عن صوت إذاعة أم درمان دون جدوى. كان المفروض أن أذهب إلى الإذاعة لاستلام ورديتي العادية بالأستوديو، ولكن لم تكن

بالشارع سيارةٌ واحدة. في تلك الأثناء بدأ بعض المارة يتحدثون عن كُتلٍ من المسلحين شوهدوا وهم يقتحمون مبني القيادة العامة للقوات المسلحة عند الفجر، وقيل إنهم هاجموا العساكر بشكل عنيف وتمكنوا من إخضاع معظم الوحدات العسكرية لسيطرتهم. كما تحدث البعض عن احتلال الكباري المؤدية إلى الخرطوم من أم درمان وبحري.

وقال البعض إنَّ مداخل العاصمة جميعاً قد أُغلقت ولم يسمح حتى لبائعي الخضروات والألبان بدخولها وقد تمَّ حجزهم خارج العاصمة أو أعيدوا إلى قراهم محملين ببضائعهم ومنتجاتهم. كان ذلك الكلام أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة، لأنه لا يتصور أحدٌ انقلاباً بذلك الشكل إلا إذا كان قادماً من خارج العاصمة.

وظللنا نتحاور حول ذلك الخبر ما بين مُصدق ومُكذب، وكان الجميع يتحدثون حديث التكهنات الذي لا يقوم على دليل واضح، إلا أنَّ الجميع كانوا موقنين أن انقلاباً عسكرياً قد وقع ضدَّ نظام جعفر نميري. واستقبل الناس تلك التكهنات ما بين قادحٍ ومادح وما بين متفائلٍ ومتشائم، رغم أن الجميع كانوا متحفظين في تعليقاتهم بانتظار ما تسفر عنه اللحظات القادمة. وفجأةً إنطلقت بعض السيارات في شوارع المدينة تحمل مكبرات صوت تُنادي الجماهير بالالتفاف حول الثورة الجديدة التي تقودها (**الجبهة الوطنية**) للإطاحة بنظام جعفر نميري وإعادة الحكم إلى الشعب.

وقد بدأ الناس يتبينون شيئاً من الأمر رغم أن تلك المكبرات لم تكن توضح شيئاً غير أن انقلاباً تقوده الجبهة الوطنية قد وقع بالخرطوم. ولكن أين الإذاعة، ولماذا صمتت؟ لا أحد يدري. كانت جموع الواقفين على جنبات الطرق قد ازدادت بشكل ملحوظ والكل حائرٌ لا يعرف حقيقة ما يجري بالضبط. ثم توالي سيل السيارات العسكرية التي تحمل ضباطاً وجنوداً بأسلحتهم وهم في زي الميدان المميز لدى الجنود.

وفجأةً سمعنا الموسيقى العسكرية تنبعث من الراديو الذي تركته مفتوحاً طوال تلك الفترة. وبعدها مباشرةً سمعت صوت الزميل (**علم الدين حامد**) ينادي جميع المذيعين والمهندسين الإذاعيين أن يأتوا للإذاعة فوراً وسيسمح لهم بالدخول بعد إبراز بطاقاتهم الشخصية.

قررتُ على الفور التوجه للإذاعة رغماً عن معارضة جميع الأهل والأصدقاء بالحي. وأقنعتهم بأنَّ هذا أمر حياةٍ أو موت ولا بد أن أكون في موقع العمل لأعرف خبايا الأمور من الألف إلى الياء. وقلتُ لهم: «**إذا لم يكن رجل الإعلام حاضراً في مثل هذه المواقف فمتى سيحضر؟**». وعلى الفور أخذت بطاقتي وخرجتُ للشارع الذي لم تكن فيه سياراتٌ خاصة ولا حافلات وإنما امتلأ بالسيارات العسكرية والدبابات. وفكرتُ في إيقاف أي دبابة أو سيارة عسكرية لتوصلني إلى موقع العمل بعد إثبات هويتي، وفجأةً رأيتُ سيارةً

دبلوماسيةً تسير نحونا بسرعة، فوقفت في منتصف الطريق ولوحتُ لسائقها بالوقوف. وقفت السيارة بصعوبة من شدة سرعتها فهرولتُ نحوها وأخبرتُ السائق بهويتي وطلبتُ منه أن يساعدني بالوصول إلى الإذاعة. فتحَ الباب على الفور ودعاني للركوب في المقعد الذي بجانبه. نظرتُ للرجل فإذا هو عربيُّ القسمات يرتدي بدلةً أفرنجيةً زرقاء اللون. وكان بادياً عليه الانزعاج وعدم التركيز في شيء. وما أن انطلقت السيارة حتى التَفَتَ إليَّ بادرني بقوله:

«**أنا السفير الليبي بالخرطوم، وسأنقلك إلى الإذاعة شريطة أن تعطيني كل المعلومات المتوفرة عن هذا الانقلاب ومدبريه وطبيعته ومكان الرئيس نميري**».

انتابني الشك في هوية الرجل، ولكنني في الواقع لا أعرف شكل السفير الليبي لأنني لم أتشرف برؤيته من قبل، ولكنَّ لهجته أوحت لي بأنه ليبيٌّ فعلاً فقلتُ له: «**أنا لا أملك إجابةً على هذه التساؤلات، ولكن إذا وصلنا إلى الإذاعة فإنك حتماً ستعرف الأخبار لأنها أساساً لا تصل إلى الإذاعة إلا للنشر**» (وكان هدفي من تلك العبارة أن أضمن وصولي للإذاعة بعد أن ساورني الشك في شخصية الرجل). وهنا رمقني بنظرة غاضبة أزعجتني كثيراً وقال لي: «**الذي أريد معرفته لا يمكن أن يذاع أو يُنشر**».

أحسستُ برهبةٍ أشد في تلك اللحظة خصوصاً وأنها كانت السيارة الوحيدة التي تسير على الشارع، وقلتُ له: «**على العموم أنا**

سأرد عليك بعد الوصول إلى الإذاعة لأنني ربما أجد معلومات كافية»، وبدا أن حديثي هذا لم يعجبه، وقبل أن نصل إلى كوبري النيل الأبيض الذي يربط الخرطوم بأم درمان أوقف سيارته وقال لي أنزل.

نزلتُ من السيارة فأغلق الرجلُ بابها بشكلٍ عنيف ودلف عائداً بشارع النيل تجاه القصر الجمهوري. وواصلتُ سيري على الأقدام حتى عبرتُ الجسر، ومنه ركبتُ سيارةً عسكريةً كانت متجهةً نحو الإذاعة بعد أن أطلعتهم على هويتي. كنتُ شغوفاً بمعرفة ما يحدث من العساكر المسلحين الذين كانوا على السيارة، ولكنهم لمحوا لي بالسكوت فسكتُ حتى وصلنا إلى بوابة الإذاعة.

أبرزتُ بطاقتي لرجال الحرس فسمحوا لي بالدخول، وما أن دخلتُ حتى رأيتُ الدخان يتصاعد من مبني الإذاعة. وتقدمتُ قليلاً للداخل فإذا بالحريق قد أُضرم في جميع الأستوديوهات الجديدة التي بُنيت بعد مكتب المهندسين مباشرةً. وكانت الشظايا تتناثر في كل الزوايا وحطام الأجهزة تملأ أرجاء المكان. في حين ظلَّ الجنود المدججون بالسلاح يملأون كل ممرات وردهات الإذاعة. راعني ما رأيت، ولم أتمكن من دخول الأستديو لأنَّ الدخان كان كثيفاً ورائحة النيران والرصاص تنتشر في الأرجاء فتكتم الأنفاس. وعلى مقربة من البوابة الرئيسية كان يقف أحد ضباط الجيش فتقدمتُ نحوه أسأله عما يحدث فقال لي: «**إنهم الخونة والمارقون، أرادوا إسكات**

صوت السودان بتدمير الإذاعة ولكنهم لم يفلحوا». لم أسترسل في الحديث معه، ورغماً عن كثافة الدخان دخلت من بوابة المبنى الرئيسي قاصداً أستوديو (C) حيث البث المباشر.

كان الجو مضطرباً، والجنودُ يملؤون الممر المؤدى إلى الأستوديو، فأحسستُ بالاختناق الشديد وتألمتُ لما رأيته من حريق أتى على معظم الأجهزة حينما مررت على أستديوهات كرومة والفلاتية وسرور. وهي الأستديوهات الجديدة التي تمَّ تدريبنا فيها. أصبحت أطلالاً في لمح البصر.

تألمتُ كثيراً لأنَّ تلك الأستديوهات كانت فتحاً عظيماً للإذاعة بإنشائها في نفس العام 1976م واستمرت تعمل لمدة أربعة أشهر فقط قبل ذلك الحادث. حيث إنه وقبل أن يدخلها بعض الإذاعيين أُحرقت. وكادت الإذاعة السودانية برمتها تروح ضحية ذلك الحريق لولا طبيعة تصميم المبنى التي حالت دون وصول النيران إلى المباني القديمة. وبجانب الأستديوهات الجديدة فقد احترقت كميةٌ كبيرةٌ من أشرطة التسجيل النادرة بالإذاعة من بينها أغنياتٌ لعدد من الفنانين وبعض البرامج القديمة التي استضافت فيها الإذاعة نجوم الغناء والرياضة والأدب والقصة وما إلى ذلك. وعند حصرها تأكد للإذاعة أن تلك المواد لا يمكن تعويضها إلى الأبد. كما امتدت ألسنة النيران إلى الغُرف المجاورة التي كانت تحوى بعض المكاتب فتصدعت جدران المباني وتشوهت

الأثاثات بشكلٍ فظيع. كان من الممكن أن تحترق في ذلك اليوم العصيب جميع أشرطة الإذاعة والمواد التي في داخل المكتبة الصوتية وذلك لأنَّ المكتبة لم تكن بعيدة عن موقع هذه الأستوديوهات المحترقة بل هي أقرب المباني إليها لا تفصلها عنها إلا بعض المكاتب التي يشغلها قسم الأخبار وقسم المهندسين والالتقاط السياسي.

وعلى الفور كونت وزارة الثقافة ووزارة المالية لجنةً لحصر الخسائر أسهمت فيها قوات الشرطة التي ظلت مرابطةً طوال تلك الأيام بالمبنى، وأعلنت اللجنة نتائج أعمالها لوزير الداخلية فكانت الخسائر أكبر من أن تتحملها ميزانيةُ الإذاعة المتواضعة. وما كان أمام الدولة من خيار إلا أن تتدخل في الأمر، فصدر قرارٌ من القصر الجمهوري يقضى بأن تسهم وزارتا المالية والإعلام في إعادة ترميم المباني والأجهزة بأسرع فرصةٍ ممكنة. بقيتُ داخل أستوديو (C) أذيع البيانات والنداءات مع الزملاء الذين كانوا بالأستوديو في ذلك الصباح. كان العاملون الموجودون بالإذاعة عندما دخلتها وسط ألسنة الدخان قليلين، ولم يحضر من المذيعين سوى علم الدين حامد وليلى المغربي وعمر الجزلي وعبد الوهاب أحمد صالح وعبد العظيم عوض. كنا جميعاً بداخل الأستوديو نتبادل الميكروفون. ولفت انتباهي أمرٌ أشاهده لأول مرة وهو كتابة البرقيات التي تطالب بدحر الخونة والمارقين الخ.. لقد ظللتُ طوال عمري أستمع لمثل تلك البرقيات في مثل هذه الظروف، وكنتُ أحسب جاداً أنها

برقيات حقيقية تأتي من القيادات العسكرية والمؤسسات أو الأفراد. ولم يخطر ببالي أنها تصدر بالطريقة التي رأيتها بها في ذلك اليوم. كان هناك ضابطٌ من القوات المسلحة برتبة نقيب يجلس قبالتي بالأستوديو أثناء قراءة المواد الحية على الهواء. وبعد كل فترة كان يسلمني ورقةً مكتوبةً بخط يده تحوى برقيةً من إحدى الجهات مَرةً باسم الوحدة العسكرية الفلانية ومرةً باسم القيادة الفلانية أو حامية كذا أو نقابة كذا ومرةً بأسماء شخصيات لا وجود لها بالأستديو.

وكانت جميع البرقيات بخط ذلك الرجل وكأنه يحمل مبرقةً بين أنامله تتصل بكل أرجاء الدنيا في لحظةٍ واحدة. كانت الكلمات في كثير من الأحيان تشوبها الأخطاء النحوية وعندما ننبهه لها يقول عدلوها كما تشاءون ويمكنكم تغييرها بكلماتٍ أخرى إذا أردتم. بعد ساعات من البقاء داخل الأستديو شعرنا بحركةٍ غير عادية داخل ممرات الإذاعة بل وداخل الأستوديو نفسه. دخل رجالٌ مدججون بالسلاح وخرجوا ثم دخل آخرون وخرجوا في شكلٍ أقرب إلى الهستيريا. وكانوا جميعاً يتفحصون محتويات الأستوديو بعصبية واضحة. وفجأة وبلا إخطار دخل علينا (**جعفر محمد نميري**).

لم أكد أعرفه من هول الهيئة التي جاء بها في تلك اللحظة. كان منهكاً والإعياءُ قد سرى في كل قسمات وجهه الذي

تصبب عرقاً. وكان يرتدي منطالاً عسكرياً وقميصاً أبيض اللون وضح من الوهلة الأولى أنه ليس قميص الرئيس. دخل نميري الأستديو يرافقه السيد (**بونا ملوال**) وزير الثقافة والإعلام الذي لعب دوراً مهماً في إحباط تلك المحاولة باتصالاته من داخل مكتبه المغلق باللواء (**محمد الباقر أحمد**) نائب رئيس الجمهورية الذي كان بدوره في مكتبه بالقصر الجمهوري والذي نسق معه للاتصال بإذاعة جوبا عن طريق أجهزة وكالة السودان للأنباء والتي عن طريقها أذيعت رسالة نميري للشعب السوداني عندما تعطلت إذاعة أم درمان.

وكان مع الرئيس أيضاً السيد محمد خوجلي صالحين مدير الإذاعة. في تلك اللحظة كنتُ أقرأ بعض البيانات على الهواء فطلب مني صالحين القيام من الكرسي وإفساح المجال للسيد الرئيس. وتنحيتُ من الكرسي فتقدم الرئيس نميري وجلس عليه وكان يلهث كمن جاء من مكانٍ بعيد والعرق والغبار يملأ كل جسده. وبدأ يخاطب المواطنين عبر الميكروفون على الهواء مباشرةً. لم يتمكن من حبس العبرات المتلاحقة وكان يتحدث عن الخونة والمارقين والمندسين وسط الشعب من المرتزقة والعملاء ويؤكد أن ثورة مايو ماضية في طريقها وعلى الجماهير الالتفاف حولها وكشف المتآمرين الخ.. أنهى نميري حديثه بطريقةٍ غير عادية، حيث كان واضحاً أنه لم يستطيع أن يواصل، وكانت غرفة المراقبة

تسجل حديثه أثناء إذاعته ليعاد مراتٍ أخرى. وغادر الرئيس ومرافقوه الأستوديو الذي ظللتُ بداخله حتى منتصف الليل حيث إنني عندما خرجت لأتوجه إلى بيتي في حوالي الساعة الرابعة عصراً فوجئت أن جميع الزملاء من المذيعين كانوا قد غادروا الإذاعة بالفعل وتركوني وحيداً.

حاولتُ الخروج من المبني ولكني لم أجد وسيلةً لأنه لا توجد سيارةٌ تحملني من سيارات الإذاعة حيث أخبرني الضابط المسؤول أنهم قد نقلوا بقية المذيعين بحكم أنهم يسكنون في أم درمان أما أنا فلأني أسكن الخرطوم لا بد أن أبقى حتى ختام الإرسال حيث إن التعليمات الصادرة من القيادة العامة للقوات المسلحة هي منع دخول الخرطوم بتاتاً لأي سيارة وقد طُوقت جميع الكباري بالدبابات والجنود.

إذن لا بد من الانتظار والبقاء بالإذاعة حتى منتصف الليل ما دام الموقف كذلك وبقيتُ وحدي بالأستوديو أرقب تحركات الضباط والجنود والهرج الذي ملأ ممرات الإذاعة ومكاتبها وكأنها قد أصبحت واحدةً من الثكنات العسكرية. ومن خلال حديثي مع عدد من الضباط المرابطين بالإذاعة علمتُ أن تلك الحركة كانت بقيادة العميد (**محمد نور سعد**) تقودها الجبهة الوطنية التي تكونت من حزب الأمة والحزب الاتحادي الديمقراطي وجبهة الميثاق الإسلامي التي شعرت بأنها لا يمكنها القضاء على نظام جعفر

نميري إلا بالكفاح المسلح. وخلقت الجبهة لنفسها معسكراتٍ في ليبيا منذ عام 1974م بعد أن كانت تتخذ من إثيوبيا مقراً لها مستفيدةً من العداء المستحكم الذي بدا بين نميري والقذافي. وتكونت معسكرات الجبهة في الكفرة والعوينات وهي أماكن في قلب الصحراء الليبية. كانت تلك الجبهة بقيادة الشريف حسين الهندي الذي تنازل عن رئاستها للصادق المهدي الذي حضر إلى ليبيا في نفس العام 74، وحال تسلم الصادق المهدي مقاليد رئاسة الجبهة اتصل بالعميد محمد نور سعد وهو أحد ضباط الجيش المتمرسين حيث كان وقتها بألمانيا وقام بزيارة لليبيا وتفقد معسكرات الجبهة فأبدى موافقته على قيادة الحركة الانقلابية.

وبالفعل سافر في الوقت المحدد إلى إثيوبيا ثم منها إلى السودان حيث توجه مباشرةً من الحدود إلى سنار ثم بعد فترةٍ من الزمن وبعد أن أحس أنه لا يشك أحد في تصرفاته سافر إلى الخرطوم التي وصل إليها في صبيحة يوم الخميس الأول من شهر تموز يوليو عام 1976م ليقود تلك الحركة المتفردة في أسلوبها وطريقة تنفيذها بل وحتى في مراميها. كانت الجبهة ترسل السلاح إلى السودان تباعاً ويخزن في مخازن سرية بعضها في باطن الأرض وبعضها في المقابر لزوم التمويه على رجال الأمن. وقد دخلت مجموعاتُ من مقاتلي الجبهة متسللين عبر الصحراء في أزياء بلدية عادية بعد أن تقسموا إلى فرق مختلفة. ورويداً رويداً اكتمل

دخولهم في شهر تموز يوليو عام 1976م إلى الخرطوم، وتبعتهم بعد ذلك الأسلحة بأنواعها المختلفة وكانت قد حُملت على شاحنات ضخمة تحركت من ليبيا عبر الصحراء. ووصلت تلك الشاحنات وكان عليها شعار (**هيئة توفير المياه**) لزوم التمويه، ووقفت خارج مدينة أم درمان حتى تم ترحيل الأسلحة منها.

كانت هذه العملية تتم بمساعدة (**الفاضل عبد الله الفاضل المهدي**) الذي بعث بسيارات خاصة تنقل الأسلحة من تلك الشاحنات المزورة. وفي صبيحة الأول من تموز يوليو 1976م أي قبيل يوم من العملية توجه جنود الجبهة إلى أطراف المدينة لتجميع أسلحتهم والاستعداد للانقضاض على مرافق الدولية الرسمية والمرافق الحيوية والوحدات التي تحدد لكل فرد أن يقوم باحتلالها. ونفذت الحركة عملياتها التي شابتها الكثير من الأخطاء في التنفيذ مما أحبطها في مهدها.

وكان إحراق الأستوديوهات الإذاعية أمراً مقصوداً ولم يحدث بالصدفة، حيث أرادت الحركة إحراقها واستبدالها بإذاعةٍ أخرى أُحضرت أجهزتها مع الأسلحة المستجلبة من الخارج. وكان الغرض من ذلك تفويت أي فرصة للانقضاض على منفذي الحركة داخل مبنى الإذاعة أو حواليها.

أحضر إلينا بعض الضباط طعاماً من أحد المنازل المجاورة للإذاعة فالتهمناه في لمح البصر لأن الجوع كان قد أخذ منا مأخذه،

وبقيتُ أقرأ جميع نشرات الأخبار المسائية لذلك اليوم، وأذعت جميع البيانات التي كانت ترد تباعاً منددةً بما سمي بالغزو الليبي للسودان. وفي الساعة الثانية عشرة منتصف الليل ختمتُ الإرسال كالعادة وخرجت من الأستوديو لأتوجه إلى البيت. جاءني الضابط المسؤول وقال لي لا بد أن تقضى الليل هنا بالإذاعة في حراسة الجنود لأن الخرطوم ما زالت مغلقة ولن تتمكن من الوصول إليها.

قلتُ له هذا رابع المستحيلات، ألا يكفي مرابطتي طوال اليوم في هذا الأستوديو؟ ولما لم تجدِ محاولاته لإبقائي بالإذاعة اقترح على الزميل (**محمد محمد خير**) أن أذهب معه إلى منزل بعض أقاربه بالخرطوم بحري. كان محمد قد جاء للإذاعة في النهار ولم يتمكن من العودة مثلي إلى منزله بالخرطوم وهو يعمل موظفاً بقسم الثقافة بالإذاعة، ووافقتُ على الاقتراح فأخرج لنا الضابط سيارةً بها اثنا عشر جندياً وضابطين لحراستنا وتوجهنا نحو الخرطوم بحري. عند مدخل كوبري شمبات استوقفنا الجنود واستوثقوا من هويتنا بعد أن أعطاهم جنود الحراسة المرافقون لنا كلمة السر. تركناهم وتقدمنا إلى نهاية الكُبري فأوقفتنا مجموعةٌ أخرى وأعادت نفس الإجراء. وظللنا على ذلك الشكل حتى وصلنا إلى منزل عمة الزميل محمد محمد خير في حوالي الساعة الثالثة صباحاً.

طرق محمد الباب وكان الجنود يقفون بالقرب منه فخرجت عمته التي كادت أن يغمى عليها من هول المفاجأة. ورغماً

عن العبارات التي ساقها محمد وظللتُ أرددها لها لم يهدأ لها بال ولم يطمئن قلبها، ولكنها رغم أنها أعطتنا حليباً ساخناً شربناه ونمنا بعد أطول يومٍ في تاريخنا الإذاعة. كان التوتر والهلع بادياً على كل العاملين بالإذاعة طوال تلك الأيام العصيبة، وكان المرور بشارع الإذاعة من أصعب الأشياء حيث يعرض صاحبه للمساءلات العديدة والإيقاف المتكرر وكانت الدبابات تملأ الشوارع المؤدية لتلك المنطقة والجنود المسلحون ينتشرون في كل مكان.

وفي أمسية اليوم الثالث للأحداث كان أحد المواطنين يقود سيارته في شارع الإذاعة وفي اللحظة التي كان فيها يحاذى بوابة الإذاعة انفجر إطار سيارته الخلفي محدثاً صوتاً قوياً فما كان منه إلا أن نزل وهو يبكى ويرتعد من الخوف ويرفع يديه عالياً أمام سيارته صارخاً (**بريء واللهِ العظيم بريء**) ونظر إليه الجنود والضباط الذين غرقوا في الضحك وقالوا له: «**هذا ليس رصاصاً وإنما هو إطار سيارتك**». ونظر الرجل للسيارة وكان قد أحرج غاية الإحراج، وظل مرتجفاً طوال الوقت حتى أصلح له الجنود إطار سيارته المعطوب فدخلها مكسوف البال وانصرف.

وشيئاً فشيئاً عادت الحياةُ إلى طبيعتها في العاصمة، ونُظفت الشوارع من الألغام والمتاريس، وتم تمشيطها من الأسلحة المخبأة في بعض الأركان والحواري. ولكنَّ الإذاعة ظلت تكرر نداءاتها بالبحث عن منفذ الانقلاب العميد محمد نور سعد الذي ظل مختبئاً طوال

أيام فشل حركته. وفي اليوم الرابع من فشل تلك الحركة خرج العميد محمد نور سعد من مخبئه بالخرطوم متسللاً نحو جمهورية تشاد عن طريق دارفور. وفي الطريق قبض عليه بعض المارة بالقرب من مدينة الدويم وسلموه للسلطات الحكومية وظلت الإذاعة وأجهزة الإعلام تكثف نداءاتها للمواطنين للقبض على بقية المشاركين في تلك العملية. وعلى الفور أجريت المحاكمات لمدبري الحركة.

كنتُ أقرأ نشرة أخبار الساعة الثالثة مساءً، فدخل عليَّ الزميل (**محمد ورداني حمادة**) نائبُ رئيس قسم الأخبار بخبر مهم لأقرأه على الهواء فقلتُ جاءني ما يلي: أنهت المحكمة الخاصة التي عُقدت لمحاكمة المتهمين في المحاولة الأجنبية الآثمة جلساتها وأصدرت أحكامها التي جاءت كما يلي:

1/ الإعدام مع التجريد من الممتلكات لكل من الصادق الصديق المهدي والشريف حسين الهندي.

2/ السجن المؤبد مع التجريد من الممتلكات لكل من الفاضل عبد الله الفاضل المهدي، إبراهيم السنوسي، مبارك عبد الله الفاضل المهدي، الصادق يعقوب، ميرغني ضيف الله حمد النيل، وأحمد سعد عمر.

3/السجن سبع سنوات لكل من دكتور زكريا بشير إمام، قريب الله خلف الله، حسن محمد عمر دندش، على صالح إدريس، عبد الدائم أبو بكر السنوسي، ونصر الدين الهادي المهدي.

4/ السجن ثلاث سنوات للدكتور عبد الحميد صالح، حسن الفاضل ومحمد صالح عثمان صالح.

بعد شهرٍ من ذلك الحادث هدأت الأحوال داخل الإذاعة واتجه العاملون لممارسة أعمالهم المعتادة فأصدر مديرُ الإذاعة الأستاذ محمد خوجلي صالحين قراراً بنقل المكتبة الصوتية من تلك المباني التي ظلت فيها منذ إنشائها في عام 1957م. ولعل ذلك الحادث قد أتى بثمرةٍ طيبة وهو ذلك القرار المهم بنقل المكتبة. فالمقر الجديد هو في باطن الأرض تحسباً لمثل تلك المفاجآت في المستقبل وحفظاً للأشرطة من أي ضياع. وللحقيقة فقد كان مشروع المكتبة الجديدة معداً سلفاً ولكنَّ ظروف ذلك الحريق قد عجلت بالأمر وأدت إلى إصدار القرار الذي بدأ تنفيذه فوراً.

ولم يمضِ عامٌ على ذلك الحريق الذي كلَّف الإذاعة الكثير حتى كانت تلك الأستوديوهات قد أُعيدَ ترميمها بكاملها وافتُتِحَتْ مرةً أخرى في يوم 27 أيار مايو عام 1977م. وقد أُطلقت عليها أسماء: (**محمد بابكر**)، (**السماني**)، (**خانجي**) و(**الدوحة**).

وأصبحت هذه الأستديوهات تعرف بمجموعة الدوحة. وقد جاءت هذه الأستديوهات أحدث وأمتن من مجموعة أستديوهات كرومة التي سبقتها في التشييد، حيثُ روعي في تصميمها ألا تتداخل فيما بينها. ومن الأشياء الجيدة أنْ عُمِلَ لكلِ واحدٍ من هذه الأستديوهات مدخلٌ مستقلٌ تماماً وليس كأستديوهات مجموعة كرومة التي تشترك جميعها في وحدانية المدخل، مما سبب الكثيرَ من الإزعاج للعاملين داخل هذه الأستديوهات. وقد جاءت أسماء هذه المجموعة الجديدة من بعض المعالم والأفراد الذين لعبوا دوراً في مسيرة الإذاعة وهي:

❖ **أستوديو الدوحة**: وهو قد أخذ من اسم العاصمة القطرية المعروفة تقديراً للمساعدات الفنية التي قدمتها دولة قطر للإذاعة السودانية.

❖ **أستديو خانجي**: مأخوذ من محمد عبد الرحمن الخانجي رابع مدير للإذاعة.

❖ **أستديو السماني**: مأخوذ من اسم الشيخ السماني أحمد عالم أحد كبار المنشدين السودانيين الذين أثروا مكتبة الإذاعة بعشرات القصائد الدينية.

❖ **أستديو محمد بابكر**: مأخوذ من اسم الشيخ محمد بابكر أحد كبار قارئي القرآن الكريم بالإذاعة. وقد كان لصوته حلاوة وطلاوة تحلق بالسامعين في عوالم من العرفان القرآني السامي. وكان الناس يذرفون الدموع من الوجد الذي يثيره صوت ذلك الشيخ الجليل الممتلئ بالخشوع والمهابة.

بافتتاح تلك المجموعة من الأستديوهات (**مجموعة الدوحة**) أصبح لدى الإذاعة عدد لا يستهان به من الأستديوهات الجيدة، بلغ عددها الإثني عشر. واستطاعت أن تقدم خدمةً إذاعيةً أفضل، تمثلت في تطور أساليب الإخراج والمونتاج والتسجيل. وأتاحت فرصاً أكبر للإعداد وتجويد الأداء.



الفصل الثالث

مواعيد سطرتها الأقدار

الفصل الثالث

﴿مواعيد سطرتها الأقدار﴾

* * *

الصدفة التي قادتني للعمل بالتلفزيون

بعد عامين من دخولي الإذاعة وفي أمسية الخامس من شهر أيار مايو 1977م كنتُ قد انتهيت من قراءة أخبار الساعة السابعة بالإذاعة وهممتُ بالخروج إلى المنزل، فجأةً جاءني الأستاذ (**حديد السراج**) مدير القسم السياسي بالتلفزيون آنذاك والذي أصبح فيما بعد مديراً عاماً للتلفزيون ثم مديراً عاماً للإذاعة وطلب مني أن أقرأ التعليق السياسي بالتلفزيون لأن المذيع المكلف بقراءته لم يحضر من بيته.

كان أول رد فعلٍ مني هو الرفض الشديد لمجرد الفكرة. واعتذرت للأستاذ حديد عن قراءة ذلك التعليق، ولكنه أصر بشدة وقال لي: «**إذا كانت المشكلة ربطة العنق فهناك عدد منها بقسم الأخبار بالتلفزيون ويمكنك اختيار أي واحدة تروق لك، وكلها عشر دقائق تقرأ فيها التعليق وتذهب إلى بيتكم**».

أحسستُ برهبةٍ شديدة من خوض تلك التجربة لأنني ما زلت أعمل في إطار الراديو فقط ولم أهيئ نفسي لخوض التجربة مع

التلفزيون. ثم إنني لم أكن مستعداً ساعتها للظهور على الشاشة، حيث كنتُ أرتدي قميصاً عادياً بأكمام قصيرة لا أحسب أنه يصلح للظهور أمام الجمهور الذي تعود على مشاهدة المذيعين بهندامٍ خاص وبشكلٍ أنيق. ولما كان حديد صديقاً عزيزاً وأخاً كريماً فقد بدأ ينتابني إحساسٌ بالخجل من رفضي له في ذلك الموقف العصيب. ولذلك فكرتُ في الموافقة رغم التردد الذي كان يهيمن عليَّ.

ولم تطاوعني نفسي على رد الأخ حديد فقلتُ له هيا بنا. خرجنا عبر الممر الواصل بين الإذاعة والتلفزيون ودخلنا قسم الأخبار وتسلمت التعليق بعد أن لبستُ ربطة العنق لأول مرةٍ في حياتي بمساعدة الزميل حديد السراج. وجاءت ساعة الصفر وأنا أتصبب عرقاً من خوض التجربة، حتى فوجئتُ بالمصور يقول لي استاند باي وبعدها مباشرةً لمحتُ صورتي على جهاز المونيتر الذي أكد لي أنني على الهواء.

عندها بدأت باسم الله وقرأت التعليق وسط الحرص الشديد على أن تخرج كل كلمة بشكلها السليم. وحاولت جاهداً المحافظة على ضبط جلستي والنظر للكاميرا بين الفينة والأخرى وهذا ما يميز قراءة التلفاز من قراءة الراديو. وانكسر حاجز الخوف عندما استرسلتُ في قراءة التعليق. وانتهت المهمة بسلام بحمد الله. وبعد أن أكملت مهمتي فاجأني المصور بتهنئته الحارة على نجاح التجربة قبل أن أقوم من الكرسي. وقد كانت لتلك التهنئة قيمتها

بالنسبة لي مما جعلني أستزيده منها بالسؤال عن أسلوبي وجلستي وطريقة الأداء الخ.. وقبل أن يكمل لي انطباعاته التي حرصت على الاستزادة منها فاجأني السيد مدير التلفزيون المهندس (**حسن أحمد عبد الرحمن**) بدخوله الأستديو وإطرائه الشديد على الأداء مما جعلني أشعر بالفرح الغامر والثقة وحمدت الله على كل ذلك. وفاجأني المدير بقوله:

«أنت لن تغادر المحطة اليوم وستبقى إلى نهاية الإرسال كي تقرأ نشرة الأخبار الأخيرة وتختتم الإرسال ثم تحملك سيارة التلفزيون إلى المنزل بعد نهاية الإرسال، ثم إنك من اليوم ستكون معنا بجدول الأخبار الرسمي».

ابتهجت غاية الابتهاج لما سمعته من حديث السيد المدير الذي أقسم لي بأنَّ هذه هي الحقيقة وأنه أعجب بطريقة الأداء. ولم تسعني الفرحة لذلك الحديث وحمدت الله على تحقيق هذا النجاح من أول يوم، واستجبت لرغبة المدير وبقيت بالتلفزيون حتى ختام الإرسال لقراءة الأخبار الأخيرة.

بعد قليل وأنا بالمحطة اتصل عدد من المشاهدين بمكتب المدير وبعضهم على تلفون قسم الأخبار يشيدون بهذا الوجه الجديد على الشاشة. وقد أسهم كل ذلك في زيادة الثقة لديَّ بالمواصلة. وكانت واحدة من أسعد اللحظات في حياتي وأنا أرد على تلفونات المشاهدين التي شجعتني كثيراً في مستقبل أيامي مع التلفزيون.

وتذكرتُ في تلك اللحظات الأيام الأولى التي ظهرت فيها على شاشة التلفزيون عندما كنتُ تلميذاً بالمدرسة والتي استضافتني فيها الأستاذة (**آمنة سيد أحمد**) مقدمة (**برنامج الشباب**). ففي عام 1973م جئت إلى الخرطوم برفقة والدتي التي أجرت عمليةً جراحيةً بمستشفى الخرطوم الجنوبي، وأثناء تلك الفترة اتصلت بمقدمة برنامج الشباب وطرحت عليها بعض القصائد الشعرية من تأليفي فقالت لي: «**ستكون اليوم ضيف البرنامج على الهواء**».

لم يكن هناك تسجيلٌ للبرنامج آنذاك وإنما كان يقدم حياً على الهواء من أستديو البث المباشر. وجئت للمحطة في الموعد المحدد. وقرأت ثلاثاً من القصائد التي كتبتُها في المرحلة الوسطى وهي: (**تواشيح اليتامى**)، (**لهبُ الحروف**) و(**الثريا**). وبعد الانتهاء من الحلقة فوجئتُ بموظف الاستقبال يقول لآمنة سيد أحمد: «**لقد اتصل العديد من المشاهدين طالبين إعادة هذه القصائد خصوصاً تواشيح اليتامى التي كانت تعبر عن تجربة حزينة لأسرةٍ فقدت عائلها الوحيد**».

فقالت لي الأستاذة آمنة: «**لا بد إذن أن تأتي الأسبوع القادم لقراءتها على المشاهدين**». فقلتُ لها: «**إنني سأعود إلى النهود قبل موعد الحلقة**». فأخذت مني القصائد وطبعتها على ورق الرونيو ووزعتها على المشاهدين الذين اتصلوا بها. تذكرتُ تلك الأيام وأنا أنتظر بالتلفزيون لقراءة أول نشرة على الهواء بعد ذلك التعليق،

وبالفعل بقيتُ حتى ختام الإرسال وقرأتُ نشرة الأخبار الأخيرة ثم عدتُ إلى البيت لأتقبل تعليقات الأهل والأصدقاء التي شجعتني على مواصلة المسير. واستمر تعاوني مع التلفزيون منذ ذلك اليوم بلا انقطاع. وبالرغم من أنني عملت مع التلفزيون كمتعاون فقط إلا أنني ظللت ملتصقاً به بشكل كبير، خصوصاً في مجال قراءة نشرات الأخبار الرئيسية.

قدمتُ بالتلفزيون العديد من البرامج كان أولها برنامج (**شخصيات في الأنباء**) الذي يعده أسبوعياً الزميل (**معاوية محمد عابدين**) والذي أصبح فيما بعد محامياً بعد نيله درجة الليسانس في القانون، ثم برنامج (**ليالي السمر**) وبرنامج (**لقاء السهرة**) وبرنامج (**مطرب وجماهير**) وبرنامج (**فرسان في الميدان**) الذي كنا نشارك فيه كمجموعة تتكون من الأساتذة فراج الطيب، على المك، إبراهيم أحمد عبد الكريم، الحَسين الحسن، مُني محمود حمادة وشخصي إلى جانب الأستاذ حمدي بدر الدين صاحب البرنامج.

وقد جاءت مشاركتي في برنامج فُرسان بعد سفر الأستاذ الدكتور أحمد عبد الرحيم نصر وتوقف الأستاذة الدكتورة الرضية آدم التي واكبته منذ فترات البداية. وبالفعل فقد أضاف لي عملي بالتلفزيون أعباءً جديدة وأبعاداً جديدة تمثلت في مواجهة عالم الأضواء والشهرة والظهور في كل المحافل العامة الرسمية منها

والشعبية. ولا شك أن هذا الظهور قد أضاف لي بُعداً آخر غيَّرَ من ملامح حياتي بشكل كبير في مستقبل الأيام.

في صالون فرّاج

كنتيجة لظهوري بالتلفزيون من خلال البرامج والأخبار فقد ازداد حجم احتكاكي بالأوساط الثقافية والفنية. وقد كان ذلك مدعاةً لخلق العديد من الصداقات في هذه الأوساط والتي ظللتُ أعتز بها كثيراً. ومن تلك الصداقات ما نشأ بيني وبين الأديب الفنان (**أبو قرون عبد الله أبو قرون**). حيث ظلَّ أخاً وفياً تعرفتُ عليه في إحدى الليالي الساهرة بكازينو الشباب الذي يقع في مقرن النيلين بالخرطوم.

وكان سبب معرفتي به هو الفنان (إسماعيل حسب الدائم) الذي عَرَّفنا على بعضنا أثناء الحفل. جلسنا لساعات طويلة نجتر حديث الفن والإبداع فوجد كلٌ من نفسه في الآخر. وبعد أيامٍ من ذلك اللقاء جاءني أبو قرون في منزلي وطرق الباب دون موعد.

كان ذلك صبيحة الجمعة الأول من شهر تشرين أول أكتوبر عام 1978م. ولما خرجتُ إليه ودعوته للدخول أصر على البقاء بسيارته قائلاً: «**أرجو أن تغير ملابسك على الفور وتُلغي أي التزام لديك**». سألته باستغراب: «**إلى أين سنذهب إن شاء الله؟**» قال لي: «**إلى بحر العلم الذخور وبيت الثقافة العريق، إلى صالون الأستاذ**

فراج الطيب». لم أتردد في قبول الدعوة لأنني كنتُ قد سمعت بهذا الصالون منذ سنوات طويلة، حيث كان قد أنشأه الشيخ العالم والأديب النحرير (**الطيب السراج**) وبعد وفاته تحول إلى ابنه اللغوي الشهير (**فراج الطيب**) الذي عرفته الأوساط الثقافية والأدبية في السودان لغوياً متفرداً وعصامياً لا يُشقُ له غُبار. وقلتُ للصديق أبو قرون: «**ما دام هذا رأيك فذلك يعني أنه صالون عظيم بلا شك فأنت يا أبو قرون لا يمكن أن تُشيد بشيء لا يستحق الإشادة لأنكَ تقول للأعور أعور في عينه**».

وركبنا سيارته الصالون نحو بيت فراج. كان أبو قرون طوال الطريق يدندن بإحدى أغنياته الجديدة فهو ملحن لمعظم أغنياته التي تغنى بها المطربون الشباب، وهو رسامٌ وكاتبٌ وناقد. وفوق هذا وذاك فهو عسكري منضبط أجاد تطويع البندقية كما أجاد تطويع الكلمات.

وقفنا أمام منزل الأستاذ (**فراج الطيب**) المطل على نهر النيل بحي بيت المال الذي يعود عهده إلى أيام المهدية بأم درمان. حيث أسس هذا الحي مثله مثل بقية أحياء أم درمان جهادية المهدي أيام الخليفة عبد الله. وكان هذا الحي هو مقر خزينة الدولة التي سُميت ببيت المال كنايةً عن حفظ ممتلكات الدولة من المسكوكات والذهب والفضة. وقد شهد هذا الحي في عام 1889م وما تلاه من سنوات الهجمة العسكرية التي قادتها بريطانيا لاحتلال السودان

الكثير من مظاهر الفوضى التي واكبت مجيء جنود الاحتلال البريطانيين بقيادة كتشنر. ولذلك فقد غادر معظم السكان الأصليين ديارهم نجاةً من الموت تاركين المال والعتاد، إلى أن عاد الاستقرار فيما بعد. وكانت السيارات الصغيرة تملأ الشارع أمام منزل الأستاذ فراج المجاور للمسجد. وكان ذلك مؤشراً لكثرة الضيوف بالداخل. دخلنا إلى الصالون دون استئذان لأنَّ الباب كان مفتوحاً على مصراعيه كالعادة في كل أيام الجُمع.

هالني المشهد الرائع للحاضرين، حيثُ رأيتُ عدداً كبيراً من الأدباء والكُتاب والشعراء والمثقفين ملأوا كراسي الجلوس الوثيرة وكراسي الخيزران التي امتدت على طول وعرض الصالون. وقد جلس بعض الحاضرين في الصالة الخارجية عندما اكتظت بهم غرفة الصالون الرئيسية. وكان الجميع يُصغون للحديث في هدوء وسكينة أشبه بطقوس المساجد ودور العبادة.

أخذنا أماكننا بصعوبة بعد أن أفسح لنا بعض الشباب الطريق للجلوس في مكان مريح يمكننا من متابعة كل المتحدثين. كان المتحدث لحظةَ دخولنا هو الأستاذ الشاعر والأديب الكبير (**عبد الله الشيخ البشير**). وكان يقرأ قصيدةً عصماء لم تطرق أذني من قبل، أسماها البحث عن بيت شعر، وهي من عيون الشعر السوداني بلا منازع. وبعد انتهائه من إلقائها صفَّقَ لها جميع الحاضرين وأشادوا ببراعته في هذا الألهام العظيم. وعندها تفحصتُ المكانَ من

قمته إلى أسفله، وتفحصتُ الجالسين من أقصاهم إلى أدناهم، فرأيت فطاحل أدباء السودان وشعرائه. رأيتُ قبالتي مباشرةً الأستاذ (**فراج الطيب**) صاحب الصالون يرتدي جلباباً ناصع البياض وعِمةً وشالاً مقصباً بخطوط سوداء ورمادية، وعلى يمينه جلس الأستاذ الشاعر (**محمد عبد القادر كرف**) ثم الأستاذ الشاعر (**مهدي محمد سعيد**) ثم الأستاذ الشاعر (**محي الدين فارس**) ثم الأستاذ الشاعر (**مصطفى سند**) ثم الأستاذ المخضرم شاعر الحقيبة (**محمد بشير عتيق**) ثم الأستاذ الشاعر (**عبد القادر أحمد سعد**) ثم الأستاذ الأديب (**فاروق سلمان**) ثم الأستاذ الشاعر (**مصطفى طيب الأسماء**) ثم الأستاذ الشاعر (**صديق مجتبى**) ثم الأستاذ الأديب والدبلوماسي (**محمد يحي الشريف**) سفير السودان باليمن وسفير اليمن بالسودان حيث إنه سوداني يمني ثم الدكتور (**مالك حسين**) رائد مجلس الشعب ثم الأستاذ الشاعر (**عبد القادر الكتيابي**).

وعلى مقربةٍ من الباب جلس (**الطيب فراج الطيب**) نجل الأستاذ فراج الأكبر، والذي ظل حريصاً على حضور كل المنتديات ملتزماً الصمت، خادماً للحاضرين، ومستقبلاً للجميع بابتسامته البشوشة والمشروبات الباردة والساخنة والمأكولات الشهية التي كان الصالون يفيض بها في كرمٍ حاتميٍّ أصيل.

وجالَ بصري حولَ جُدرانِ الغرفة الواسعة فرأيتُ على أحد الحوائط صورةً كبيرة للشيخ (**الطيب السراج**) والد الأستاذ فراج

ومؤسس هذا الصالون. وتأملتُ ملامح الرجل فقرأت الكثير من فصول تاريخنا العربي المتمثل في زِيِّهِ البدوي الذي كان يعتز به، وعمامتهِ التي لم تُشبه أي عمامةٍ رأيتها من قبل.

لقد كان الشيخ الطيب إلى جانب تأسيسه لهذا الصالون مهتماً ومولعاً باللغة العربية التي لم يتهاون يوماً في تأديب مَنْ يَلحنون في نحوها وصرفها. وكان أول سودانيٍ يتشرف بعضوية مجمع اللغة العربية في مصر أيام النحاس باشا. وقد كان بدوره صديقاً ومعجباً بشخصية النحاس باشا وطه حسين والمازني وأضرابهم من فطاحل أهل الأدب واللغة في مصر. وبعد انتهاء الأستاذ عبد الله الشيخ البشير من إلقاء قصيدته دار الحديث حول الملامح العربية الأصيلة في الأدب الشعبي السوداني.

وأفاض الأستاذ عبد الله الشيخ البشير في سرده لنماذج الشعر الشعبي لود ضحوية واب سريجاً بره والحاردلو وشعراء البطانة والهمباتة. ثم وضع مقارنةً بينهم وبين صعاليك العرب أمثال تأبط شراً والشنفرى ثم تحدث بعده الأستاذ فراج الطيب فأسهب في التأصيل للمفردات السودانية التي نبعت من أصول عربية قديمة، ولم ينقطع الحديث إلا بصلاة الجمعة التي أديناها في المسجد المجاور لبيت فراج ثم عدنا لمواصلة الحديث بعد تناول طعام الغداء الذي أصبح جزءاً من هذا الصالون العريق. وقُبيلَ الغروبِ خَرجتُ مع الصديق الأستاذ أبو قرون، بعدَ أن أحسستُ أنَّ كلَّ ذرةٍ في

جسدي قد ارتوت أدباً وشعراً. وقال لي أبو قرون ونحن نغادر دار المنتدى: «**لقد ظل هذا المنزل خلال السنوات في حالة طوارئ مستديمة في كل يوم جمعة، يستقبل العشرات من الضيوف من كل السحنات، يدخلون في الصباح ويخرجون بعد أن يُرخي الليل سدوله على المدينة، فيخرجون وقد تشربوا من كل ضروب الثقافة**».

استمرت علاقتنا بصالون فراج بشكلٍ لا ينقطع على مدى أكثر من عِقدٍ من الزمان. وظللنا نحسب الأيام انتظاراً للجمعة التي لا يحلو لنا قضاءها إلا في ذلك الصالون. وتعرفتُ من خلاله على عدد كبيرٍ من أدباء السودان الذين تعلموا منه.

وقال لي الأستاذ فراج ذات يومٍ: «**إنَّ الزعيم الأزهري كان ضيفاً مستديماً أيام الشيخ الطيب السراج، وكان المحجوب وتوفيق صالح جبريل والهادي أبو بكر ومحمود أبو العزائم وخالد أبو الروس ومحمد صالح فهمي وعشراتٌ غيرهم من مرتادي وتلاميذ هذا الصالون**».

تكوين منتدى الحروف

كنتيجة لعلاقتنا الوطيدة بصالون الأستاذ فراج وإفرازاته الثقافية والأدبية الواضحة فكرنا ضمن مجموعةٍ من الأصدقاء في إنشاء صالون مشابه يهتم بالفنون والشعر والموسيقى والعطاء الثقافي لدى الشباب. وبدأنا نتجاذب أطراف الحديث فيما بيننا

كمجموعة أصدقاء، حيث اتفقنا على أن يجمع الصالون الجديد شعراء الأغنية والمطربين والكُتاب وغيرهم من المبدعين الشباب الذين لا يتعاملون مع صالون الأستاذ فراج. بمعنى أنه يمكن أن يكون توأماً لذلك الصالون مع اختلاف الطبيعة والأعضاء.

وما دام صالون فراج يهتم بالتأصيل والأدب الكلاسيكي وفنون اللغة والفقه فهذا المنتدى الجديد سيتناول قضايا وفنون المرحلة من غناء وموسيقى وصحافة وأدب شعبي وشعر غنائي ومسرح وما إليها. وبالفعل التقينا في إحدى الأمسيات بمنزل أبو قرون وعقدنا أول لقاء للصالون الجديد وأسميناه (**منتدى الحروف**). كان صاحب الفضل في هذه التسمية هو الأستاذ أبو قرون حيث برَّرها بقوله: «**هذا المنتدى يهتم بالكلام بضروبه المختلفة وأول الكلام هو الحرف، كما يهتم بالموسيقى وهي تبدأ أيضاً بالحرف الموسيقى لذلك نسمي هذا المنتدى منتدى الحروف**» فوافق الجميع على تلك التسمية.

ضم المنتدى عدداً من الشباب المؤسسين من المهتمين بقضايا الأدب والثقافة وهم: (**الشاعر عبد الوهاب هلاوي، الشاعر محمد نجيب محمد على، الشاعر سعد الدين إبراهيم، الشاعر التيجاني حاج موسى، المطرب يوسف الموصلي، الصحفي مصطفى أبو العزائم، الملحن يوسف حسن الصديق، الشاعر حسن السر، الملحن الماحي سليمان، الصحفي زين العابدين أحمد محمد، الشاعر**

حسن الزبير، المطرب أنس العاقب، الشاعر محمد يوسف موسى، المطرب سيف الجامعة، إلى جانب شخصي والأستاذ أبو قرون عبد الله أبو قرون صاحب الفكرة).

واتفقنا أن يكون المنتدى كل ثلاثاء، يتنقل بين بيوت الأعضاء حيث نتفق كل أسبوع على المنزل الذي يستضيف الجلسة القادمة. وتنقل المنتدى بين منازل التيجاني حاج موسى وعبد الوهاب هلاوي ومصطفى أبو العزائم ومحمد نجيب محمد على ومحمد سليمان والماحي سليمان وسعد الدين إبراهيم وحسن السر وأبو قرون وغيرهم. وكنا نبدأ الجلسات بعد ساعات العمل الرسمية بالمكاتب ونستمر إلى ساعةٍ متأخرة من الليل.

ولما كان الجميع يأتون منهكين من عناء العمل فإنهم يحتاجون إلى قسط من الراحة قبل البدء في المنتدى ثم يأخذ طعام الغداء وقتاً من الناس ثم يعقبه استرخاء لفترة قصيرة حسب ما يقتضيه جو الخرطوم الساخن. وفي إحدى المرات قال أبو قرون بسخريته المعهودة: ((**لقد تحول هذا المنتدى من مُنتدى الحُروف إلى مُغْتَدَى الحُروف، فرد عليه الشاعر الساخر عبد الوهاب هلاوي لا بل أصبح مُغتدى الخَروف**))، كان ذلك إشارةً إلى خروفٍ ذبحه أبو قرون في ذلك اليوم للأعضاء.

استمر منتدى الحروف يؤدي رسالته الكبيرة، وكان أحد المرافئ الجميلة في أمسيات السودان. كان خفيف الظل وغنياً

بالعطاء، حيث خرجت منه العديد من الأعمال الشعرية والغنائية والصحفية. وكان الأعضاء يطرحون أعمالهم الجديدة فيدرسها الحاضرون ويُبدون عليها ملاحظاتهم في أمانةٍ وتجرد، ثم تتم إجازتها لتخرج للجمهور مُبرأةً من العيوب.

انضم للمنتدى في مراحل لاحقة عدد من الشباب منهم الشاعر مختار دفع الله، الشاعر عزمي أحمد خليل، الشاعر بكري نعيم، المطرب والملحن فتحي المك، المطرب عماد أحمد الطيب والمطرب حلمي حسن جاويش وغيرهم. وفي إحدى المرات طرأت لي فكرةٌ حول إثراء المنتدى بموضوعات خارج إطار الشعر والموسيقى فاقترحتُ للأعضاء طرح بعض الأمور الفلسفية والدينية في المنتدى. لم تجد الفكرة قبولاً لدى الكثيرين، ولكني ظللتُ أطرحها في كل لقاء.

ومرةً واجهني المطرب والملحن الصديق (**فتحي المك**) والذي بدأ ينتظم بشكلٍ واضح في حلقات المنتدى بسؤالٍ مباشر: «**لماذا تُصر على إقحام قضية الدين في هذا المنتدى؟**» قلتُ له: «**يا فتحي الدين جزءٌ لا يتجزأ من حياتنا وسلوكنا اليومي رضينا أم أبينا. وهناك العديد من نقاط الخلاف والاتفاق والقضايا التي ما زالت معلقة في أذهان الشباب حول أمور الدين فلماذا لا نجعلها جزءاً من قضيتنا بالمنتدى؟**» قال لي: «**قضايا مثل ماذا؟**» قلتُ له: «**مثل الصراع الدائر الآن حول فكر محمد ابن عبد الوهاب والذي يتبناه أنصار السُنة، ثم**

الصراع الدائر حول فكر الأستاذ محمود محمد طه وما إلى ذلك».

قال لي فتحي: «**هل تعرف أنَّ مسجد أنصار السنة هذا على مرمى حجر من بيتنا ولكني لم أشعر في أي يوم من الأيام بأي رغبة في دخوله أو حتى الوقوف عنده**».

قلتُ له يا أخي فتحي أنت مسؤول عن هذا التقصير في حق نفسك أمام الله، وأنا أدعوك الآن لدخوله ليس لأنه مسجد أنصار السنة وإنما لأنه بيتٌ من بيوت الله الواجب تقديرها ودخولها. بل إنَّ صلاتك لا تجوز إلا في المسجد ما دُمتَ جاراً له بنص الأحاديث. شعرتُ أنَّ ذلك الأمر بدأ يروق للمطرب والملحن فتحي المك مما جعله يسألني مراراً عن أمور الدين كلما التقينا في المنتدى.

وفي يوم من الأيام كان المنتدى منعقداً بمنزل الصديق (**محمد سليمان**) بحي الملازمين بأم درمان، فجاءني فتحي وجلس بالقرب مني قائلاً: «**يا عوض أنا اقتنعتُ بحديثك وقررتُ أن أدخل المسجد غداً فهل يمكنك أن تأخذني إليه؟**» قلت له: «**بكل سرور**». واتفقنا على موعد في منزلهم عصر الغد. وجئتُ في الموعد وتوضأنا في بيتهم ودلفنا نحو المسجد. كان هناك حديثٌ طويل عقب الصلاة حول التوحيد والشرك الخفي. أحسستُ بأنَّ فتحي قد ذابَ وجداً وانفعالاً بذلك الأمر الجديد على حياته. وخرجنا من المسجد بقرارٍ منه أن يواظب على دخول المسجد كل يوم. وقال لي: «**ما رأيك في أن أبدأ في تلحين أغنياتٍ دينية وأتخلى عن الأغنيات العاطفية؟**»

قلتُ له أرجوك ألا تفعل حتى تُكمل لحنَ أغنيتي (**العصافير الحزينة**) وهي أغنيةٌ كنتُ قد أعطيتها له قبل عدة شهور بغرض التلحين. فقال لي: ((**يا أخي الأغنية انتهى تلحينها منذ مدة وأشرطتها نزلت السوق حيث سجلتها ضمن ألبوم جديد لشركة منصفون**)).

وذهبتُ معه إلى البيت وأخذتُ نسخةً من الشريط فوجدته قد وضع لحناً رائعاً للأغنية. وافترقنا، ولم يأتِ فتحي للمنتدى بعد ذلك اليوم، ولما زرته وجدته قد غرق في قراءة الكتب الدينية وأرسلَ لحيته وترك المنطال واللباس الأفرنجي للجلبابة القصيرة. فحياني تحيةً تختلف عن كل أساليب التحايا التي عهدتها عنه، تحيةً ملؤها الوقار والعبارات المنتقاة من أسلوب السلف. قلتُ له:

((**يا فتحي أنا سعيدٌ بأن أثمرت التجربة بهذا الشكل الذي ما كنتُ أحسبه سينمو بهذه السرعة. وفي الواقع فإنني جئتك الآن بطلبٍ بسيط حيث استمع الأخ الفنان محمود تاور لأغنيتنا المشتركة العصافير الحزينة وأُعجب بها وهو يريد التغني بها، ومن جانبي كشاعر للأغنية أعطيته الضوء الأخضر وأريد موافقتك كملحن فما رأيك؟**))

تغيرت ملامح فتحي في لمح البصر وقال لي بكل حزم: ((**يا أخي عوض أنا أغلقتُ باب الغناء والتلحين وهذا الكفر إلى الأبد، وسأطلب من إدارتي الإذاعة والتلفزيون إيقاف جميع أغنياتي وشطب**

اسمي من قائمة الفنانين، ولو استدعى الأمر ردَّ الأموال التي تقاضيتها عن كل التسجيلات الغنائية فلا مانع عندي. ولذلك أرجو أن تخبر الأخ محمود تاور بذلك وأرجو أن لا يجادلني في هذا الموضوع مرةً أخرى».

قلتُ له: «**يا فتحي أنا لا أريد أن أُثنيك عن هذا الطريق الذي أعترف بأني أنا الذي قُدتُكَ إليه، ولكني أرجوك عدم الغلو في أمر الدين تحسباً لسوء العواقب. وبدلاً من مثل هذا القرار دعنا نبحث في أمر تحريم الغناء بصورةٍ جادة لأنه من الأمور التي كثر فيها الجدل وظلت معلقةً بين الرافضين والمبيحين**». فقال فتحي: «**إنني حزمتُ أمري واقتنعتُ بتحريم الغناء وسأحرق عودي وكمنجاتي في الحزام الأخضر**».

لم أشأ أن أُفسِدَ على الصديق فتحي أمر دينه رغماً عن تحفظاتي على بعض النقاط التي أثارها وودعته ورجعتُ إلى بيتي. بعد ذلك بدأتُ أتحدث إلى عدد من الأصدقاء عن ذلك الأمر وأخبرت به الصديق الصحفي (**حسين خوجلي**) الذي أثارته القضية إلى أبعد الحدود فكتب مقالاً صحفياً تحت عنوان (**فتحي المك والإسلام والكمنجة المحطمة**) جاء فيه:

الفنان المبدع فتحي المك رجل موهوب وملحن مبدع ولكنه عاد وعاءاً فارغاً من موهبته كالطبل الأجوف، وفي لحظةٍ من لحظات الغفلة وضيق التصور تراجع فتحي المك إلى طفلٍ يافعٍ لا

يعلمُ من بعد علمه شيئاً. تدحرج القهقرى ثلاثين عاماً إلى الوراء، واعتبرها أعواماً سلفت من الكفر والإثم والخسران. وبالرغم من أنَّ فتحي الملك يذخر بإمكانات هائلة من الرؤى الفنية المتفتحة في دائرة الموهبة الأصيلة المصقولة بالدُربة والدراسة إلا أنَّ توقفه لم يُثني السرب الجميل في أن يمضي قُدُماً مبشراً بمساحاتٍ جديدة للألق والفرح والدهشة في هذا الزمان الحزين. ولن يمنع صوتاً نقياً واحداً من أن يغني لقيم الحق والخير والجمال. فقد انسحب من ميدان الفنون فنانون كثر، البعض انسحب راضياً بما قدم والبعض ساخطاً بما يدور والبعض هرباً من حجارة المستمعين، ولكن كل هذه الحالات قبلت في إطار فردانية القرار.. بدون أي بُعدٍ خارجي أو فكري.

وما دعاني للكتابة أنَّ فتحي الملك انسحب من هذا الميدان باسم الدين الحنيف زاعماً أنَّ التوازي والمفاصلة بين الدين والفن حتمية من خصوصيات الإسلام، وأنَّ مزيداً من العداء للفن يعني مزيداً من القربى لله رب العالمين. هذه الدعوة الخطيرة الإسلامُ منها بريء، ألصقها به العدو العاقل لمصلحته والصديق الجاهل تبرع بها طوعاً ضدَّ نفسه ودينه.

وقد كان أُكُلُها مزيداً من التنصير والاستدراج لمهاوي الغزو الفكري المخطط والخصاء الثقافي المدروس والتعميد الاختياري الذي تمَّ لغالبية مثقفي عالمنا العربي والإسلامي. أمر

يقوم به الآن بعض المزايدين وهو داءٌ معلومٌ عند الثقاة بالتشدد. والتشدد يقود للغلظة والغلظة تقود للانزواء ومباينة المجتمعات. فعن أنس بن مالك رضي اللهُ عنه أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم كان يقول (لا تُشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم.. فإنَّ قوماً شددوا على أنفسهم فشدد عليهم.. فتلك بقاياهم في الصوامع والأديرة رهبانيةً ابتدعوها ما كتبناها عليهم. والفنون التي يتعوذ منها فتحي المك الآن ما هي إلا محاولة الإنسان بموهبته المتواضعة في تجميل حياته القصيرة وتلوينها بكسبه المحدود. فهو ينقش آنيته وينسق أزهاره وكلماته شعراً لفرحه بالوجود وبحمد ربه. فماذا عليه لو وقعه على قيثار أو رجعه بصوتٍ شجي. وما حركة كل هذا الكون إلا إيقاع وترجيع يتدرج بين الغلظة والرقة، قصف للرعود، وزفيف للرياح وحفيفٌ للأغصان وإنشادٌ للعنادل أو العصافير.

مبلغ ظني أنَّ المدخل للتحريم كان الآية الكريمة: ﴿**ومن الناس من يشتري لهوَ الحديثِ ليُضِلَّ به عن سبيل الله بغير علمٍ ويتخذها هزواً**﴾ صدق اللهُ العظيم. فما الذي يجعل هذه الآية تُفصل خصيصاً للغناء والإنشاد والموسيقى؟ لا أظنُ أنَّ هنالك أقوى من حُجة الإمام ابن حزم حين قال: {**لو اشترى مصحفاً للإضلالِ فهو مُحرم**} . فالغناء كلامٌ حسنه حسن وقبيحه قبيح. بل إنه أرقى أنواع الكلام إذ أنه ينتقل مزهواً من مرحلة التعبير الشعري ثم لمرحلة

المعالجة اللحنية ثم الأداء والتغني. والرسول صلى الله عليه وسلم عندما سمع الأشعري يتغنى بالقرآن زكى موهبته حين قال: {**لقد أوتيت مزماراً من مزامير داؤد**}. ولو أنَّ المزمار كان آلة لعينة لما شبه بها الرسول، ولما جعلها الله عزَّ وجلَّ وسيلة دعوة لداؤد عليه السلام. فلماذا هذه الآلات البريئة تُقاتَلُ الآن؟ وقد يكون المدخل الآخر لتحريم الغناء هو اجتماعه في مجلس قد يُدار فيه الإثم والفجور لأناسٍ يستحلون الحر والحرير والمعازف كما ورد في حديث البخاري، ولكن هؤلاء حتى طعامهم تصيبه الحرمة بالمجاملة والرضى والتغاضي.

والمدخل الفقهي القاصر للبعض يبرز في عدم ربطهم للنصوص بالزمان والمكان. وعدم إدخال الأمر في كليات الدين يجعلهم يفسرون بعض النصوص ويحاصرونها معزولةً عن ظروفها ويحاكمونها بما في نفوسهم من هوىً مسبق، ويُفرخون ما شاءوا من فتاوى وأحكام. وقد عالج هذا الأمر الشيخ محمد الغزالي بجدٍ وطرافة حين قال: (**وأخشى أن يكون سَوْقُ النصوصِ مقطوعةً من مُلابساتها سبباً في ضياع الدين والدنيا معاً**). وأضرب مثلاً بالمرويات التي جاءت في قضية البناء.. روى الشيخان عن خباب بن الأرت قال إنَّ المسلم يُؤجرُ في كل شيءٍ ينفعه إلا في شيءٍ يجعله في هذا التراب. وروى الترمذي عن أنس أنَّ رسول الله صلى اللهُ عليهِ وسلم قال: (**النفقة كلها في سبيل الله إلا البناء فلا خير فيه**). وأخرج داؤد عن

أنس أيضاً أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**أما إنَّ كلَّ بناءٍ وبالٌ على صاحبه إلا ما لا بُدَّ منه**). وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: (**مرَّ بي رسولُ الله صلى اللهُ عليهِ وسلم وأنا أُطينُ حائطاً من خص فقال: ما هذا يا عبد الله؟ فقلتُ حائطٌ أصلحه، فقال: الأمرُ أيسرُ من ذلك. وفي رواية، ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك، يعني الموت أو الساعة**). والحديث رواه أبو داؤد وصححه الترمذي. هذه الآثار لو أُخذت كلها على ظاهرها ما بُنيت قريةٌ ولا مدينة، ولعاش الناس في أكواخٍ لا تستر العورات إلا بجهد. والواقع أنها واردة في المكاثرة والمفاخرة والاستطالة على الناس. وبناء القصور جائز بلا ريبة. فهل الذين يحرمون الغناء مطلقاً يحرمون بناء القصور.

إنهم في بعض البلاد لا يزالون يرون الصور في التلفزيون محرمة وأقمار الأجانب تلتقط الصور لنا في أيام السلام والحرب على سواء. ونحن ندري أو لا ندري. فأين يذهب هؤلاء من تجربة الرسول صلى اللهُ عليهِ وسلم الجمالية حينما يأمر أصحابه بترك الأذان لبلال فإنه أندى صوتاً. وكلماته الآمرة لأبي بكر الصديق (**دعهما**) حينما زجر أبو بكر الفتاتين اللتينِ كانتا تغنيان ببيت عائشة. بعضهم قال إنَّ الفتاتينِ قاصرتان فهل يُحللون الخمر للصغار بنفس هذا المنطق؟ بل أين تذهب حُرمة الغناء والمدينة في مهرجانٍ فنيٍ كبير تستقبل رسول الهدى وهي تراه بدراً أهلَّ عليها من ثنيات الوداع. بل إنه صلى الله عليه وسلم أمر في زفاف فارعة

عائشة أن تحدث الناس بضرب الدفوف والغناء، وأنه صلى الله عليه وسلم أجاز لها نصاً غنائياً واضحاً:

ولولا الذهبُ الأحمرُ ما اخضرَّتْ بواديكم
ولولا الحنطةُ السمراءُ ما سمنت عذاريكم

بل كيف نفسرُ إخفاء الرسول لعائشة وراء ظهره وهي تشاهد غناء ورقص الأحباش في صحن المسجد الوقور؟ بعد كل هذا نحن لا نريد غير أن نحور (**دعهما**) التي قالها المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى (دعه) ليمارس فتحي المك مسيرته الفنية برؤيةٍ جديدة وطرحٍ إيمانيٍ سديد. فالخير لا يأتي إلا من خلال الموهبة، والموهبة لا تخرج إلا اختياراً، والاختيار المرتبط بالموهبة والرضى هو المفهوم الذي يسمى (**النية**) في الكسب الإسلامي للحسنات.

وما أعرفه عن فتحي المك فإنَّ كسبه للحسنات لا يأتي إلا عبر فنه وهذا ابتلاؤه الذي سيلازمه حتى النهاية. فإما أن يستعمله سلاحاً فاعلاً في حركة التبشير بقيم الإسلام يرقى كدحه في سبيل العرفان وإما أن يقتل موهبته بالغفلة والنكوص ليظلله تيار التسليم والاعتياد والتلاشي، ويترك الساحة مسرحاً للتجريب القبيح والأعمال الشائهة. فالخروج من هذه المواجهة بتعليق الأمر كله على شماعة الإسلام منطق هزيمة لا يقبله حصيف. فما زالت

هنالك ثلاث صفوف للصلاة يومياً باتحاد الفنانين تؤدى عليها الفريضة جماعة وإمامهم منهم يتغنى بالقرآن كأنه أُعطي مزماراً من مزامير داؤد. فلماذا يختفي فتحي المك عن زملاء الدرب وهم في أمس الحاجةِ لوجوده بينهم كفقيهٍ بعد أن تشابهت عليهم الأمور؟ وبعد كل هذا يبقى التحدي الأكبر، فقد غمر فتحي الساحة بتأوهات العشاق ومظاليم الهوى وتواشيح الفراق. وبمنطق التعويض ألا يحق لنا أن نتساءل وهذا الشاب يتنحى عن هذه الثقرة، مَنْ سيغني للسودان المسلم الجديد وكلاب الغرب والشرق في الداخل والخارج تأكل لحم تجربته الغضة؟

مَن سيغني لقضايانا ويثبت الأمل فينا من أجل أرضنا المغتصبة وحقنا المباح؟ مَن سيغني لأمة الإسلام لجراحاتها ولإنسانها المعذب المظلوم؟ من سيغني لأطفال المحنة في كابول والجنوب اللبناني؟ ومن يُترجم انتصارات المجاهدين في أعماق الجبل الموحش وفي قطاع غزة المحتل؟

ومن ينشد لأيتام آسام والفلبين لحون المواساة والصبر الجميل؟ بل أدنى من ذلك من يغني لهذا الجمال المطلق في الكون من سماء ونجوم وبحار ورياض؟ من يغني للحب الكبير للأم والوطن؟ من يخرجنا من دوامة المرأة والليل الطويل إلى المرأة الفكرة المرأة الإنسان؟ هذه المرحلة سيغني لها أبناؤها المهمومون بها، حيث لا فصام في المبادئ والتعبير. فالسودان المؤمن الجديد سيلد الفنان

الملتزم المعافى، وبعدها فلتتحطم كل قيثارات الطرب الرخيص المتردي الغارق في أتون الذاتية والشهوات، وليحرق فتحي المك تجربته كما يشاء، فشركات التأمين وحدها المسؤولة عن التعويض وليس الإسلام.

بعد نشر هذا المقال ذهبتُ للأخ فتحي في بيته لمعرفة وجهة نظره حول محتوياته وحول الكتابات الكثيرة التي ملأت الصفحات الفنية عن اعتزاله. قابل كل ذلك الأمر بفتورٍ شديد وقال لي:

«**هذا كله من عمل الشيطان، وحتماً سيسألهم الله عنه، وأرجوك يا أخي عوض أن تفعل مثلي وتقاطع هذه الأوساط الفنية التي لن تقودك إلا إلى الضلال**».

قلتُ له: «**يا أخي فتحي هون عليك، ليس كل أمر الفن ضلال، وأنا أعتقد أن موقعي بالإعلام هو الذي سيقودني إلى نشر الفضيلة وإحلالها مكان الرذيلة ما دُمتُ مقتنعاً بذلك. ولعلك تدري أنَّ إصراري على مناقشة أمور الدين الذي جاء بك إلى هنا لم يكن إلا من خلال موقعي في الوسط الإعلامي الذي جمعني بك وبغيرك**». قال لي: «**هل يمكنني أن أقدم لك دعوةً غداً لحضور ندوةٍ بالمسجد حول هذه الأمور حتى ينجلي لك الأمر تماماً؟**»

قلتُ له: «**كان بودي أن ألبي هذه الدعوة التي أحرص على أمثالها كثيراً، ولكني لن أتمكن من ذلك لأنني سأسافر غداً مع**

الرئيس إلى مدينة اللعيت في مأمورية قد تستغرق عدة أيام». ثم انصرفنا لأحزم أمتعتي للسفر إلى مدينة الفاشر ومنها إلى اللعيت.

واشتعلت النيران في الطائرة

مدينة (**اللّعَيِّتْ جار النبي**) من المدن المكافحة الجريئة التي أبت أن تظل قريةً وسط المدن، ولذلك كافح أبناؤها الأوفياء حتى صنعوا منها مدينةً بعد أن كانت تُعتبر إحدى القرى التابعة لدارفور في حدودها مع كردفان. وقد بني أبناء اللعيت مجلساً في مدينتهم وبنو مستشفىً كان ضعف حجم المستشفى القديم، كما أنشأوا إدارةً للكهرباء التي أدخلوها بجهدهم الذاتى وتوجوا ذلك ببناء مسرح في المدينة وقصر للضيافة يُعتبر إكمالاً لجهودهم الكبيرة نحو تطوير منطقتهم.

وأهلُ اللعيت يمتهنون الزراعة خصوصاً زراعة الفول السوداني والبطيخ والسمسم والذرة والدخن. وتزخر غاباتها بصمغ الهشاب الذي يدر ربحاً وفيراً على الأهالي وسكان القرى المجاورة لها. وقد حباها الله أرضاً منبسطة سهلة زاخرة بالخيرات مما ساعد على نهضتها بشكل سريع. لكل تلك الأسباب قرر أبناء اللعيت استدعاء رئيس الجمهورية ليفتتح تلك المرافق ويعلن تطوير قريتهم إلى مدينة. وكان حسن الحظ قد جعلني واحداً من الذين تمَّ اختيارُهم لمرافقة الرئيس في تلك الرحلة لحضور المناسبة. وصلنا مجموعةً

كوفد مقدمة إلى مدينة (**الفاشر**) عاصمة (**شمال دارفور**) على متن طائرة البوينج 737 التابعة لشركة الخطوط الجوية السودانية على أمل أن نستقل طائرة هليكوبتر عسكرية إلى مدينة اللعيت جار النبي قبل يوم من وصول الرئيس لأن اللعيت ليس بها مطار يستقبل البوينج. مكثنا بمطار الفاشر حوالي ساعة من الوقت بانتظار إقلاع طائرة الهليكوبتر العسكرية لتنقلنا إلى اللعيت ثم تعود لتنقل فوجاً آخر وهكذا حتى يكتمل وصول جميع المشاركين في الاحتفالات. وركبنا طائرة الهليكوبتر العسكرية التي كان يقودها الرائد طيار (**أحمد بابكر**) من قوات سلاح الطيران.

كانت بين الركاب امرأة واحدة هي السيدة (**كتيرة ياسين**) إحدى عضوات أمانة المرأة بالاتحاد الاشتراكي السوداني الذي كان حزب الحكومة الأوحد آنذاك. وبدأ الرائد أحمد في تشغيل محركات الطائرة استعداداً للإقلاع، وفجأةً هبَّت السيدة كتيرة ياسين من مقعدها وقالت للكابتن: «**لحظة من فضلك يا كابتن**»، وتوجهت نحو باب الطائرة تهم بالنزول إلى الأرض.

نظر الجميع إليها باستغراب شديد ولكنهم لم يفصحوا بأي كلمة فربما كان لها أمر خاص تريده قبل إقلاع الطائرة. ونزلت إلى الأرض وتجولت ببصرها يمنةً ويسرة حول الطائرة على مشهد من الركاب، ثم هرولت نحو كومة من الأحجار الملقاة على الرصيف وحملت حجراً ضخماً وعادت به إلى الطائرة. صعدت السلم

تحمل ذلك الحجر ووضعته على المقعد المجاور لها. كان الجميع ينظرون إليها وقد عقدت الدهشة ألسنتهم من ذلك التصرف الغريب. ونظرت السيدة كتيرة ياسين للجميع وسط تلك الحيرة وقالت لهم: ((**يا جماعة أرجو عدم المؤاخذة، فأنا المرأة الوحيدة في هذه الطائرة ولذلك لابد من وضع حجر معي وإلا فستحترق هذه الطائرة أو يحدث ما لا تُحمد عقباه**)).

انفجر الجميع ضاحكين وكأنهم لم يُصدقوا ما تراه أعينهم. ولما كانت السيدة كتيرة تجلس بالقرب مني قلت لها: ((**يا كتيرة هل تعتقدين في مثل هذه الأشياء العجيبة والمريبة؟**)) قالت: ((**نعم وبكل تأكيد**)). قلتُ لها: ((**إذا كان هذا التصرف قد بَدَرَ من أحد الرجال لكان مفهوماً ولكن أن يحدث منك أنت المرأة التي يُفترض أن تدافع عن بنات جنسها ضدَّ مثل هذه المعتقدات فهذا أمر لا يُعقل**))،

فقالت: ((**كلا، إنني مقتنعة بهذه الأمور قناعة تامة وعندي معها تجارب كثيرة، وحتى بعد إحضار هذا الحجر ربنا يستر على هذه الطائرة**)).

كانت روح الدعابة واللطف التي عالجت بها المسألة قد جعلتها في عداد الطرافة والنكتة أكثر من أن تكون مدعاةً للتندر أو الامتعاض، وأغلقت أبواب الطائرة وارتفعت في سماء مدينة الفاشر متوجهةً نحو الشمال الشرقي إلى مدينة اللعيت. وعندما بدت وديان دارفور برمالها وأشجارها المتناثرة من الجو التفَتَ إليَّ قائد الطائرة

كابتن (**أحمد بابكر**) ودعاني للجلوس معه في كابينة القيادة لمشاهدة جمال الطبيعة في أرياف دارفور. وكان كابتن أحمد بابكر صديقاً قديماً جمعتني به زمالة الدراسة الجامعية حيث كنا زملاء فصلٍ واحد في كلية القانون رغم أنه تخرج من قبل في كلية الطيران بالاتحاد السوفيتي وانخرط في سلك العمل العسكري لسنوات عديدة وتزوج وأنجب عدداً من البنات والبنين.

ولأنه من المحبين لمادة القانون فقد التحق بهذه الكلية التي لم تساعده ظروف عمله العسكري على إكمالها في وقتها المحدد. وكانت تجمعنا به ساعات المذاكرة الليلية التي نقضي معظمها بمزل صديقنا وزميلنا القانوني (**كامل أحمد الحسن**) الذي عمل فيما بعد قاضياً بمحكمة القسم الشرقي بالخرطوم وتنقل بين محاكم العاصمة محرزاً الكثير من النجاحات في هذا المضمار.

جلستُ بين كابتن أحمد وبين زميله الآخر كابتن بابكر وهو من الطيارين العسكريين أيضاً، فوضع على رأسي سماعات كبيرة لأتمكن من الأنس معهما بسهولة أثناء الطيران. وعرفتُ لأول مرة أنَّ أزيز الهليكوبتر المتصل لا يمكن الإنسان من سماع غيره إلا إذا وضع هذه السماعات التي يلبسها أفراد الطاقم أثناء السفر.

كانت السماعات متصلة بميكروفون صغير مثبت أمام الفم ليساعد على التفاهم بين أفراد الطاقم. وبقينا نجتر ذكريات الجامعة ونتذكر رفاق الدرب أبناء الدفعة الذين أصبح معظمهم

قضاةً ومحامين مرموقين يشار إليهم بالبنان في السودان بعد أن برزوا في ساحات القضاء والمحاماة بالسودان ومنهم القاضي الشهير (**يوسف أحمد العبيد**) والقاضي (**عليش**) والمحامي المعروف (**فيصل عباس حمودي**) والقاضي (**عمر خيري**) شقيق الممثل القدير محمد خيرى أحمد والذي انتقل بعد عدة سنوات من القضائية وتحول إلى ديوان النائب العام، والمحامي (**بابكر محمد صالح**) ووكيل النيابة (**عوض الغالي**) والقاضي (**أحمد أبوزيد**) والمحامي (**يوسف أحمد محمد عثمان**) وغيرهم. حيث كان الجميع زملاءنا بالفصل وانقطعت بنا السبل في متاهات الحياة المتفرقة.

بعد فترة من الطيران قطعها حبل الذكريات مع كابتن أحمد وصلنا إلى منطقة اللعيت، وكنا نشاهد من الطائرة عدداً من القرى المتناثرة هنا وهناك، وكانت بينها قريتان كبيرتان فقال لي كابتن أحمد:

((**إنني الآن في حيرةٍ من أمري حيث إنه حسب الإحداثي الذي نسير عليه فهذه القرية التي على اليمين هي اللعيت، ولكنها تبدو أصغر وليس فيها أي معمار، في حين أن تلك الواقعة على يسار الطائرة تبدو أكبر حجماً وبها عمران واضح يدل على أنها اللعيت رغم أنها ليست المنطقة المحددة في خط سيرنا على الإحداثي**)).

قلتُ له: ((**وما هو الإحداثي يا أحمد؟**)) قال لي: ((**هذا هو الإحداثي**))، وأعطاني خريطة كبيرة للمنطقة رُسمت عليها بعض

الأسهم والخطوط وتظهر فيه خطوط الطول والعرض والتضاريس والمعالم الجغرافية والكنتورية بتفاصيل في غاية الدقة. وبين هذه الخطوط يوجد خطٌ بارز بقلم الرصاص يبدأ من نقطة البداية وينتهي في المدينة المطلوب الوصول إليها. وكان واضحاً جداً أنَّ الإحداثي الذي أمامي يشير إلى القرية التي على يمين الطائرة على أساس أنها اللعيت، في حين أنَّ القرية التي على اليسار كانت هي الأكبر والأكثر عُمراناً وبها منشآت واضحة للعيان.

قلتُ له: ((**إنني أرى أن تهبط في القرية الثانية على اليسار لأنها بالمنطق هي اللعيت حيث إننا نجيء الآن لافتتاح منشآت المدينة الجديدة، وهاهي ماثلة للعيان، أما تلك القرية التي على اليمين فلا شيء فيها غير هذه القطاطى والرواكيب الصغيرة والدواب التي ترعى بين الأشجار**)).

قال لي كابتن أحمد: ((**هذا كلام صحيح، ولكن دعنا نتبع الإحداثي لأننا كطيارين محكومون بقانون لا بد لنا من اتباعه حتى ولو أثار فينا الشك. وإذا لم تكن هي اللعيت فلا بأس يمكننا أن نتحول منها مطمئنين إلى القرية الأخرى**))، قلت له: ((**وهو كذلك**)).

بدأت الطائرة تنزل رويداً رويداً في قرية لا يوجد بها أي مكان يوحي بأنه مطار أو يصلح لهبوط طائرة. واختار الكابتن ساحةً وسط البيوت يبدو أنها ميدان للسوق أو للعب الكرة واتجه نحوها. كان الناس يهرولون هنا وهناك في مشهد يوحي بأنهم قد أُصيبوا

بالهلع والذعر من هذه الطائرة. لقد كانت القرية بأكملها تهرول في الشوارع وتولول، وقد قطعت الأبقار حبالها وكذلك الحمير والجمال والأغنام وركضت هائمةً على وجوهها وسط البيوت، وحتى الدجاج كان يجري وكل واحد يصطدم بالآخر في مشهد مرعب ومثير.

وكان واضحاً أن الكل يريد أن يهرب ولكن إلى أين لا يدري، وغُبارُ الطائرة الكثيف قد زاد الموقف هرجاً بحكم طبيعة المنطقة الرملية خصوصاً الميدان الذي اخترنا الهبوط فيه. كنا نراقب كل ذلك المشهد الدرامي من زجاج النافذة ونضحك مما يدور تحتنا وحولنا. وازداد الهلع عندما استقرت الطائرة على الأرض:

قال كابتن أحمد للجميع: «**أرجو أن تبقوا في أماكنكم حتى نتأكد من المنطقة**»، ثم دعاني للنزول معه بغرض الاستفسار والتأكد. فتحنا باب الطائرة ونزلنا أنا وكابتن أحمد، وما أن رآنا الناس حتى فَرُّوا جميعاً وكأنهم أمام عدو غازٍ.

فقال لي الكابتن: «**الحلُّ الوحيد هو أن نجري خلف هؤلاء الناس حتى نُوقِفَ أحدَهم ونسأله**»، وجرينا خلفهم فكانت القرية بأكملها تجري أمامنا حتى كلابها وأغنامها والأبقار. لم أتمالك نفسي من الضحك وأنا أطارد قريةً بأكملها، حيث اختلط صوت العويل وصراخ الأطفال بأصوات الديوك والأغنام وغيرها في مشهد لا يطرأ على خيال بشر. وفي تلك الأثناء هبط بعضٌ من زملاء الرحلة

واصطفوا أمام الطائرة يشاهدون ذلك الموقف الدرامي وهم غارقون في الضحك. ولم ينقذ الموقف إلا رجل عجوزٌ طاعن في السن كان يجري أمامنا وفجأةً سقط على الأرض من فرط الهلع والخوف والإعياء. وقفتُ أمامه وأمسكتُ بيده المرتجفة قائلاً: «**يا عمي لا تخف نحن أبناؤك جئنا من الفاشر لأنَّ الرئيس سيزور المنطقة غداً، وأنا من أولادكم أبناء النهود فلا داعي للخوف والهلع**».

في تلك الأثناء كان بعض المهرولين قد أخذتهم حمية الدفاع عن شيخهم الذي سقط على الأرض وخافوا أن يصيبه مكروه من هؤلاء الناس الذين لا يعرفون هويتهم، فعادوا إلينا متحمسين للمواجهة. ورغم ذلك لم يجرؤ واحدٌ منهم على الاقتراب منا بل احتفظوا بمسافة طويلة بيننا وبينهم وسألونا بأصواتٍ خائفة «**مَنْ أنتم؟ وماذا تريدون**».

توجهتُ نحوهم وقلتُ بصوتٍ حرصتُ أن يصل إليهم جميعاً: «**يا جماعة نحن إخوانكم من الخرطوم جئنا مع الرئيس لزيارة مدينة اللعيت جار النبي، ونريد أن نعرف هل هذه هي اللعيت أم أنها قرية أخرى؟**» فرد الجميع بصوت واحد: «**دي ما اللعيت دي ود قنجا**». التفت إلى كابتن أحمد ضاحكاً وقال: «**ما قلت ليك**». وقال الجميع اللعيت بِصَباحْ. وكلمة صباح لدى أهل دارفور وكردفان تعني الشرق، فشكرناهم وقلنا لهم خلاص مع السلامة نحن ماشين اللعيت. قالوا بعد أن اطمأنوا إلينا: «**وهسة المصيبة الكبيرة دي كلها**

ممكن تطير؟» قلنا لهم: «**طبعاً، هسه ما جاتكم طايرة؟**» وقلت لهم: «**إنتو ما شفتو طيارة قبل كدا؟**» قالوا: «**أبداً نحن في هذه القرية منذ أن خُلقنا ولم تهبط عندنا طائرة في يوم من الأيام**».

قلتُ لهم: «**خلاص ما تخافوا وخليكم بعيدين من الطيارة دي لأنها حتثير غبار وتراب كثير، ويمكن تجونا في اللعيت هناك عشان تحضروا الاحتفالات**». وودعناهم وداعاً حاراً كأننا عائدون إلى كوكبٍ آخر، وأقلعنا من قرية (**ود قنجا**) التي أصبح هبوط طائرتنا فيها ذاك الصباح حدثاً تاريخاً يؤرخ به سكان القرية إلى اليوم فيقولون: [**يوم نزلت الطيارة في ود قِنْجَا**].

هبطنا في مدينة اللعيت وكان المشهد مغايراً تماماً، عددٌ من تلاميذ المدارس وأهل القرية خرجوا لاستقبال أول وفد يأتي للاحتفالات. ونزلنا من الطائرة وسط تحيتهم وتصفيقهم وتلويحهم من بعيد بالأعلام وإشارات الترحيب. وما أن نزلنا حتى قال كابتن أحمد: «**سأرجع حالاً للفاشر لإحضار بقية الوفود**».

وأدارت الطائرة محركاتها للإقلاع، وما كادت ترتفع بضعة أمتار من الأرض وسط جمهرة المواطنين حتى اشتعلت فيها النيران. وبصعوبة فائقة سيطر عليها الطاقم وأنزلوها للأرض وهرولوا منها. وفرَّت جموع الحاضرين من الميدان الذي تحول في دقائق إلى كارثة بعد أن كان مكاناً للبهجة والترحيب. لم أصدق عيني من هول المفاجأة. وهنا انبرت الأستاذة كتيرة ياسين قائلة لزملاء الرحلة:

«والآن هل صدقتم ما قلت لكم؟ أنا بصراحة عندي تجارب مع هذه المسألة، وأنا أحسب أنه لولا هذا الحجر لكان قد حدث هذا ونحن في الجو، لكن الحمد لله». وضحكنا من حديثها بين المصدق والمكذب. وعموماً انقضى الأمر بسلامة الجميع، وعلى الفور أرسل الطيارون إشارة للجهات الرسمية بالخرطوم والفاشر فأحضروا طائرة أخرى من نفس الطراز وظلت تنقل أفواج المشاركين والمدعويين من الفاشر إلى اللعيت إلى أن اكتمل ترحيلهم جميعاً. وفي النهاية أَحضرت نفس الطائرة رئيس الجمهورية والوفد المرافق له من الوزراء.

كان هذا الحادث سبباً في أن نبقى باللعيت أسبوعاً آخر بعد انتهاء الاحتفالات، حيث أصبحت هناك طائرة هليكوبتر واحدة هي التي جاء بها الرئيس وظلت تنقل جميع الوفود تباعاً من اللعيت إلى الفاشر. وانتظرنا دورنا الذي لم يأت إلا بعد أسبوع كامل، كان من أجمل الأسابيع التي قضيناها خارج العاصمة، حيث كانت معنا فرقة فنية كبيرة ضمت الفنان الراحل (**عبد العزيز محمد داؤد**) والفنان (**إسماعيل حسب الدائم**) و(**الثنائي الوطني**) وكانت أياماً للسمر بدون قيود بعيداً عن متاعب العمل وجو العاصمة.

كنا جميعاً نسكن في منزل المرحوم (**محمد فضل عبد الواحد**) أحد مؤسسى نهضة مدينة اللعيت، وهو من أبناء مدينة النهود الذين نزحوا إلى اللعيت في فترة مبكرة. وكان رحمه الله رجلاً عظيماً دؤوباً على الخير والكرم، وكان أبناؤه من بعده نِعم الرجال

الذين حملوا فضيلة الشهامة وأحسنوا إكرام الضيوف وإيواء الوفود على كثرتها في منزلهم العامر المضياف. كانت موائد الطعام الشهي تترى من الصباح إلى الليل طوال ذلك الأسبوع. وفي الأمسيات كانت الحفلات الغنائية تشد أهل المدينة من كل بقاعها يسمرون على أنغام الموسيقى التي لم تدخل مدينتهم من قبل. وبعد انقضاء الأسبوع عُدنا إلى الخرطوم تاركين تلك الطائرة المحترقة التي ظلت قابعةً في مدينة اللعيت لأسابيع طويلة حتى تم أخذ محركاتها المعطوبة وأرسلت إلى الخرطوم ثم إلى مقر الشركة بسويسرا وتم إصلاحها.

كان من بين الشباب الذين سهروا على راحتنا وإكرامنا طوال أيام إقامتنا باللعيت الشاب (**عاصم محمد فضل**) نجل المرحوم محمد فضل. ومرَّت الأيام، وجاء عاصم إلى الخرطوم وكان شاباً في حوالي السادسة عشرة من عمره.

وفي أحد الأيام كان يقود سيارة شقيقه دكتور (**خالد محمد فضل**) في شوارع أم درمان ليتعلم قيادة السيارة، وأثناء خروجه إلى شارع الموردة بالقرب من حديقة الموردة الشهيرة مرَّ موكب الرئيس نميري تتقدمه الدراجات النارية وصفارات الإنذار.

كان ذلك المشهد مرعباً لعاصم الذي جاء لتوه من الريف ولم يتمكن من السيطرة على سيارته لأنه ما زال جديداً على عالم قيادة السيارات. ووسط نداءات رجال الحركة وحرس الرئيس

اختلط الأمر عليه فضغط على البنزين متوجهاً نحو سيارة الرئيس بلا وعي. وفي أقل من لمح البصر صدم عاصم سيارة الرئيس. أشهر رجال الحرس مسدساتهم واندفعوا نحو عاصم يحسبون أن هناك محاولةً لاغتيال الرئيس. وكادوا أن يطلقوا النار عليه لولا أنَّ نميري قد أشار إليهم بالتوقف. اجتمع العشرات حول المكان وأُنزل عاصم من سيارته وسط ذلك الجو المتوتر. ولما وجد الرئيس أنه شاب صغير يبدو عليه عدم الخبرة في القيادة انتهره غاضباً إنت مين الأداك رخصة؟ فقال عاصم وهو يرتجف: ((**ما عندي رخصة؟**))

قال له الرئيس: ((**وسائق من غير رخصة كمان!! إنتَ ولد منو؟**)) قال عاصم: ((**أنا ولد محمد فضل عبد الواحد**)). هنا تغير وجه الرئيس كأنما نزلت عليه رحمة من السماء وقال له مستفسراً: ((**هل أنت إبن المرحوم محمد فضل عبد الواحد رجل اللعيت؟**)) قال نعم، فقال له الرئيس:

((**أهلاً يا بُني، كيف حالك وكيف حال والدتك وإخوانك؟ خذ هذا الكارت وأرجوك أن تزورني في المنزل ضروري مع أهلك ويمكنك إبراز هذا الكرت عند الدخول وأنا آسف على ما حدث لك**))، والتفت نميري لرجال الحرس والشرطة والجماهير الغفيرة التي التفت حول الحادث وقال لهم: ((**اتركوه ما في زول يسأله**)). ومرّ موكب الرئيس وسط دهشة كل الحاضرين. التقيتُ بعاصم بعد أعوامٍ من تلك الحادثة بفندق هيلتون بالخرطوم في

دعوةٍ أقمتها تكريماً له فقال لي: ((**هذا رجل عجيب أنقذ حياتي من بين مسدسات رجال الحرس وأنا مدينٌ له بذلك ما حييت**)) قلتُ له: ((**مَنْ هو**)) قال لي: ((**نميري**)). قلتُ له سأخبره بذلك يا عاصم لأني مسافرٌ غداً معه إلى مدينة الفاو للاحتفال بعيد إنتاج مشروع الرهد الزراعي. فقال لي أرجو أن تبلغه التحايا.

حواشة للمذيع

في صبيحة اليوم التالي صحوتُ مبكراً بعد أمسيةٍ جميلة قضيتها مع عاصم في ذكريات مدينة اللعيت التي قضيناها بمنزلهم العامر وقفشات الفنان الراحل عبد العزيز محمد داؤود وكيف تحولت ليالي القرية إلى كرنفالٍ من الطرب والبهجة والمرح. وبعد انقضاء يوم العمل المعتاد توجهتُ في المساء مع وفدٍ كبير من الصحفيين والسياسيين نحو مدينة (**الفاو**).

كانت سياراتُ اللاندروفر تنهب الأرض نهباً نحو (**مشروع الرهد الزراعي**) بمناسبة أول عيد للإنتاج. وقد دعت إدارة المشروع كل الرسميين والدبلوماسيين المقيمين بالسودان لأنَّ الاحتفال سيكون بحضور السيد رئيس الجمهورية وبعض الضيوف. وصلت بنا السيارة إلى مدينة الفاو وكان الوقت ليلاً لنكون في الصباح الباكر بمكان الاحتفال الذي سننقله على الهواء مباشرةً على موجات الإذاعة والتلفزيون. وعند وصولنا استقبلنا الشاعران المبدعان

(**كامل عبد الماجد**) صاحب أشهر أغنيات الفنان حمد الريح تائه الخصل وسيد الإسم للفنان أحمد الجابري وقصيدة تقول أهلاً التي كتبها أيام دراسته بجامعة الخرطوم عندما بادرته محبوبته في القاهرة بقولها أهلاً بدلاً من أن تقابله بالأحضان على عادة أهل السودان والشاعر (**محمد عبد القادر أبو شورة**) صاحب الأغنية الشهيرة حدق العيون للفنان محمد وردي وأغنية عاطفة وحنان للفنان محمد ميرغني وغيرها من أغنيات صلاح بن البادية وآخرين. كان كلا الشاعرين يعملان بالمشروع الذي يضم عدداً من الموظفين والخبراء الزراعيين والعمال القادمين من مختلف أنحاء السودان فضلاً عن المزارعين من أبناء منطقة الفاو وما جاورها.

قضينا أمسيةً حافلةً مع أهل الفاو تحدثنا فيها عن طبيعة المشروع وحجم إنتاجه ومنافسته لمشروع الجزيرة في مختلف النواحي. وكان أهم ما لفت انتباهنا هو تنسيق شوارع المدينة التي أُنشئت على طراز حديث لتواكب حجم العطاء المنشود من هذا المشروع الكبير. وفي الصباح توجهنا إلى مكان الاحتفال وجاء ركب الرئيس يصحبه وزير الري ووزير الزراعة وعدد من المسؤولين في مشروع الجزيرة ومشروع الكناف ومشروع هبيلة.

بدأت الاحتفالات بكلمات الترحيب من مدير المشروع ووزير الري ووزير الزراعة ثم خطاب رئيس الجمهورية، وتخللتها بعض القصائد الشعرية. وأثناء سير الاحتفالات خرجت من بين الصفوف

المواجهة لمنصة الرئيس امرأة عجوز جاوزت الستين من عمرها، كانت تجري بكل قوتها نحو الرئيس وتحمل في يدها ورقةً ملفوفة. وما أن رآها رجال الحرس حتى أسرعوا نحوها وأمسكوها من كلتا يديها مانعين إياها من التقدم أي خطوة نحو الرئيس وفارضين عليها أن ترجع إلى حيث أتتْ.

وحاولت المرأة الفكاك منهم بأي وسيلة لتصل إلى الرئيس، ولكنهم قاوموها بقوة وصلت إلى درجة الوحشية مما جعلها تبدو كالأسد وهي تقاوم رجال الحرس وسط آلاف العيون التي بدأت تشخص نحوها في مشهد مؤلم. وفي غمرة صراعها مع رجال الأمن انحسر عنها ثوبها حتى سقط على الأرض بكامله، فبدأت تولول إشارةً إلى أنَّ كرامتها قد ديست من هؤلاء الذين أسقطوا عنها ثوبها وسط الرجال وهو أمر لا تقبله امرأةٌ في مثل سنها.

شعر نميري بحرج الموقف فصرخ في رجال الأمن أن يتركوا تلك المرأة فتركوها لتواصل سيرها إلى الرئيس. لم تتمكن من التقدم نحو المنصة لأنها أخذتْ وقتاً طويلاً تحاول إصلاح ثوبها، فلم وسط تلك الألوف التي تنظر إليها، وظلت تدور حول نفسها تمسك الثوب من طرف لتجد أنه ليس الطرف المراد وكأنها قد فقدت رَباطة جأشها من قسوة رجال الرئيس. وأخيراً وصلت إلى المنصة تلبس ثوبها مقلوباً. كنتُ جالساً بالقرب من الرئيس فقادني الفضول إلى متابعتها بكل الحواس. قام إليها الرئيس وتسلم منها

الورقة التي كانت في يدها، فقالت له وسط العبرات والدموع: «**يا سيادة الرئيس أنا امرأة مظلومة، وبشهادة كل سكان هذه المنطقة فأنا سكنت في هذا المكان منذ ميلادي ولم يكن فيه مدينة ولا مشروع ولا أي شيء، كلها قامت على رأسي أنا، وجاء العُمران وأنا في هذا المكان، وظللت أجري وراء المسؤولين من يوم أن أُنشيء هذا المشروع الذي أخذ منا كل أراضينا لِيُعادَ توزيعها على المزارعين، وأخذ كل إنسان نصيبه من الحواشات إلا أنا. لم أترك مكتباً حكومياً لم أدخله ولم أترك مسؤولاً لم أقابله بحثاً عن حواشة مثلي مثل البشر الآخرين الذين أشعر بأني أكثرهم استحقاقاً بحكم أني من أبناء المنطقة وكلهم دخلاء. وأنا أعول أيتاماً هم أطفال إبني الذي توفي وتركهم لي في سن اليفاع. وإنني آتي إليك لترد مظالمي وليس عندي غير الأمل في الله لرد هذه المظالم والإنصاف**».

قال لها الرئيس: «**هل كل هذا الكلام مكتوب في هذه الورقة؟**» فأجابت بالإيجاب. قال لها: «**خلاص إنت أمشى وإن شاء الله سننظر في هذا الأمر ويتم إنصافك**». عادت المرأة إلى مكانها وسط متابعة جميع الحاضرين. وأثناء مغادرتها للمنصة تعالت هتافات قوية ضدَّ الحكومة وضد إدارة المشروع قادها المئاتُ من المزارعين الذين تجمهروا في الجانب الموازي لصيوان الرئيس. وقد ثار الهلع في نفوس رجال الأمن خصوصاً وأن معظم أولئك المتظاهرين كانوا يحملون سيوفاً جرّدوها ولوَّحوا بها في الهواء. كان الجميع يهتفون (**العدل**

العدل). هنا انبرى نفرٌ من شباب الاتحاد الاشتراكي يهتفون بتمجيد الحكومة في مشهد واضح أنه لم يكن إلا بغرض التغطية التغطية على الأصوات المعادية للحكومة ولسياسات المشروع. وكان واضحاً أن معظم أولئك المتظاهرين المحتجين من مزارعي المنطقة الذين لم يأخذوا نصيبهم من الحواشات شأنهم شأن تلك المرأة. وعندما استمر الهتاف المعادي للحكومة لفترة من الوقت أشار لي أحد كبار المسؤولين المرافقين للرئيس ولم أتبين شخصيته وسط الزحام قائلاً لي:

«**يا عوض أبعد ميكروفون الإذاعة دا من المتظاهرين**»، وشعرت بالحزن لذلك التوجيه الذي شعرتُ بأنه ليسَ له ما يبرره، فتعمدت أن أفعل عكس ما أشار به، ووجهت الميكروفون نحوهم لتخرج أصواتهم للمستمعين. ولكنهم صمتوا فجأةً وكأنهم أرادوا إظهار صوتهم فقط دون أن يُفسدوا الاحتفال.

ظلَّ الجميعُ في أماكنهم لم يتزحزحوا عنها شبراً رغماً عن محاولات رجال الشرطة والأمن إبعادهم عن صيوان الرئيس، وظلوا محيطين به طوال ساعات الاحتفال، مما كثف الوجود الظاهري لرجال الشرطة والأمن بأسلحتهم والذين بقوا مرابضين حول المكان طوال ساعات الاحتفال الذي بدا متوتراً أكثر من اللازم. انتهى ذلك النهار المكفهر وسط حرارة الشمس الساخنة، وبه انتهى الجانب الرئيسي للاحتفالات، فغادر نميري والوزراء المشاركون مدينة الفاو

إلى الخرطوم، وبقيت الوفود الإعلامية والفنية للمشاركة في الحفل الغنائي الساهر الذي سيقام في المساء ابتهاجاً بتلك المناسبة وترفيها عن العاملين والمزارعين في المشروع. وجاء وقت الحفل الغنائي الحضور مكثفاً من جماهير المدينة كعادة أهل الريف الذين يحرصون على حضور مثل تلك الحفلات السامرة التي تخرجهم من روتين الحياة اليومي. وكنت مقدم البرنامج لذلك الحفل الذي نقلناه على جميع موجات الإذاعة العاملة حياً على الهواء.

وأبدع في تلك الليلة الفنانون (**أحمد المصطفى وعبد القادر سالم وعبد العزيز المبارك**) حيث ملأوا الساحات طرباً رقصت له كل سنابل الفاو الخضراء وطربت مزارعها الزاهية العامرة بالخير الوفير. وبعد انتهاء الحفل الساهر قال لي الشاعر (**كامل عبد الماجد**) وهو مساعد المحافظ المسؤول في المنطقة: «**أنت مدعو الآن للعشاء في منزلي مع بقية أعضاء الوفد الفني والإذاعي**».

كان الليلُ قد أرخى سُدولَه، وسكنتْ جميعُ الكائناتِ في مدينة الفاو إلا من السابلة العائدين إلى بيوتهم بعد انتهاء الحفل الساهر. كانت السيارات بانتظارنا للذهاب إلى المنزل حيث استقبلنا كامل ببشاشته ولطفه المعهود هو وحرمه السيدة درية التي بالغت في كرم الضيافة والحفاوة بأعضاء الوفد الإذاعي وأعضاء الفرقة الموسيقية والمطربين الذين شاركوا في الاحتفال، وكان بين الضيوف الأستاذ (**محمود أبو العزائم**) مدير عام الإذاعة. وبعد أن

أخذ كلٌّ منا موقعه وتناولنا العشاء الفاخر بدأ التعارف بين الحاضرين والذي قاده مضيفنا كامل عبد الماجد. كان من بين الحاضرين رجل عرّفه السيد كامل بأنه المسؤول عن توزيع الحواشات بالمشروع. وبعد الانتهاء من التعارف قال ذلك الرجل: **((والله إنتو شرفتونا كل الشرف، ورفعتم الرأس عالياً، ولولا مشاركتكم هذه ما كان لهذا اليوم أن ينجح هذا النجاح. ولذلك فمدينة الفاو ومشروع الرهد لن تنس لكم هذا الجميل. ولذلك فإننا قد قررنا أن نعطى كل واحد منكم حواشةً تقديراً لجهودكم العظيمة وعرفاناً بدوركم الكبير في أعياد الإنتاج))**.

إنتابني إحساس بعدم الرغبة في أخذ قطعة أرض، وقلتُ له: **((يا أخي نشكرك على هذا الكرم الفياض، ولكنني آسف أن أعلن اعتذاري عن القبول))**. قال لي الفنان أحمد المصطفى: **((يا أخي هذه هدية مقدرة من إخوانك في المشروع فكيف ترفضها؟))**

ونظر الجميع نحوى باندهاش، فقلت لهم: **((في الواقع أنا لستُ مزارعاً ولا أجيدُ مهنة الزراعة، وكذلك أنا لستُ من أبناء هذه المنطقة ولذلك ستكونُ هذه المزرعة عبئاً ثقيلاً عليَّ لأنني لن آتي لزراعتها أو متابعتها أو استثمارها))**.

وقبل أن أكمل حديثي قال لي أحد الحاضرين: **((ياخي يمكنك أن تبيعها ونحن جميعاً سنبيع حواشاتنا لأننا لن نستقر في هذا المكان ولا نعرف شيئاً عن الزراعة))**. قلت له: **((إذن لماذا نأخذها ما**

دمنا لا نزرعها، وأنتم جميعاً رأيتم تلك المرأة التي جاءت في الصباح لرئيس الجمهورية تشكو لربها ظلم العباد، أليست هي أحق منا بهذه الحواشة؟ ثم أين أولئك الذين كانوا يهتفون لعدم استلامهم لحقوقهم من الحواشات وهم من أبناء هذه المنطقة الذين نشأوا وترعرعوا فيها وقام المشروع على أكتافهم وهم في الأصل مزارعون أبناء مزارعين أليسوا أحق منا نحن الذين لم نر هذا المكان في حياتنا إلا بالأمس؟»

كان واضحاً أنَّ حديثي ذلك لم يَرُقْ للكثير من الحاضرين، بل وقد أغضب عدداً منهم. وشعرتُ بأن الجو قد توتر إلى حدٍ كبير فأخذني الأخ الصديق (**عبد القادر سالم**) هامساً في أذني: «**يا أخي أحسن نترك هذا الموضوع الآن لأنه قد يؤدي إلى بعض الحرج**». وتركنا الموضوع لنستمتع بجو العشاءالفاخر وكرم الضيافة من شاعرنا الرقيق الأستاذ كامل عبد الماجد. وذهبت إلى الغرفة لأنام بعد التعب الشديد الذي اعترانا طوال اليوم.

في الصباح غادرنا مدينة الفاو مع بعض الإعلاميين تاركين الذين حظوا بالحواشات ليُكملوا إجراءات التسليم التي اكتملت بشكل سريع، حيث عقد بعضهم صفقات في نفس الوقت وباعوها، في حين احتفظ البعض الآخر بها كمشروعٍ استثماريٍ مُربح في المستقبل. ولما رجعتُ إلى الخرطوم ذهبتُ إلى ابن عمي الدكتور (**أحمد التجاني عمر عوض**) وحكيت له تفاصيل ما حدث في تلك

الليلة التي رافقتُ فيها الرئيس، فقال لي: ((**حسناً فعلت وكن على موقفك ولا تتزحزح عنه أبداً لأن هذا كله عرض زائل وسيدفع أهله الثمن في يومٍ من الأيام إن لم يكن عاجلاً فآجلاً والذي سيبقى هو المواقف ولا شيء سواها**)).



الفصل الرابع

أيام مع الرئيس نميري

الفصل الرابع

﴿أيام مع الرئيس نميري﴾

* * *

عيد الاستقلال بدنقلا

في اليوم الثامن والعشرين من شهر كانون أول ديسمبر عام 1977م كانت طائرة الخطوط الجوية السودانية تحملُ أضخم وفدٍ إذاعي توجه إلى مدينة دنقلا بالمديرية الشمالية حيث ستنقلُ الإذاعة احتفالات البلاد بأعياد الاستقلال التي تقرر إقامتها ذلك العام بمدينة دنقلا.

وعلى مستوى الدولة فقد تقرر أن يحضر احتفالات ذلك العام إلى جانب الرئيس نميري ونوابه الرئيسُ الصومالي (**محمد سياد بري**) وعددٌ من الدبلوماسيين المعتمدين بالسودان. كنا خمسةً من المذيعين ضمن الوفد الإذاعي المنوط به نقل الاحتفالات من دُنقلا؛ (**علم الدين حامد**)، (**عبد الرحمن أحمد**)، (**هاشم ميرغني عبد الحفيظ**)، (**محمد الفاتح السموأل**) وشخصي.

وكان في البعثة أيضاً وفدٌ إذاعيٌ من القسم الرياضي برئاسة الزميل الأستاذ (**على الحسن مالك**)، حيث تتضمن

الاحتفالات منافسةً في كرة القدم ومنافسةً في السباحة يشارك فيها السباح الدولي (**سلطان كيجاب**) والسباحتان (**سارة ومَيْ جاد الله**) وعدد من المطربين والموسيقيين. وما أن هبطت الطائرة في مطار دنقلا حتى كادت أوصالنا تتجمد من شدة البرد الذي لفحتنا أمواجه العنيفة بدون رحمة. حيث كان الشتاء قد ضرب بأطنابه في المدينة ذات المناخ الصحراوي الجاف ولم يستطع أحد منا الوقوف أمام تلك العاصفة الباردة التي سرت في أوصالنا وتغلغلت في العظام.

ركبنا السيارات من المطار ووصلنا إلى مكان السكن حيث سنبقى ثلاثة أيام وسط هذه العواصف الصقيعية العنيفة. تعرفنا أولاً على المكان الذي سنبث منه الإذاعة وهو مبني مكاتب الثقافة والإعلام بمدينة دنقلا. وقد وُزع أفراد البعثة على المنازل نسبةً لعدم توفر فنادق أو استراحات بالمدينة لذلك العدد الكبير من الضيوف. وسكن كل ثلاثة أو أربعة أفراد في أحد المنازل التي تبرع بها أهلها بسخاء لاستضافة الوفود طوال أيام الاحتفالات.

ظلت المدينة تستقبل كل يوم عشرات الضيوف من الرسميين والشعبيين والرياضيين وغيرهم ممن يشاركون في الأنشطة المختلفة. وتقرر أن يحضر الرئيس نميري ثم يتبعه الرئيس الصومالي محمد سياد بري لزوم إجراءات البروتوكول الذي يقتضي إجراء استقبالات رسمية لرؤساء الدول. وكان نصيبي أن

أسكن مع ثلاثةٍ من الصحفيين هم (**حسن أحمد التوم، وهاشم كرار، وبلال زكريا**) من مجلة التعاون في منزل السيد (**عبد الرحمن أحمد النجار**) وهو أحد أعيان مدينة دنقلا وتجارها المعروفين. كان الرجل مثالاً لنبل الأخلاق وكرم الضيافة. حيث ظلَّ هو وأبناؤه خصوصاً ابنه (**الطاهر عبد الرحمن أحمد النجار**) في خدمة الضيوف ليل نهار، لا ينامون حتى يكتمل عَشاءُ الضيوف ويهُبُّون قبل الفجر ليكونوا في خدمة الجميع بلا كللٍ أو ملل.

وكان جو دنقلا على النقيض من حرارة استقبال المدينة لنا. حيث كان البرد قارساً إلى الحد الذي ارتعدت معه ألأوصال والعظام. ومنذ الوهلة الأولى التي وطئت فيها أقدامنا أرض المدينة أصابتني نزلة برد حادة صحبها زُكام وجريانٌ في الأنف لم أعهده من قبل. ولم تعد لي قوةٌ على الكلام أو الحركة. وقد نصحني بعضهم بأن ألبس كل ما حملته معي من ملابس وأتدثر بالبطاطين الثقيلة حتى أدفع عني غائلة البرد اللعين. وقد فعلتُ، إلا أنَّ الحال قد ظلَّ على ما هو عليه.

وكانت دهشتي أن بعض الزملاء والأصدقاء يأتون لزيارتنا في المنزل وكلهم حيوية ونشاط ولا يبدو عليهم أي تأثر بذلك البرد القارس الذي بدا وكأنه قد اختارني وحدي دون الآخرين وسكن في عظامي. ولم تشفع لي جميع المسكنات والعقاقير التي تناولتها مما زادني ألماً على ألم. وسألت الأصدقاء الذين كانوا يرتدون القمصان

الاسبورت عمَّا إذا كانوا لا يُحسون بهذا البرد القارس؟ فضحك بعضهم وقالوا لي بشكلٍ قاطعٍ وجاد: **((إذا أردت أن تكون كالحصان مثلنا فعليك أن تتناول عَرَقي البلح ولا تبحث عن علاج سواه، ألم تسمع عن عَرَقي دنقلا الذي هو ضد كل تقلبات الطقس وأمواج الصقيع))**. وتجولت ببصري حول الناس فرأيتُ أنَّ البعض قد كان يتبختر كالطاؤوس في حين كان الأقرب أن يموتوا من وطأة ذلك الصقيع، وحينها تأكدت لي جدية ما يقولون. ولكن كيف بي وأنا الذي لم يتعاطى الخمور في حياته لا سراً ولا علنا؟

رفضتُ بالطبع ذلك الدواء الذي أشار به البعض، وقد إزدادت النزلة أشد مما كانت، خصوصاً عندما علمتُ أن علاجها هذا أبعد من النُوق العصافير التي تعذَّب في سبيلها شيبوب باحثاً عن مهر معشوقته الجميلة وأصعب من إكسير الحياة الذي ظلَ أبطال ألف ليلة وليلة يحلمون به في كل الروايات.

شعر العم عبد الرحمن أحمد النجار الذي استضافنا بمنزله بأني لن أتناول ذلك الدواء المشار إليه، وقال لي: **((إذن عليك بتناول البرتقال الطازج فهو العلاج الأفضل لنزلة البرد))**. لم أتردد في قبول العرض الجديد، خصوصاً وأنني من عُشاق البرتقال. وناديتُ ابنَه الطاهر وقلتُ له: **((خذ هذه النقود واشتري بعض البرتقال))**. رمقني العم عبد الرحمن بنظرةٍ ملؤها العتابُ والاستنكار وقال لي: **((عيب أن تفعل هذا وأنت ضيفنا، إنتظِر قليلاً وسيأتيك البرتقال))**.

شعرتُ فعلاً بالخجل لأنَّ عادة أهل السودان ألا يفرطوا في مطالب الضيف حتى وإن كانت باهظة التكاليف. وبعد نصف ساعة جاءني العم عبد الرحمن يحمل على ظهره جوالاً ضخماً مليئاً بالبرتقال أنزله أمامي وقال لي: «**هلا هلا على الجَدْ، قُوم بالشوال دا كله وتاني النزلة كان كتبوها ليك ما حتجيك**».

كان مشهداً مضحكاً أن أعالج نزلة البرد بجوالٍ كاملٍ من البرتقال. وأخرجت يدي من تحت البطاطين وبدأت ألتهِمُه واحدةً تلو الأخرى. وشعرت أنني قد أصبحتُ مَقشرةً بشرية للبرتقال، حيث تكومت أمامي تلك القشور بشكلٍ لم يخطر على بال أحد. وظللتُ أستريح قليلاً ثم آكل قليلاً حتى قضيتُ على معظم البضاعة. ولكن بدلاً من أن تُبارحني النزلة اللعينة بدأتُ أبحث عن علاج لأوجاع البطن المؤلمة. حيثُ تحركت كل عضلات البطن محتجةً على ذلك الجوال الغريب الذي دخلها دون استئذان.

نَدبتُ حظي اللعين، وطالبتُ بالعودة إلى الخرطوم بأي وسيلة. ولم يكن ذلك بالإمكان حيث أقنعني رئيس البعثة أنَّ سفري إلى الخرطوم سيدخلنا في مشكلة نقص المذيعين خصوصاً وأن عددنا ليس كافياً لتغطية جميع الاحتفالات والبرامج والنشرات المرتقبة في ذلك اليوم. وعدلتُ عن قرار الرجوع وبقيت مع المجموعة أندب الحظ اللعين. كان برد دنقلا أقوى من كل الجبابرة حتى أنَّ رغيف الخبز الذي يُخبزُ أمامَنا في أفران البيوت يخرج طازجاً من النار ثم لا

يلبث أن يبرد في أقل من لمح البصر. ولذلك لم نتناول خبزاً ساخناً طوال إقامتنا فيها رغم أننا في كثيرٍ من الأحيان كنا نجلس أمام الأفران أثناء تناول الطعام. وعادة الجلوس أمام المخابز عادةٌ مألوفة لدى أبناء دنقلا طوال شهور الشتاء التي لا ترحم أحداً.

بقيتُ أطمئنُ نفسي بأن غداً يوم الاحتفال وسينتهي الأمر ونعود إلى الخرطوم على أول طائرة لأستريح من ذلك العذاب. ولكن كانت الرياح تجري بما لا تشتهي السفن، حيث أعلنت إذاعة الكويت فجأةً نبأ وفاة أمير البلاد الشيخ (**صُباح السالم الصُباح**) إثر نوبةٍ مفاجئة. وفي الحال أَعلن السودانُ الحداد لمدة ثلاثة أيام حيث قرر الرئيس نميري أن تتأجل الاحتفالات إلى ما بعد الحداد، بمَعَنًى أننا يجب أن نبقى في دنقلا لمدة ثلاثة أيام أخرى ثم يأتي الرئيسان نميري وسياد بعد ذلك وتبدأ الاحتفالات.

لم تقو أوصالي على تصديق ذلك الخبر أو حتى مجرد سماعه. ولكنه القدر أبى إلا أن يُضيف أياماً جديدة لتلك المعاناة. وتجلدتُ مستمسكاً بالصبر الجميل طوال أيام الحداد. لم أغادر الغرفة ولا السرير ولا الأغطية الثقيلة. ولم أتمكن حتى من مشاهدة شوارع المدينة التي كنتُ مشتاقاً للتجوال فيها شبراً شبراً. ولم أزر أي مَعلم من معالمها البارزة إشباعاً لهوايتي في التجوال والسفر بين المدن التي أزورها لأول مرة. انقضتْ أيامُ الحدادِ على أمير الكويت وجاء يوم الاحتفال، وكان علينا أن ننقل يوماً إذاعياً كاملاً من

مدينة دنقلا حيث تم إعداد الأستوديو الإذاعي إعداداً كاملاً. ولما كانت حالتي الصحية لا تسمح بالخروج إلى مكان الاحتفال ولا تغطية أي واحد من الأنشطة المقامة بتلك المناسبة فقد قرر الزملاء أن أبقى بداخل الأستوديو لعمل الربط وقراءة الأخبار، في حين يتوزع بقية الزملاء على أماكن الاحتفالات لنقلها حيةً على الهواء.

اتفقنا على ذلك، وبقيتُ في الأستوديو مع بعض الزملاء الفنيين الذين كان يقود فريقهم الأستاذ (**حسن القاسم**). وكان لزاماً عليَّ أن أظلَّ بالأستديو من الساعة السادسة صباحاً إلى الساعة الثانيةَ عشرةَ منتصف الليل. وقال لي الأستاذ حسن القاسم: «**ما دام الأمر بهذه الصورة فمن الأفضل أن نُحضر لك سريراً بالأستوديو لتستلقي عليه ثم تقوم بين الفينة والأخرى لتقديم المواد وهذا هو الحل الوحيد لهذا الموقف**».

وبالفعل أحضر لنا أحد العمال عنقريباً صغيراً عليه مرتبة ووسادة ووضعه داخل الأستوديو. استلقيتُ على ظهري وووضع الأستاذ حسن ثلاثاً من الملاءات على جسدي، وكلما جاء موعد نشرة الأخبار كان يُمسك بالأوراق ويعرضها على واحدةً تلو الأخرى فأقوم بقراءتها على الهواء حتى تنتهي النشرة. وبعد قليل تقاطرت مجموعاتٌ كبيرة من سكان مدينة دنقلا وجاءوا للمكان الذي نبث منه الإرسال وطلبوا من الحراس أن يسمحوا لهم بالدخول لأنهم يريدون مشاهدة المذيع وهو يقرأ الأخبار حيث إنَّ هذه هي

فرصتهم الوحيدة لمشاهدة هذا الحدث. كان رئيس الوفد الإذاعي الأستاذ (**عبد الرحمن أحمد**) قد اتفق مسبقاً مع بعضهم بالسماح لهم بزيارة الإذاعة يوم تشغيلها، ولذلك جاءوا حسب ذلك الاتفاق ليقفوا على شكل البرمجة.

وعندما علم الفنيون بتلك الحشود خارج البوابة أسرع الزميل الفني (**محمد نور عوض**) إلى الحُراس الواقفين عند البوابة وقال لهم: «**ممنوع أن تسمحوا لأي شخصٍ مهما كان بدخول هذا المكان لأنَّ ذلك سيؤثر على عمل الإذاعة وقد يجعل بعض الأصوات تتسرب عبر الميكروفون**». ولما عاد إلى الأستديو سألته: «**لماذا فعلت ذلك يا محمد نور؟**» فأجابني على الفور: «**هل تُريد أن يراك الناس تقرأ الأخبار وأنتَ مغطغط بهذه الفِرْكَةْ؟**»

ضحكتُ من أعماقي وقلتُ له: «**حقاً يا محمد إنك على حق، لأنَّ هذه الصورة المشوهة كانت سترسخ في أذهان أهل دنقلا عن أستوديوهات الإذاعة وعن شكل المذيعين وعملهم على الهواء**».
وعموماً خرج اليوم بهيجاً من ناحية الأداء الذي نجح فيه كل الزملاء الذين اجتهدوا كثيراً بأن يكونَ النجاحُ حليفنا. ولم يعرف أحدٌ من المستمعين في مدينة دنقلا أو في كل بقاع السودان وخارجه ممن يتابعوننا كم عانينا لكي يخرج ذلك اليوم بتلك الصورة البديعة المقنعة. وقد ازدادت غبطتنا عندما بعث إلينا وزير الإعلام برقيةً يشيد فيها بنجاح اليوم ويُثَمِنُ ما قُمنا به.

مع الرئيس إلى تركيا

لم تزل ذكريات أيام دنقلا وملابساتها تعيش في الوجدان على مدى السنوات. وفي أحد أيام شهر تموز يوليو من عام 1982م كنتُ أجتر تلك الذكريات مع الأستاذ (**محمود أبو العزائم**) مدير الإذاعة في مكتبه حيث فاجأني بقوله: «**ما رأيك أن نعيد لك تلك الأيام بصورةٍ أخرى؟**»

سألتُه ماذا تعني؟ فقال لي: «**لقد تسلمتُ طلباً من إدارة الإعلام الخارجي بوزارة الثقافة والإعلام تطلب مني تزويد القصر الجمهوري بأسماء الذين سيرافقون الرئيس نميري في زيارته إلى تركيا ورومانيا وقد وقع اختيارنا عليك لتؤدي هذه المهمة فماذا ترى؟**» قلتُ له: «**بكل سرور**». قال لي: «**في الواقع إنَّ الذي رشحك لهذه المهمة هو الأستاذ محمد سليمان نائب مدير عام الإذاعة ومدير إذاعة صوت الأمة الذي أقنعنا وأقنع كبير المذيعين باختيارك رغماً عن اللغط الذي دار بينهم بحجة أنَّ الرحلة طويلة والمهمة كبيرة وتحتاج لشخصٍ متمرس في مثل هذه الأمور**».

كانت تلك أول مرة أرافق فيها الرئيس نميري إلى خارج الوطن، حيث ظلت معظم رحلاتي معه داخل السودان شاملة أرجاء الوطن المختلفة. وخرجتُ من مكتب المدير عازماً ألا أخذل الأستاذ محمد سليمان، وعزمتُ أن أفعل كل ما في وسعي حتى تكون التغطية شاملة وكاملة تُقنع الجميع وتؤكد ما ذهب إليه الأستاذ

محمد سليمان. وأحسستُ أنَّ ذلك هو التحدي الحقيقي لمقدراتي، وأنَّ تلك المهمة التي يتطلع إليها كل الإذاعيين والإعلاميين ستضع بصمات المستقبل في طبيعة عملي.

حزمتُ أمتعتي وجهزتُ نفسي للسفر، وطلبتْ مِني إدارةُ الإعلام الخارجي بوزارة الثقافة تسليم جواز السفر والشهادات الصحية للسيد (**عاطف محمد عبد الرحمن**) بإدارة مراسم الدولة بالقصر الجمهوري، كما تسلمتُ مذكرةً من إدارة مراسم الدولة قبل يومٍ من السفر تضمنت شكل البروتوكول والتعليمات التي وضعها رجال المراسم للمرافقين في الرحلة.

وكان أول ما لفت انتباهي في تلك التعليمات أن الزي الذي سنرتديه في حفل العشاء الذي سيقيمه الرئيس شاوشيسكو بقصره والرئيس التركي تورقوت أوزال في إسطمبول سيكون الزي القومي السوداني بالعباءة الداكنة. وحار دليلي لأني لا أملك عباءةً ولم أتشرف بلبسها في حياتي. حتى الجلابية السودانية لم تجد مني حظاً إلا وأنا على السرير أو بين جدران المنزل، حيث سرعان ما أرتدي الزي الأفرنجي كلما هممتُ بالخروج ولو إلى مكان قريب. وعلى الفور اتصلت بإدارة المراسم بالقصر الجمهوري وطلبتُ السيد (**نبيل مُراد**) نائب مدير مراسم الدولة بالقصر وقلتُ له: «**ما العمل يا نبيل، فأنا لا أملك عباءةً ولم ألبسها في حياتي ولا أحسب أنني في مثل هذه العجالة سأتمكن من شراء عباءة جديدة أو استلاف واحدة**

من أصدقائي الذين أشك أن يكون أيٌّ منهم قد سعاها في يومٍ من الأيام». ضحك نبيل وقال لي: «**لا بأس، فأنت تملك أجمل الجاكيتات التي ظللنا نراها دائماً وأبداً من خلال التلفزيون، ويمكنك أن ترتديها في حفلات العشاء بدلاً من العباءة السوداء لأنها أيضاً تُعتبرُ من أزياء البروتوكول الرسمي في رحلات الرئيس**».

حمدتُ الله على ذلك الخيار الذي خفتُ أن يحرمني من زيارة بلدٍ مثل تركيا حرصتُ طوال السنوات على التفكير في السفر إليها بحكم دورها التاريخي أيام الإمبراطورية العثمانية وما تلاها. وتذكرتُ صولات السلطان عبد الحميد ومناكفاته للبريطانيين التي أجبرتهم للاستعانة بالملك السنوسي الكبير في ليبيا لحشد الدعم الأفريقي والإسلامي والعربي ضدَّ تركيا التي أوصلها العناد إلى مؤازرة الحلفاء والمعسكر الألماني طوال سنوات الحرب اللعينة. وتذكرتُ سيطرة الإمبراطورية على معظم البلاد الإسلامية التي أشار إليها الشيخ محمد رشيد رضا في مذكراته التي ظلت راسخة في مخيلتي على مدى الأيام.

أعددتُ نفسي للسفر حيث وصلتُ إلى المطار لأجد أنَّ الوفد المرافق للرئيس قد تكون من 57 شخصاً، منهم عشرون رسميون واثنان وعشرون من حرس الرئيس والسكرتارية الخاصة، وخمسةَ عشرَ إعلامياً يمثلون الصحف الحكومية والإذاعة والتلفزيون ووكالة السودان للأنباء والتصوير الفوتوغرافي والتصوير

السينمائي. ونسبةً لكبر حجم الوفد فقد تقرر أن نسافر بطائرتين إحداهما طائرة خاصة من طراز بوينج والأخرى من طراز هيركيوليس العسكرية.

كان مقرراً أن يكون معي الزميل الإذاعي (**هاشم الجيلاني**) من قسم التغطيات الخارجية بالإذاعة، ولكني عندما جئتُ إلى المطار فوجئت بالزميل (**ياسين عبد الله**) الذي أخبرني أنَّ هاشم قد تأخر في إثيوبيا حيث كان ضمن رحلةٍ إذاعية ولم يحضر في موعده.

سعدتُ لوجود الزميل ياسين عبد الله في هذه الرحلة لأنني قد خبرته من قبل في أول رحلةٍ لي إلى شرق السودان بين معسكرات اللاجئين الإرتريين، حيث كنا نسجل برامجاً ليوم اللاجئين الأفريقي الذي تقرر أن يحتفل السودان به بغرض لفت انتباه المنظمات العالمية والدول الخارجية لحجم العبء الذي يقع على عاتق السودان من تدفق الأعداد الهائلة للاجئين من الشرق والجنوب والغرب.

كان الأخ ياسين مثابراً على أداء واجبه في تلك الرحلة التي شملت مناطق قلع النحل والمحرقات وتنقرار وحمداييت مما جعلني أطمئن لوجوده معي الآن. أقلعت الطائرة التي أقلتنا من المطار الحربي بالخرطوم في صبيحة يوم السبت 31 تموز يوليو 1982م. ووصلنا إلى مطار أنقرة الدولي عند التاسعة صباحاً، ثم تحركنا مباشرةً نحو الغرف المخصصة لنا بالفندق ووضعنا أمتعتنا

ثم عدنا إلى المطار بعد ساعةٍ ونصف لاستقبال رئيس الجمهورية الذي وصل عند الحاديةَ عشرةَ صباحًا ومعه الوفد الوزاري وبعض رجال الحرس الخاص.

كان ضمن المرافقين للرئيس حرمُه السيدة (**بثينة خليل**) والسيد (**محمد ميرغني مبارك**) وزير الخارجية، والمستشار الصحفي السيد (**محمد محجوب سليمان**)، والسيد (**أحمد سالم أحمد**) وزير الدولة بوزارة التعاون والتجارة والتموين.

كانت طائرة الرئيس من طراز بوينج وهي طائرة خاصة مملوكة لرجل الأعمال السعودي المعروف (**عدنان خاشوقجي**) والذي تربطه صداقةٌ خاصة بالرئيس نميري وبعض رؤساء الدول الآخرين يقودها طاقمها الخاص من الأمريكيين والبريطانيين، وقد أرسلها خاشوقجي لنميري ليستغلها في جولاته الخارجية ثم تعود إلى صاحبها.

كان في استقبال الرئيس بمطار أنقرة الجنرال (**كنعان أفرين**) رئيس الحكومة العسكرية التركية، والسيد (**بولنت أوسو**) رئيس الوزراء والسيد (**ألتر توركمان**) وزير الخارجية، والسيد رئيس الجمعية الاستشارية البرلمانية التركية، وأعضاء مجلس الأمن القومي التركي، والسيد (**سر الختم السنوسي**) سفير السودان بأنقرة. وبقينا لفترة في صالة كبار الزوار تجاذبَ فيها الحاضروف بعض الأحاديث الجانبية. وعندها قادني الفضول إلى أن أكسر

حاجز الرهبة فتقدمتُ من الرئيس التركي كنعان أفرين وحييته فردَّ التحية. ولما لم أجد اعتراضاً من الرئيس نميري أو من رجال الحرس بادرتُ الرئيس أفرين بسؤالٍ مباشر: «**هل لك يا سيادة الرئيس أن تحدثنا عن انطباعك عن هذه الزيارة التي تُعتبرُ الأولى من نوعها لرئيس السودان وعما تتوقع منها من نتائج لمستقبل العلاقات بين البلدين**».

اعتدل الرئيس كنعان أفرين في جلسته وواجهني بالحديث الذي أسرع كل الإعلاميين الموجودين بالصالة ومعهم زميلي ياسين لتسجيله فقال: «**إنني سعيد جداً هذا الصباح بفتح قنوات للتعامل بين تركيا والسودان، هذا البلد الذي نكن له كل احترام ويمثل جسراً بين الأمم الأفريقية التي نسعد بفتح قنواتٍ للتعامل معها في شتى المجالات**».

شجعني ذلك الأمر فالتفتُ إلى الرئيس نميري وسألتُه نفس السؤال فتحدث باقتضابٍ عن العلاقات التركية السودانية، وركز بشكلٍ أساسي على الدور الذي لعبته تركيا أيام الإمبراطورية العثمانية من نشر الحضارة الإسلامية بين الشعوب في مختلف القارات. كنتُ أريد الاسترسال في توجيه أسئلة للرئيسين، ولكنَّ الرئيس نميري قال لي: «**أظن أننا الآن سنذهب إلى القصر ويمكن أن تواصل حوارك فيما بعد**». على أثر ذلك خرجنا من صالة كبار الزوار لنمتطي سيارات المارسيدس السوداء الفارهة التي أقلتنا من

المطار الذي يبعد من المدينة حوالي نصف ساعة. وكان مشهداً مهيباً لي وأنا أركب تلك السيارات الرئاسية لأول مرة بأبهتها الفاخرة. ونهبت السيارات الأرض نهباً وسط نظرات المارة وفضولهم بالنظر للموكب الرئاسي شأنهم شأن كل بني البشر. أوصلتنا السيارات إلى (**فندق أنقرة الكبير**) Grand Hotel Ankara حيث مقر إقامتنا.

كان الرئيس نميري وبعض أعضاء حرسه الخاص قد أُنزلوا في قصر (**كاملي كوشك**) وهو قصر الضيافة الرسمي للحكومة التركية والذي لم يكن بعيداً عن الفندق الذي أُنْزِلنا به لتسهيل مهمة التواصل بين أعضاء الوفد. وبمجرد وصولنا إلى صالة الفندق تسلمنا برنامج الزيارة مطبوعاً على كُتيباتٍ أنيقةٍ ومصقولة وعليها (**صقرُ الجديانْ**) شِعارُ السودان وعَلَمُهُ ذو الألوان الأربع؛ الأسود والأبيض والأحمر والأخضر.

ولاحظتُ أنَّ معظم فقراتِ البرنامج قد تركزت على مدينة (**إسطمبول**). وقد أسعدني ذلك بحكم أنَّ إسطمبول هي أكبر الموانئ التركية بل وأكبر ميناء في شرق الكرة الأرضية حتى أقصى شرق آسيا. وهي مدينة تاريخية عظيمة شهدت صولات وجولات الإمبراطورية التركية القديمة، فضلاً عن كونها المدينة الوحيدة في العالم التي يقع نصفها في قارة أوربا ونصفها الثاني في قارة آسيا. وكانت أولي فقرات برنامج الرحلة هي زيارة ضريح الزعيم التركي

(**مصطفى كمال أتاتورك**). وذهبنا إليه فهالنا ما صنعته يد المعمار من تصميم هذا الضريح بشكلٍ لا يخطر على البال. مئاتُ الأمتار من المرمر والرخام الناصع فرشتها يدُ الأتراك لتربط المدخل الواسع بمكان القبر الذي يقعُ في آخر هذا البهو الفاخر. والزهور بأشكالها المختلفة قد نشرت أريجها على أرجاء المكان المحفوف بالثريات والأقواس والنوافير حتى مدخل الضريح.

وبعد مسيرةٍ طويلة سربلها الصمتُ الشديد وصل الركب إلى المقبرة حيث وضع نميري إكليلاً من الزهور. بعد ذلك طاف الجميع بأنحاء المتحف المُسمى (**متحف الزعيم أتاتورك**) والذي ضمَّ عدداً من القطع الأثرية والمخطوطات التي تُعيد أيام النهضة التركية. وقد حوى المتحف العديد من آثار الزعيم أتاتورك التي حوت ضمن ما حوت نُسخاً من الرسائل والمكاتبات التي سبقت وواكبت حركته الثورية ضد الموروث العثماني.

وحسب المعهود في هذا المتحف فإنَّ على كل زائر أنْ يسجل انطباعاته في دفتر الزوار، ولما كان وفدنا كبيراً قال نميري: «**دعوني أنوب عنكم وأكتب كلمة باسم كل الوفد**»، وأمسك قلمه وسطر العبارات التالية: (***يموت الشباب تضحيةً وفداءً لأوطانهم. قد تأثرتُ جداً وأنا أحتفل بوضع الورود على قبر البطل مصطفى كمال الذي أدى واجبه نحو وطنه ورقد رمزاً للتضحية والفداء ورمزاً للإخلاص والعهد، أرجو من الله أن يوحد كلمتنا جميعاً، كلمة المسلمين، وأن***

يوحد جهودنا وينصرنا على أعدائنا). لاحظتُ أنَّ خط الرئيس نميري كان بديعاً ومنسقاً لدرجةٍ كبيرة، وهي أول مرة أرى فيها خطّه على الورق. وقد حرص أن يستخدم خط النسخ في تلك الرسالة. وبعد ذلك تحرك الجميعُ إلى قصر الرئاسة بأنقرة حيث أُجريت جلسة مباحثات رسمية بين الجانبين السوداني والتركي برئاسة نميري وكنعان أفرين.

وكان أكثر ما تحدث فيه الرئيسان هو مشكلة لبنان ووضع الفلسطنيين. وعرض نميري الأسباب التي دعته لقبول المناضلين الفلسطينيين إذا خرجوا من بيروت مؤازرةً للقضية من أجل استرداد الشعب الفلسطيني لأرضه. وفي صبيحة اليوم التالي كانت هناك زيارة لمركز التدريب العسكري في أحد أطراف مدينة أنقرة. وهناك قُدم عرضٌ حي لمعركة وهمية شاركت فيها المدفعية والطيران التركي واستمر زهاء الساعتين.

بعد ذلك وقع الجانبان التركي والسوداني اتفاقيةً للتعاون الاقتصادى الفني واتفاقيةً ثقافية واتفاقية إعلامية للتعاون بين وكالة السودان للأنباء ووكالة الأناضول التركية. وكانت هذه الاتفاقية الأخيرة هي الوحيدة التي وقعها سفير السودان بتركيا إنابةً عن حكومة السودان في حين وقع كل الاتفاقيات الأخرى الوزراء المختصون في الوفد. وفي صبيحة يوم الأحد الأول من شهر آب أغسطس 1982م تركنا طائرتنا السودانية وركبنا طائرة الرئاسة

التركية التي أقلتنا من العاصمة أنقرة إلى مدينة (**إسطمبول**). وكان في وداعنا الرئيس كنعان أفرين وحرمه بعد أن تمني للوفد إقامةً طيبةً في إسطمبول. وقد صحب الوفد إلى إسطمبول السيد (**ألتر توركمان**) وزير الخارجية التركي.

وصلت الطائرة إلى مطار إسطمبول في الساعة السادسة مساءً، حيث كان في الاستقبال عدد كبير من المسؤولين الأتراك على رأسهم السيد (**نيفزت أياز**) محافظ إسطمبول، وإلى جانبه القائد العام للقوات المسلحة التركية، وقائد الأكاديمية العسكرية، وقائد المنطقة الغربية، وقائد البحرية الشمالية، إلى جانب عمدة مدينة إسطمبول.

لم يدر بخلدي أنَّ مدينة إسطمبول بهذا الجمال والتنسيق والروعة، حيث حفتها الخضرة والمباني الشاهقة الجميلة. ورُصت على شوارعها أصنافٌ من المزهريات التي حوت ألواناً من الزهور ونباتات الزينة. وكانت أولي فقرات البرنامج زيارة لمتحف (**توب كابي**) وهي كلمةٌ تركية تعني (**رأس المدفع**). وهذا المتحف يعتبر واحداً من أكبر وأغني المتاحف في العالم حيث تحرسه الدبابات من كل النواحي لأنَّ شركات التأمين العالمية قد رفضت التأمين عليه بدعوى أنَّ محتوياته لا تقدر بثمن، مما سيُحدث إفلاساً لأي شركة إذا هي أمَّنتْ عليه واضطُرَّتْ للتعويض لأي سبب من الأسباب. كان أول ما شاهدناه في هذا المتحف الأسطورى هو غرفة مظلمة سوداء

وُضعت في وسطها أكبر زمردة في العالم استطاع الأتراك الحصول عليها وامتلاكها منذ سنواتٍ بعيدة. ثم ذهبنا بعد ذلك إلى الجناح الجنوبي من المتحف، وهو كالعادة لا يُفتح إلا لكبار الشخصيات العالمية التي هي في مصاف رؤساء الدول أو الحكومات. وكنا على موعد مع الحظ حيث فُتح لنا ذلك الجانب على مصراعيه تحفه قوات الحرس التركي من كل الاتجاهات.

كان أول المعروضات في هذا الجناح هو (**عصا النبي محمد صلي الله عليه وسلم**). وهي عصا صغيرة معكوفة في أحد جانبيها. وقد حُفظت داخل جفيرٍ من الذهب الخالص وُضِعَ بدوره في صندوق كبير من الزجاج. وعلى الجانب الآخر من هذه العصا كانت توجد ثلاثة سيوف هي (**سيف سيدنا عثمان بن عفان، وسيف سيدنا أبى بكر الصديق، وسيف سيدنا عمر بن الخطاب**) رضي اللهُ عنهم. وقد حُفظت السيوفُ الثلاثة في صندوق زجاجي كبير ليتمكن زوار المتحف من مشاهدتها. وأمام هذه السيوف الثلاثة وُضع (**مصحف سيدنا عثمان بن عفان**) الذي كان يقرأ فيه ساعة اغتياله، وكانت بُقَعُ دمِ سيدنا عثمان متناثرةً على صفحاته المفتوحة. حاولتُ جاهداً أن أقرأ الآيات المكتوبة على صفحات المصحف فلم أتمكن رغماً عن وضوحها، والسبب هو أنَّ رسمَ الحروف التي كُتبَ بها المصحف يختلف كثيراً عمّا نكتبه اليوم. وبالطبع فإن هذا المصحف قد نُسخ قبل وضع النقاط على الحروف، حيث إنَّ من المعروفِ أنَّ القرآن قد

جُمع في عهد أبي بكر الصديق على يد زيد بن حارثة ثم أخذه أبو بكر الصديق وحفظه حتى وفاته فآلَ إلى سيدنا عمر بن الخطاب الذي سلمه عند وفاته للسيدة حفصة بنت عمر زوجة الرسول صلى اللهُ عليهِ وسلم ومنها آل لسيدنا عثمان الذي نسخ منه أربع نُسخ وزعها على الأمصار واحتفظ بواحدة هي التي حُفظت في متحف توب كابي.

بجانب ذلك المصحف رأيتُ زجاجةً ضخمةً اقتربتُ منها بشغفٍ شديد لأرى ما فيها فإذا بها تحوي شَعراتٍ من لحية الرسول صلى اللهُ عليه وسلم. وعلى مقربةٍ من ذلك كانت هناك صخرةٌ صغيرة يظهر عليها أثر قدمه صلى الله عليه وسلم حافياً من النعل. وكأنها تشير إلى مقولة المتصوفة إنَّ أثره كان يظهر على الصخر ولا يظهر على الرمل.

وفي واجهةِ المَخرَجْ من هذه الغرفة كان هناك صندوقٌ زجاجي كبير في داخله قطعة من الجلد كُتبت عليها بعض العبارات. ولما اقتربتُ منها وجدتُها تحوي الرسالة التي بعث بها النبي صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس عظيم القبط في مصر، وكانت بخط الإمام علي بن أبي طالب كرم اللهُ وجهه. بعد ذلك دعانا قائدُ الرحلة إلى دخول إحدى الغرف المغلقة، وكانت واضحاً أنها غرفةٌ ذاتُ خصوصية لدى إدارة المتحف بحكم أنها قد فُتحت بطقوس وأدعيةٍ وآياتٍ من القرآن الكريم تلاها شيخٌ طاعنٌ في السن له وجهٌ

صبوحٌ ولحيةٌ بيضاءُ تنزل تحت صدره المُحلى بجُبةٍ تخلب الألباب من حُسنِ هندامها. كان في وسط تلك الغرفة صندوقٌ يتلألأ من الذهب الخالص حُليت جوانبه بالياقوت والزمرد. ولما فتح الشيخ ذلك الصندوق الذهبى حيثُ بُهِرنا بما رأينا. جُبةُ المصطفى صلى الله عليه وسلم التي ما إنْ فُتحت حتى فاضت المآقى بالدموع. وفاح عطرٌ ملأ الأرجاء من عبق تلك العباءة التي أسر مرآها لُبابَ الجميع. وتدافع الكل يريد لمسها أو التمعن فيها حتى كأنهم يريدون أن يلتهموها من فرط الهيام.

وقال الشيخ الوقور الذي تخصص في حراسة هذه الغرفة:

«**إنَّ هذا العطر الذي على هذه العباءة ظل بها منذ أن بارحت النبي صلى الله عليه وسلم ولم يحدث لأحد أن وضع عليها عِطراً طوال السنين، بل هي التي تُعطر المكان**». بعد ذلك أحكم الشيخ إغلاق الصندوق الذهبي بعد أن قام بإدخال الجبة فيه رغم أن الجميع قد طالبوه بإبقائها في الخارج ليتأملوا من خلالها ذكرى رسول الله، فأبى الشيخ ذلك قائلاً: «**نحن نعلم ما لهذه العباءة من سحرٍ على قلوب المسلمين الذين يزورون هذا المكان، ولذلك لا نفتحها إلا لماماً بعد أدعيةٍ وطقوس معينة إكراماً لصاحبها عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم**».

وسرحت بخيالي في التاريخ القديم مستحضراً اللحظة التي دخل فيها (**كعب بن زهير**) مسجد الرسول في المدينة وكان عدد من

الصحابة جلوساً عند رسول الله بينهم عمر بن الخطاب. جلس كعبٌ أمام النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن وضع يديه على ركبتيه وبدأ ينشد قصيدته العصماء:

بانَتْ سُعادُ فقلبيْ اليومَ متبول
مُتيمٌ إثرَها لم يُفْدَ مَكْبُولُ
وما سُعادُ غداةَ البينِ إذ رحلوا
إلا أغنُّ غضيضُ الطرفِ مكحولُ
هيفَاءُ مُقبلةٌ فَرعاءُ مُدبرةٌ
لا يُشْتَكَىْ قِصَرٌ منها ولا طُولُ

ومضى في إنشاده إلى أن قال:

وقد نُبئتُ أن رسولَ اللهِ أوعدني
والعفوُ عندَ رسولِ اللهِ مأمولُ
إنَّ الرسولَ ضياءٌ يُسْتضاءُ به
مُهندٌ من سيوفِ اللهِ مسلولُ

فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم بُردته التي كان يضعها على كتفه بعد أن عرف أنه كعبُ بن زهير الشاعر الذي كان

الرسولُ قد أهدر دمه لهجائه للإسلام ونبي الإسلام جاء الآن تائباً مستغفراً عن ذنبه، فخلع عليه الرسول بردته التي كانت على كتفيه عرفاناً وقبولاً له بين صفوف المسلمين.

وكعب هو نجل الشاعر العربي الكبير (**زهير بن أبي سُلمى**) الذي حفظت له كتب التراث الكثير من قصائده في وصف الحياة البدوية أيام الجاهلية. ولذلك سميت تلك القصيدة (**قصيدة البردة**) من تلك اللحظة. وظل الشاعر كعب بن زهير محتفظاً بتلك البردة كأعظم هديةٍ يتلقاها شاعرٌ من رسول الله، وظل يتوارثها الملوك والأمراء من بعد ذلك حتى آلت إلى الأتراك العثمانيين ومنهم إلى ذلك المتحف في قلب مدينة إسطمبول حيث تشرفنا برؤيتها.

زيارة أيا صوفيا

كنا على موعد مع زيارة (**أيا صوفيا**) وهي إحدى المعالم التاريخية المهمة للمسلمين والنصارى على السواء. فقد كانت كنيسةً كبيرة ثم أصبحت مسجداً للمسلمين، وعند مجيء الزعيم التركي (**مصطفى كمال أتاتورك**) حَوَّلَها إلى متحف ثم بعد وفاته قُسمَ المبنى إلى ثلاثة أقسام ضَمَّ أحدُها المسجد والثاني الكنيسة والثالث المتحف. كان علينا أن نزور (**مسجد السلطان أحمد**) الذي لا يبعد كثيراً من أيا صوفيا أولاً ثم نترجل إلى أيا صوفيا. وعند

خروجنا من مسجد السلطان أحمد نصحنا البعض أن نسير بمحاذاة الرصيف إلى أيا صوفيا لنستمتع بجمال الشارع والمعمار الذي أُقيم حوله. وبالفعل سرنا كل المسافة على الأقدام.

وأثناء الطريق لفت انتباهي منظرُ شابٍ في مقتبلِ العمر كان يمشي أمامنا ممسكاً بيد معشوقته الصغيرة. كانا يتهاديان على طريق الأسفلت الواسع وكأنَّ الحياةَ لم تَسِعْ سواهما. وبلا مقدماتٍ احتضنَ الشابُ فتاتَه وانحنى عليها في قُبلةٍ حرَّى فاقت قُبُلات أبطال هوليوود.

كُلُ ذلك في وسط شارع الأسفلت الواسع وتحت سماء إسطمبول الصحو وكأنه لم يرَ في الوجودِ أحداً غيره وغير معشوقته الجميلة. والطريف في الأمر أنهما واصلا سيرهما بعد تلك القُبلة الساخنة ممسكين بأيدي بعضهما حتى وصلا إلى أيا صوفيا فدخلا المسجد وصليا ركعتين لله وخرجا وكأنَّ شيئاً لم يكن.

في تلك الأثناء كان نميري قد دخل متحف أيا صوفيا من مدخل آخر حسب البروتوكول، والتقينا بالداخل وتجولنا في أنحاء المكان. وأثناء الطواف استوقفتني شابةٌ تركية وقالت لي: ((**إنني من المعجبين بشخصية الرئيس نميري، وأريد أن أُسلم عليه**)).

قلتُ لها: ((**بكل سرور**)). وفي الواقع فقد تبرعتُ أنا بذلك الرؤد لأني لم أكن أشعر أنَّ هناك ما يمنع مثل تلك التحية خصوصاً وأنَّ زوار المكان كثيرون وهم يتجولون بشكلٍ اعتيادي أثناء

تجوُّلِ الرئيس. واعتبرتْ تلك الفتاة حديثي إذناً لها بالتقدم لتحية الرئيس فتوجهت مباشرةً نحوه، وما أن رآها رجال الحرس حتى جذبوها بكل العنفوان وأخرجوها في أقل من لمح البصر خارج المكان. ورمقتني بنظرةٍ ملؤها الغضبُ وكأنني أنا الذي أدخلتها في ذلك الحرج الشديد.

خرج الرئيس نميري وأعضاء الوفد المرافق من مبني أيا صوفيا وتوجه الجميع نحو السيارات وسط تلويح الحاضرين لنا بأيديهم تحيةً ووداعاً. وأخذ البعض صوراً تذكارية معنا وكتبوا لنا عناوينهم ليتواصل التعارف عن طريق البريد.

فوجئ الزملاء ونحن نتحرك نحو السيارات بغياب الزميلة محررة التلفزيون المرافقة للوفد. لقد كانت تتجول معنا داخل المبنى ولكنها لم تخرج. وطلبَ مني أعضاء الوفد أم أستدعيها سريعاً للذهاب. وعلى الفور نزلتُ من السيارة ودخلتُ أبحث عنها داخل المبنى الضخم بدهاليزه الكثيرة وممراته المتداخلة. لم أعثر لها على أثر، وفجأةً رأيتُ صفاً مُتراصاً من البشر وقف فيه عددٌ من الشباب والشابات من مختلف الأجناس يزحفون ببطءٍ شديد.

توجهتُ نحو ذلك الطابور بسرعة لأنني لمحتُها من بعيد تزحف في وسطه مع الزاحفين. قلتُ لها: «**ما هذا؟ أرجو الخروج بسرعة لأنَّ الرئيس وأعضاء الوفد بانتظارك وهم الآن داخل السيارات**». فقالت لي: «**كلا فأنا لن أبرح هذا الصف ما لم أصل إلى**

نهايته)). قلتُ لها والدهشةُ قد عقدت لساني: ((**هل جُننتِ؟ أقول لك إنَّ الرئيس قد خرج والكل بانتظارك الآن، ويمكنك أن تشتري من أي مكانٍ آخر**)). قالت لي: ((**هذا الطابور ليس للبيع، وإنما هو ينتهي بثقبٍ صغير على ذلك الحائط المقدس وكل هؤلاء الناس ينتظرون دورهم وعندما يصل أحدهم إلى ذلك الثقب الصغير يُدخل أصبعه لمدة ثوانٍ محدودة وبعد ذلك سيتزوج على الفور رجلاً أم امرأة، وأنا سأُدخل أصبعي مهما كان**)).

استغربتُ من ذلك الأمر العجيب ونظرتُ للحائط فإذا به ثُقبٌ صغير يحرسه بعض الرجال بغرض تنظيم الناس. وقلتُ لها: ((**كلنا نتمنى الزواج ولكن الوقت الآن غير مناسب لأن الوفد قد خرج إلى السيارات فأرجو أن تخرجي**)).

ولم تُفلح محاولاتي بإقناعها بالخروج فطلبتُ من الواقفين في الصف أن يسمحوا لها بالتقدم لأول الطابور لأنها إحدى أعضاء الوفد الرئاسي، والناسُ الآن بانتظارها. وقدَّرَ الجميعُ موقفنا وقالوا لها تفضلي لأول الصف. وتقدمتْ نحو الحائط بعد أن أفسح لها الشبابُ الطريق، وأدخلت أصبعها، ثم خرجنا نهرول لنلحق بركب الرئيس.

كان الجميع قد استشاطوا غضباً من التأخير الذي لم نشرح لهم سببه في حينها. وكانت المفاجأة عندما عدنا إلى السودان أنْ تقدم لها أحدُ زملائنا المحررين بقسم الأخبار وتمت مراسيم الزواج

على أجمل ما يكون. وسهرنا مع أهل الإعلام والثقافة من أصدقاء العروسين الذين لم نحكِ لهم قصة ذلك الثقب الأياصوفي العجيب. أعددتُ كثيراً من الأخبار في شكل رسائل إذاعية لأرسلها إلى الإذاعة عن طريق التلفون في موعدها حتى لا تفقد حيويتها لأن الخبر الذي يُؤجل إلى الغد يفقد الكثير من قيمته. ووقفت أمامي عقبةٌ كُبرى عندما اتصلت بموظفة التلفونات بالفندق طالباً توصيلي بالسودان. فقالت الموظفة هذا رابع المستحيلات، إنني أستطيع أن أوصلك بأي مكان في الدنيا إلا السودان فالخطوط إليه في غاية الصعوبة.

وسط هذا الإحباط المريع قلتُ للزميل ياسين عبد الله وما العمل؟ إننا سنخسر الرهان بعدم إرسال أي رسالة إلى الإذاعة. فكَّر الزميل ياسين عبد الله وقال لي: «**لن نخسر وسنرسل رسائلنا كاملة إن شاء الله فلا تقلق**».

سألته وكيف ذلك؟ قال لي هل عندك الآن رسائل جاهزة؟ قلتُ له نعم. قال لي تعال لنسجلها على الشريط. وذهبنا إلى غرفته بالطابق الخامس في الفندق وسجلتُ الرسائل على مسجل ناقرا ذى الكفاءة العالية الذي يحمله عادةً فنيو قسم التغطية بالإذاعة في مثل هذه المناسبات. بعد ذلك حمل ياسين المسجل والشريط وذهب إلى جناح الرئيس الخاص ولم يمنعه رجال الحرس من الدخول خصوصاً وأنهم قد أصبحوا أصدقاءً لنا بحكم المعرفة اللصيقة وطول

المرافقة في الأسفار المختلفة داخل وخارج السودان. خرجت فجأةً الآنسة (**فتحية عثمان صالح**) سكرتيرة حرم رئيس الجمهورية من غرفتها المجاورة لغرفة الرئيس. قال لها ياسين: «**نريد مساعدتك يا فتحية بإعطائنا خط التلفون الساخن الخاص بالرئيس لأن عندنا رسائل مهمة لم نجد لها خطاً عبر لندن، وإذا لم نرسلها لن يعرف أحدٌ من السودانيين عن هذه الرحلة**».

وافقت فتحية على الفور وقالت لنا تفضلوا إلى غرفتي لأن التلفون الساخن يوجد بها. ودخلنا الغرفة، وما أن رفعنا السماعة حتى دخل علينا متحدثٌ من القصر الجمهوري بالخرطوم فقلنا له: «**نرجوك أن توصلنا بالإذاعة فوراً لأن لدينا رسائل مهمة وأخباراً تخص الرئيس نريد إيصالها لقسم الأخبار**».

وفي لمح البصر كنا نتحدث مع أستوديوهات الإذاعة في خط مباشر فسجلوا الرسائل كاملةً وأذيعت في الحال. وبعد الانتهاء من تلك الرسالة اتفقنا مع فتحية أن تساعدنا على فعل ذلك مرةً أخرى فوافقت، وظللنا نأتي إلى غرفتها كلما أعددنا رسالةً حتى بلغ عدد الرسائل التي قمنا بإرسالها من هناك ستَّ رسائل وهو رقم قياسي في رحلاتِ أي رئيس دولة.

وأحسستُ أن أول مهمة لي خارج السودان قد كُللت بالنجاح بفضل الزميل ياسين عبد الله والصديقة فتحية عثمان صالح. كان فندق هيلتون إسطمبول الذي نزلنا به آيةً في الروعة والجمال، وهو

مطلٌ على بحر مرمرة. ومن شرفته يطل الإنسان على المياه الزرقاء التي لعبت يد الإنسان والطبيعة على السواء دوراً عظيماً في تزيينها بالنوافير المضيئة في الليل والتي تنبعث الموسيقى من تحتها في مشهد يأخذ بالألباب.

وأمام النوافير كان الجسر المُعَلَّقْ الذي يفصل إسطمبول إلى نصفين نصف في آسيا ونصف في أوربا. وسط تلك المشاهد الخلابة أمضينا أسعد الأوقات حتى نال منا الإعياءُ ما نال، فدخلتُ غرفتي لأتصفح بعض الجرائد اليومية وأتابع الأخبار من جهاز التلفزيون بعد عناء النهار.

وعند التاسعة مساءً اتصلتُ هاتفياً بغرفة الخدمات بالفندق طالباً إحضار العشاء إلى الغرفة. وبادرتني الفتاة المتحدثة في الطرف الآخر قائلةً: **«لا بأس فالعشاء جاهز ولكن لماذا لا تصعد إلى الطابق التاسع وتستمتع بدعوة العشاء الخاصة التي يقيمها وزير الخارجية على شرف زيارتكم؟»**

قلتُ لها: **«أي دعوةٍ تتحدثين عنها، ليس في برنامجنا المكتوب إشارة لأي دعوة للعشاء في هذه الأمسية»** قالت: **«نعم هي ليست مدرجة في جدول البرنامج، ولكنَّ الوزير أقامها على هامش اللقاء، لأنَّ هذا الوقت ليس فيه أي زيارات أو لقاءات. وفي الواقع أراد الوزير أن ينتهز الفرصة ويقدم لكم شيئاً من الفولكلور الشعبي والموسيقى التركية الكلاسيكية»**. قلتُ لها: **«ما دام العشاءُ راقصاً**

ومُموسقاً فسأذهب إليه في الحال». لبستُ جاكتةً زرقاء اللون لزوم البروتوكول، وخرجتُ إلى المصعد فلم أجد أحداً في الممرات لأنَّ الجميعَ قد سبقوني، وصعدتُ إلى الطابق التاسع. وما أن وصلتُ إليه حتى جاءني صوت الموسيقى الشرقية بإيقاعاتها المميزة من الجانب الأيسر للصالة الضخمة التي جلس فيها الرئيس وجميع أعضاء الوفد والسوداني إلى جانب بعثة الشرف التركية.

كانت الصالة قد تزينت بالثريات الملونة وعلى جدرانها الرخام المنتقوش ورصت الموائد التي بدت كقطع العاج المنثور على بساط من الزمرد. وتعالى صوتُ الموسيقى الشرقية يُذكرُ بأيام زكريا أحمد وعبده الحامولي، وقد لبس أعضاء الفرقة الاستعراضية زياً أحمر اللون من القطيفة الناعمة ووضعوا على أناملهم الخلاخيل الفضية وعلى رؤوسهم الطرابيش التي تعود إلى عهد الإمبراطورية العثمانية. وتزينت المائدة بكل أصناف الطعام الشرقي والمشهيات والمشروبات الباردة والساخنة.

نظرت جهة اليمين فإذا بأحد الأصدقاء من أعضاء الوفد كان يقف وحيداً بعيداً عن كل ذلك الزخم وكان يسرحُ ببصره بعيداً خارج المكان. من ملامح ظهره عرفت أنه (**الجيلي عثمان دقناوي**) وهو أحد أعضاء حرس الرئيس. كان الجيلي زميل دراسةٍ قديم حيث درسنا المرحلتين الوسطى والثانوية بمدينة النهود وهو ينتمي إلى تلك المدينة أُما وأباً. وبعد إكمال دراسته بالمرحلة

الثانوية التحق بالقصر الجمهوري كفني إلكترونات. ولمهارته الخاصة في هذا المجال أصبح المسؤول عن الأجهزة الخاصة بالرئيس، وأُلحق بحرس نميري ليكون في معيته دائماً خلال تحركاته.

ذهبتُ نحوه وناديته جيلي جيلي، التفت إلى مذعوراً وكأنني قد أيقظته من ثُباتٍ عميق. قلتُ له: ((**لا بأس عليك يا جيلي، لماذا تقف وحيداً هاهنا بعيداً عن الناس؟**)) قال لي: ((**تعال يا عوض وانظر إلى هذا المنظر، إنني هنا أعبدُ الله الذي انتشلني من حي مرازيق بالنهود وجاء بى إلى هذه الجنة**)).

ونظرتُ إلى المكان من على الشُرفة فإذا ببحر مرمرة وقد تلألأت فيه الأضواء الملونة وتناثرت النوافير في كل اتجاه تتراقص مع إيقاع الموسيقى والموج ينسابُ على مر النسيم العليل في مشهدٍ يخلب اللبابَ والعقول. فقلتُ له: ((**واللهِ يا جيلي معاك ألف حق ودعنا نعبد اللهَ سوياً**)). وتسمرتُ معه في ذلك المكان.

مكثنا أكثر من نصف ساعةٍ نتأمل جمال الطبيعة إلى أن دعانا السيد (**أحمد سالم أحمد**) وزير التجارة الخارجية للجلوس وتناول العشاء. تناولنا عشاءنا ثم عدنا لنفس المكان الذي لم نقدر على الفكاك منه، وبقينا به حتى سويعات الصباح الأولى نجتر ذكريات الصبا وأيام النهود الأولى. وفي صبيحة اليوم التالي حزمنا أمتعتنا وفقاً للبرنامج الذي بحوزتنا، وودعنا مدينة إسطمبول الساحرة متوجهين نحو العاصمة الرومانية (**بوخارست**) بعد أن

قضينا أجمل أيام العمر بهذه المدينة الفاتنة الخلابة النظيفة، والتي تسمى (عروس الشرق الساحرة)، وهو الاسم الذي يحلو لجميع الأتراك أن يطلقوه على إسطمبول.

الوصول إلى بوخارست

وصلنا إلى مطار بوخارست الدولي في الساعة الرابعة من أمسية الثلاثاء الثالث من شهر آب أغسطس 1982م. كانت طائرتنا قد وصلت قبل طائرة الرئيس نميري فبقينا في المطار زهاء الساعة بانتظاره. وفي تلك الأثناء جاء إلى صالة كبار الزوار الرئيس (**نيكولاي شاوشيسكو**) ترافقه السيدة حرمه (**إلينا شاوشيسكو**) والسيد (**جوزيف جانك**) نائب الرئيس ورئيس اللجنة الوزارية العليا المشتركة بين السودان ورومانيا، ووزير الخارجية، والسيد (**عصام الدين حسن**) سفير السودان برومانيا.

تأملتُ في شخصية الرئيس شاوشيسكو طويلاً فوجدته رجلاً صارم القسمات رغم الوسامة التي تبدو على صوره والتي كنتُ أظن معها أنه شخصٌ مرحٌ وضاحك. وأدهشني قِصَرُ قامته الذي ما كنتُ أتصوره بذلك الحجم. وأكثر ما لفتَ انتباه الحاضرين وجود كلبه الضخم الذي لم يفارقه أبداً. كان كلباً كالأسد في سحناته ترتعد منه فرائص الآدميين. وظلَّ شاوشيسكو طوال الوقت يداعبه بشكل مزعج وكأنه يريد ترويضه في حلبة سيرك. وبعد قليل أشار

أحد الضباط إلى موعد هبوط طائرة نميري فخرج شاوشيسكو وحرمه والوزراء إلى مدرج هبوط الطائرة. وقد ازدان المطار بأعلام السودان ورومانيا واصطف أعضاء السلك الدبلوماسي إلى جانب الرسميين الرومانيين استعداداً لاستقبال الرئيس.

وهبطت الطائرة فتقدم شاوشيسكو وحرمه إلى سلمها وصافح نميري وحرمه. وفجأةً حدث ما لم يكن في الحسبان حيث هجم كلب الرئيس شاوشسيسكو على حرم الرئيس نميري السيدة (**بثينة خليل**) في مشهدٍ مريع. وارتعدت فرائص حرم الرئيس من الهلع حتى كادت أن تصرخ. وأسرع الرئيس شاوشيسكو إلى كلبه الهائج وتمتم له بكلمات لم يفهمها أحد فهدأت ثورة الكلب وعاد إلى طبيعته رغم أن حرم الرئيس لم تعد إلى طبيعتها حتى نهاية ذلك الاستقبال الذي وضعها في موضعٍ لا تُحسد عليه.

لقد ظلَّ انشغالها بالكلب أكثر من انشغالها بزوجة الرئيس شاوشيسكو السيدة إلينا. كان المتوقع أن يأمر شاوشيسكو بحبس كلبه بعيداً عن أعين الوفد تحسباً لإعادة ذلك المشهد السخيف ولكنه لم يفعل، وظل الكلب مرافقاً لنا طوال الرحلة. وأخيراً علمنا أنَّ هذا الكلب لم يفارق شاوشيسكو في يومٍ من الأيام حتى وإنْ كانت الضحية حرم الرئيس. وقال الرئيس شاوشيسكو لنميري مخففاً عن وقع الهلع الذي أصاب حرمه: ((**ربما كان منظر الثوب السوداني جديداً على الكلب يا سيادة الرئيس فاهتاج بهذا الشكل غير المعهود**)).

وبعد مراسم الاستقبال الرسمية بمطار بوخارست حملتنا سيارات الرئاسة إلى مقر السكن بقلب العاصمة حيث كان نزول الرئيس نميري والوزراء (**بقصر الضيافة**) وأُنزل بقية أعضاء الوفد بفندق (**تريومف**) Triumph وهو فندق رسمي تابعٌ للحزب الشيوعي الحاكم في رومانيا.

الخنزير أم العَرَقي؟

كنا في غاية الإعياء والجوع عندما وصلنا إلى مقر إقامتنا بفندق Triumph فتوجهنا مباشرةً إلى قاعة الطعام قبل أن نضع الأمتعة في الغرف المخصصة لكلٍ منا. تركني الزملاء بالمطعم لأطلب الطعام وتوجهوا نحو الغرف ليضعوا الحقائب وأجهزة التصوير والتسجيل المختلفة ثم يعودون. وبعد أن طلبتُ الطعام لكل أفراد المجموعة جاءت فتاتان تحملان أطباق الأكل وتضعانها على الموائد.

لاحظتُ أنَّ شكل الشواء المقدم ليس مألوفاً لديَّ وساورني الشك فيه فسألتُ إحدى الفتاتين عن نوع هذا الطعام فقالت إنه لحم خنزير. قلتُ لها: «**عفواً أرجو أن تُعيدي كل هذه الأطباق وتستبدليها فوراً بأطباقٍ أخرى فنحن جميعاً مسلمون ولا نتعاطى لحم الخنزير**». اعتذرت الفتاة بلطفٍ وقالت: «**للأسف ليس عندنا الآن غير كبدة دجاج فقط لأنكم قد جئتم قبل وقت الطعام المحدد**

في **نظام هذا الفندق**». قلتُ لها: «**معذرةً، أرجوكِ أن تستبدلي كل هذه الأطباق بكبدة دجاج**». وأثناء أخذها للأطباق من الموائد وإعادتها إلى داخل المطعم نزل الزملاء من الغرف ولاحظوا أنها تأخذ الطعام من الموائد فسألوني: «**لماذا تعيد هذه الفتاة أطباق الطعام؟**» قلتُ لهم: «**أنا طلبتُ منها ذلك لأن هذا لحم خنزير**».

فرد على أحدهم على الفور: «**ومالو لحم الخنزير؟**» قلتُ له: «**لأنه حرام طبعاً**». فقال لي: «**وهل العَرَقِي الذي نشربه كل يوم هذا حلال؟ سيب الخنزير في محلو**» وضحك الجميع، إلا أنَّ الفتاة كانت قد أخذت بالفعل كل أطباق الخنزير واستبدلتها بكبدة دجاج. وحمدنا الله أنها لم تفهم ما قاله ذلك الصديق.

لاحظتُ أثناء حواري مع تلك الفتاة عن لحم الخنزير أن أحد الأمريكيين كان يجلس على الطاولة المقابلة على يميني وكان شخصاً بديناً قوي البنية طويل القامة وله شاربٌ صغير، كان يتابع حديثنا من خلف الصحيفة التي يتصفحها أثناء ذلك الحوار.

وبعد أن بدأنا في تناول الطعام حياني بابتسامةٍ خفيفة وقال لي لا بأس أن نتعرف على بعضنا. حييته وأخبرته عن اسمي وهويتي. قال لي: «**أنا كابتن الطائرة التي جئتم بها من السودان مع الرئيس نميري**». قلتُ له: «**أي طائرة؟ إنني لم أرك مطلقاً طوال الرحلة إلا في هذه اللحظة**» قال لي: «**ولكني رأيتك منذ أن كنا في مطار الخرطوم، وفي الواقع أنا قائد طائرة السيد عدنان خاشوقجي وهي**

التي أقلت الرئيس نميري من الخرطوم. وقد بعثني السيد عدنان مع جميع أفراد الطاقم لنكون في خدمة الرئيس نميري وتحت تصرفه حتى انتهاء هذه الرحلة ثم نعود وهذه ليست أول مرة نفعل فيها ذلك مع الرئيس نميري».

قلتُ له: «**كنتُ أحسبُ أن قائد هذه الطائرة سوداني لولا ما أسمعه الآن منك**». استرسل الكابتن قائلاً: «**هذا ليس هو المهم ولكن المهم هو ما سمعته من حديث دار بينك وبين تلك الفتاة حول لحم الخنزير، لقد أثار فضولي ذلك الأمر خصوصاً عندما احتج زميلكم على استبدال الخنزير بكبدة الدجاج**».

قلتُ له: «**وهل استطعتَ أن تفهم حديثه الذي كان باللغة العربية؟**» قال لي: «**أنا أفهم الكثير من العربية بحكم تحركاتي مع السيد عدنان خاشوقجي وزوجته ثريا، ولكني لا أجيدُ التحدث بها. وما أثار فضولي في هذا الحديث أنَّ الخنزير محرمٌ في الولاية التي جئتُ منها، فأنا مواطنٌ أمريكي أماً وأباً، ومعظمنا مسيحيون في تلك الولاية ولكن كانت الصدف قد لعبت دوراً كبيراً في هذا الأمر، حيث إنَّ معظم الأبحاث العلمية التي أُجريت على لحم الخنزير وأثبتت أنَّ له أضراراً كبيرة بصحة الإنسان أجراها علماء من ولايتنا، ولذلك أصروا على حاكم الولاية منذ سنواتٍ أن يتخذ قراراً بمنع الخنزير في الولاية إذا لم تفلح مساعينا لمنعه في كل بقاع الولايات المتحدة الأمريكية. ووسط ضغوط البرلمان المحلي مدعوماً**

بتقارير أولئك العلماء المختصين أصدر الحاكم أمراً محلياً بتحريم ذبح الخنزير في ولايتنا، ومن يومها فقد قررت أنا والعديد من أهلي وأصدقائي عدم تعاطي لحم الخنزير تقديراً لأن هذه الأبحاث القيمة قد نبعت من ولايتنا، وقد فعل الشيء ذاته معظم أهلي وأصدقائي». قلتُ له: «**إذن لا بد أن أخبر هذا الصديق الذي احتج على رفع أطباق الخنزير من المائدة علّه يتعلم من هذه القصة**». والتفتُ نحوه فإذا به قد أتى على صحن كبدة الدجاج بكامله وغادر الصالة إلى غرفته من فرط الجوع والإرهاق.

إسرائيليات يرقصن على أنغام سيد خليفة

في المساء اقترح علينا بعض الطلبة السودانيين أن نخرج في جولةٍ حول مدينة بوخارست فراقت لنا الفكرة وخرجنا معهم. اقترح علينا المرافقون الذين كانوا يقومون بدور المترجمين أن نجلس بعض الوقت في صالة الفندق الأمريكي لأنه يقدم موسيقى من كل بقاع العالم وتؤمه قبائلُ السُواحِ من كل مكان.

ودخلنا الصالة التي ضجت بالحاضرين. وكان يجلس على الطاولة المجاورة لنا ثلاثةُ شبانٍ عرب حييتهم وقلتُ لهم: «**أنا من السودان، فمن أينَ أنتم؟**» قالوا: «**مرحباً بالإخوة السودانيين، نحن إخوانكم من فلسطين ندرس هنا في رومانيا**». كان ضمن المرافقين لنا من الطلبة الطالب (**هاشم الوقيع**) من أبناء مدينة الأبيض

وكان يدرس الطب في رومانيا فطلب من إحدى الفتيات أن تقدم لنا قائمة الطعام لنختار منها ما يروقنا، اعتذرت الفتاةُ قائلةً: «**عفواً أنا لست عاملة بهذا الفندق وإنما أنا من شركة السياحة الرومانية وأرافق الوفد الإسرائيلي**». رنَّت في أذني كلمة الوفد الإسرائيلي، وسألتها بشكلٍ لا شعوري: «**هل يوجد هنا وفدٌ إسرائيلي؟**» قالت: «**نعم، وهم الآن في صالة الاستقبال وسيأتون حالاً**».

تملكني الفضول غاية التملك، وبدأت أتطلع إلى بوابة الصالة لأرى شكل هؤلاء الإسرائيليين. حيث ظللتُ طوال حياتي أرسم صورةً للإسرائيليين من خلال الإعلام العربي وأحداث الشرق الأوسط. ودخل الوفد الإسرائيلي الذي كان ثلاث فتيات في غاية الجمال يلبسن زياً أفرنجياً أنيقاً وجلسن مع الشباب الفلسطينيين الذين حييتهم قبل قليل، وكان الجميع في آخر انسجام ومودة.

نظرت للأصدقاء الذين كانوا معي وقلتُ لهم: «**هل يا تُرى نصدق أعيننا أم نصدق أجهزة إعلامنا العربي؟**»

كانت الفرقة الموسيقية بالفندق تعزف أنغاماً من كل مكان وكأنها تقدمها تحيةً للضيوف الذين اعتادوا على ارتياد المكان. وفجأةً سمعنا نغماً حبيباً إلى أنفسنا وهو موسيقى أغنية (**المامبو السوداني**) للفنان (**سيد خليفة**). وبمجرد أن بدأت الأغنية نهضت الإسرائيليات الثلاث إلى ساحة الرقص وتمايلنَ طرباً على إيقاعات سيد خليفة مع أصدقائهن الفلسطينين، فقلتُ لأصدقائي

هذا بالفعل سمك لبن تمر هندي. في الصباح خرجنا نتجول في أسواق مدينة بوخارست وهي أسواقٌ كبيرةٌ وغنية بمعروضاتها من المصنوعات المحلية. وكان برفقتنا الطالبان (**صلاح إسماعيل بقادي وهاشم الوقيع**)، وفي أحد المحال الكبيرة في قلب المدينة رأيت ملابس ضخمة معروضةً في أحد الأجنحة. لم أشك في أنها شكلٌ من أشكال الدعاية لجذب الزبائن، ولم يَدُرْ بخلدي أنْ تكون لبشرٍ أحياء، وقال لي صلاح بقادي:

«**أبداً هذه ليست للدعاية وإنما هناك بشرٌ بهذا الحجم في رومانيا يأتون خصيصاً للشراء من هذا المكان وهم من صنف العمالقة**»، وقبل أن يكمل حديثه ظهر خلفنا رجلٌ من هؤلاء العمالقة وتناول إحدى الفنائل الداخلية المعروضة من بين تلك الملابس الضخمة، وللأسف كانت أصغر منه فضحكنا وغادرنا المكان إلى غير رجعة.

الدولار وصاحبُ القُبَعَة

عندما خرجنا من المحل كنت أريد تغيير بعض النقود فذهبت إلى أحد الباعة المتجولين الذين يكثرون في تلك الأماكن على شاكلة (**دولار ريال شيك سياحي**) في بلادنا، وأعطيته مبلغاً من الدولارات الأمريكية لتغييرها. وبدأ الرجل في عَدِّ الليات -وهي العملة الرومانية -وفجأة جاء الطالب صلاح بقادي وسألني عما

أفعل فقلتُ له: ((**إنني أقوم بتغيير بعض الدولارات**)) فقال لي: ((**أعمل حسابك فإنهم حتماً قد أعطوك المبلغ ناقصاً على الأقل خمسين دولاراً**)). قلت له: ((**كلا لقد عَدَّ هذا الشاب المبلغ أمامي وهاهو في يدي كاملاً**)).

أمسك صلاح النقود وخاطب ذلك الشاب باللغة الرومانية قائلاً: ((**إذا حاولت أن تغش فإنني سأسلمك إلى البوليس**)). وكان صلاح محتداً وواثقاً من حديثه الذي جاء بلهجة مرعبة لذلك الشاب. ارتجف الشاب عندما بدأ صلاح يحسب النقود وبالفعل كانت ناقصة خمسين دولاراً فارتعد الشاب وبالغَ في الاعتذار وأعاد إلينا بقية المبلغ. فقال لي صلاح: ((**لو كُنتَ وحدك فحتماً ستكون ضحية خداع هؤلاء البشر الذين يحتالون على أي إنسان مهما كان حرصه وحصافته**)).

أخذنا النقود وانصرفنا من ذلك المكان. وكان هذا موضوعاً للأنس والحوار فقلت لهم: ((**إذا كان الرومان بهذا الشكل من الغش والخداع فأين الانضباط والأمانة التي حدثنا عنها الرئيس شاوشيسكو بالأمس؟**))

هنا أمسك هاشم فمي بسرعة قائلاً: ((**يا زول داير تودينا في داهية أوع تجيب إسم الراجل دا على لسانك**)). قلتُ له: ((**إنني أتحدث بالعربية التي لا يفهمها أحدٌ هنا**)). قال لي: ((**إنَّ مجرد ذكر اسمه هذا سيسبب لنا متاعب لا يعلمها إلا الله، وسندخل في وعثاء لا أول**

لها ولا آخر، فأرجوك إذا أردت أن تتحدث عنه مرةً أخرى أن ترمز إليه بعبارة الرجل صاحب القُبُعة، وهذا هو الرمز الذي نستخدمه دائماً كسودانيين عندما نتحدث عنه». إلى هذا الحد كان شاوشيسكو طاغيةً في بلاده، قاسياً ولئيماً وجلاداً أذاق شعبه المرائر، وأفشى بينهم الأحقاد والكراهية والدسائس رغم أن الشعب ظل يتظاهر بحبه طوال سنوات حكمه.

وتكفي واحدةٌ من المواقف على قسوة الرجل، فالفندق الذي كنا فيه بالأمس وقابلنا فيه الفتيات الإسرائيليات فندقٌ أمريكي بناه مهندسون أمريكيون وفي إحدى السنوات حدث زلزالٌ في المدينة تصدعت إثره معظم البنايات الكبيرة ما عدا هذا الفندق، فما كان من شاوشيسكو إلا أن جمع المهندسين المعماريين في بلده وكال لهم سيل السباب وقال لهم لقد أحرجتمونا مع الإمبريالية العالمية، لماذا تصدعت كل المباني التي بنيتموها ولم يتصدع هذا الفندق الإمبريالي الوحيد في المدينة؟ ثم أطلق الرصاص على مَن كان حوله وأرداهم صرعى في الحال.

هذه القسوة للرئيس شاوشيسكو لا يفصح عنها الرومان في أحاديثهم سواءٌ مع بعضهم البعض أو مع ضيوفهم. بل ولا يجرؤ أي واحد منهم على إبداء ما في ضميره نحوه رغم أنهم يعلمون ما يعتمل في نفوسهم نحوه. ولتلك الأسباب فقد حرص شاوشيسكو على تعيين معظم رجال حرسه الخاص من المقربين إليه الذين لا

يشك مطلقاً في ولائهم له، ومحافظتهم عليه، وحرصهم على حياته في كل الظروف. وظلَّ يغدق عليهم المال الوفير، ويهيء لهم كل سبل الراحة والرفاهية حتى يضمن ولاءهم له، ويطمئن إليهم تحت كل الظروف، ويأمن جانبهم في حركاته وسكناته.

وحدي مع الأوباش

ميناء (**جورجيو**) من أكبر موانئ تصنيع السفن في رومانيا وشرق أوربا قاطبةً. وهو ميناءٌ نائي على نهرٍ صغير. والمدينة لا يقطنها سوى عمال صناعة السفن وخدمات الموانئ من أنصاف المتعلمين الذين ينالون قسطاً قليلاً من التعليم ثم ينخرطون في سلك العمل بهذه المصانع الضخمة. ولذلك فهم يتقاضون أجراً زهيداً مقابل خدماتهم الكبيرة التي يقدمونها لهذه المصانع المملوكة للدولة.

ومدينة جورجيو مدينةٌ مغلقة لا يدخلها أحد ولا يخرج منها أحد، حيث إنَّ طبيعتها التخصصية قد فرضت عليها ذلك الانعزال فضلاً عن قبضة الحزب الشيوعي القوية التي جعلت من كل الدولة سِجناً تُحسب الخطوات فيه حساباً.

كانت مدينة جورجيو هذه ضمن الأماكن التي وُضعت في برنامج زيارة الرئيس نميري. وقد قرر الرئيس شاوشيسكو أن يرافق نميري في زيارته لذلك الميناء هو وحرمه وكلبه بالطبع. وقد استعد

جميع العمال لاستقبال الرئيسين في ساحة مرفأ السفن على شاطئ النهر. وتقرر ذهابُ الرئيسين والوفود المرافقة لهما باليخت الرئاسي الخاص بالرئيس شاوشيسكو. أخبرنا رجالُ المراسم أننا سنركب هذا اليخت من مدينة صغيرة إسمها (**أولتنيسيا**) تقع على الحدود مع جمهورية بلغاريا الاشتراكية. وعلينا أن نذهب إلى أولتنيسيا بالسيارات من بُوخارست. كان الطريق محفوفاً بمزارع الزهور الممتدة على مدِّ البصر، حيث إنَّ رومانيا تعتبر من أكبر الدول المنتجة لزهرة عباد الشمس في العالم وتقوم بتصدير هذه المنتجات إلى مصانع الزيوت في بيرمنجهام وأمريكا اللاتينية حيث تدرُّ دخلاً كبيراً للدولة يقدر برُبع الدخل القومي.

وعلى جانبي الطريق كانت راعيات الأَوِزْ يتجولن في المزارع خلف أسراب الأوز البيضاء في مشهدٍ زادته جمالاً زخاتُ رذاذ المطر المتساقط طوال الوقت. وصلنا إلى مدينة أولتنيسيا الصغيرة، ووقف الرئيس نميري فترةً يتحاور مع شاوشيسكو ويتأملان في مراكب صيادي الأسماك الصغيرة التي انتشرت على طول النهر. وقال شاوشيسكو مداعباً:

«**هل ترون هؤلاء الشبان الذين أمامنا على تلك الضفة؟ إنهم في بلغاريا وليسو في رومانيا**».

وضحكنا لأن المسافة بيننا وبينهم لم تكن تتعدى الثلاثمائة متر، حيث كان النهر ضيقاً وصغيراً جداً والضفة الثانية منه كانت

قريبةً لدرجة أننا كنا نحيي الواقفين في البر الثاني فيردون التحية بعباراتٍ واضحة تمام الوضوح. تملكتني فجأةً رغبة المغامرة وقررتُ أن أذهب إلى (**بلغاريا**) لأجزم أنني قد سافرتُ إليها سيراً على الأقدام. ووجدتُ أنَّ نفس الإحساس قد راود عدداً من المرافقين فتوجهنا نحو بلغاريا. كان هناك جسرٌ صغير يفصل الدولتين وقد وُضعت على مدخله غرفةٌ صغيرة بها ثلاثةٌ من رجال الجوازات والجمارك، وما أن رأونا حتى رحبوا بنا وسمحوا لنا بالدخول إلى بلغاريا لأنَّ الرحلة لن تستغرق أكثر من ثلاث دقائق. وفي بلغاريا أخذنا بعض الصور التذكارية وعدنا. والطريف أننا كنا ننادي لأصدقائنا الذين بقوا بالقرب من اليخت في رومانيا فيسمعوننا ويردون على تساؤلاتنا ونحن في دولة بلغاريا.

في تلك الأثناء كان الرئيسان قد صعدا إلى اليخت وصعد جميع أعضاء الوفدين السوداني والروماني، وجئتُ مهرولاً لألحق بالباخرة فشاهدني سائق السيارة الذي جئتُ معه من بوخارست إلى أولتنيسيا وقال لي: «**هَوِّنْ عليك ولا تنزعج فأنا ذاهب إلى ميناء جورجيو نفس المكان الذي سيذهب إليه الرئيسان الآن والأفضل لك أن تذهب معي بالسيارة لأنك سترى جمال الريف الروماني على الطبيعة حيث سنمر على أربع مدنٍ صغيرة في الطريق، وهذا أفضل لك من مصاحبة الوفد الرئاسي الذي سيكون محصوراً داخل هذا اليخت مما قد يثير الملل بحكم قيود البروتوكولات الرئاسية**». قلتُ

له معك ألف حق وسأذهبُ معك بالسيارة. أشرتُ إلى الزميل ياسين عبد الله وبقية الزملاء الذين صعدوا اليخت وقلتُ لهم لا تنزعجو سألحقكم بالسيارة، وبقيتُ على الرصيف أتشاغل بالكاميرا التي في يدي رغم أن بعض أفراد حرس الرئيس كانوا يلوحون لي ويدعونني للحاق بالسفينة التي بدأت تتحرك بالفعل. ركبتُ السيارة لوحدي مع ذلك السائق الروماني الذي كان يجيد اللغة الإنجليزية وتحركنا نحو ميناء جورجيو. كانت السيارة تعبر الشوارع الخضراء التي نبتت على جانبيها شجيرات البلوط فأحسست بسعادةٍ غامرة لذلك المشهد الجميل.

ومررنا بعدد من القرى الرومانية فأحسست أن الريف هنا مثله مثل الأرياف في كل مكان أكثر هدوءاً ورِقةً وجمالاً حيث تغيب ضوضاء المدينة وتتلاشى سحب الدخان الكثيف التي تنفثها مداخن المصانع وعوادم السيارات دوماً في المدن. وأحسستُ أنَّ كُلَّ خلجةٍ من خلجات نفسي كانت تستمتع بجمال ذلك الريف البهيج.

وبعد ساعةٍ ونصف من السفر وصلنا إلى مدينة جورجيو التي ظهرت فناراتها من بعيد. وكانت أشرعة السفن المحملة على ساحل المرفأ ترتفع إلى عنان السماء مُنبئةً بأنَّ هذه المدينة قد تخصصت في هذا المجال. وكانت ألوان السفن الجديدة تتلاصف من بعيدٍ تحت وهج الشمس التي بدت ساطعةً ذلك الصباح.

كان الألوف من العمال قد خرجوا من مصانعهم مبكرين وتجمهروا في ساحة المرفأ على شاطئ النهر بانتظار الموكب الرئاسي، وكل واحد منهم يحمل علمين صغيرين من الورق هما علم السودان وعلم رومانيا وصورةً ملونة تجمع الرئيسين شاوشيسكو ونميري. وعندما وصلنا إلى ساحة الميناء لم تكن هناك سيارةٌ قد وصلت قبلنا رغم أنَّ كل السيارات قد توجهت مثلنا من أولتنيسيا إلى جورجيو. وبالطبع لم يصل الوفد الرئاسي لأن اليخت كان يسير ببطءٍ شديد.

وقفت سيارتنا في وسط ذلك الحشد الجماهيري الهائل من العمال المستقبلين. ولما كانت هي من سيارات الرئاسة المميزة بعلاماتها ولونها الأسود اللامع فقد قاد الفضول عدداً من العمال للتجمهر حولها لأنها تمثلُ مقدمةً لركب الرئيس. ونزلتُ أحملُ في يدي آلة التصوير لأستمتع بالتجول في الميناء قبل وصول الوفود. وليتني ما نزلتُ من السيارة فقد تقاطرت حولي جموع العمال التي لم تصدق أن أمامها رجلٌ أسود.

تحول الموقف إلى ما هو أقرب إلى الخيال، كل الكاميرات توجهت نحوي، والتفَّ البعض حولي ينظرون إليَّ كالقادم من كوكب آخر، وانتابني هلع شديد من كثرة العيون التي كادت أن تأكلني بنظراتها الفاحصة وضحكاتها المستغربة على هذا الرجل الأسود. ولم يتورع الكثيرون من لمس جسدي هل هو طلاءٌ أم هو لونٌ

حقيقي. ورغماً عن غبطتي في البداية بأن أكون مثار اهتمام كل هذه الحشود إلا أنني شعرت بالرهبة من الموقف وسط هؤلاء الأوباش الذين لم يراعوا إحساس هذا الضيف الغريب. وتساءلتُ ما الذي حدث لهؤلاء الناس؟ ألم يروا إنساناً أجنبياً مثلي في حياتهم أم إنها المبالغة في التعبير عن الشعور؟ وتعالت التعليقاتُ بأصواتٍ ضاحكة لم أفهم منها حرفاً. وبدأ السائق الذي حملني يتحدث معهم بلهجةٍ حادة عندما شعر بأنني قد تأذيتُ من ذلك الانفجار الهمجي، ولكنه كان كمن يؤذن في مالطا. وأخيراً قال لي: ((**تفضل إلى السيارة**)). وأغلقَ البابَ وتوجه بي بعيداً عن ذلك الحشد العمالي العجيب. كان الحرجُ واضحاً على وجهه مما فعله بنو جلدته في هذا الضيف، وبدأ يعتذر بشدة عن بساطة هؤلاء العمال وقال لي:

((**إنهم عمالٌ أجلاف لأنَّ حياتهم محصورةٌ في هذه المصانع منذ أن خُلقوا، وهم لا يعرفون شيئاً عن سكان أفريقيا أو آسيا أو أي مكان في العالم غير منطقتهم، ولذلك عبروا عن دهشتهم لمرآك بتلك الصورة التلقائية المزعجة**)). قلتُ له: ((**لا تنزعج يا صديقي وهذه تجربةٌ غنية في حياتي ستفيدني في معرفة طبائع الشعوب التي لا أعرفها، وهذا واحدٌ من أهم الأشياء التي أسعى إليها وأستمتع بها خلال أسفاري عبر البلاد**)).

ورغم أنني قد قبلتُ اعتذاره اللطيف إلا أنني كنتُ مرتعباً طوال تلك الساعة التي قضيتها في داخل غرفة مدير المرفأ لحمايتي

من نظرات وعدسات أولئك العُمال. وبعد حوالي ساعة من الزمان كانت صفارات البواخر تُنبئ بوصول يخت الرئيسين مع الوفد المرافق لهما، فخرجتُ من تلك الغرفة بعد أن هُرِعَ جميع العمال والمُستقبلين إلى الباخرة لاستقبال الوفود التي حوت عدداً آخر من أفراد الوفد السوداني، فحمدتُ الله الذي عزّزَني بثالثٍ ورابعٍ وخامس.

محكوم بالإعدام وسجناء في طائرة الرئيس

كان المفروض أن نعود بالسيارات من جورجيو إلى بوخارست، ولكنَّ الإعياء قد أخذ من الجميع مأخذه خصوصاً بعد السفر بالباخرة الذي أخذ وقتاً طويلاً من أعضاء الوفد، فطلب الرئيس شاوشيسكو طائراتٍ مروحية لتقل الجميع إلى بوخارست بدلاً من السيارات التي كانت جاهزة لتلك المهمة.

وجاءت الطائرات وحملتنا إلى بوخارست. أعددتُ بعض الرسائل الإذاعية وكتبتُ شيئاً من المذكرات واستسلمتُ لنومٍ عميق. في الصباح اتصلتُ بالرئيس وقلتُ له: «**أريد أن أُجري معك حواراً للإذاعة عن تفاصيل الزيارة وانطباعاتك وما حققته للسودان**» فقال لي: «**يمكننا أن نسجل هذا بعد انتهائنا من لقاء الطلبة السودانيين الذين سيأتون إلينا هذا الصباح**». واتفقنا على التسجيل في غرفته الخاصة بقصر الضيافة حيث يقيم وحيث سيكون لقاء الطلبة. حضر الطلبة السودانيون من كل المدن

الرومانية حيث يدرسون بالجامعات المنتشرة في بعض المدن خصوصاً مدينة (**كلوش**) أكبر مركز لتجمع الطلبة الأجانب. وكان بعضهم قد جاء من بلغاريا لحضور ذلك اللقاء لأن معظمهم كانوا يعانون من ظروف مالية سيئة نسبةً لإجراءات التحويل الصارمة حيث لم يتمكن ذووهم من إرسال المصاريف إليهم لفتراتٍ طويلة.

تمَّ اللقاء في قاعة الاجتماعات الكبرى المرفقة بقصر الضيافة، وتحدث نميري كثيراً عن السودان وما أحدثته الحكومة من تغييرات في المجالات التنموية والسياسية وغيرها. وبدأ الطلبة في طرح تعليقاتهم واستفساراتهم والتي دارت معظمها حول التحويلات والمساعدات المالية التي يطمعون فيها من حكومة السودان فقال لهم الرئيس نميري:

((نحن بصراحة لا نملك مالاً، وكما تعلمون فإنه ليس هناك التزام من جانب الدولة على تقديم مثل هذا الدعم لأنكم جميعاً جئتم للدراسة على نفقاتكم الخاصة والبعض الآخر جاء في منحٍ على حساب الحكومة الرومانية ولذلك لا بد أن تدبروا حالكم بأنفسكم، وإذا ضاقت السبل فلا مناص من العودة إلى السودان والبحث عن مجال للدراسة هناك)).

عندئذٍ أحس الجميع بالإحباط لأنهم كانوا يتوقعون دعماً مالياً ولو قليلاً من الرئيس نسبةً للظروف القاسية التي يعيشونها. في تلك اللحظة كانت حرم الرئيس تهمس في أذنه شيئاً وبعد أن

انتهت ضحك نميري وقال: «**خلاص الحمد لله فُرجت، الحاجَّة تبرعت لكم بحل هذه المشكلة من حسابها الخاص وقررت إعطاءكم مبلغاً من المال لحل ما يمكن حله**». وصفق الطلبةُ وسرت بينهم روح من الارتياح بعد ذلك الحزن الذي ارتسم على وجوههم وانفرجت الأسارير وبدأوا يستمعون للحديث باهتمامٍ أكثر.

هنا نهض طالبٌ متوسط القامة قمحي اللون وسيم الطلعة وكان يبدو على قسماته أنه مكسور الخاطر ويحمل هموم الدنيا في رأسه وقال: «**يا سيادة الرئيس إنَّ لي مشكلةٌ بل إنها مأساة أريد أن أطرحها لك...**». وانفجر الطالب باكياً قبل أن يكمل حديثه، فقال له الرئيس:

«**تكلم يا بُنَيَّ ولا تَخَفْ فنحنُ نستمع لكل ما تقول**». ولم يتمكن الطالب من سرد حكايته التي كان واضحاً أنها قاسيةٌ وصعبة فقال السفير (**عصام الدين حسن**) للرئيس: «**يا ريس هذا الطالب له مشكلة معقدة، وهي في الواقع مأساةٌ حقيقية تتعلق بالقضاء، فأرجو أن تعطيه الفرصة ليحكيها لك بمفردك بعد انتهاء هذا اللقاء**».

قال له الرئيس: «**حاضر وتفضل يا ابني واجلس وقابلني بعد هذا اللقاء في قاعة الاستقبال الملحقة بهذا القصر**». وأخذ الطالب مكانه بين بقية زملائه واستمر الحوار بين الرئيس والحاضرين من أعضاء الجالية السودانية. انتهى اللقاء وانفضَّ السامر، وخرج

الطلبة من القاعة، وخرج نميري إلى الصالون المرفق بمقر إقامته بالقصر. دخلتُ عليه وقلتُ له: «**طبعاً أنا جئتُ حسب موعدنا يا ريس لتسجيل الحوار الذي اتفقنا أن يكون عقب اجتماع الطلبة**» فقال لي: «**تفضل**». في تلك اللحظة دخل علينا الطالب صاحب المشكلة الذي وعده نميري باستقباله بعد الاجتماع فقال لي الرئيس: «**اقفل هذا الباب يا عوض**». وأغلقتُ البابَ وأنا بالداخل، ولم يكن بالغرفة إلا نميري وذلك الطالب وشخصي.

قال له الرئيس: «**لو كنت لا تريد وجود عوض معنا يمكن أن يخرج الآن**» فقال الطالب: «**لا بأس من وجوده وليبقَ معنا إذا أراد**». قال له نميري «**تحدث يا بُنَيْ ولا تخف، ولو عندك أي مشكلة سنساعد في حلها إن شاء الله**»، فقال الطالب:

«**عفواً سيادة الرئيس أن يكون أول لقاء لي بك في مثل هذه المأساة وكان الأمل أن يكون لقاؤنا لغير هذا، إنَّ قصتي هي أنني طالبٌ أدرس في هذه البلاد منذ عدة سنوات، وأنا رجلٌ ملتزم بدراستي وليس عندي أي انحراف أو سوء في الأخلاق أو السلوك ولكنَّ المقادير جرت على غير ما كنتُ أتوقع، ففي يوم من الأيام زارتني فتاةٌ رومانيةٌ شابة في غرفتي بالمجمع السكني الذي أسكن فيه بالطابق الخامس ولم يكن في غرفتي شيءٌ أقدمه لها لزوم الضيافة، فخرجتُ لأشتري لها بعض الزبادي الذي يحبه الرومان كثيراً ويقدمونه لضيوفهم، وعند عودتي قابلني أمام شُقتي شابان رومانيان من**

أصدقائي فوقفتُ معهما نتجاذب أطراف الحديث، وفجأةً سمعنا ضوضاء داخل الشقة وحركة إنسان يجري ويقفز فتحنا الباب بسرعة فإذا بتلك الفتاة قد قفزت من النافذة وسقطت على الأرض من الطابق الخامس، وهُرعنا جميعاً إلى الطابق الأرضي لنجد أنها قد فارقت الحياة من أثر السقوط من ذلك العلو الشاهق. وتجمهر الناس وجاءت الشرطة وأخذوني إلى مكان التحقيق بحكم أنها سقطت من شقتي وأدخلوني الحراسة متهماً بقتل تلك الفتاة التي لا أعلم عن موتها شيئاً حتى هذه اللحظة. ورغماً عن كل ما أدليتُ به في التحقيقات والبيانات الواضحة إلا أنهم لم يقتنعوا بما حكيته لهم. وأنا الآن رهين إحدى الزنازين الرومانية بانتظار حكم الإعدام رغم أنني والله على ما أقول شهيد بريءٌ من هذه التهمة التي سقطت على رأسي دون أي ذنب، وقد أخرجوني اليوم فقط كما أخرجوا كل الذين يواجهون أحكاماً بالسجون وهم ليسو بالقليلين في هذه البلاد لنكون ضمن وفود الطلبة التي تستقبلك، على أساس أن أعود إلى الزنزانة فوراً بعد انتهاء هذا اللقاء لأنتظر مصيري المحتوم وهو الإعدام».

قال له نميري: «**أرجوك أن تَصْدُقَني القول وتُخبرني بحقيقة دورك في هذا الحادث وثق أنني سأساعدك بقدر الإمكان**».

قال الطالب: «**الله على ما أقولُ شهيد هذه هي كل الحقيقة التي لا مراء فيها، وليس عندي غيرها لأقوله حتى أمام القاضي، ولكنني لا**

أثق مطلقاً في نزاهة القضاء في هذه البلاد المتجبرة، لأن كل السوابق تشير إلى أن العدل مفقودٌ عند أهل رومانيا، ومصيري سيكون كمصير غيري من الأجانب الذين وقعوا في مشاكل مشابهة حيثُ أُعدم بعضهم قبل التحقيق». قال له الرئيس: «**إذن هل يمكنك أن تقنعني لماذا قفزت هذه الفتاة من الشباك؟**»

قال الطالب: «**هذا هو السر الذي لا يعلمه إلا الله يا سيادة الرئيس، ولكن أغلب ظني أنها عندما سمعت صوت الشابين الذينِ كانا يتحدثان معي باللغة الرومانية ربما ظنَّت أنَّ أحدَهما شقيقُها الذي يسكن قريباً منا، حيث إنَّ طبيعة الرومان لا تسمح لأي فتاة بمقابلة شابٍ أجنبي، ولو حدث أن وجد شابٌ أخته مع رجلٍ أجنبي فهو لا يتورع في عقابها الذي قد يصل إلى حد الموت لأنه حتماً لن يُحسن الظن بها، ولذلك أعتقدُ أنَّ تلك الفتاة قد هربت لذلك السبب والله أعلم**».

ساد الصمت للحظاتٍ في الغرفة، وبدأ الرئيس ينظر إليَّ ثم إلى ذلك الشاب وهو غارقٌ في تفكيرٍ عميق. وحاولتُ أن أكسر ذلك الصمت الرهيب فقلتُ للشاب: «**لا تخف يا أخي فإنَّ الله معك ما دمت على الحق، وستنتصر بإذن الله**».

هنا تناول نميري التلفون وطلب الرئيس شاوشيسكو. وفي الحال كان شاوشيسكو معه على الخط. حكى له نميري كل التفاصيل التي سمعها من ذلك الطالب المغلوب على أمره وقال له:

«**ماذا ترى يا سيادة الرئيس**». فردَّ عليه شاوشيسكو على الفور: «**عفواً يا سيادة الرئيس إنني لم أعرف شيئاً عن أي سوداني معتقل برومانيا، ولكن إكراماً لزيارتك إلينا فإنني أقرر الآن الإفراج فوراً عن أي سوداني بالسجون الرومانية مهما كانت جريمته سواءٌ حوكمَ أو لم يُحاكم**» ووضع السماعة. قام نميري من كرسيه بفرحٍ غامرٍ واحتضن ذلك الشاب قائلاً: «**مبروك يا ابني خلاص الرئيس شاوشيسكو قرر الإفراج عنك وعن أي سوداني معتقل الآن في سجون رومانيا**».

ونهضنا ثلاثتنا نتعانق وكأنَّ الفرج قد هبط علينا من السماء، ولم يتمالك ذلك الطالب نفسه من التأثر فأجهش بالبكاء. وهنا قلتُ للرئيس نميري: «**أنا أحسب يا ريس أن هذا الطالب لم يعد له مكان في رومانيا. وأحسب أنه لو بقي فيها فإن أهل القتيلة قد ينتقمون منه، ولذلك لماذا لا نأخذه معنا على الطائرة؟**».

وتوجه الرئيس لذلك الطالب وربت على رأسه قائلاً: «**أنا أعتقد أن هذه البلاد لم تعد تناسبك فعلاً بعد هذا ويمكنك أن تعود معنا بالطائرة**». وابتهج الطالب أيما ابتهاج وقال للرئيس: «**نعم نعم أسافر معكم بالتأكيد يا سيادة الرئيس، وكل أملي الآن أن أغادرها إلى غير رجعة حتى لا يتراجعوا عن هذا القرار**». ومرةً أخرى أجهش الطالب بالبكاء من ذلك العرض وقال: «**بارك اللهُ فيك يا**

سيادة الرئيس، وأنا مدين لك بهذا الجميل الذي لن أنساه ما بقيت على قيد الحياة». وهنا قلتُ للرئيس نميري: «**أنا أحسب يا ريس أن نأخذ معنا جميع المُفرج عنهم من السجون الآن لأن موقفهم سيكون نفس موقف هذا الشاب. وطائرتنا بحمد الله كبيرة وليس بها غير أعضاء الوفد**». ووافق الرئيس نميري على الفور، وقال لي:

«**إذن أخرج يا عوض إلى كبير الياوران وأخبره أن يكلم السفير ويقول له إننا لا نمانع أن نأخذ معنا بالطائرة كل الذين يرغبون من هؤلاء المُفرج عنهم في العودة إلى السودان**».

خرجتُ من صالون الرئيس لأنقل هذا الخبر السعيد لكبير الياوران وسعادة السفير بما قاله الرئيس، ففوجئت بجمهرة الطلاب الغفيرة بأكملها كانت تنتظر بالخارج لمعرفة نتيجة حوار ذلك الطالب مع الرئيس نميري لأن تلك الحادثة كانت كبيرة بكل المقاييس وقد تركت أثرها القوي في نفوس جميع السودانيين برومانيا. ووسط مشهدٍ لا أدري كيف أصفه توجهت كل الأنظار نحوي عندما فتحتُ الباب.

كانت عيونهم جاحظةً نحو الباب لمعرفة النتيجة. وقاسمها المشترك هو التوجس، والأمل، والخوف، والقلق، وسألوني جميعاً ما الذي حدث. قلتُ لهم: «**يا اخوانا اهدأوا لأخبركم بما حدث**». وصمت الجميعُ وعيونهم تنظر إلى فمي فقلتُ لهم: «**الحمد لله إن الرئيس شاوشيسكو قد أصدر عفوا عنه الآن وأمر بإيقاف المحاكمة**

وإخراجه من السجن. بل وأصدر الرئيس شاوشيسكو أيضاً عفوا عن جميع السجناء السودانيين أو الذين تحت المحاكمة على أن يخرجوا جميعاً الآن من السجون سواء حكم عليهم أم لم يتم الحكم بعد». ولا يستطيع أحدٌ أن يتصور ما حدث بين أولئك الشباب من رد الفعل بالسعادة الغامرة. انهال الجميع على بعضهم بالأحضان والدموع تملأ عيونهم وصيحات الحمد والتهليل قد علت في سماء المكان، وهتف الجميع بحياة الرئيس نميري والشكر للرئيس شاوشيسكو.

وعرفتُ حينها أنَّ كل المحكومين قد كانوا بينهم في تلك اللحظة، لأن الحكومة الرومانية قد جميعاً من السجون بشكلٍ مؤقت ليكونوا في استقبال الرئيس نميري بغرض تغزير العدد ثم يعودوا لسجونهم بعد ذلك. وأخبرتهم بأن كل من يريد منهم أن يعود معنا غداً بالطائرة للسودان فمرحباً به وما عليه إلا إحضار حقائبه. وقال الجميع لا نريد حقائب ولا أي شيء بل نريد الذهاب للطائرة من هذا المكان. ولعلهم جميعاً قد أحسوا بحلاوة الفرج الذي كأنما نزل عليهم السماء.

كان المشهد يفيض بالعواطف والمشاعر الإنسانية، والكل يتطلع إلى العودة إلى أرض الوطن بعد أن كان الأمل في ذلك قد أضحى بعيد المنال قبل تلك اللحظات العصيبة. وبالفعل قضوا ليلتهم معنا، ثم ذهبنا جميعاً لمطار بوخارست وفي معيتنا ذلك

الطالب الذي عاد إلى الحياة من جديد ومعه كل السودانيين الذين تم الإفراجُ عنهم. وما أن أُغلق باب الطائرة حتى علت الابتسامة وجوه الجدميع. وجلسنا نحكي ونستمع منهم عن الظروف التي عصفت بهم ووضعتهم في هذاه المواقف العصيبة.

كان بعضهم قد أكمل دراسته بالجامعات الرومانية وليس عنده ثمن التذكرة للرجوع. فسمح لهم الرئيس بالعودة على طائرة الوفد المرافق. وقلتُ لأحدهم مداعباً: «**بالمناسبة كان مصيري سيكون مثلك أو على الأقل كنت سأتخلف عن هذه الطائرة قسراً، حيث كِدْتُ أن أدخل السجون الرومانية مع زميلي الفني ياسين عبد الله، وذلك لأننا لم ندفع فاتورة الرسائل الإذاعية التي أرسلناها من رومانيا لولا تدخل الرئيس**». وضحك الجميع الذين ظلوا مبتهجين حتى حطت الطائرة في مطار الخرطوم بحمد الله وسلامه.

أغلى رسالة في العالم

بدأت الحكاية عندما نزلنا بالفندق الروماني لأول مرة، وكان الهاجس الأساسي الذي شغل فكري هو مسألة الرسائل الإذاعية. حيثُ شعرتُ بأنَّ وجود الرئيس بقصر الضيافة بعيداً عن فندق تريومف الذي ننزل فيه قد يُعيق تجربتنا في استخدام الخط الساخن الذي استفدنا منه في إرسال رسائلنا بإسطمبول لأننا كنا جميعاً نسكن بفندقٍ واحد مع الرئيس. وأبعدتُ ذلك الهاجس حتى

لا يفسد علينا المهمة التي نحن بصددها وهي تسجيل كل مشاهداتنا بغرض عكسها على المستمع السوداني. ولكن ذلك الهاجس فرض نفسه عليَّ بمجرد أن بدأت إرسال أول رسالة من بوخارست للإذاعة في أم درمان. حاولنا في البداية مع الزميل ياسين أن نستخدم التلفون العالمي الموصل بغرفنا فلم نفلح. وفي النهاية وجدنا فتاةً رومانية كانت هي المسؤولة عن خطوط الهاتف بالفندق، فقالت لنا:

«يمكن أن أجد لكم خطاً عن طريق لندن ولكن هذا سيكلفكم كثيراً». قلتُ لها: **«ليست هناك مشكلة فنحن جئنا في وفدٍ مع الرئيس ولا ندفع هذه الأموال من جيوبنا فقط نرجو أن يتوفر الخط وتنجح التجربة»**.

وبالفعل استطاعت تلك الفتاة إيصالنا بالإذاعة على خطٍ واضح، وظللنا نُغطِي كُلَّ صغيرةٍ وكبيرة، حيث بعثنا عدداً من الرسائل إلى الإذاعة بأم درمان لأنَّ الخط كان سالكاً وميسوراً عن طريق تلك الفتاة. وعندما حان موعد مغادرتنا الفندق والعودة إلى السودان جاءنا مسؤولو الفندق بفاتورة التلفون التي كانت مبلغاً خرافياً من المال لم يطرأ على أذهاننا. قلنا لهم ما هذا؟ قالوا ثمن المكالمات التي أجريتموها مع السودان، فقلنا لهم نحن جئنا مع الرئيس نميري كوفدٍ رسمي ولا يجوز أن ندفع شيئاً لأن كل المنصرفات هنا على حساب الضيافة. قالوا كلا، كل شيء إلا هذه

التلفونات، الضيافة في الأكل والشرب والسكن والترحيل، أما المكالمات التلفونية الخارجية فلابد أن يدفعها النزيل مهما كانت طبيعته، وإلا فإنكم لن تغادروا هذا الفندق. ثم إنكم ظللتم تتحدثون مع السودان لساعات طويلة، ألا تعلمون أنَّ ذلك سيكلفكم الكثير؟ قلنا لهم إن هذه طبيعة العمل الإذاعي، حيث إننا عندما نتصل بالإذاعة نخبر الزملاء بأننا نريد إعطاءهم رسالة فيذهبون إلى المكتبة ويحضرون الشريط ويجهزون المسجلات ثم نعطيهم جزءاً من الرسالة على سبيل اختبار الخط ومستوى التسجيل ثم نعيد كل شيء حتى نطمئن عليه وهذا كله يأخذ وقتاً طويلاً.

قالوا على كلِ حال إنكم لن تسافروا من هذا المكان ما لم تدفعوا هذا المبلغ الذي لن يلتزم الفندق بدفعه. وعندما وجدنا ألا مفر من ذلك اتصلتُ بالسيد (**علي أحمد علي**) ياور السيد الرئيس وقلت له: ((**ألحقنا يا سيد علي نحن الآن في ورطة حقيقية**))، وشرحتُ له الموقف، وطلبتُ منه أن يخبر الرئيس بذلك. وفي الحال شرح الأمر للرئيس فقام بتوجيه السيد السفير بتسوية الأمر فوراً مع إدارة الفندق حتى نغادر مع الوفد.

وقال لي السفير عندما التقيته بالمطار عند الوداع: ((**لقد بالغتَ يا عوض، هذا مبلغ خُرافي لا تقوى عليه ميزانية السفارة، وإنتو حتسافرو الآن والحكاية حتتطربق كلها على رأسي أنا**)). فاعتذرتُ له عن ذلك التصرف الذي أغضبه كثيراً وقلتُ له: ((**حتماً**

يا سعادة السفير إنَّ إدارة الإذاعة ستكون أسعد الناس بهذه الغلطة التي أتمنى ألا تتكرر» ثم افترقنا عائدين إلى أرض الوطن. وعندما عدتُ إلى أرض الوطن هنأني جميع الزملاء وعلى رأسهم الأستاذ (**محمد سليمان**) نائب مدير الإذاعة على ذلك النجاح في تغطية وقائع الرحلة وقال لي:

«**بَقِيَ أن تُتوج هذا الإبداع بكتابة شيء من انطباعاتك عن هذه الجولة في الصحف اليومية**». وبالفعل عملتُ بنصيحته فكتبتُ مقالين مطولين عن الرحلة بصحيفة الصحافة. وبالطبع لم أكشف في المقالين ولا في جلسات الأنس الشخصي تفاصيل الخطة التي تمكنا بها من عمل تلك التغطيات المكثفة. وكان ذلك التعتيم برجاء من الزميل ياسين عبد الله الذي اقترح أن نحتفظ بذلك السر لأنفسنا لأننا قد نحتاج إليه في مقبل الأيام.



الفصل الخامس

بين أمدرمان وكردفان

الفصل الخامس

﴿بين أم درمان وكردفان﴾

***

جولة في ربوع كردفان

في أحد الأيام كنتُ في داخل أستوديو (E) بالإذاعة أجرى حواراً فنياً مع الأستاذ الفنان (**الطيب عبد الله**) وهو نموذج متفرد للمطربين المثقفين الذين يجيدون فن الحديث. وقد حباه الله إلى جانب موهبة الصوت الجميل شخصيةً متفردة تتسم بالذكاء والمرح وسرعة البديهة والنكتة الحاضرة. وقد جمعتني به علاقة صداقة وطيدة منذ أن التحقت بالعمل الإذاعي عام 1975م حيث وجدته يعمل بقسم المنوعات بالإذاعة. وكان بين مكتبه ومكتبي حائط صغير جعلنا نلتقي كل صباح على مائدة الأنس ومائدة الإفطار وموائد العمل.

وقد دعاني كل ذلك إلى جانب إلحاح معجبيه المنتشرين في كل أرجاء السودان أن أُجري معه عدداً من الحوارات الإذاعية. وأثناء ذلك التسجيل الذي كان يساعدني فيه الزميل الفني (**عبد المجيد قلندر**) جاءني كبير المذيعين الأستاذ (**عبد الوهاب أحمد صالح**) وقال لي: «**لقد تم اختيارك للسفر إلى كردفان لتغطية**

جولة حاكم الإقليم السيد الفاتح بشارة في العديد من مدن وأرياف جنوب وغرب كردفان فهل لديك أي مانع؟» قلت له على الفور ودون أي تردد: «**بالعكس فإنَّ هذا ما يسعدني لأنه سيعيدني إلى ربوع أهلي وأصدقائي التي اشتقت إليها كثيراً**».

كان الفاتح بشارة قد تسلم أعباء منصبه كحاكم لإقليم كردفان بعد أن عمل لسنوات طويلة سفيراً للسودان بالمملكة العربية السعودية. وخلق علاقات كثيرة مع العائلة الحاكمة في المملكة وغيرها من دول الخليج العربي. كما أتاح له انخراطه في سلك العمل العسكري كمعلم بالكلية الحربية وكبير الياوران بالقصر الجمهوري في عهد حكومة 17 نوفمبر وقربه الشديد من الرئيس إبراهيم عبود فرصةً لإثبات وجوده كإداري محنك وعسكري قدير.

سافرت إلى مدينة الأبيض حاضرة إقليم كردفان ضمن وفد إعلامي ضم مصورين من وزارة الثقافة والإعلام ومحررين من وكالة السودان للأنباء والصحف وشخصي كممثل للإذاعة. وبدأت جولة الحاكم مع أعضاء حكومته من الوزراء وهم: (**حمد علي التوم**)، وزير الخدمات (**دلدوم الختيم أشقر**) وزير شئون الإقليم والإدارة، (**ميرغني عبد الرحمن الحاج سليمان**) وزير الإسكان، (**الفاتح التجاني**) وزير المالية، (**التاج فضل الله**) وزير الزراعة، و(**محمد أحمد الطاهر أبو كلابيش**) وزير شئون مجلس الشعب.

ولما كان الوزير (**أبو كلابيش**) صديقاً حميماً لي هو وابنه (**كمال**) فقد طلب مني أن أكون معه في سيارته الخاصة طوال تلك الرحلة فاعتذرت لأعضاء الوفد الإعلامي وامتطيتُ سيارة الوزير. كان أبو كلابيش رجلاً على غير العادة في كرم الخلال وحلاوة اللسان ولطافة العشرة. لا تفوته شاردة ولا واردة، ولا يطرق بابه محتاجٌ إلا وقضى حوائجه. ولذلك كنتُ أحرص دائماً على البقاء معهم أطول فترة ممكنة بمنزلهم العامر بمدينة الأبيض كلما وجدتُ إلى ذلك سبيلا.

ولما كانت رحلتنا مع الحاكم ستستغرق أياماً طويلة فقد سعدتُ أن يكون رفيقي في السفر محمد أحمد الطاهر أبو كلابيش. اطَّلعتُ على جدول الرحلة فوجدته يحوي سبعةَ عشر مدينةً في جنوب وغرب كردفان. وبدأت رحلتنا من مدينة الأبيض بقافلة من السيارات فاقت العشرين.

وقبيل تحرك الوفد بدقائق جاءنا (**يوسف كوة**) بعد أن نزل من سيارته التي أُعدت له لتقله طوال أيام الرحلة حيث كان يعمل رقيباً لمجلس الشعب بإقليم كردفان، وقال بدعابته المعهودة ((**واللهِ الركوب معكم مُتعة**)) وركب معنا في سيارة أبو كلابيش بعد أن ترك سيارته المخصصة له.

كنا ثلاثتنا في تلك السيارة الأنيقة نعبر الفيافي والوديان في سهول كردفان الخضراء وجبالها الوعرة. وكنا نقطع المسافات

بالأنس والحوار الذي لم ينقطع طوال أيام الرحلة. لقد تحدثنا في كل شيء بدءاً بالسياسة ومروراً بالفن والأدب والتعليم وتاريخ السودان والمشاكل القبلية وغيرها. كان أبو كلابيش مرجعاً في ثقافة قبيلة الحمر وبقية بطون البقارة والكبابيش في كردفان. وكان مولعاً بتاريخ كردفان السياسي الذي أسهم هو ووالده في صنع جزء كبير منه. وكان يوسف كوة مثالاً للشباب المثقف من أبناء الجبال يحمل في حناياه حب التراب ويقدس تاريخ القبيلة. وكان موسوعياً ولماحاً وشديد الصلة بتراث منطقته التي ظلمها الكتاب والأدباءُ والمؤرخون.

كان يحفظ الكثير من أسماء المشائخ والقبائل والقرى عن ظهر قلب ويتحدث عن فنونها حديث العارف المعجب ببيئته وموطنه الصغير. بدأ يحدثنا عن جماعة (**الغابة والصحراء**) التي اتخذت من مجلة (**الوازا**) ذائعة الصيت منبراً لها عبرت من خلاله عن آرائها في جذور الثقافة السودانية. وتحدثنا عن (**محمد هارون كافي**) المحرر بمجلة الوازا والدور الكبير الذي لعبه في عكس التراث النوبي لأبناء السودان. وحكى يوسف كوة عن السلطان (**عجبنا**) وابنته ماندي التي غنَّت في مقتل أبيها أغنيتها الشهيرة التي أصبحت إحدى المارشات المحببة لدارسي الموسيقى بالسودان.

وقال يوسف كوة: «**أنتم مدعوون إلى منزلي عندما ننزل في مدينة كاتشا**». وهناك نزلنا إلى داره التي أحسسنا فيها بكرم

الضيافة وحسن الاستقبال السوداني الأصيل. ركض نحونا أطفاله الصغار بمجرد وصولنا إلى بوابة المنزل، وجاءنا بعضٌ من أفراد أسرته وأصدقائه. إلا أننا بقينا معهم لأقل من ساعة ثم غادرنا لأنَّ الوفد كان بانتظارنا. أحسستُ من خلال الحديث الذي دار بين يوسف كوة والوزير أبو كلابيش أن هناك بوادر خلافات بينه وبين الفاتح بشارة حاكم الإقليم فقلت له:

«**يا يوسف أتمنى ألا تتطور هذه الخلافات بينكما إلى حد التمرد ودخول الغابة**»، وكنت في ذلك مازحاً معه لأنَّ الحديث قد تطرق إلى خلافات (**جوزيف لاقو**) مع الحكومة التي قادته في نهاية المطاف إلى الغابة مؤسساً وقائداً لفرقة (**أنانيا**) المتمردة على الجيش النظامي، ثم من بعده اختلف العقيد (**جون قرنق**) مع حكومة جعفر نميري فدخل الغابة مؤسساً وقائداً لحركة الجيش الشعبي لتحرير السودان.

وضحكنا من التعليق، واستمر الأنس بيننا نقطع به طول المسافات ووعورة الطريق بين أرتال الجبال. ومرَّت الأيام، وأحسستُ أنني كأنما كنت أتصفح سطور الغيب عندما قلت تلك العبارة للصديق يوسف كوة، حيث سافرت بعد ذلك إلى مصر، وفيها استمعت إلى أخبار هيئة الإذاعة البريطانية التي أذاعت ضمن نشرتها في ذلك الصباح الذي لا أنساه أن يوسف كوة قد انضم إلى فصائل التمرد وأصبح من الأرقام الأساسية لدى قيادة الجيش

الشعبي لتحرير السودان بقيادة جون قرنق. فمرَّ بذاكرتي شريط طويل لتلك الأيام التي قضيناها سوياً. وتأملت في واقع بلادي الذي غيَّرت ملامِحَهُ بُؤَرُ الصراع وعجنته النزاعاتُ الفردية وأهواءُ القبيلة وعركته المصالح المتباينة حتى أصبح الممكنُ في ربوعه مستحيلاً والمستحيلُ أبسطَ أشكالِ الممكن. بقيتُ طوال الرحلة أراقب النشاط المكثف لحاكم كردفان السيد الفاتح بشارة الذي لم أتشرف بمعرفته قبل هذه الرحلة.

ولاحظتُ أنه كان دقيقاً في كل شيء خصوصاً ما يتعلق بشئون البروتوكول والنظام وترتيب الأمور. وكان ملماً بكل ما يدور في إقليمه لدرجة ملفتة للنظر، حيث كان يسأل ويستفسر عن أشياء ما كنت أحسب أن حاكماً لإقليم واسع مثل كردفان يهتم بها أو حتى يعرف عنها. وكنت أسمعه طوال الرحلة يسأل الضباط التنفيذيين والوزراء لماذا لم يتم هذا الأمر؟ أو كيف تمّ ذاك؟ ولماذا لم تفعلوا كذا وكذا؟ وأينَ فلان وعِلان؟

وكانت ملاحظتي الثانية أن الفاتح بشارة كان يهتم بكل صغيرة وكبيرة نكتبها كإعلاميين عن الرحلة، حيثُ كان يحرص على قراءة الأخبار والتقارير والاطلاع عليها قبل أن نرسلها إلى الإذاعة أو إلى الصحف. ويتابع بعد ذلك نشرات الأخبار من خلال الترانزستور الصغير الذي حمله معه طوال أيام الرحلة. وكان عندما يسمع أخبار الرحلة من الراديو يقول لي: «**برافو يا عوض، أهو**

دا الشغل الإعلامي الصاح». وشيئاً فشيئاً بدأت تتكون لديه قناعةٌ راسخة بأهمية الدور الذي نقوم به خصوصاً وأنَّ تلك الجولة كانت الأولى بالنسبة له في حياته كحاكم إقليم. وكانت تلك الرحلة سبباً في توطيد العلاقة بيني وبينه حتى تطورت إلى صداقة عميقة امتدت إلى أسرتينا في مستقبل الأيام. حيثُ أصبحتُ واحداً من أصدقاء أسرته الذين لا يتغيبون عنها في كل المناسبات الخاصة والعامة سواء بالأبيض أو بحي العمارات بالخرطوم.

وظل الحاكم يستدعيني للسفر إلى الأبيض كلما كان هناك ما يستدعي التغطية أو التسجيل أو المشاركة. وفي إحدى المرات بعث في طلبي من الخرطوم فوراً إلى الأبيض ولما لم تكن هناك طائرات متاحة للسفر استأجر طائرةً صغيرة تابعة للتاكسي الجوي حملتني إلى الأبيض لأكون حاضراً في موقع العمل وقت الحدث.

تواصلت رحلتنا في ربوع كردفان مع السيد الحاكم وأعضاء حكومته فشملت سبعة عشر مدينة هي: (**السِميْحْ، أبو جبيهة، رَشاد، الكُرْقُلْ، كَلُوقِيْ، كادُوقْلِي، الدَّلَنْجْ، تَبَسَةْ، تَلُودِي، كُنْجَارَةْ، النُهود، الأُضَيَّة، أُمْ قَرناً جاك، رِجْل الفُولَة، أَبُو يَيْ، المُجْلَدْ، وبابَنُوسَة**).

وكانت نهاية المطاف في مدينة بابنوسة التي حدث فيها موقفٌ أثارَ الكثير من الحرج، حيث ما أن وصل ركب الحاكم إلى المدينة حتى ثارت ثورته واستشاط غضباً، والسبب هو أنَّ المحافظ لم

يكن دقيقاً في رسم مسار الرحلة. حيث خرجت جماهير المستقبلين الغفيرة إلى ساحة خارج المدينة وجاء ركب الحاكم من طريق آخر مغاير تماماً لذلك الطريق، ولذلك لم نجد رجلاً واحداً في الاستقبال رغم أنَّ المدينة كلها قد خرجت لتحية الحاكم من الجهة الأخرى. ووقفنا تحت ظل شجرة كبيرة حتى جاء المحافظ يلهث من التعب ويقول: «**يا سيادة الحاكم الناس ينتظرون وصولكم من الطريق الثاني**».

واشتعل الغضب في وجه الحاكم الذي صرخ في وجهه: «**أنت لا تعرف النظام، أما كان من الممكن أن تُنسق هذا الأمر مع قائد القافلة كما فعل كل مساعدي المحافظين في المدن التي زرناها؟**» ولم تشفع للمحافظ اعتذاراته التي صاغها لتبرير موقفه، حيث انفرط عقد نظام الموكب، وحدث هرجٌ شديد بين المستقبلين عندما علموا أن وفد الحاكم قد دخل المدينة من اتجاه آخر مما أثار كثيراً من الشائعات. وكان صعباً بعد ذلك أن تُنظم عملية الاستقبال وإبقاء الناس في أماكنهم ليخاطبهم الحاكم.

هذا الأمر قد يبدو عادياً للإنسان العادي ولكنه ليس كذلك في إقليم مثل كردفان حيث الناس يهتمون بأمر الضيوف ويحرصون على لقائهم خارج المدينة حتى ولو لم يكونوا حكاماً. ثم إنَّ التنافس كان على أشده بين المدن التي تتباهى بمثل هذه الأمور في كردفان وهذه هي فطرة إنسان الريف البسيط. لذلك كان

لغضب الحاكم ما يبرره، خصوصاً وأنَّ بابنوسة من أهم مدن الإقليم بحكم توسطها لأكبر تجمع لأبناء البقارة ببطونهم المختلفة من مسيرية ورزيقات وبحكم أنها ملتقىً لخطوط السكة الحديد التي تربط الجنوب بالشمال والغرب بالشرق. ووسط ذلك الجو المتوتر قرر الحاكم إعفاء المحافظ من منصبه وعين بدلاً عنه السيد (**حسن كندة كربوس**) محافظاً لمديرية جنوب كردفان. كنت أتابع كل تلك المشاهد وأرقب قسمات الحاكم الذي كان في أشد الغضب وهو يوجه حديثه لذلك المحافظ.

في تلك اللحظة تذكرت عبارةً قالها لي الصديق اللواء أ.ح (**أبو قرون عبد الله أبو قرون**) عندما كان قائداً لحامية واو ببحر الغزال في أوج عمليات التمرد العسكرية ضد القوات النظامية حيث قال لي يومها: «**هل تعلم مَنْ هُمْ أذكى ثلاثة ضباط مروا على الجيش السوداني منذ تأسيسه؟**» قلت له: «**كلا**». فقال لي: «**هم عبد الماجد حامد خليل والفاتح بشارة و..**» وقاطعته قائلاً: «**وأبو قرون عبد الله أبو قرون**»، فضحك ولم يكمل لي الإسم الثالث إلى يومنا هذا.

كانت رحلة بابنوسة ناجحةً رغم التوتر الذي شابها، حيث استقبلت المدينة ضيوفها بكرمها المعهود وسماحة أهلها الطيبين وأريحيتهم في كل شيء. وبعد ذلك انتهت جولة الحاكم في ربوع جنوب وغرب كردفان. وحينها قال الحاكم: «**لقد تعبنا حقاً من**

هذا السفر الطويل والأفضل أن نعود إلى الأبيض بالترولي بدلاً من هذه السيارات التي أرهقتنا بسفرها الطويل». وكان الإعياء قد بدا فعلاً على الجميع بمن فيهم الحاكم الذي انكسرت يده أثناء الرحلة وظلَّ يلفها بشريط أبيض ربطه على عنقه مما زاد من إعيائه خلال تلك الأسفار المتصلة.

شعرنا بالارتياح لقرار العودة بالتُّرولي بدلاً من السيارات. وعلى الفور أَعد مدير السكة الحديد ببابنوسة تُرليين أحدهما للحاكم والوزراء وكبار أعضاء الوفد والثاني للوفد الإعلامي وبعض المرافقين. ومن الطرائف أنه بعد أن أخذ الحاكم مكانه في الترولي ومعه الوزراء جِيئَ برجلٍ سكران لا يكاد يقوى على الوقوف وكان يحمل في يده زجاجة عَرَقي ويقوده اثنان من موظفي السكة الحديد، ووُضِعَ هذا الرجل بهيئته العجيبة تلك على عجلة قيادة الترولي المخصص للسيد الحاكم والوزراء.

لم يصدق أحد ذلك المشهد، واشتاط الحاكم غضباً وصرخ في الجميع ما هذا العبث؟ فقال له مسؤولو السكة الحديد: «**هذا يا سيادة الحاكم هو سائق التُّرولي الذي سيُوصلكم إلى الأبيض**». وكاد الحاكم أن يقلب الدنيا في وجوه الجميع من ذلك الشخص الذي اعتبر مجرد مجيئه بمثابة الاستخفاف بوفد الحكومة. وهنا قال الجميع: «**كلا يا سيادة الحاكم إنَّ سلامتكم هي فوقَ كل شيء، وهذا الرجل هو أعظم قائد ترولي في السودان،**

وهو إنْ لم يكن في هذه الحالة لا يؤدي عمله، وسترى كيف أنه أمهر السائقين وأحرص الناس رغماً عن هذا السُكر». كان واضحاً أن الحاكم لم يقتنع بذلك الحديث ولكنه ضحك من أعماقه لهذا الموقف الذي لا أخال أنَّ أحداً في الوجود سيصدقه بهذه السهولة لأنَّ كل قوانين الطبيعة ونظريات علم النفس والأديان والطب تقول إن الإنسان عندما يتعاطى الخمر يفقد وعيه ولن يتصرف بحكمةٍ وروية، وكل الناس يعرفون مضار الخمر التي حرمتها الأديان والأعراف والأخلاق قاطبةً، فكيف يقتنع الحاكم ومرافقوه بهذا الحديث العجيب!!؟ عموماً لم يكن هناك مجالٌ للمزايدات أو الحوار حيث إن الجميع كانوا مُنهكين ومُتعبين من جراء الرحلة التي استغرقت أياماً وليالي بين المدن والفُرقان والقرى.

وكان مما زاد التعب أنَّ كثيراً من سكان القرى التي على الطريق قد خرجوا في أفواج وقفت على جانبي الطريق لتحية الحاكم، مما اضطر الحاكم لمخاطبتهم وخلق برامج لم تكن في جدول الرحلة. وتوكل الحاكم ومرافقوه على الله وركبوا الثُرولي بعد أن قال للجميع: «**سنُحملكم المسؤولية إنْ لم يؤد هذا الرجل السكران دوره بكفاءة**».

تحرك ركبُ الحاكم والوزراء على ذلك الترولي يقودهم رجل فاقد الوعي حتى النخاع وزادُه في الحياة زُجاجةُ خمر. وانطلقنا خلفهم مع سائق عفيف ونظيف لم يبد عليه أثر السكر ولا حتى

تعاطي الخمر. ومررنا على العديد من محطات السكة الحديد المتناثرة على طول الطريق من بابنوسة إلى الأبيض. حيث توقفنا قليلاً في السميح وتزودنا بالماء والطعام ثم واصلنا رحلتنا. وصلنا إلى مدينة الأبيض فوجدنا أنَّ الحاكم ومرافقيه قد سبقونا بساعات طويلة وناموا ملء جفونهم بعد رحلة أقروا جميعاً بأنها أهدأ وأجمل رحلة سافروها في حياتهم. وعجبتُ لأمر ذلك السائق العجيب الذي أطرحه الآن لعلماء النفس وعلماء الطبيعة وعلماء الأديان علهم يُدلون بدلوهم في تفسير هذه الحالة العجيبة.

العقيد القذافي يقصف إذاعة أم درمان

في صبيحة أحد أيام صيف عام 1983م كنت متوجهاً نحو الإذاعة لتسجيل برنامج (**أصداء**) الذي ظللت أسجله في صبيحة كل يوم جمعة. وعندما وصلتُ قبالة سجن أم درمان رأيت منظراً مهولاً لم أر مثله في حياتي، رأيت طائرةً ضخمةً من طراز (**توبولوف**) Tubolof تطلق قذائفها الصاروخية على مبنى الإذاعة من ارتفاع منخفض جداً حتى كدت أرى قائدها وأنا داخل سيارتي.

ثم ارتفعت الطائرة وسط الدخان الكثيف الذي خلفته مقذوفاتها ورمت قذائف أخرى خارج مبنى الإذاعة. كان الشارع أمامي خالياً من المارة، وأحسستُ كأني في حلم مرعب. وارتفعت الطائرة رويداً رويداً بعد إسقاطها لمجموعة القذائف الثانية واختفت

في لمح البصر. ترددتُ في مواصلة سيري نحو الإذاعة حيث كنت قد وصلت في تلك اللحظة إلى بوابة مطبعة وزارة الثقافة والإعلام الملاصقة للإذاعة، ولمحت ثلاثة أطفال من الذين يشاركون في تقديم برنامج ركن الأطفال وهم يهرولون إلى داخل المبنى من البوابة الرئيسية للإذاعة. عندئذ تحمستُ للدخول بعد أن أوقفتُ سيارتي تحت شجرة كبيرة أمام مدخل المطبعة الحكومية الملاصق للإذاعة. وبدلاً من الدخول بالبوابة الرئيسية للإذاعة دخلتُ من بوابة المطبعة الحكومية التي يربطها ممرٌ صغير بالإذاعة يمر من أمام قسم الموسيقى. وهذه البوابة كثيراً ما كنا نلجأ إليها لاختصار المشوار رغم أنها قد أُغلِقَت نهائياً في السنوات الأخيرة.

دخلت الإذاعة وكان مبناها قد ضاع وسط الدخان الكثيف ورائحة الرصاص. وكان عددٌ من الأطفال يركضون هنا وهناك في هرجٍ سببه دوي القصف الشديد، وكانوا يصرخون بأعلى أصواتهم. لم أكد أتبين أشكالهم من كثافة الدخان والضباب الذي عمَّ أرجاء المكان، ولكني تأكدتُ أنهم المشاركون في برنامج الأطفال حيث تعودوا أن يأتوا إلى مباني الإذاعة في صبيحة كل يوم جمعة لتسجيل البرنامج.

كان هؤلاء الأطفال مع الأستاذ (**معتصم فضل**) داخل الأستوديو، وبعد لحظاتٍ من دخولهم وجدوا أنفسهم مبطوحين تحت الكراسي والترابيز من هول الدوي الشديد الذي أحدثه صوت القذف

المركز على المباني من الجهة الجنوبية للإذاعة والذي صمَّ آذان الجميع. لم يصدق أحد أذنيه ولم يتمالك أحد نفسه فهدير الرصاص كان أقوى وأسرع من مجرد التفكير في إمكانية حدوثه. ولم يكن بمقدور أحد أن يفسر ما كان يجري أمامه، فاندفع الجميع نحو البوابات الرئيسية عبر الممرات الضيقة للإذاعة التي كان مبناها يهتز تحت دوي القصف. كانت رائحة الحريق تفوح من كل مكان، ولم يعرف الأطفال ولا الفنيون أين يلتجئون فتجمهروا خارج مدخل الاستقبال يرقبون طوق النجاة.

كان أزيز الطائرة ماثلاً للعيان، وكُلُ الحاضرين قد شاهدوها تطير على ارتفاع منخفض يكاد يلمس هامات البيوت بعد أن أسقطت صواريخها على مبنى الإذاعة واتجهت شمالاً وهي تُسقط مجموعةً أخرى من الصواريخ على منزل السيد (**حسن عوض الله**) المقابل لبوابة الإذاعة. وحسن عوض الله هو أحد السياسيين البارزين المناوئين لحكم نميري منذ قيامه في عام 1969م وهو ينتمي للحزب الوطني الاتحادي الذي ناضلَ من أجل الاستقلال طوالَ سنوات الاستعمار الأخيرة.

وعلى بُعد حوالي مائة متر من ذلك المنزل أسقطت الطائرة صاروخاً آخر على منزل السيد (**الصادق المهدي**) رئيس الوزراء الأسبق ورئيس حزب الأمة المعارض لحكومة نميري. وتهدمت جدران المنزلين من عدة اتجاهات. خرجت جموعٌ غفيرة من الناس مذعورةً

وتوجهت صوبَ الإذاعة. كانوا يسألوننا عما حدث ونحن لا ندري غير الذي شاهدناه بعيوننا والذي لا نملك له تفسيراً ولا تحليلاً منطقياً في تلك الساعة. تحدثتُ إلى عددٍ من الأطفال المشاركين في البرنامج والذين كانوا داخل الأستوديو لحظة القصف فقال لي الصديق (**عوض إبراهيم أحمد**) الذي ظل ببرنامج الأطفال لسنوات طويلة:

«كنا داخل الأستوديو ودخل شعار البرنامج وأمسك كل واحد منا أوراقه بانتظار إشارة المخرج معتصم فضل للبداية وما هي إلا لحظات حتى وجدنا أنفسنا تحت الكراسي من هول الدوي الشديد الذي عمّ الأرجاء. ولم يكن بمقدورنا أن نفسر ما حدث غير أننا تصورناه انقلاباً عسكرياً يريد الإطاحة بحكومة نميري. وجرينا نحو البوابات الرئيسية ثم إلى قاعة الاستقبال ولم نعرف أين نختبئ فتجمهرنا خارج مدخل الاستقبال نتكلم ونحكي ونسأل والكل غارق في التفكير حول هذه المصيبة التي داهمتنا في لحظة من الزمان».

خرجت في تلك اللحظة الزميلة المذيعة (**يسرية محمد الحسن**) من داخل الأستوديو وكانت مذعورةً لم تصدق ما حدث وقلت لها: «**حمداً لله على السلامة يا يسرية**». فقالت لي: «**أنا لا أصدق أنني ما زلتُ على قيد الحياة**».

وقبل أن تُكمل حديثها معي جاء السيدان (**أبو القاسم محمد إبراهيم وزين العابدين محمد أحمد عبد القادر**) وحكينا

لهما كل ما شاهدناه، فأمسك أبو القاسم يد الزميلة يسرية وبدأ يهتف بأعلى صوته (**قوية قوية يا يسرية**). وبعد مدة من الزمن رأيت إحدى سيارات الحرس الجمهوري تدخل من بوابة الإذاعة الرئيسية فكان الداخل هو (**الرئيس نميري**) يمتطي سيارةً ملكيةً بيضاء ويصحبه عدد من قادة القوات المسلحة والوزراء يستطلعون الأمر. لم يكن نميري بالخرطوم لحظة وقوع الحادث مما أربك قادة القوات المسلحة في اتخاذ قرارٍ أو بيانٍ حولها.

وظلَّ قادة الأفرع مجتمعين بالقيادة برئاسة رئيس هيئة الأركان والكل لا يدري ما يقول، وحثهم قائد التوجيه المعنوي على صياغة بيانٍ سريع لإذاعته على الأمة حتى لا تشوش الشائعات على الشعب السوداني ولكن ظل الأمر معلقاً إلى أن ظهر نميري بعد سويعاتٍ قليلة ودلف مباشرةً نحو الإذاعة التي تمَّ قصفها.

كنتُ أول مَن قابل الرئيس أمام استقبال الإذاعة عندما نزل من السيارة فقال لي: «**حمد الله على السلامة**» والتف الجميع حوله فحكى كُلُّ واحدٍ منا مشاهداته عن الحادث وشكل الطائرة ولونها وحجمها. بعد ذلك تجول نميري ومن كان معه في أرجاء المبنى المتصدع يتبعه مدير الإذاعة، وقال في أول تعليق له: «**إنها حماقات العقيد المجنون، ولكن الله ردّ كيده في نحره فبدلاً من إسكات صوت السودان الذي هدف إليه حطّم منازل مُناصريه وبطانته من المعارضين**». كان نميري يعني الرئيس الليبي (**معمر**

القذافي) للعداء المستفحل الذي كان بين حكومتيهما، وقصد بمناصريه السيد (**الصادق المهدي**) رئيس وزراء السودان السابق في ظل فترة الديموقراطية والسيد (**حسن عوض الله**) الوزير الاتحادي الأسبق والذينِ قُصِفَتْ منازلهما، وكلاهما عضوان في الجبهة الوطنية التي كانت قد قادت النضال المسلح ضدَّ حكومة نميري من داخل الأراضي الليبية في عام 1976م.

وبعد أسبوعٍ من الحادث بعثت الحكومة الأمريكية صوراً عديدة قالت إنها التقطتها للطائرة منذُ أن تحركت من مطارها بليبيا وإلى أن عبرت الحدود وألقت قذائفها ثم عادت إلى طرابلس. وكان التحليلُ أنَّ ليبيا أرادت ضرب الإذاعة لأنها ظلت تقدم برامج وجهها فرعُ التوجيه المعنوي لانتقاد العقيد القذافي وحكومته لمواقفهم العدائية تجاه حكومة مايو وشخصية الرئيس نميري.

في شيكان بعد مئة عام

وزعت حكومة كردفان رقاع الدعوة لكل البعثات الدبلوماسية والسفارات والوزارات وكبار رجالات الدولة في العاصمة والأقاليم لحضور العيد المئوي لمعركة (**شيكان**) الشهيرة والذي يصادف يوم الإثنين الخامس من تشرين ثاني نوفمبر 1983م.

لقد كانت معركة شيكان أول انتصار لجيوش جهادية المهدي على طغيان الاستعمار ممثلاً في القائد البريطاني هكس باشا

وجيشه الذي قضت عليه جحافل المهدية منذ أول المعركة. وقد تقرر أن يكون الاحتفال بها بعد مائة عام بالضبط من وقوعها الذي كان في اليوم الخامس من تشرين ثاني نوفمبر عام 1883م. وبدأت الطائرات تنقل المدعويين والمشاركين من الخرطوم إلى مدينة الأبيض التي امتلأ مطارها بالمدعويين والطائرات التي بلغت عند هبوطنا سبع طائرات بعضُها تابع لشركة الخطوط الجوية السودانية وبعضها طائرات حربية وبعضها من طراز السسنا التابعة لشركة التاكسي الجوي.

ركبنا الحافلات الضخمة من الأبيض متوجهين إلى غابة شيكان حيث مكان الاحتفال. وكانت الحافلة ممتلئةً بالدبلوماسيين والوزراء وبعض كبار المسؤولين. وكان يجلس بجانبي على المقعد رجل أبيض لم أتبين ملامحه عندما جلس لأني كنت أتحدث مع البروفيسور (**محمد إبراهيم أبو سليم**) والأستاذ (**عصمت حسن زلفو**) عن إحدى النقاط التي تضمنها كتاب شيكان للرائد عصمت زلفو الذي صاغه في أسلوب أخاذ وسرد شيق.

وكانت النقطة التي نتحدث عنها هي معلومة أشار إليها الكتاب تتحدث عن الطريقة التي ظهرت بها (**بِرْكَة المنهل**) وهي بُحيرةٌ صغيرة في وسط غابة شيكان، حيث قال عصمت زلفو في كتابه: [كان سير المهدي في اليوم الأول، الخميس، وئيداً. فقطع مسافةً قصيرة وحطَّ رحاله في قرية أبو صفية خارج مشارف الأبيض،

وأمضى ليلته فيها مع ركبه الصغير. ولكنَّ خطوته أسرعت وجدَّ في السير المتواصل منذ صباح اليوم التالي -الجمعة - واستمر فيه طوال النهار، حيثُ لحق بمؤخرة جيوشه في فولة فرتنقول في عصر نفس اليوم. وقد ازدحم يوم الجمعة -فترة مكوثه في فرنتقول - بأحداثٍ لا يزال بعضها يرويه أحفاد المقاتلين وأبناؤهم في تلك المنطقة كبعض كرامات المهدي. حيث أوردت أغلب المصادر العربية السودانية والأجنبية التي تحدثت عن شيكان قصة تفجر المياه في فولة فرنتقول كإحدى كرامات المهدي. فقد ذكر شُقير (فسار حتى نزل بمنهل فرنتقول وهو منهل قليل الماء جداً حتى إنَّ المسافرين كانوا إذا نزلوا به لا يكادُ يكفي العشرين منهم فضلاً عن دوابهم قالوا فلما نزل المهدي به ورأى قلة الماء صفر فخرج منه ماءٌ غزير أروى تلك الجيوش وفاض حتى سقوا رواحلهم وملأوا قربهم..!!)،

وقدَّم علي المهدي تلك القصة بتفصيلٍ أكثر حيث قال:

عندما قام المهدي من الأُبيض بغزوة هكس ترك الأبيض براية ولد جبارة عبد الله ونزل في حلة أبوصفية، ثم قام من ولد أبو صفية فنزل في منهل فرنتقول عند العصر وهو يكفي لسقي شخص واحد. وعند صلاة العشاء لا حظ المهدي أنَّ الجيش قليل فسأل أين الناس فقيل له إنَّ الماء المقال عنه لا يكفي لأكثر من شخص واحد، فسأل عن محل الماء، فقيل له إنه في تَمد وبعد أن يحفروا الرملة محل الجمام

يسيل منها الماء من بين حجرين فيجتمع فيها بعد زمن طويل ما يكفي لشخصٍ واحد. ذهب المهدي بنفسه ليرى محل الماء المذكور فوجده متعثراً الوصول إليه جداً لأنه من كثرة طلب الناس للماء وحفرهم في هذا المحل الجمام كان الشخص يدخل إليه داخل نحو أربعة أذرع. ولما رأى المهدي صعوبة الدخول لمحل الماء أمرهم بأن يفتحوا المحل من فوق محل عين الجمام. فتوضأ المهدي من بقية الماء الذي كان في ركوته والذي لا يتجاوز الرطل. ثم قال للناس قولوا باسم الله واردوا فاشربوا لأنَّ الخطف يزيل البركة. فلما دخلوا الناس للشراب سمع جلبقة الماء تحت أرجلهم وإذا بهم يخوضون في الماء. وصار الناس يشربون من هذا الماء إلى ضحوة اليوم الثاني، فقاموا وتركوا بقية الماء في محله ببركة الإمام).

أشار عصمت زلفو إلى هذه المعلومة بشيءٍ من الحذر دون أن يجزم بصحتها. وبعد أن انتهينا من ذلك الحوار حول البركة وكرامة المهدي وكان البص قد قطع مسافةً طويلة في وديان كردفان المنبسطة على مد البصر التفتَ نحوي ذلك الرجل الذي يجلس بجواري وقال لي:

((**تعرف أنا الآن لا ينقصني إلا السيف، لأضعه مع هذه الرُمح وهذا القلم**))، نظرتُ إليه فإذا به السفير الأمريكي بالخرطوم السيد (**هيوم الكسندر هوران**). حييته ضاحكاً وقلتُ له: ((**والله إنني لم أرك عند صعودك للبص لأننا كنا مشغولين بالأنس عن معركة**

شيكان، كيف حالك يا سعادة السفير» قال: «**أنا بخير والحمدُ لله، وأنا سعيدٌ اليوم أن أزور مقر هزيمة الأجداد من الإنجليز والأتراك**».

كان مستر هيوم إحدى الشخصيات المهمة التي تَعرَّفْتُ عليها بواسطة صديقةٍ مشتركة هي (**ميري سريسيو إيرو**) مذيعة الأخبار الإنجليزية بتلفزيون السودان لسنواتٍ طويلة وعضو البرلمان المعروفة، حيث التقينا في حفل عشاء كانت قد أقامته لبعض الدبلوماسيين الغربيين بمناسبة وداع الملحق العسكري الأمريكي بالخرطوم قبل بضعة أشهر.

وقد تعرفتُ في ذلك الحفل على عدد من أفراد السفارة الأمريكية بالخرطوم وبعض الفتيات اليابانيات اللائي يعملن بالسفارة إلى جانب بعض الدبلوماسيين من سفارات فرنسا وكينيا وبريطانيا.

وقال لي مستر هيوم: «**أنا الآن أتقمص شخصية المتنبئ لولا أنني لا أملك سيفاً لأكمل به الهندام، ألم يقل المتنبئ**: أنا الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني والسيفُ والرمحُ والقِرطاسُ والقلمُ. **فهاهي بيداء كردفان الواسعة نقطع رمالها البيضاء، وهاهو الرمح، وهاهو القرطاس، وهاهو القلم**».

طربتُ لأبيات شعر المتنبئ عندما سمعتها بصوت ذلك الأمريكي العاشق لأدب اللغة العربية، وقلت له: «**لقد أذهلتني يا سعادة السفير بهذه اللغة السلسة وهذه الفصاحة النادرة فأين**

وكيف تعلمت العربية؟». قال لي: «**في الواقع أنا مولع حتى النخاع باللغة العربية التي بدأت تعلمها منذ سنوات طويلة في الولايات المتحدة الأمريكية ثم أتقنتها في بعض بلاد الشرق الأوسط**».

قلت له: «**وهل تعلمتها لأنك قد أصبحت سفيراً لبلادك في العالم العربي؟**» قال لي: «**العكس هو الصحيح، لقد أصبحت سفيراً لبلادي في العالم العربي لأنني أعرف العربية، وكما تعلم فإنّ الحكومة الأمريكية تحرص عند اختيار سفرائها على تعيين من يكونون في شاكلة الدول التي يُبعثون إليها، ويحرصون على اختيار من يعرف لغة البلاد أو يتطبع بطبائع أهلها أو حتى من تكون سحناته وشكله أشبه بأهل البلاد التي يمثل فيها دولته كسفير أو دبلوماسي**».

في تلك اللحظة وصلت القافلة التي تحوي أكثر من ثلاثين بصاً إلى مكان الاحتفال بالقرب من (**تبلدية البروجي**) الشهيرة وبالقرب من بِرْكَة (**المنهل**). وأخذ كل واحدٍ من المدعويين مكانه في الصيوان المعد للاحتفال.

كان في الصف الأول السيد رئيس الجمهورية وقادة القوات المسلحة وعدد من السفراء ومن خلفهم كبار المدعويين من مختلف أقاليم السودان. وعند البداية ضرب البروجي من فوق التبلدية الضخمة التي كنا نحتفل تحتها، ودارت معركة حية بين حاملي البنادق والجهادية. وقد أبدع أبناء كردفان في تمثيل تلك المعركة

التاريخية العظيمة التي كانت الشرارة التي انطلقت منها دولة المهدية لإجلاء المستعمرين. وفي غمرة الاحتفالات والنشوة بتلك الذكرى العطرة ظهر من بعيد رجل طويل القامة أسمر اللون حافي القدمين حاسر الرأس يرتدي جُبة دمورية قصيرة لا تكاد تغطي ساقيه النحيلتين وعليها رُقعٌ عديدة على نمط جُبَبِ الأنصار التي كانوا يلبسونها أيامَ المهدي وخليفته عبد الله. كان ذلك الرجل يمشي بخطىً ثابتة وكأنه جُزءٌ من ذلك الكرنفال. وكان يحمل في يده درقةً قديمةً ويمشي تجاه صيوان الاحتفال.

في الوهلة الأولى حسبه الناس جزءاً من الكرنفال ولكن سرعان ما تبين لرجال الأمن أنه مواطنٌ من أبناء تلك المنطقة. وذهب نحوه بعضهم وأمسكوه من يده بغرض إبعاده عن مكان الحفل مما لفت انتباه جميع الحاضرين.

كان نميري يراقب ذلك المشهد ولعله قد لاحظ الزي الذي يلبسه ذلك الرجل وهو زي جهادية المهدي وأنه كان كبير السن ونحيل الجسم ولا يَقْوَ على الاعتداء أو القتال فصاح الرئيس في رجال الأمن قائلاً: ((**اتركوه في حاله**)). ترك رجال الأمن ذلك الرجل الذي واصل سيره مباشرةً نحو الرئيس تتبعه عيون الحاضرين ومراقبة رجال الحرس الذين التفوا حوله. ووقف أمام النميري وسلم عليه ثم رفع يده بالتحية لكل الحاضرين، وقال مخاطباً الرئيس بلهجة قبيلة البقارة: ((**في الواقع يا سيادة الرئيس أنا من أبناء هذه**

القرية القريبة وأشار بأصبعه نحوها، وهذه الدرقة التي أحملُها أخذتُها من هذا المكان قبل مائة سنة، حيث دارت معركة شيكان بين الكفر وجيش سيدي المهدي وكنا صبيان صغار، كان عمري تسع سنوات وبعد انتهاء المعركة وفرار جيش الكفر خرجنا كلنا مع صبيان الحِلة إلى مكان المعركة وخضنا بين عشرات الجثث وجمعنا عدداً كبيراً من السيوف والحراب والبنادق والدرقات. وبمرور الزمن ضاعت كل تلك الأشياء إلا هذه الدرقة التي ظللتُ محتفظاً بها لمدة مائة سنة، والآن جئت بها إليكم لأنكم تحتفلون بهذه الذكرى، وأريد أن أهديها إليك يا سيادة الرئيس».

كان مشهداً فريداً طربت له الآذان واقشعرت له الأبدان، حيث لم يتصور أحدٌ من الحاضرين أن يرى في ساحة المعركة رجلاً من الذين عايشوها دماً ولحماً قبل قرن من الزمان. كان الرجل في السنة التاسعة بعد المائة من عمره ورغم ذلك كان قوياً متماسكاً ثابت الخُطا قوي العبارة وقد جاء ماشياً من قريته حتى مكان الاحتفال.

قام نميري من كرسيه وحياه بحرارة شديدة، وشدَّ على يده شاكراً له تلك الهدية التاريخية القيمة، وتحدث معه لبضع دقائق متفحصاً تلك الدرقة الأثرية العتيقة ثم سلمها لسكرتاريته وأجلس الرجل بقربه يتابع وقائع الاحتفال حتى نهاية المطاف. شعرتُ أنَّ تلك فرصةٌ لا تُعوض فذهبتُ إلى الرجل وطرحت عليه

السؤال الذي شغل بالنا طوال الرحلة مع الأستاذ عصمت زلفو مؤلف كتاب شيكان والدكتور أبو سليم مدير دار الوثائق وهو عن حقيقة بِرْكَةِ المنهل وقلت له: «**إنَّ هناك أقوالاً تشير إلى أنَّ هذه البِرْكَة ظهرت كإحدى كرامات المهدي حين صبَّ الماء الذي في إبريق الوضوء حتى أصبح الماء بُحيرةً فهل هذا صحيح؟**»

قال الرجل: «**صحيح، لم تكن هنا بركة بهذا الحجم قبل مجيء المهدي وجيشه، حيث إنَّ الجيش قد عطش وعطشت الحصين والدواب فدعا المهدي ربه السُقيا وأهرق ماء الإبريق فأصبح الماء يسيل ويسيل حتى أصبح بُحيرةً هي التي ترونها أمامكم الآن**».

وتحدثتُ مع عصمت زلفو وقلتُ له: «**هذا شاهدٌ حي على هذه الكرامة التي أشرتَ إليها في كتابك شيكان ولا بد من تضمينه في الطبعات القادمات للكتاب**». فأمَّنَ عصمت على حديثي وكذلك الدكتور أبو سليم.

انتهت احتفالات العيد المئوي لشيكان، فعدنا أدراجنا إلى الخرطوم وفي معيتنا كَمٌّ هائل من تجارب التاريخ النابض بالحياة وفرحٌ غامرٌ باستعادة أنصع صفحات التاريخ البطولي لأبناء السودان خلال إرهاصات قيام دولة المهدية التي ما كان لها أن تسيطر على مقاليد الأمور لولا انتصار شيكان. حيث كانت تلك المعركة هي الحد الفاصل بين دولة التركية وقيام أول دولةٍ وطنية في السودان بقيادة الإمام (**محمد أحمد المهدي**).

إنشاء إذاعة كردفان

بعد شهرين ونصف تقريباً من احتفالات شيكان اتصل بي السيد الفاتح بشارة حاكم كردفان وكان ذلك بالتحديد في شهر كانون ثاني يناير 1984م وقال لي: «**إنني أريدك لمهمة كبيرة بالإقليم، فأرجو أن تكون مستعداً ومتفرغاً لي خلال الأسابيع القادمة**»، قلت له: «**أيُّ مهمةٍ هذه؟**» قال لي: «**إنني أريدك أن تُؤسس لنا إذاعةً بحاضرة إقليم كردفان**».

قلتُ له: «**ولكن هذا الأمر ضدَّ القانون يا سيادة الحاكم، حيث ينص قانون الهيئة القومية للإذاعة والتلفزيون بشكل صريح على ألا تقوم أي محطة إذاعية أو تلفزيونية بالسودان إلا بقرار من مجلس إدارة الهيئة القومية للإذاعة والتلفزيون وهي التي تباشر تنفيذ تلك المحطة الإذاعية أو المحطة التلفزيونية**».

قال لي: «**لقد تحدثت في هذا الأمر مع الأستاذ محمد سليمان مدير عام الإذاعة عندما أخبرته باختيارنا لك لوضع دراسة متكاملة بشأن هذه الإذاعة، وسأتحدث مع الأخ الفاتح التجاني رئيس مجلس الإدارة ومدير عام الهيئة القومية للإذاعة والتلفزيون**». قلت له: «**وماذا قال لك مدير الإذاعة؟**» قال لي: «**لقد أخبرني عن نفس القانون الذي تتحدث عنه ولكني أقنعته بالفكرة**». قلت له: «**وماذا قال عن اختياركم لي لوضع هيكل تأسيسي لهذه الإذاعة؟**» قال السيد الفاتح بشارة: «**مدير الإذاعة مُقتنع بقُدرتك على القيام بهذا**

الدور ولكنه يتساءل عن سبب تجاوزنا لقدامي الإذاعيين الذين أرسوا دعائم هذا العمل طوال عقود من الزمان فقلت له إنَّ عوض هذا رجلٌ ناصح ولا أريد غيره».

كان ذلك الجزء من الحديث مدعاةً لأنْ أبذلَ قصارى جهدي في عمل دراسة ذات قيمة لتلك الإذاعة. وشرحتُ للحاكم كيف أنَّ تأسيس إذاعة يحتاج إلى مقومات كثيرة على رأسها جهاز إرسال ينقل البرامج من الأستوديوهات إلى أجهزة الاستقبال، فأجابني بأنَّ هذا الأمر محسوم حيث تملك حكومة كردفان جهازاً بالحامية العسكرية بالأبيض يغطي إرساله معظم أنحاء الإقليم وهو يكفي في هذه المرحلة الأولى للمشروع.

واسترسلتُ في حديثي مع الحاكم عن المقومات الأخري لإنشاء الإذاعة وعلى رأسها إنشاء عدد من الأستوديوهات المجهزة بكل أجهزة التسجيل والمونتاج وإعادة التلعيب على الهواء، فقال لي:

«**إنَّ هذا الأمر أيضاً محسومٌ لدينا حيث إننا نستطيع أن نستخدم أستوديوهات مكتب الإعلام الحالية**»، فقاطعتهُ بأنَّ مكتب الإعلام لا يملك غير أستوديو واحد صغير أكل الدهر عليه وشرب فقال الحاكم: «**لا بأس، فلنبدأ به الآن وسنبني أستوديو آخر أكبر وأحدث خلال المرحلة القادمة**». قلت له: «**إنَّ تأسيس إذاعة يحتاج لكادر بشري مدرب يقوم بإعداد البرامج وتقديمهاوإعداد نشرات الأخبار وقراءتها وما إلى ذلك فضلاً عن الفنيين والمهندسين**». قال

لي: ((**هذا ما نريدك أن تفعله، ونرجو أن تختار من تراه مناسباً لتنفيذ هذه المهمة التي أُدرك أنها ليست مهمةً سهلة، وستجدني مُعيناً لك في كل ما تطلب**)).

قلتُ له: ((**إذن فلنبدأ على بركة الله منذ الآن**)). وحزمت أمتعتي وتوجهت نحو مدينة الأبيض. كان الإذن بسفري قد صدر من إدارة الإذاعة بطلب خاص من الحاكم لذلك لم تكن مدة إقامتي مشروطةً بزمن محدد، مما أتاح لي أن أدرس الأمر من كل جوانبه بروية وتأني قبل أن أشرع في التنفيذ.

وعكفتُ على المكتبة الصوتية لإعلام كردفان وراجعتها مادةً مادة، وتعرفتُ على جميع العاملين بمكتب الإعلام والذين يتعاونون معهم من أساتذة المدارس والطلبة وغيرهم، وتكونتْ لديَّ فكرةٌ كاملة عما أردتُ أن أقوم به.

بعد ذلك أمضيت ما يزيد على الشهرين في غرفة صغيرة خصصت لي باستراحة المديرية التابعة لمحافظة كردفان، والتي أحمل لها الكثير من الذكريات الجميلة مع أبناء الأبيض الرائعين. وهذه الاستراحة قريبة جداً من وسط المدينة حيث إنها على مرمى حجر من منزل الحاكم مما جعلني على اتصال دائمٍ به في المنزل أو المكتب لمتابعة الأمر والإجابة على الاستفسارات المتلاحقة التي كنت أطرحها له فيما يتعلق بالإمكانيات وتعيين القوى البشرية وشراء المتطلبات وتدريب المذيعين وما إلى ذلك. خلال تلك الفترة وضعت

تصوراً متكاملاً بنيته على أساس طبيعة الإقليم وموروثاته الثقافية والاجتماعية والسياسية. وأجريتُ عدة اختبارات لقياس قدرات العاملين بمكتب إعلام الأبيض فوجدت بينهم خامات إذاعيةً مبشرة يمكن تدريبها وصقلها لتؤدي هذه المهمة الصعبة. واخترت خمسةً من الشباب الذين أجريتُ لهم الاختبارات اللازمة كمذيعين، وعقدت لهم حلقةً للتدريب المكثف على قراءة الأخبار وإجراء الحوارات الإذاعية وإعداد وتقديم البرامج وعمل الربط بالأستوديو.

وأثناء أيام التدريب وضعنا هيكلاً للبرامج لا يزيد على الثلاث ساعات في اليوم تتخللها نشرات الأخبار وبعض المواد الترفيهية. وكان التركيز على برامج تخدم التراث الكردفاني بكل تنوعه. وتحاورت وتشاورت مع كل من وقعت عليه عيني من أهل الثقافة والفنون والتعليم في كردفان، وكان دافعي في كل الخطوات هو عنصر التحدي وحب وطني الصغير كردفان لأنني أحسست أنَّ إنشاء إذاعة لهذا الإقليم كانت من طموحات الطفولة لديَّ، وشاءت الأقدارُ أن أكون أنا مؤسسها بعد كل تلك السنوات.

وبعد جلسات عديدة من التدريب المتواصل أحسست أن المذيعين الذين اخترتهم قد نالوا خبرةً لا بأس بها مما يمكننا من بدء العمل، فرفعتُ تقريري المتكامل للسيد الفاتح بشارة حاكم الإقليم في صباح يوم 15 شباط فبراير 1984م وقد حرصت أن يتضمن التقرير كشفاً كاملاً بأسماء البرامج التي اقترحتها

وتلك التي اقترحها غيري أمثال الأستاذ عوض محمداني والأستاذ محمود أبو مية وغيرهم. كما حرصتُ على وضع توصيةٍ بنقل بعض العاملين من مكتب إعلام الأبيض وعلى رأسهم المذيعان الشابان (**حامد عثمان**) الذي كان قد تمَّ تعيينه حديثاً كموظف بمكتب الإعلام بالأبيض و(**حامد جاد الله**) الذي كان يعمل كفني لمكبرات الصوت المتجولة بمكتب الإعلام. وكانا أكثر المتدربين إجادةً وأسرعهم في استيعاب فكرة العمل الإذاعي خصوصاً قراءة المواد الجادة كنشرات الأخبار.

حوى التقرير الذي رفعته للحاكم كل تفاصيل الميزانية التي وضعناها للإذاعة. وهي ميزانية متواضعة إذا قارناها بالميزانيات التي نضعها لإنشاء المحطات الإذاعية أو التلفزيونية، والسبب في ذلك هو أنها إذاعة محدودة لا تتعدى حدود مدينة الأبيض وما جاورها، ثم إن أهدافها في هذه المرحلة لا تتعدى خدمة حكومة الولاية. ولكن كان هدفي من وضع تلك التفاصيل هو حسم الأمر بشكل قاطع لما لمسته من جدية الحاكم في إنشاء تلك الإذاعة.

إلى جانب ذلك كان شعوري بالمسؤولية يتزايد يوماً بعد يوم، حيث لاحظتُ أنَّ الإمكانات لم تكن بالحجم الذي يساعد على قيام الإذاعة ولذلك فلا بد من الإصرار على توفير الحد الأدنى حتى لا تتعثر خطوات العمل. وقد رفعت إليه التقرير مشفوعاً بمذكرة إيضاحية قصيرة جاء فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد حاكم أقليم كردفان الموقر،

بواسطة السيد مدير مكتب الحاكم،

تحيةً واحتراماً، وبعد

حسب تكليف سيادتكم بخصوص وضع هيكل تفصيلي لإذاعة إقليم كردفان فإنني وبحمد الله أرفع لكم هذا التقرير المفصل الذي لا يتعارض مع مقترحات السيد وزير شئون الإقليم والإدارة بل هو هيكل تفصيلي لما أجمله سيادته، مع مراعاة إضافة شخص واحد للعاملين بالإذاعة هو الأخ حامد جاد الله الذي يعمل بالإعلام أساساً وذلك لأنه يتمتع بصوت إذاعي ومقدرة ممتازة ولذا أدرج اسمه ضمن مذيعي هذه الإذاعة. وأفيد سيادتكم علماً بأننا عملنا كورساً تدريبياً سريعاً لفريق مذيعي الإذاعة وكان موفقاً وسيظهر إن شاء الله من خلال العمل اليومي. وفيما يلي الهيكل التفصيلي لهذه الإذاعة.

عوض إبراهيم عوض

إذاعة جمهورية السودان الديمقراطية

1984/2/15م

الهيكل المقترح للبرامج

تقدم الإذاعة خدمةً لمستمعيها تستمر لمدة ثلاث ساعات يومياً من الثالثة حتى السادسة مساءً تتضمن البرامج التالية:

	من هُدى الإسلام	7 حلقات في الأسبوع (يومي)	5 ق
	طبيب الإذاعة	حلقة واحدة في الأسبوع (السبت)	10ق
	شخصيات كردفانية	حلقتان أسبوعياً (السبت والأربعاء)	5 ق
	أضواء على كردفان	حلقتان أسبوعياً (السبت والأربعاء)	15ق
	ماذا تقول الصحف	6 حلقات في الأسبوع (عدا الجمعة)	10ق
	ما يفضله المستمعون	7 حلقات في الأسبوع (يومياً)	40ق
	برنامج الرياضة	3 حلقات (السبت، الإثنين، الأربعاء)	10ق
	دنيا المرأة	حلقتان في الأسبوع (السبت، الثلاثاء)	15ق
	حصة على الهواء	حلقتان في الأسبوع (الأحد، الجمعة)	30ق
	زاوية الأدب	3 حلقات (الأحد، الثلاثاء، الخميس)	10ق
	لقاء الأسبوع	حلقة واحدة في الأسبوع (الإثنين)	10ق
	استعلامات	حلقة واحدة في الأسبوع (الإثنين)	10ق
	من أرشيف كردفان	حلقتان أسبوعياً (الإثنين، الخميس)	15ق
	شكوى	حلقة واحدة في الأسبوع (الثلاثاء)	10ق
	قولة خير	حلقة واحدة في الأسبوع (الثلاثاء)	10ق
	أخي المزارع	حلقة واحدة في الأسبوع (الأربعاء)	15ق
	جنة الأطفال	حلقة واحدة في الأسبوع (الجمعة)	20ق

[برنامج يوم السبت]

زمن البث	إسم البرنامج	مقدم البرنامج	مدته
- 3م	دقات الساعة والشعار	شريط مسجل	دقيقة
1 3م	افتتاح وتقديم	مذيع	دقيقة
2 3م	القرآن الكريم	قارئ (مُنوع)	10 ق
12 3م	من هدى الإسلام	محمد صالح عبد الباقي	5 ق
17 3م	فاصل غنائي	مطربون مختلفون	13 ق
30 3م	طبيب الإذاعة	عوض محمداني	10 ق
40 3م	شخصيات كردفانية	حسن نايل	5 ق
45 3م	أضواء على كردفان	محمود أبو مية	15 ق
- 4	نشرة الأخبار الأولى	مذيع	10 ق
10 4م	ماذا تقول الصحف	مذيع	10 ق
20 4م	ما يفضله المستمعون	حامد عثمان	40 ق
- 5م	نشرة الأخبار الثانية	مذيع	10 ق
10 5م	برنامج الرياضة	التجاني حسن	10 ق
20 5م	دنيا المرأة	عواطف عوض	15 ق
35 5م	فاصل غنائي	مطربون مختلفون	15 ق
50 5م	القرآن الكريم	قارئ (منوع)	5 ق
- 6م	ختام الإذاعة	مذيع	دقيقة
	الشعار	موسيقى مسجلة	

[برنامج يوم الأحد]

زمن البث	إسم البرنامج	مقدم البرنامج	مدته
-3م	دقات الساعة والشعار	شريط مسجل	دقيقة
1 3م	افتتاح وتقديم	مذيع	دقيقة
2 3م	القرآن الكريم	قارئ (مُنوع)	10ق
12 3م	من هدى الإسلام	عبد الرحيم أبو الغيث	5 ق
17 3م	فاصل غنائي	مطربون مختلفون	13 ق
30 3م	حصة على الهواء	معلمون مختلفون	30 ق
- 4م	نشرة الأخبار الأولى	مذيع	10 ق
10 4م	ماذا تقول الصحف	مذيع	10 ق
20 4م	ما يفضله المستمعون	حامد عثمان	40 ق
- 5م	نشرة الأخبار الثانية	مذيع	10 ق
10 5م	زاوية الأدب	محمد عثمان الحلاج	10 ق
20 5م	فاصل غنائي	مطربون مختلفون	15 ق
35 5م	أضواء على كردفان	محمود أبو مية	15 ق
50 5م	قصيدة نبوية	مادحون مختلفون	5 ق
55 5م	القرآن الكريم	قارئ (مُنوع)	5 ق
- 6م	ختام الإذاعة	مذيع	دقيقة
	الشعار	موسيقى مسجلة	

[برنامج يوم الإثنين]

زمن البث	إسم البرنامج	مقدم البرنامج	مدته
3م -	دقات الساعة والشعار	شريط مسجل	دقيقة
3م 1	افتتاح وتقديم	مذيع	دقيقة
3م 2	القرآن الكريم	قارئ (مُنوع)	10 ق
3م 12	من هدى الإسلام	محمد صالح عبد الباقي	5 ق
3م 17	فاصل غنائي	مطربون مختلفون	13 ق
3م 30	لقاء الأسبوع	عوض محمداني	10 ق
3م 40	استعلامات	مذيع	10 ق
3م 50	فاصل غنائي موسيقى	مطربون مختلفون	10 ق
4م -	نشرة الأخبار الأولى	مذيع	10 ق
4م 10	ماذا تقول الصحف	مذيع	10 ق
4م 20	ما يفضله المستمعون	حامد عثمان	40 ق
5م -	نشرة الأخبار الثانية	مذيع	10 ق
5م 10	برنامج الرياضة	التجاني حسن	10 ق
5م 20	أغنيات شعبية	مطربون شعبيون	15 ق
5م 35	من أرشيف كردفان	عوض محمداني	15 ق
5م 50	نشيد وطني	مطربون مختلفون	5 ق
5م 55	القرآن الكريم	قارئ (مُنوع)	5 ق
6م-	ختام الإذاعة /الشعار	مذيع الربط	دقيقة

[برنامج يوم الثلاثاء]

الزمن	إسم البرنامج	مقدم البرنامج	مدته
3م	دقات الساعة والشعار	شريط مسجل	دقيقة
1 3م	افتتاح وتقديم	مذيع	دقيقة
2 3م 12	القرآن الكريم	قارئ (مُنوع)	10ق
3م	من هدى الإسلام	عبد الرحيم أبو الغيث	5 ق
17 3م	فاصل غنائي موسيقى	مطربون مختلفون	13ق
30 3م	شكوى على الهواء	حامد عثمان	10ق
40 3م	قولة خير	محمود أبو مية	10ق
- 4م	نشرة الأخبار الأولى	مذيع	10ق
10 4م	ماذا تقول الصحف	مذيع	10ق
20 4م	ما يفضله المستمعون	حامد عثمان	40ق
- 5م	نشرة الأخبار الثانية	مذيع	10ق
10 5م	زاوية الأدب	محمد عثمان الحلاج	10ق
20 5م	دنيا المرأة	عواطف عوض	15ق
35 5م	فاصل غنائي موسيقي	مطربون مختلفون	20ق
55 5م	القرآن الكريم	قارئ (مُنوع)	5 ق
- 6م	ختام الإذاعة	مذيع	دقيقة
	الشعار	موسيقى مسجلة	

[برنامج يوم الأربعاء]

الزمن	إسم البرنامج	مقدم البرنامج	مدته
- 3م	دقات الساعة والشعار	شريط مسجل	دقيقة
1 3م	افتتاح وتقديم	مذيع	دقيقة
2 3م	القرآن الكريم	قارئ (مُنوع)	10 ق
12 3م	من هدى الإسلام	م صالح عبد الباقي	5 ق
17 3م	فاصل غنائي	مطربون مختلفون	13 ق
40 3م	موسيقي	حسن نايل	5 ق
45 3م	شخصيات كردفانية	محمود أبو مية	15 ق
- 4م	أضواء على كردفان	مذيع	10 ق
10 4م	نشرة الأخبار الأولى	مذيع	10 ق
20 4م	ماذا تقول الصحف	حامد عثمان	40 ق
- 5م	ما يفضله المستمعون	مذيع	40 ق
10 5م	نشرة الأخبار الثانية	التجاني حسن	10 ق
20 5م	برنامج الرياضة	مطربون مختلفون	10 ق
30 5م	فاصل غنائي	نعمات علي جاد الله	15 ق
45 5م	موسيقي	مادحون مختلفون	10 ق
55 5م	أخي المزارع	قارئ (مُنوع)	5 ق
- م	قصيدة نبوية	مذيع	5 ق
	قرآن الختام	موسيقى مسجلة	دقيقة

[برنامج يوم الخميس]

الزمن	إسم البرنامج	مقدم البرنامج	مدته
- 3م	دقات الساعة والشعار	شريط مسجل	دقيقة
1 3م	افتتاح وتقديم	مذيع	دقيقة
2 3م	القرآن الكريم	قارئ (مُنوع)	10 ق
12 3م	من هدى الإسلام	عبد الرحيم أبو الغيث	5 ق
17 3م	فاصل غنائي موسيقي	مطربون مختلفون	13 ق
30 3م	ما دار في مجلس الشعب	محمد المعتصم	30 ق
- 4م	نشرة الأخبار الأولى	مذيع	10 ق
10 4م	ماذا تقول الصحف	مذيع	10 ق
20 4م	ما يفضله المستمعون	حامد عثمان	40 ق
- 5م	نشرة الأخبار الثانية	مذيع	10 ق
10 5م	زاوية الأدب	محمد عثمان الحلاج	10 ق
20 5م	نشيد وطني	مطربون مختلفون	10 ق
30 5م	من أرشيف كردفان	عوض محمداني	15 ق
45 5م	قصيدة نبوية	مادحون مختلفون	10 ق
55 5م	القرآن الكريم	قارئ (مُنوع)	5 ق
- 6م	ختام الإذاعة	مذيع	دقيقة

برنامج يوم الجمعة

الزمن	إسم البرنامج	مقدم البرنامج	مدته
9 - ص	دقات الساعة والشعار	شريط مسجل	دقيقة
9 1ص	افتتاح وتقديم	مذيع	دقيقة
9 2ص	القرآن الكريم	قارئ (مُنوع)	15 ق
9 17ص	مدائح نبوية	مادحون مختلفون	8 ق
9 25ص	من هدى الإسلام	محمد صالح عبد الباقي	5 ق
9 30ص	ما يفضله المستمعون	حامد عثمان	60 ق
1030ص	نشرة الأخبار	مذيع	10 ق
1030ص	حصة على الهواء	معلمون مختلفون	30 ق
11ص	فاصل غنائي	مطربون مختلفون	20 ق
1120ص	جنة الأطفال	بدر الدين مصطفى	20 ق
11 50ص	نشيد وطني	مطربون مختلفون	5 ق
11 55ص	القرآن الكريم	قارئ (مُنوع)	5 ق
12 - ص	ختام الإذاعة	مذيع	دقيقة
	الشعار	موسيقى مسجلة	

يكون الإرسال في يوم الجمعة من الساعة التاسعة صباحاً حتى الثانية عشرة ظهراً. وهناك بعض الخدمات تقدم بشكل ثابت في هيكل البرنامج وهي:

1/ القرآن الكريم حيث يقدم مرتان يومياً في الافتتاح 10 دقائق والختام 5 دقائق.

2/ نشرات الأخبار مرتان يومياً الساعة 4م والساعة 5م (10 دقائق).

3/ الغناء يذاع يومياً ويوزع خلال ساعات الإرسال (زمن حر).

4/ المدائح النبوية: تقدم مرتان في الأسبوع بدون تقييد زمني.

5/ الموسيقى: مادة متحركة تقدم حسب الحاجة في الأستوديو.

❖ على مذيع النشرة الأولى أن يقوم بافتتاح الإذاعة في الساعة الثالثة مساءً ويعمل على ربط فقرات البرامج حتى الساعة الرابعة والنصف مساءً. وعلى مذيع النشرة الثانية استلام الأستوديو من الساعة الرابعة والنصف ويختتم الإرسال في الساعة السادسة أما في أيام الجمعة فيفتتح الإذاعة ويختتمها مذيع الأخبار.

❖ تكون برامج الجمعة لفترة إذاعية صباحية تبدأ كالعادة في الساعة التاسعة صباحاً وتستمر حتى الثانية عشرة منتصف النهار لتمكين المستمع الكريم من صلاة الجمعة وشعائرها.

مذكرة توضيحية: (أ) من خلال معايشة الظروف والملابسات والتجربة العملية أثناء فترة الإرسال التجريبي لإذاعة الأبيض فقد

ثبتت فعالية الإذاعة وأمكن وصولها بصورة مرضية في الوقت الراهن إلى المستمعين.

(ب) لقد ثبت أيضاً أنَّ هناك استحالة في الوقت الراهن أن تعمل الإذاعة لفترتين يومياً، وبالتالي فإننا نقترح لضمان استمرارها أن يقتصر الإرسال في مرحلة البداية على فترة إرسالٍ واحدة تستمر لمدة ثلاث ساعات وذلك للأسباب الآتية:

1/ الأستوديو الذي تعمل منه الإذاعة واحد يتم فيه التسجيل والبث المباشر، وبما أن كل البرامج ما عدا القليل جداً تحتاج إلى تسجيل قبل بثها على الهواء فلا بد من إعطاء فترة للراحة للأجهزة حتى يتمكن الفنيون من التسجيل ثم التلعيب على الهواء.

2/ عدد العاملين بالإذاعة حالياً يفرض تقليل ساعات الإرسال حتى يتمكنوا من الإعداد والاتصال بالأشخاص خارج الإذاعة وتنسيق العمل، مما يستدعي وجود زمن لا يتعارض مع الإرسال.

3/ من الناحية الفنية لا يحتمل الأستوديو الواحد إرسالاً لساعات طويلة خصوصاً وأن جهاز التكييف الوحيد به معطل وحتى في حالة إصلاحه فإنه يحتاج إلى فتراتٍ للراحة.

(ج) تغطي نشرات الأخبار نشاط الحكومة الإقليمية والأخبار القومية والأخبار العالمية.

(د) تقوم الإذاعة بتغطية كل الأنشطة المهمة لحكومة الإقليم متضمنةً اللقاءات الرسمية للحاكم، وقد يتغير هيكل البرامج لتغطية الأحداث المهمة ولو استدعى ذلك مد فترة الإرسال.

(هـ) تقدم الإذاعة خدمات تثقيفية وتعليمية من خلال بعض البرامج المطاطة التي تستوعب مختلف الموضوعات مثل (استعلامات، شكوى، لقاء الأسبوع، حصة على الهواء) وذلك خدمةً للقطاعات المهمة في الإقليم كالعمال والطلبة والموظفين.

(و) يمكن إعادة النظر في أي برنامج يثبت فشله من خلال التجربة العملية مستعينين في ذلك بالمراقبة المباشرة وتوجيهات مجلس الإدارة واستنباط آراء المستمعين من خلال استبيان إذاعي مفتوح يتم إجراؤه من فترة لأخرى.

اقتراح بميزانية البرامج:

لتحقيق استمرارية العمل نقترح وضع ميزانية مفصلة للبرامج التي يقدمها أشخاص متعاونون مع الإذاعة، ويكون الأجر

الكلي 165 جنيهاً أسبوعياً أي 660 + 85 = 745 جنيهاً شهرياً. وتُقدمُ هذه الحوافزُ بشكل أسبوعي أو وفقاً لما تراه إدارة الإذاعة بالتشاور مع مسؤولي الحسابات بحكومة الإقليم. كما نقترح رصد حافزٍ شهري للمشاركين بقراءة الأخبار وتنفيذ البرنامج، ويكون توزيع الحوافز على النحو التالي:

البرنامج	الأجر الأسبوعي	البرنامج	الأجر الأسبوعي
من هدى الإسلام	35 جنيهاً	شكوى على الهواء	5 جنيهات
شخصيات كردفانية	10 جنيهات	قولة خير	5 جنيهات
أضواء على كردفان	10 جنيهات	أخي المزارع	5 جنيهات
برنامج الرياضة	15 جنيهاً	برنامج الأطفال	10 جنيهات
دنيا المرأة	10 جنيهات	في مجلس الشعب	10 جنيهات
حصة على الهواء	20 جنيهاً	طبيب الإذاعة	10 جنيهات
زاوية الأدب	15 جنيهاً	لقاء الأسبوع	5 جنيهات

حوافز قارئي الأخبار

الاسم	الصفة	الحافز الشهري
محمود أبو مية	مذيع متعاون	150 جنيهاً
حامد عثمان	مذيع	50 جنيهاً
بهاء الدين الطيب	مذيع	50 جنيهاً
حامد جاد الله	مذيع	50 جنيهاً
مكي ميرغني	فني أستوديو	50 جنيهاً
أحمد خليل	م. فني أستوديو	50 جنيهاً
جمال أبو القاسم	م. فني أستوديو	50 جنيهاً
الجملة		550 جنيهاً

ملحوظة:

(1) يترك تقدير حافز مدير الإذاعة لمجلس الإدارة والجهات المسؤولة.

(2) نقترح الاستعانة بأشخاص إضافيين سواء بالانتداب من إذاعة أم درمان أو بتعيين إذاعيين جدد لدعم العمل الذي يحتاج لكادر بشري مدرب.

(3) نقترح التعجيل بضم هذه الإذاعة للهيئة القومية للإذاعة والتلفزيون للاستفادة من أمكاناتها الكبيرة في مضمار العمل الإذاعي.

(4) نقترح تعيين سعاة بالإذاعة. وحسب علمنا أن الوظائف موجودة وتحتاج فقط لملئها.

مذكرة إضافية:

نسبةً لأن الإذاعة تحتاج للكثير من المواد المنوعة وتقديراً لظروف الإذاعة الأم (أم درمان) التي قد لا تستطيع مد هذه الإذاعة الوليدة بحاجتها من الأشرطة في الوقت الراهن فإننا نقترح ما يلي:

 شراء أشرطة كاسيت مسجلة تسجيلاً ممتازاً لتنقل على أشرطة مغنطيسية ليسهل بثها من خلال الإذاعة. والمواد التي نقترح شراءها فوراً هي أغنيات للمطربين: (إبراهيم إدريس، إبراهيم الكاشف، إبراهيم عوض، إبراهيم عبد الجليل، إبراهيم حسين، إبراهيم موسى أبا، أبو عركي البخيت، أحمد الجابري، أحمد الطيب، أحمد المصطفى، إسماعيل حسب الدائم، إسماعيل عبد المعين، الأمين برهان، الأمين عبد الغفار، الأمين علي سليمان، البلابل، التاج مصطفى، التاج مكي، التجاني مختار، الخير عثمان، الطيب عبد الله، العاقب محمد حسن، أم بلينة السنوسي، أولاد الموردة، بادي محمد الطيب، تريزا، ثنائي النغم، ثنائي كردفان، جيلاني الواثق، حسن خليفة العطبراوي، حسن سليمان، حسن عطية، حمد الريح، خضر بشير، خلف الله حمد، خليل إسماعيل، خليل فرح، خوجلي

عثمان، رمضان حسن، رمضان زايد، زكي عبد الكريم، زنقار، زيدان إبراهيم، زينب خليفة، سمية حسن، سيد خليفة، سيف الجامعة، شرحبيل أحمد، صالح الضي، صديق الكحلاوي، صديق عباس، صلاح إبن البادية، صلاح محمد الحسن، صلاح محمد عيسى، صلاح مصطفى، عائشة الفلاتية، عائشة متيانق، عبد التواب عبد الله، عبد الحميد يوسف، عبد الدافع عثمان، عبد الرحمن عبد الله، عبد العزيز العميري، عبد العزيز المبارك، عبد العزيز محمد داؤد، عبد العظيم حركة، عبد الفتاح عباس، عبد القادر سالم، عبد الكريم الكابلي، عبد الله البعيو، عبد الله الحاج، عبد الله الكردفاني، عبد الله الماحي، عبد الله دينج، عبد الله محمد، عبد المنعم الخالدي، عبد المنعم حسيب، عبد الوهاب الصادق، عبيد الطيب، عثمان الأطرش، عثمان الشفيع، عثمان حسين، عثمان حميدة، عثمان عوض الله، عثمان مصطفى، عز الدين مزمل، علي إبراهيم، علي العمرابي، عمر إحساس، عمر البنا، عمر الفحيل، عوض الجاك، عوض الكريم عبد الله، عوض وإبراهيم شمبات، فاطمة الحاج، كرومة، كمال ترباس، كمال كيلة، مبارك حسن بركات، محجوب عثمان، محجوب كبوشية، محمد أحمد سرور، محمد أحمد عوض، محمد الأمين، محمد الحسن قيقم، محمد حسنين، محمد ميرغني، محمد وردي، محمداني مدني، محمود الكنزي، محمود تاور، محمود علي الحاج، محمود فلاح، محفوظ عليش، مصطفى سيد أحمد، مكي البغدادي،

منى الخير، مهلة العبادية، ميرغني المأمون وأحمد حسن جمعة، نجم الدين الفاضل، نور الدائم الخضر، نور الجيلاني، هاشم بابنوسة، هاشم ميرغني، يوسف الموصلي، ويوسف فتاكي).

 شراء أشرطة مسجل عليها تلاوة القرآن الكريم بأصوات قارئين مختلفين تتضمن المصحف التعليمي والمصحف المرتل، وعدد 15 شريط مسجل عليها مواد غنائية وموسيقية عربية.

 توفير الصحف السودانية والعربية بصورة يومية لعمل برنامج (**ماذا تقول الصحف**) والاستعانة بموادها في تسيير العمل اليومي خاصةً الخدمات الإخبارية لعدم توفر مصادر أخبارية لدى الإذاعة في الوقت الراهن.

 تحتاج الإذاعة لعدد 100 شريط مغنطيسي من الحجم الكبير مقاس 1200 قدم، وعدد 25 شريط من المقاس المتوسط 900 قدم، و25 شريط من المقاس الصغير 600 قدم. كما تحتاج إلى 20 رزمة ورق رونيو و10 دفاتر بحجم الفولسكاب وعدد من أجهزة التسجيل المتحركة (كاسيت) لتسجيل المواد الخارجية والتغطيات واللقاءات اليومية المختلفة.

 تكون ميزانية الإذاعة وكل معاملاتها المالية في حساب منفصل ومحدد تحت مسؤولية شخص معروف يرفع تقريراً دورياً ببيان منصرفاته ومدخلاته وفق حسابات دقيقة ومعروفة وبغير ذلك سيختل ميزان العمل.

والله ولي التوفيق

عوض إبراهيم عوض

إذاعة جمهورية السودان الديمقراطية

الأربعاء 1984/2/15م

صورة للسيد: حاكم إقليم كردفان

صورة للسيد: وزير شئون الإقليم والإدارة

صورة للسيد: مدير الإعلام الإقليمي بكردفان

صورة للسيد: عوض إبراهيم عوض



الفصل السادس

الثقافة والصراع السياسي

الفصل السادس

﴿الثقافة والصراع السياسي﴾

* * *

مهرجان الشعراء الشباب بالعراق

في صبيحة الثلاثين من شهر آذار مارس عام 1984م ووسط دوامة العمل تسلمت رسالةً من السفارة العراقية بالخرطوم تدعوني فيها للمشاركة ضمن وفد الشعراء الشباب الذين يمثلون السودان في مهرجان الأمة الشعري الأول المقام ببغداد في الفترة من 20 إلى 30 نيسان أبريل 1984م. أحسستُ بسعادة غامرة أن أمثل بلادي في أول في مهرجان شعري للشباب ببغداد. وكان فرحاً مشوباً بالخوف من التجربة، إلا أنَّ العزاء كان أنَّ جميع الشعراء المشاركين في ذلك المهرجان من مختلف دول العالم كانوا شباباً مثلي وبعضهم كان مبتدئاً في محاولاته الشعرية الأولى.

وسافرت إلى بغداد برفقة الشعراء (**محمد محي الدين، عادل طيب الأسماء ومحمد المهدي عبد الوهاب**). كان ضمن الشعراء المختارين للمشاركة في ذلك المهرجان الشاعر (**حسين خوجلي**) ولكنه لم يتمكن من السفر لظروفه الخاصة. كان أربعتنا قد التقينا لأول مرة في الطائرة التي أقلتنا إلى (**بغداد**) حيث لم

نتعرف على بعضنا من قبل. وعندما وصلنا إلى مطار بغداد وجدنا في استقبالنا وفداً مكوناً من ثلاثة أشخاص هم الشاعر (**لؤي حقي**) رئيس الهيئة العليا لمهرجان الأمة الشعري والشاعر الشاب (**عادل حمدي حسن الشرقي**) السكرتير العام للهيئة العليا لذلك المهرجان والشاعر (**جواد الحطاب**) والشاعر (**وسام هاشم**).

كان أربعتهم بانتظارنا بقاعة استقبال كبار الزوار بمطار صدام الدولي. وحملونا على السيارات التي أحضرت خصيصاً لاستقبال أعضاء الوفود، حيث ظلوا بالمطار طوال أيام المهرجان يفعلون ذلك مع كل الحاضرين.

وما أن نزلنا بفندق (**قصر الرشيد**) حتى توافد علينا الصحفيون العراقيون بحكم أننا كنا أول الوفود العربية التي وصلت إلى بغداد. وأجرت معنا صحيفة (**الأمة**) العراقية حواراً تحدثنا فيه عن انطباعنا الأول عن العراق وعن المهرجان والدور المرتقب منه، وتحدثنا عن كرم الضيافة وحسن الاستقبال الذي وجدناه بالمطار. وقد نشر ذلك اللقاء في عدد الصحيفة الصادر في يوم 22 نيسان أبريل.

ثم أجرت معنا صحيفة (**الثورة**) العراقية لقاءً مطولاً تحدثنا فيه عن تجاربنا الشعرية وقدمنا بعض النماذج منها. بعد ذلك زارنا الصحفي (**هاشم حسن**) وأجرى معنا حواراً عن النهضة الشعرية في السودان وفلسفة جماعة الغابة والصحراء. وفي اليوم

الثالث لحضورنا أجرت معنا (**إذاعة البحرين**) لقاءات إذاعية أدارتها المذيعة (**مُنَى غزال**) وهي أيضاً شاعرة جاءت لتمثل بلادها ضمن كوكبة أخرى من شعراء البحرين التي تعتبر من أثرى دول الخليج أدباً وثقافةً وتراثاً. وكان حديثنا في ذلك الحوار عن دور الأدب السوداني في المعارك السياسية خصوصاً مرحلة الاستقلال ثم ثورة تشرين أول أكتوبر 1964م التي أفرزت أدباً شبابياً جديداً من خلال تجربة الأكتوبريين. وقد حملت مُنى غزال ذلك اللقاء معها وأذاعته بعد عودتها إلى البحرين.

وأثناء الحوار أهدت إلينا نُسخاً من مجموعتها الشعرية التي كانت قد صدرت حديثاً ذلك العام وأطلقت عليها عنوان (**المجنونة إسمها زهرة عباد الشمس**). كانت تلك المجموعة الشعرية قد صدرت في شكل ديوان صغير طبِعَ على ورقٍ مصقول ويصحبه شريط كاسيت مسجل عليه كل قصائد الديوان بأداء الشاعرة نفسها حيث أكسبه صوتها الإذاعي المعبر والخلفية الموسيقية المستخدمة في الإخراج جمالاً إضافياً.

وقلتُ لمنى غزال: «**مثل هذا الإخراج البديع أصبح سمة هذا العصر حتى للأعمال غير الناضجة التي ستجد معجبين بسبب الإخراج**» ويبدو أنَّ ذلك التعليق قد أزعجها فقالت لي على الفور: «**هل تعني أنَّ شعري ليس بالمستوى؟**» قلتُ لها: «**معاذ الله وإنما قصدتُ أن أعلق على نمط الإخراج البديع الذي ظهر في هذه الأيام**

والذي أعطى كثيراً من الأعمال بريقاً ما كانت ستجده لولا فنون الإخراج». تقاطرت وفود الشعراء والأدباء من مختلف أنحاء العالم، وامتلأت ردهات الفندق بالشعراء الشباب وبالأدباء المعروفين الذين قدمت لهم الدعوة لحضور قراءات الشباب أو المشاركة في الدراسات النقدية. حيث كان بين الحضور الأستاذ الدكتور شوقي ضيف، الأستاذ الدكتور يوسف إدريس، الشاعر فاروق جويدة، الشاعر محمد إبراهيم أبو سِنَّة، الكاتب والإذاعي المعروف فاروق شوشة، الشاعر عِزَّتْ الطيري، الشاعر أحمد آدم، الشاعر محمد الطوبي، المفكر العالمي والفيلسوف روجيه غارودي، المفكر الفرنسي الكبير جاك بيرك، الشاعر الإسباني أنطونيو غالا، الشاعر العربي الكبير نزار قباني، الكاتب هنري زغيب، الشاعرة فدوى طوقان، الشاعر إبراهيم نصر الله، الكاتب والصحفي رجاء النقاش، الناقد مبارك بن سيف آل ثاني، الشاعرة الكويتية د. سعاد الصباح، الشاعر والكاتب عبد الله العتيبي، الناقد أحمد السقاف، الشاعر محمد الحربي، الشاعر التونسي المنصف المِزْغَنِّي، الشاعر سُوف عبيد، ومن المغرب الكاتبة الروائية خناثة بنونة، والشاعر إبراهيم الخطيب، ومن الجزائر الشاعر عياش يحياوي، ومن البحرين الشاعر الصحفي علي الشرقاوي، والشاعرة الإذاعية مُنى غزال، والشاعر مبارك الخاطر، ومن بريطانيا الشاعر دافيد جونز، الشاعرة مارلين بوث، الشاعر روجر هاردي، والشاعر والناقد والكاتب المعروف دكتور زاهير بيشاي.

كانت ردهات الفندق كخلية النحل منذُ أن تسلمنا من المرافقين لنا برنامج الليالي الشعرية. وكان برنامجاً حافلاً وغنياً حيث تضمن في يومه الأول زيارة ضريح الجندي المجهول ببغداد ووضع أكاليل من الزهور عليه. وبعدها كان هناك عشاء أقامه رئيس الهيئة العليا للمهرجان في (**خان مرجان**).

وفي الساعة الحادية عشرة من صبيحة السبت الحادي والعشرين من شهر نيسان أبريل 1984م زارت وفود الشعراء المتحف العراقي القومي قبل جلسة الافتتاح الرسمية للمهرجان، والتي كانت في السابعة من مساء نفس اليوم. وتضمن الاحتفال كلمة ترحيب من الهيئة العليا وعرضاً لفرقة زهرات البعث التابعة للاتحاد العام لنساء العراق، ثم قراءات شعرية لبعض الشعراء المشاركين وكانت بينهم الشاعرة الكويتية الدكتورة (**سعاد الصباح**).

في السابعة من أمسية اليوم التالي وهو الأحد الثاني والعشرين من نيسان أبريل جاء موعد قراءتي لقصيدتي التي أعددتها خصيصاً للمشاركة في المهرجان. دخلت القاعة بعد أن أعياني التفكير في اختيار ما أرتديه لتلك المناسبة التي كانت بالنسبة لي فتحاً جديداً طالما حلمتُ به منذ أيام الدراسة الثانوية. وأخيراً وقع اختياري على جاكتةٍ سوداء حرصتُ أن تُوائم جو المساء الشاعري بقاعة المهرجان البديعة. وسرحتُ بالذكرى بعيداً أثناء لحظات انتظار تقديمي على المسرح. وكان أكثر ما شغل بالي في

تلك اللحظات هو وجود الشاعر الكبير (**نزار قباني**) والشاعر الكبير (**عبد الرزاق عبد الواحد**) في الصف الأمامي بين عشرات الحاضرين. شغلني وجود هذين الشاعرين وأحسست أنني كالذي يبيع الماء في حارة السقايين. وكان بجانب نزار يجلس شاعر العراق الذي ملأ الآفاق بشهرته وإبداعه (**عبد الوهاب البياتي**) وعلى يمينه السيد (**لطيف نصيف جاسم**) وزير الثقافة والإعلام العراقي يليه الشاعر البريطاني الكبير (**روجر هاردي**) ثم الشاعر الإسباني (**أنطونيو غالا**). أحسست أنني أمام امتحان حقيقي وسط هؤلاء العمالقة، ولكنني آليتُ على نفسي أن أستجمع كل شجاعتي الأدبية التي أحسبُ أنَّ عملي بالتلفزيون قد أكسبها بعداً أكبر وصقلتها تجربة السنوات، وانتظرتُ دوري.

قدمتني للجمهور المذيعة العراقية الشهيرة (**أمل حسين**) والتي كانت تعمل بهيئة الإذاعة البريطانية لسنوات طويلة قبل أن تترك العمل هناك وتعود إلى بلادها العراق وتنخرط في سلك العمل التلفزيوني الذي بدأت به حياتها العملية في منتصف السبعينيات قبل سفرها إلى بريطانيا. كانت تلك المناسبة قد خلقت صداقةً حميمةً بيني وبين أمل حسين وطدتها زياراتي اللاحقات للعراق والتي استمرت على مدى ست سنوات متصلة. قدمتني أمل للجمهور قائلةً: (***والآن أيها الإخوة الأعزاء، من ضِفافِ النيل الخالد نقدم لكم شاعراً أسمر البشرة وضاء الشباب، هو الشاعر الأستاذ عوض إبراهيم عوض***

لإلقاء قصيدته فليتفضل) . نهضتُ مزهواً بذلك التقديم الذي زاده حلاوةً صوت أمل حسين الأخاذ وتوجهتُ نحو المنصة أسأل الله التوفيق. قرأت قصيدتي بعنوان (**دوارة الأشجان**) وكانت عن الأحداث التي تفاقمت على أرض لبنان الذي مزقته الحروب الطائفية التي زاد أوارها صلف اليهود والصراع الأهلي بين الأحزاب والجماعات الدينية.

ولم أصدق أذني وأنا أتابع ذلك التصفيق من عمالقة الشعر العربي والعالمي الذين كانوا يجلسون أمامي. وتذكرت قول الصديق المشارك معنا في ذلك المهرجان الدكتور (**عادل طيب الأسماء**) الذي ظل يردده طوال أيام المهرجان، وهو: «**إنَّ تصفيق الحاضرين هو المقياس الحقيقي لنجاح الشاعر أو فشله**».

وعندما نزلتُ من المنصة كان أول من تلقاني من الحاضرين هو الشاعر الكبير (**نزار قباني**) الذي شدَّ على يدي محتضناً وقائلاً:

(**واللهِ أحسنتَ وأجدتَ، وأنا أجزمُ أنَّ دولة الشعر قد انتقلت إلى السودان**). لم أصدق أنني أسمع ذلك التعليق من نزار قباني، ذلك الهرم الشامخ في مجال الشعر والأدب في زماننا المعاصر.

وظلت تلك العبارة ترن في أذني طوال أيام المهرجان بل ولم تزل إلى اليوم لأنها صدرت من إنسان مهما قال عنه الناس إلا أنه في نهاية الأمر نزار قباني. وقال لي الزميل محمد المهدي عبد الوهاب

الذي كان حاضراً تلك الجلسة: «**إنت دائماً تخطف منا الأضواء بأداءك الجميل وهذا الصوت لأنك رجل إذاعة وتلفزيون**». وضحكنا من الفرح الغامر الذي ما حسبناه نجاحاً لأنفسنا بقدر ما كان نجاحاً لوطننا وسط تلك الكوكبة من شعراء المشرق والمغرب. لم يقدم واحد من شعراء السودان غيري في تلك الأمسية حيث وضع كل واحد منهم في ليلة مختلفة، وكانوا جميعاً مبدعين استطاعوا أن يوصلوا أصواتهم إلى الحاضرين بشكل مُشرف وجميل.

انتهت تلك الجلسة الشعرية التي شارك فيها تسعة شعراء في حوالي الساعة العاشرة ليلاً وبدلاً من التوجه إلى غرف النوم توجهنا جميعاً إلى السيارات التي كانت بانتظارنا وانتقلنا إلى (**مطعم الرشيد**) في قلب بغداد حيث أقام رئيس اتحاد الأدباء العراقيين دعوة عشاء للوفود. وقد دُعيَ لتلك الليلة جميع الشعراء والأدباء والمفكرين الذين حضروا المهرجان.

كانت المأدبة على الطراز العربي القديم كما تصوره خيال العراقيين، حيث إنَّ كل ما في المكان يوحي بالعصر العباسي القديم. فالجواري بأزيائهن الفضفاضة والخلاخيل الذهبية والفضية كُنَّ يُقدمن الطعام، ويرقصن على إيقاع القيثارة العتيقة والتخت الذي اجتهدت يد الصانع في أنْ تجعله صورةً مما كان يُستخدم في عهد هارون الرشيد. وتذكرتُ أيام الموالي والمغنين والمغنيات الذين حفظ لنا التاريخ أسماءهم ومعظمهم قد بدأوا الغناء في هذا المكان أمثال

طُويس، مَعْبَدْ، عَطرَّد، عَزة الميلاء، سلامة القس، ابن مسجح، ابن الغريض، إبن محرز، والأبجر وغيرهم. جلستُ في المقعد الذي وجدته خالياً، وكان الحظ قد ساقني إلى ذلك المقعد دون أي قصد حيث كان يجلس أمامي مباشرةً المفكر الكبير (**روجيه غارودي**) وزوجته وعلى يمينه الشاعر المصري (**محمد إبراهيم أبو سنة**) تليه أرملة الشاعر الراحل (**أمل دنقل**) التي حرصت على لبس الرداء الأسود حداداً على زوجها الذي كان قد رحل إلى الدار الآخرة في نفس العام وقد جاءت بدعوة من هيئة المهرجان وفاءاً لزوجها الراحل ولكي تُسرِّي عن نفسها بعد ذلك الحزن العميق الذي أصاب البلاد بأسرها على فراق زوجها العظيم.

لم أكن أعلم أنَّ روجيه غارودي كان يتعثر في التحدث باللغة الإنجليزية إلا عندما جلستُ إليه عن قرب. وأدركتُ وقتها العداء والتنافس الذي ظلَّ مستفحلاً بين الإنجليز والفرنسيين على مدى سنوات التاريخ الأوربي مثله مثل العداء بين الألمان والإنجليز الذي أزكت شرارته إرهاصات الدعاية الألمانية إبَّان سنوات الحرب العالمية الثانية 1939 -1945م.

ورغم أنَّ لغة غارودي الإنجليزية لم تكن بجودة فرنسيته وهي لغته الأم بالطبع إلا أنَّ الإنجليزية كانت لغة الحوار بينه وبين معظم المشاركين في المهرجان وكانت أيضاً لغة الحوار بيني وبينه في تلك الأمسية. ولاحظتُ أنَّ زوجته العربية الأصل كانت كثيراً ما

تتدخل في حوارنا فتشرح له أسئلتي باللغة الفرنسية، وعندما يستخدم مفردات فرنسية وهو كثيراً ما يفعل ذلك كانت تقوم بترجمتها لي إما إلى اللغة الإنجليزية أو العربية. كان الحشد في القاعة ضخماً ضمَّ كل المشاركين في المهرجان. وكُنتُ في بداية الجلسة متخوفاً من عدم وجود فرصة للتحدث مع روجيه غارودي لأني حسبت أن الجميع تواقون للاستئثار به في مثل هذه الفرص النادرة، ولكن شاءت الأقدار أن ينهمك الجميع في شرب كاسات الويسكي والشمبانيا والبيرة التي كانت منثورةً بسخاء أكثر من اللازم على كل موائد العشاء العامرة بالأدباء في تلك الليلة. وشرب الجميع حتى الثمالة ما عدا روجيه غارودي وزوجته وشخصي وعدد قليل من الجالسين على موائد أخرى غير مائدتنا.

لم يكن وجود روجيه غارودي أمامي في تلك الأمسية بالأمر الذي يمر مرور الكرام، ولم يكن تواضعه الجم واصطناته لحديثي ورده على أسئلتي طوال ساعات العشاء بالأمر الهين، ولذلك سهرت طول الليل أسجل على الورق ما دار بيني وبينه حرفاً حرفاً وكلمةً كلمة. ذلك لأن روجيه غارودي قد أقام الدنيا ولم يقعدها بأفكاره الشجاعة ومواقفه التي تأرجحت بين مختلف المعتقدات والأديان. حيث كان لتحوله من الوجودية إلى الماركسية أثر كبير في إعادة نظر الكثير من معتنقي الوجودية في الفكرة برمتها، خصوصاً وأنه يُعتبر أحد المؤسسين الكبار لتلك الفكرة في عصرنا الحاضر. ثم

جاء تحوله من الماركسية إلى الإسلام مفاجئاً لكل الأوساط العالمية الديني منها والثقافي. حيث كتب كثيراً عن إفلاس الماركسية وعدم مواكبتها للتطور البشري، وتنبأ بانهيارها ونهايتها من العالم في وقت لا يتعدى السنوات القلائل.

لقد كان من حسن حظي أن أعيش مع هذا المفكر والفيلسوف إثني عشر يوماً تحت سقف واحد في فندق قصر الرشيد نأكل في مائدة واحدة ونخرج إلى النزهة سوياً وتحملنا سيارة واحدة وتجمعنا قاعة واحدة هي قاعة مهرجان الشعراء الشباب ببغداد. وقد كان من أكثر الناس حرصاً على متابعة فعاليات المهرجان، وقد شارك في كل الزيارات والأنشطة التي أقيمت على هامش البرنامج الرئيسي. وكانت زوجته تتحرك معه في كل الاتجاهات تساعده بالترجمة من العربية أو الإنجليزية إلى الفرنسية والعكس.

عرفتُ الرجل عن قرب فأحسست بأني قد خبرته أكثر من الذين قد قرأوا له منذ عشرات السنين. ووجدتها فرصةً سانحةً أن أغوص في أعماقه وأتجول بين ساحات فكره المتحرر عن كل قيود التعصب والاتباع التقليدي الذي توارثناه أباً عن جد.

وكان أول سؤال لي طرحته عليه من وحي اللحظة حيث قلت ل: ((**أستاذ غارودي لماذا لا تشرب الخمر مثلك مثل هؤلاء الأدباء؟**)) قال لي ببساطة: ((**لأنني مسلم**)). قلت له: ((**ولكن معظم هؤلاء الذين أمامنا مسلمون، والبلد المضيف نفسه بلد مسلم، وهاهم**

يتعاطونها بشراهةٍ كما ترى!» قال لي: «**هذه هي مشكلتنا الحقيقية التي يجب أن نحسمها قبل أن نفكر في بقية الأمور التي تتحدى أمتنا المسلمة في كل بقاع الأرض**». أحسستُ أنَّ ذلك كان مدخلاً مناسباً للحوار معه حول أوضاع المسلمين وموقعهم من الصراع الفكري وتحديات العصر والمصاعب التي قابلته عندما أعلن إسلامه فبادرني غارودي قائلاً:

«**في الواقع إنني لم أقابل أي مصاعب عند دخولي الإسلام، وإنما كانت كل المصاعب في حياتي قبل الإسلام، ذلك ببساطة لأنَّ الإسلام يقدم الحلول على طبق من ذهب لكل مشكلات النفس البشرية إذا أحسن فهمه**». قلت له: «**ولكنك مُتهم بنقل كثير من إفرازات الفلسفة الوجودية والفكر الماركسي إلى الإسلام فما رأيك؟**» قال لي: «**أعطني مثالاً لذلك؟**»

قلتُ له: «**مثل موقفك من الحدود الإسلامية، ولعلك قد قرأت النقد الذي كتبه عدد من المفكرين الإسلاميين حول آرائك في بعض الأحكام الإسلامية التي ثبتت بالنصوص مثل قضية حد السرقة والميراث**».

قال روجيه غارودي: «**في حقيقة الأمر إنَّ وجهة نظري في هذه الأمور لم تنطلق من خلفية ماركسية أو وجودية وإنما نبعت من فهمي للإسلام نفسه، فالإسلام مثلاً عندما شرع الميراث قال للذكر مثل حظ الأنثيين والغرض من هذا التشريع أن يتمكن**

الذكر الذي هو محل المسؤولية من القيام بواجباته تجاه من يعول من أفراد الأسرة التي فقدت عائلها ولأنه يمثل العين الساهرة على أولئك الذين يعولهم لكن تعال معي لنضع بعض الحسابات، أنت ترى أنَّ في مجتمعنا الحاضر نساء هن اللائي يقمن بالمسؤولية داخل البيوت وهناك مجتمعات فيها رجال لا يُرجى منهم صلاح أو خير بل إنهم صناع المفاسد وأهل تدمير القيم في مجتمعاتهم، وأنا عندما أنظر إلى مثل هؤلاء الرجال أستحضر روح الإسلام وسماحة التشريع ومقاصد الشارع من وضع تلك الأحكام، ولذلك إذا كنت قاضياً وأردت توزيع ميراث على أسرة فقدت عائلها ووجدت في هذه الأسرة امرأةً تُربي أطفالاً أيتاماً في سن الدراسة ولها شقيق صعلوك فاجر يبدد الأموال ويعاقر الخمر فسأعطيها معظم الميراث وقد أحرم هذا الصعلوك منه ولا أبالي، ولا أحسب أنني بذلك قد عطلتُ حكماً شرعياً بل أكونُ قد طبقت مقاصد الشرع تماماً».

قلتُ له: «**ولكنَّ القاعدة الفقهية تقول لا اجتهاد مع نص**»

قال لي: «**هذه قاعدة وضعها فقهاء أخيار، لكنهم قطعاً لا يدركون حجم ما نعيشه في مجتمعاتنا الحاضرة، ثم إنَّ هذه القاعدة ليست على عِلات الفهم الذي ألبسناه إياها، بدليل أنَّ سيدنا عمر بن الخطاب قد عطَّلَ تأليف القلوب في بعض فترة حكمه وكان ذلك اجتهاداً منه رغماً عن ثبوت تأليف القلوب بالنص**». قلتُ له: «**ولكنَّ عمر بن الخطاب نفسه كان مُشرعاً واجب الاتباع بحكم الحديث**

الشريف الذي يقول عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ، فهل يجوز لنا ما جاز لعمر؟». قال لي: «قطعاً يجوز لأنَّ الدين لم يُغلق باب التفكير وباب الاجتهاد لأنه ببساطة إن أغلق ذلك الباب فقد حكم على نفسه بالفناء». قلتُ له: «ولكن لا يجب أن يصل الأمر إلى التفكير في تعديل الحدود أو قسمة الميراث».

قال لي: «هذا هو الذي عطَّل المسيحية وجعلها منغلقةً على نفسها ليس وفقاً لآراء المسيح وإنما وفقاً لآراء الإسكندر الأكبر ورجال الكنيسة، فتحجرت الجوانب المضيئة من التسامح والعفو وحلت محلها صكوك الغفران وتقسيم الأطيان بين الإقطاعيين باسم الدين، والإسلام رغم أنه بريءٌ من مثل هذه الشوائب إلا أنَّ بين المسلمين من هو أكثر تخلفاً من رجال الكنيسة في أمر فهمه السلفي لمقاصد التشريع ومواكبته لحياة البشر».

قلتُ له: «ألا ترى أن مثل هذه الآراء رغماً عن معقوليتها قد أثارت عليك الكثير من النقد وجعلت البعض يصفك بالزندقة عندما طرحتَ نفسك كأحد دُعاة العصر الحديث؟»

قال غارودي: «هذا لا يهم وأنا أتمنى أن يثور الجدل حول هذه الأمور حتى نصل فيها إلى قناعات راسخة تؤكد روح التشريع وتتماشى مع عصرنا الحاضر، ألم يقل الرسول صلى اللهُ عليهِ وسلم إن اختلاف أمتى رحمة؟ ثم إنَّ العصر الأموي قد شهد كثيراً من

الجدل الفقهي والحوار العنيف حول العديد من الأمور حتى اضطر الفقهاء إلى استنباط أحكام تتماشى مع عصرهم، ونحن الآن في عصر أخطر من عصر بني أمية، حيث استجدت أمور لم تطرأ على أذهان الأمويين ولا العباسيين بل ولا الصحابة أنفسهم، فماذا نحن فاعلون تجاهها؟ هل ننام على إرثنا الفقهي القديم بمدلولاته ومصطلحاته التي لا يفهمها العديد من المسلمين اليوم أم نستنبط منه ما ينتشل مجتمعاتنا الحاضرة من وهدة الضلال الذي استشرى فيها ونخرجها إلى بر الأمان؟)).

في تلك اللحظة التي كنتُ أستمع فيها بكل حواسي للمفكر الكبير روجيه غارودي جاءني الشاعر المصري الأستاذ (**محمد إبراهيم أبو سِنة**) وقال لي: ((**عفواً يا أخي ألحقنا بسرعة، هناك أحد الإخوة السودانيين بهدل الدنيا بحالها**)).

لم أفهم ما يقصده، ولكني اعتذرت لروجيه غارودي على أمل العودة إليه فوراً، وقُمتُ مع الشاعر أبو سِنة فقادني إلى الجانب الآخر من القاعة فإذا بأحد السودانين قد استفرغ كل ما في جوفه على مائدة الطعام بعد أن عبَّ زجاجة الويسكى التي كانت أمامه بأكملها. وناديت على الفور الدكتور (**عادل طيب الأسماء**) نجل الشاعر الكبير الأستاذ (**مصطفى طيب الأسماء**) وهو مشارك معنا في الوفد وقلت له: ((**يا دكتور عادل لا بد أن نأخذ هذا الرجل إلى الفندق الآن**)). كان الحرج قد ملأ نفوسنا مما حدث فقال لي عادل:

((**هذا الأخ قد مارس سودانيته بشكل بشع**)). هنا تدخل الشاعر العراقي (**عبد الوهاب البياتي**) وكان قريباً منا وقال: ((**لا بد من الذهاب إلى المستشفى الآن ودعوني أنادي على سيارة إسعاف الفندق**)).

قال له عادل: ((**الأمر لا يحتاج إلى مستشفى يا أستاذ البياتي وأنا نفسي طبيب وسأشرف عليه بالغرفة**)). وحملناه إلى السيارة ثم إلى مقر سكنه. وبصعوبةٍ بالغة أدخلناه في غرفته بعد أن كانت قواه قد خارت وأصبح مثل هدمة الثوب. وبعد ذلك لم أستطع العودة لمواصلة اللقاء مع المفكر الكبير روجيه غارودي. وفي الصباح اعتذرتُ له في قاعة الطعام عن عدم تمكني من العودة إليه. ولما شرحتُ له السبب قال لي روجيه غارودي: ((**هذا دليلٌ آخر يا أخي على البلوى التي أصابت المسلمين والتي كنا نتحدث عنها بالأمس**)).

بعد أن تناولنا وجبة الإفطار الصباحية بالفندق تحركت كل الوفود إلى مدينة (**المدائن**) العراقية. وكانت مناسبةً طيبةً زرنا فيها (**بانوراما القادسية**). وهذه البانوراما الفريدة في العالم هي عبارة عن لوحة دائرية ضخمة على جدران الصالة الفارعة الطول والمساحة، وهي تجسيدٌ حي لمعركة القادسية بين الفرس والمسلمين بالصوت والصورة.

وقد شارك في رسم وإعداد هذه اللوحة العالمية عدد كبير من فناني إيطاليا وروسيا والعراق. وقد استمر إعدادها لمدة ثلاثة

عشر عاماً كاملة حتى خرجت آيةً في الروعة والجمال بألوانها الزاهية وقد زادها تجسيد الضوء والصوت بهاءً وحيوية، حتى أصبحت قبلةً سياحية للسواح من كل أرجاء العالم. عُدنا بعد ذلك إلى بغداد لحضور جلسة القراءات الشعرية المسائية والتي تأخرت بدايتها حتى الساعة العاشرة ليلاً نسبةً لطول الطريق بين بغداد والمدائن. كنا في الطريق قد زرنا مدينة (**النجف**) التاريخية والتي يُطلق عليها العراقيون اسم النجف الأشرف تيمناً بوجود مسجد الإمام علي بن أبي طالب فيها والذي أصبح مزاراً للمسلمين والسواح، كما أنَّ بها قبر الشهيدين (**الحسن والحسين**) إبني السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كان الرجل الذي يشرح معالم المسجد والمزارات رجلاً عراقياً كبير السن، وعندما دخلنا مسجد الإمام علي وقف أمامنا بالقرب من المنبر وقال:

«**والله العظيم وكتابه الكريم لقد رأيتُ بأم عيني رئيسنا المفدى صدام حسين وهو يُصلي في هذا المكان واللهُ على ما أقول شهيد**». لم يفهم أحدٌ منا ما يرمي إليه ذلك الرجل الذي أقسم بأغلظ الإيمان بأنَّ الرئيس قد صلى هنا. وأثار حديثه ذلك استهجان جميع الشعراء بلا استثناء، فقال لي الشاعر التونسي (**المنصف المِزْغَنِّي**) وكنت على مقربةٍ منه: «**ما هي القيمة التاريخية لصلاة الرئيس في هذا المكان**؟!!» فقلتُ له: «**اللهم إلا إذا كان النفاق**

السياسي قد وصل إلى حد أن تكون صلاة صدام أهم تاريخياً من صلاة الإمام علي بن أبي طالب أو نجليه الحسن والحسين الذين كانوا يُصلون في هذا المكان». وفي الساعة التاسعة من صبيحة الخميس 26 نيسان أبريل كنا على موعد مع الحظ الجميل الذي قادنا إلى مدينة بابل أرض الحضارة والتاريخ العريق. وبابل كما هو معروف عنها تاريخياً من أعرق مدن العالم وأغناها بالتراث القديم الذي حوى أضخم مقتنيات العراقيين التي تعود إلى عصور مختلفة خصوصاً ما تعلق بالسومريين والأشوريين ومسلة حمورابي الشهيرة التي حوت أول قوانين مكتوبة عرفها الإنسان منذ عام 1800 قبل الميلاد. وظل العراقيون عبر السنين يشعرون أن لهم الريادة والفضل في قياد العالم بفضل هذا التراث الحضاري التليد وتجاربهم الإنسانية العريقة التي لم ينافسهم فيها أي شعب.

ولم يكن ذلك الحلم مستحيلاً ما دام الإنسان ابن حضارته، ولكن هيهات، فقد تجاذبت العراق أهواء السياسة، وظلمته مقادير الإحن التي توالت على مر العقود فكان ما كان من دمار الموروث الثقافي وسرقة المقتنيات التي لا تقدر بثمن. بعد طوافنا بمدينة بابل القديمة مررنا بأحيائها الحديثة التي يقطنها السكان الذين تعودوا على استقبال الضيوف طوال الأعوام. وقد استوقفنا شكل المعمار الحديث الذي برع في تشييده مهندسو العراق حتى أصبح موازياً للتحف التاريخية التي حوتها المدينة بفنون معمارها القديم.

لقاء الرئيس صدام حسين

بعد العودة من بابل مباشرةً كانت جميع الحافلات التي تحمل وفود الشعراء والأدباء قد تجاوزت مبنى الفندق واستمرت في سيرها إلى مكان لم يُعلن عنه، وفجأةً وجدنا أنفسنا وجهاً لوجه أمام الرئيس (**صدام حسين**). لم يكن أحد يتصور أننا ذاهبون إلى القصر الرئاسي، وذلك لشدة الاجراءات الأمنية في العراق.

كان المدخل إلى مقر الرئاسة محفوفاً بالحراسة المشددة، والكل ينظر يمنةً ويسرةً منذ الوهلة الأولى لدخول مقر الرئاسة العراقي ليجيب على عشرات الأسئلة التي تدور في الأذهان حول نظام حكم العراق. ودخلنا قاعةً كبيرة زينتها يد المعمار العراقي الدقيق، حيث إنَّ العراقيين يعتبرون من أعرق الشعوب العربية في هذا المضمار.

وبعد فترة وجيزة من الانتظار خرج علينا الرئيس صدام في زيه العسكري الذي ظلّ محافظاً عليه منذ بدء الحرب العراقية الإيرانية. وتقدم الجميع نحو الرئيس فصافحناه واحداً واحداً. تأملتُ ملامح ذلك الرجل الذي غير كثيراً من مسلمات السياسة في المنطقة العربية، وظلّ قابعاً في بلاده لا يغادرها شرقاً ولا غرباً. لم يعهد عنه التنقل بين العواصم كما يفعل كثير من زعماء العالم، ولم يُعهد عنه المشاركة في المؤتمرات الدولية أو الإقليمية حتى تلك التي تخص العراق. وقد أغضب الرجل الكثيرين من محللي السياسة

العالمية كما أفرح الكثيرين منهم لمواقف حسبها البعض أشجع المواقف وحسبها البعض الآخر تهوراً وجنوناً، خصوصاً فيما تعلق بالتعامل مع الكيان الصهيوني والقوى الغربية.

تأملتُ ملامح صدام وأنا أمد يدي لمصافحته، فأحسست أنه قريب من الصورة التي رسمتها له في خيالي وهي صورة زعماء بني أمية بسطوتهم وجبروتهم وعزتهم التي خلدتها أسفار التاريخ وصفحات التراث. كان صارم القسمات، شديد القبضة رغم أنّ يده كانت ممدودةً إلى الأمام عندما صافحنا وذلك شأنه عندما يصافح أي إنسان يأتي إليه. فهو لا ينحني ولا يجذب مضيفه إليه كما يفعل البعض كنايةً عن المودة وبشاشة الترحيب. وصدام يحتفظ دائماً بمسافةٍ بينه وبين مصافحه ساعد عليها حجم قامته الطويلة وضخامة يده وطول ساعده. ولذلك لا يملك الشخص الذي يصافحه إلا أن يكون على مبعدةٍ منه أراد أو لم يُرِد.

وكانت نظراته حادةً رغم أنه يستقبل شعراء العالم الذين بينهم من بالغ في مدحه وتدبيج القصائد في تمجيده ولو على حساب التاريخ. ورغماً عن كل الحفاوة التي قابلنا بها رجال القصر وبينهم صدام نفسه إلا أنَّ الإحساس بالرهبة والخوف قد تملكني وهو لا شكَّ قد تملك بقية الشعراء الذين أفصحوا لي عن ذلك الإحساس عندما غادرنا قصر الرئيس. ولم يدرك أحدٌ كنه تلك الهيبة التي كست شخصيته الغامضة والتي لا يعرف مكنوناتها

أحد. لم أستطع أن أتبين العبارات التي حياني بها صدام رغم أنني كنتُ حريصاً على سماعها منه. وحرصتُ أن أسمع عباراته التي قالها لبقية أعضاء الوفد فوجدتها جميعاً باللهجة العراقية ومنها إيش لونك؟ وهي تعني كيف حالك؟ أو كيف أنتَ؟

أخذ الجميعُ أماكنهم وجلسوا حول الرئيس يحدق كل منا فيما يدور بخلده. وكنا آذاناً صاغيةً لما يقول. وعجبتُ أنَّ الرئيس قد استخدم عبارات أدبية في غاية الجمال والشاعرية وكأنه ليس ذلك الرجل الحاد الذي أخافتنا نظراته الفاحصة وقبضته القوية عند المصافحة وزيه العسكري الذي يحلو له الظهور به في معظم الأوقات رغم أنه ليس عسكرياً ولم يتمرس في كليات الحرب وإنما نال رتبة المهيب وهي أعلى من المشير في جيش العراق بقرار جمهوري اقتضته حالة البلد الذي لم يعش إلا في ظل الحرب طوال عهد الرئيس. قال صدام: «**أرجو أن تكونوا أكثر التصاقاً بقضية الأمة في حربها الضروس مع الإمبريالية لأنكم سلاح هذه الأمة الذي لا تملك أقوى منه**».

وبعد أن اختتم حديثه الطويل عن مغزى دور الأدب في بناء الحضارات والأمم وأنَّ الأديب هو رسول الأمة ودَّعَنا بعباراتٍ أخوية من مكان جلوسه، فخرجنا من ذلك القصر المنيع عائدين إلى فندق قصر الرشيد. كان يجلس بقربي في الحافلة التي أقلتنا من قصر الرئاسة إلى الفندق الشاعر التونسي (**سوف عبيد**) وقال لي: «**يا أخي**

هذا الرجل يتحدث عن الشعر والأدب بمعرفةٍ شديدة مما جعلني أشعر أنه الشاعر الوحيد بيننا، إنه عبقريّ في هذا الحديث». وعندما دخلنا الفندق رأيتُ في وسط صالة استقباله الأستاذ الدكتور (**حسن أحمد إبراهيم**) أستاذ التاريخ وعميد كلية الآداب بجامعة الخرطوم الذي يقيم معنا بنفس الفندق حيث جاء ممثلاً للسودان في (**مؤتمر المؤرخين العرب**) الذي كان منعقداً في نفس الفترة ببغداد.

وقام الدكتور حسن من كرسيه وحياني قائلاً: «**يا أخي أين أنتَ، ما رأيتك منذ يوم أمس؟**». قلت له: «**كنا مشغولين بجلسات الاستماع للقراءات الشعرية والدراسات النقدية، وقد جئنا الآن من مقابلة الرئيس صدام حسين**».

قال لي: «**نحن أيضاً ذهبنا هذا الصباح لمقابلته**». قلتُ له: «**وكيف كان حديثه معكم؟**». قال لي: «**لقد تحدث إلينا حديثاً طويلاً عن قيمة وأهداف التاريخ حتى علق أحد أعضاء وفد المؤرخين بقوله لقد أحسستُ أنَّ هذا الرجل هو المؤرخ الوحيد بيننا**». ضحكتُ من ذلك التعليق وقلت له: «**يا سبحان الله لقد سمعت نفس هذه العبارة قبل قليل من الشاعر سُوف عبيد**»، وناديت سُوف الذي كان يقف قريباً منا وقلت له: «**إسمع تعليق المؤرخين على حديث الرئيس صدام لهم**» فضحك سُوف لذلك التوارد في الخواطر. وبقينا نتحدث عن مضمون الزيارة وشخصية الإنسان العراقي وتاريخ الدولة

الذي شهدت به كل الحضارات الشرق أوسطية منذ حضارة الكلدانيين والسومريين والأشوريين والفرس حتى الحضارة الإسلامية. بعد ذلك عدتُ إلى غرفتي، وقبل أن أغلق الباب وأستسلم للنوم بعد ذلك العناء الطويل رنَّ جرسُ الهاتف، ولما رفعت السماعة كان المتحدث في الطرف الآخر هو السيد (**الرشيد الطاهر بكر**) نائب رئيس الجمهورية والنائب العام في حكومة جعفر نميري الذي جاء ضيفاً على العراق بدعوة من حكومتها مشاركاً في (**مؤتمر القانونيين العرب**)، وقد كان هو الآخر منعقداً في نفس فترة المهرجان الشعري.

كان السيد الرشيد الطاهر ينزل بنفس الفندق الذي نسكن فيه وهو فندق قصر الرشيد وقد أبلى بلاءً حسناً خلال جلسات مؤتمرهم بحكم خلفياته القانونية والفكرية الواسعة. وهو إلى جانب كل هذا وذاك رجلٌ عذب الدواخل كما الشهد المصفى. وهو شخصية متفردة بين رجالات الفكر في السودان لأنه عاش كعلم من أعلام العطاء الجزيل وسط أقرانه وأبناء جيله. وقد عمرت حياته بكثير من الدأب على الوفاء والحكمة في تناول الأمور والتجرد ونكران الذات والخصوصية في التعامل. وهو إلى جانب علمه الغزير في مجال القانون الذي أوصله إلى منصب وزير العدل والنائب العام من أكثر الذين حملوا راية الحركة السياسية في السودان في خمسينيات القرن العشرين نضوجاً ودأباً وإخلاصاً للقضية. وكان

الصراع محتدماً يومها بين أروقة الأحزاب السياسية من أجل تحقيق الاستقلال. ورغماً عن ميوله اليسارية آنذاك فقد انخرط في حركة الشباب الإسلامي التي كان مجرد الانتماء إليها يمثل مخاطرة محفوفة بالمصاعب خوفاً من بطش الإنجليز وغضبة الشارع السياسي الذي سيطرت عليه طائفتا الختمية والأنصار اللتان تقاسمتا المنابر من أقصى البلاد إلى أدناها. حيث إنه بجانب علمه الغزير في مجال القانون الذي أوصله إلى منصب وزير العدل والنائب العام كان من أكثر الذين حملوا راية الحركة السياسية في أواخر الأربعينيات نضوجاً ودأباً وإخلاصاً لقضية الوطن.

وكان الصراع محتدماً بين أروقة الأحزاب السياسية الوليدة لتحقيق الاستقلال. ورغماً عن ميوله اليسارية آنذاك فقد انخرط لاحقاً في حركة الشباب الإسلامي التي كان مجرد الانتماء إليها يمثل مُخاطرةً محفوفةً بالمصاعب خوفاً من بطش الإنجليز ومن غضبة الشارع السياسي الذي سيطرت عليه طائفتا الختمية والأنصار اللتين تقاسمتا معظم المنابر في البلاد. وقد شهدتْ له أروقة البرلمان بعد ذلك صولاتٍ وجولات شارك فيها بفكره وآرائه الثاقبة مما خلده بين مفكري الرعيل الأول لحركة الشباب الاستقلالي. وانخرط بعد ذلك في سلك العمل القضائي فترك فيها بصماتٍ شهدت بها كل صحف القانون وسجلات المحاكم بالسودان. كان لتلك المثابرة والجدية في تناوله لأمور القانون

أثرها في أوساط كبار القانونيين مما حدا بالأستاذ القانوني والسياسي الضليع (**محمد أحمد محجوب**) رئيس الوزراء الأسبق أن يسلم مكتب المحاماة الشهير الذي أسسه بفكره وعرقه وجهده إلى السيد الرشيد الطاهر الذي كان وقتها شاباً صغيراً في مجال المحاماة.

اسجمعتُ في ذهني كل هذا التاريخ وأنا أرد على محادثته التلفونية بعد أن رديت عليه التحية، ثم سألته: «**إن شاء الله خير يا سعادتو**» فقال لي: «**خير، لقد اتصلتُ بك قبل ساعة ولم أجدك لأنني أريدك أن تصحبني في جولة قصيرة ببعض معالم بغداد حيث نظمت لي الحكومة العراقية جولة حرة وأريد أن أزور فيها مسجد الشيخ عبد القادر الجيلاني ودار الكتب قرب شارع السعدون لشراء بعض المراجع التي لا توجد إلا في العراق وأريدك أن تكون معي في هذه الجولة**».

قلت له بلا تردد: «**سأكون عندك بالغرفة حالاً**» وحملتُ كل هذا التاريخ في خاطري وأنا أطرق باب غرفته بالفندق فوجدته جاهزاً للخروج. كانت سيارة المارسيدس الأنيقة التابعة لمجلس الوزراء العراقي تقف في مقدمة صالة استقبال الفندق بانتظاره، حيث خُصصت لتحركات سيادته طوال مدة إقامته بالعراق وظلت رهن إشارته في كل حين. وبمجرد أن تحركت السيارة قال لي السيد الرشيد الطاهر: «**بالأمس أخذونا في زيارة مفاجئة إلى قصر الرئيس**

صدام حسين مع وفد وزراء العدل المشارك في المؤتمر، وقد تحدث إلينا الرجل حديثاً مستفيضاً عن القانون حتى حسبنا أنه القانوني الوحيد بيننا نحن أهل القانون».

ضحكت من أعماقي وقلت له: «**لا بد أنَّ في هذا الأمر سراً**».

قال لي «**أي أمر؟**» قلت له: «**لا يمكن أن يتفق ثلاثة أشخاص مختلفين في تعليقهم عن حديث صدام بهذه الصورة**»، وحكيت له ما دار بيني وبين الشاعر سُوف عبيد والبروفيسور حسن أحمد إبراهيم. وضحكنا كثيراً عندما شاركنا قائد السيارة حيث بدت أمامنا في تلك اللحظة على أحد الحوائط صورة ضخمة للرئيس صدام حسين يحمل طفلاً صغيراً بين يديه، حيث تملأ مثل هذه الصورة وغيرها شوارع بغداد والمدن العراقية الأخرى فقال السائق: «**حقيقةً إنَّ السيد الرئيس رجل كل المواقف وإذا رأيته مع أطفال العراق تحسب أنه الطفل الوحيد بينهم**».

فضحكنا بصوت عالٍ مع السيد الرشيد الطاهر حتى انزعج قائد السيارة الذي أحسَّ بأنَّ فهماً آخر قد وقع لنا من كلامه. وصلنا إلى شارع السعدون حيث مكان المكتبات. وكان بالقرب منا أحد المساجد فدخلناه لكي نُصلي عندما رأينا جموع المصلين قد بدأت تغادره بعد انتهاء الصلاة. بقي نفرٌ قليلٌ من الناس داخل المسجد وكان بعضهم مُتكئين على الأعمدة والحوائط، وبدأ السيد الرشيد الطاهر يُصلي بي إماماً. وما أن أقمنا الصلاة حتى وضع أحد

الحاضرين الجالسين بالمسجد حجراً صغيراً مستديراً أمام السيد الرشيد وآخر أمامي لنسجد عليه. وعندما هممنا بالسجود أبعدنا تلك الحجارة بعصبية واضحة كأننا اتفقنا عليها، وسجدنا على السجاد المفروش بدلاً منها.

وبقي ذلك الرجل غاضباً ينظر إلينا طوال الصلاة، وبعد أن انتهينا منها قال لنا بلهجة غاضبة ومُعاتبة: ((**كيف تلقون بهذه الحجارة بهذا الشكل وهي من النجف الأشرف؟ وهل تحسبون أن صلاتكم هذه تجوز بمثل هذا السلوك؟**)) قال له السيد الرشيد: ((**لن تصح صلاتنا إلا بهذا الأسلوب الذي تعاملنا به مع هذه الحجارة. وثق أننا لو سجدنا على حجارتك هذه لما قامت للدين في نفوسنا قائمة**)).

وغضب الرجل أشد الغضب، فتركناه في حاله وخرجنا من المسجد قاصدين دار الكتب. قال لي السيد الرشيد الطاهر عند خروجنا: ((**في الواقع هؤلاء الشيعة هم الذين ضيعوا قيم الدين في نفوسهم وأرادوا أن يضيعوه في نفوس الآخرين، وهم في حسباني أخطر على الإسلام من أعدائه التقليديين لأنهم ينشرون مثل هذه الأفكار المضللة بدعوى أنها الحق وأنها الإسلام الصحيح**)).

قلتُ له: ((**حقاً، وهذه فاجعة المسلمين الذين تقسموا شيعاً وأحزاباً ليتناحروا حول الحقيقة أكثر مما يتناحرون مع غيرهم من الملل التي رفعت شعار الحرب على الإسلام**)). دخلنا مكتبة دار الكتب

وتجولنا حول أروقتها العديدة التي حوت العديد من الكتب والمراجع المهمة. وسألتُ البائعين عن كتابٍ كان قد أوصاني الأخ الصديق والصحفي (**سامي سالم**) أن أحضره له من بغداد وهو كتاب (**ملحمة جلجامش**)، فأخبرني البائعون أنَّ ذلك الكتاب قد أصبح ممنوعاً من التداول في العراق ولذلك فمن الأفضل ألا أسأل عنه. ولم أجد سبباً مقنعاً لمثل هذا المنع ولكني تذكرت مأساة عالمنا العربي الذي يسن القوانين والأحكام وفقاً لأهواء الزعامات الحاكمة دون النظر لأي اعتباراتٍ أخرى.

وأثناء تجوالي بالمكتبة لاحظتُ أنَّ السيد الرشيد الطاهر قد اشترى عدداً كبيراً من المراجع والمجلدات الضخمة التي ما حسبتُ أنَّ إنساناً واحداً يفكر في اقتنائها في يومٍ واحد. وقال لي: «**خُذ يا عوض هذا الكتاب هديةً مني فقد اشتريته لك وهو مرجع أساسي يجب ألا تخلو منه مكتبة أحد من طلاب العلم والمعرفة**» وأخذتُ منه الكتاب شاكراً فإذا به (**فقه السنة**) للكاتب الإسلامي الكبير (**سيد سابق**).

قلت له: «**أنا أشكرك على هذه الهدية القيمة ولكنَّ هذا الكتاب موجود بمكتبتي منذ أكثر من عشر سنوات حيث اشتريته من معرض الكتاب بنادي ناصر الذي حرصتُ على شراء كتبي منه في كل عام**». قال لي: «**لا بأس، دعني أستبدله لك بكتاب آخر والأفضل أن تختار ما ليس عندك فهذه المكتبة غنية وبها العديد من**

الكتب النادرة والقيمة». وتجولتُ في المكتبة باحثاً بين أرففها التي حوت العديد من العناوين ولم يكن في ذهني كتاب بعينه، وفجأةً استوقفني كتاب صغير بعنوان (**الحلاج وُضوء الدم**) للكاتب (**ميشيل غريب**)، فقلت له: «**هذا هو ضالتي التي أنشدها فأنا غارق هذه الأيام في دراسة الإرث الصوفي وممارسات المتصوفة القدماء خصوصاً ابن عربي، وابن الفارض، والحلاج، وأحسب أن هذا الكتاب سيفيدني كثيراً في هذا المجال**».

وبالفعل اشترى الكتاب وأهداه لي مع مجموعةٍ من الأقلام وفتاحات الكُتُب لتبقى ذكرى طيبةً وخالدة على مر الأيام من أخٍ عزيز وإنسانٍ عظيم ترك بصماتِه في خارطةِ الوطن.

كانت تلك الأيام قد وطدت دعائم الصداقة بيني وبين السيد الرشيد الطاهر الذي لم يكن يغادر الفندق إلا بعد أن يتصل بي لنخرج سوياً على صهوة سيارة المارسيدس الأنيقة المخصصة لتنقلاته. ولم نترك مكتبةً إلا وزرناها وتجولنا في أنحائها بشغف شديد، حيث كان السيد الرشيد مولعاً باقتناء الكتب والمراجع الفقهية والقانونية وزيارة المساجد وأضرحة الأولياء والآثار التاريخية للحضارات المتعاقبة التي شهدتها بلاد الرافدين. وكان كثيراً ما يحكى لي عن مشاهداته في مدينة بابل التي حوت أضخم تراث للعراقيين خصوصاً ما يتعلق بمرحلة الأشوريين ومسلة حمورابي الشهيرة التي حوت أول قوانين مكتوبة عرفها الإنسان في

عام 1800 قبل الميلاد. وقال لي السيد الرشيد في بعض تعليقاته: **((إذا أحسن هؤلاء العراقيون قيادتهم وأخلصوا النية وقدموا نموذجهم للعالم فإنهم حتماً سيملكون هذا العالم بإرثهم الثقافي وتجاربهم الحضارية التي لا ينافسهم فيها شعبٌ من شعوبِ الأرض، والإنسانُ دائماً وأبداً هو ابنُ حضارته))**.

استمرت جلساتُ مهرجان الأمة الشعري الأول حتى قرأ جميع الشعراء الموضوعين على القائمة قصائدهم من خلال خمس جلساتٍ شعرية. وكانت جميع القراءات محصورةً في قاعة فندق قصر الرشيد ما عدا ليلة الافتتاح. وقد قرأ خلال هذه الليالي ستون شاعراً شاباً من مجموعة مائتي شاعر وأديب وصلوا إلى بغداد للمشاركة في لياليه المذاعة على موجات الأثير. كان من أهم فعاليات ذلك المهرجان جلسات الدراسات النقدية التي دارت حول ثلاثة محاور أساسية هي:

- **القصيدة العربية المعاصرة بين الكلاسيكية والتحديث،**
- **إشكالية الأدب الملتزم،**
- **الحوار بين الأجيال،**

وقد شارك في هذه الدراسات النقدية الأدباء رجاء النقاش، د. جابر عصفور، د. عبد القادر القط، ومحمد المديني. كما شهدت

ليالي المهرجان عروضاً للفرقة القومية للفنون الشعبية العراقية وعرض أزياء في دار الأزياء العراقية وقراءات شعرية للشعراء غير العرب شارك فيها الشاعر البريطاني روجر هاردي والشاعر ديفيد جونز ود. زاهر بيشاي ومن إسبانيا الشاعر الأديب أنطونيو غالا وبيدرو مونباتن. كما قام المشاركون في المهرجان بزيارةٍ إلى نصب الشهيد في صبيحة يوم الإثنين 30 نيسان أبريل.

وعند وصولنا إلى ذلك المكان راعنا مشهد المبنى الضخم الذي برعت يد المهندسين في وضعه كإحدى التحف المعمارية الرائعة في مدينة بغداد التي تعج بفنون المعمار العربي بلمساته المميزة. ودخلنا المبنى الذي لاحظنا من بداية دخولنا فيه أنَّ جميع العاملين به سودانيون. لم نرَ إنساناً غيرَ السودانيين وقادني الفضول إلى سؤال أحدهم عن هذا الأمر فأجابني قائلاً: ((**إنَّ حصر العمالة في السودانيين بهذا المبنى قد تمَّ بقرارٍ من الرئيس صدام حسين نفسه، ولا يدري أحد سر هذا التخصيص إلى اليوم**)).

دخلنا قاعة المسرح الملحقة بالمبنى وكانت قاعةً ضخمةً وسعت جميع المشاركين والضيوف. وقد خُصصت جميع القراءات الشعرية في تلك القاعة للشعر المكتوب عن الشهداء، وكان معظم المشاركين فيها من الشعراء العراقيين الذين أعدوا قصائد خاصة بتلك المناسبة. وفي ليلة الختام كانت هناك ليلة بعنوان: (**لمحات من شعر القادسية، قصيدة عروس مندلي**) وهي ملحمة شعرية رائعة

شارك فيها ثلاثة من شعراء العراق الشباب. وبتلك الليلة انقضت ليالي المهرجان التي رسخت في الذاكرة كأجمل المهرجانات التي تعرفتُ من خلالها على عدد كبير من مبدعي العالم العربي والأوروبي. وظلت نقطة تحول راسخة في الوجدان على مدى السنوات اللاحقات.

ليلة شعرية ببغداد

اشتركنا كأعضاءٍ لوفد السودان في ليلة شعرية أقمناها بدعوة من الطلبة السودانيين بجامعة بغداد. وقد شارك فيها الدكتور عادل طيب الأسماء والشاعر محمد المهدي عبد الوهاب وشخصي وتغيب عن حضورها الشاعر محمد محي الدين. واستمرت تلك الليلة زهاء الثلاث ساعات. كان الطلبة شغوفين بالاستماع للشعر، وكان تجاوبهم حماسياً أثلج صدورنا. وكان الحس النقدي الذي هو سمةٌ أساسية للطلاب السودانيين في كل مكان قد أثرى تلك الليلة بكثير من الاستفسارات والمداخلات التي أعقبت القراءات الشعرية. وخلال الليلة الشعرية قام الشاعر (**محمد المهدي عبد الوهاب**) بتوزيع بعض الدواوين والروايات والكتيبات السودانية على الطلبة السودانيين وأصدقائهم للاطلاع على الأدب السوداني، حيث كان قد أحضر معه مجموعةً من المؤلفات السودانية التي حملها من المجلس القومي للآداب والفنون الذي كان يعمل به. وقد كان

لذلك الأمر وقعه الحسن في نفوس جميع الحاضرين من الطلبة السودانيين وأصدقائهم من الطلاب العرب الذين حضروا الليلة. وكان محمد المهدي قد فعل نفس الشيء مع أعضاء الوفود المشاركة في المهرجان، حيث أعطاهم عدداً من الكتيبات السودانية التي كانت مثار جدلٍ طويل وحوار نقدي بين أعضاء الوفد السوداني وأعضاء الوفود الأخرى.

وليلة أخرى بالموصل

جاءني بغرفتي في الفندق طالبان عرفا نفسيهما بأنهما (**يوسف حضرة وعلى السيد**) من الطلبة السودانيين بجامعة الموصل، وكانا يطلبان منا نحن الأربعة المشاركين في المهرجان أن نأتي إلى (**الموصل**) لإقامة ليلة شعرية في (**دار الطلبة السودانيين**) قبل العودة إلى السودان. وعلى الفور أبديتُ لهم موافقتي على الحضور. ووافق بقية الزملاء على السفر إلى الموصل الذي تحدد له نهار الثلاثاء أول أيار مايو 1984م بعد ختام المهرجان.

وجاء وفدُ طلبة الموصل في الموعد المحدد ليرافقونا خلال الرحلة. وللأسف لم يحضر أيٌّ واحدٍ من الشعراء غير شخصي، فبقيتُ منتظراً مع الطلاب مدةً طويلة، وأخيراً قررنا السفر بدونهم لأنَّ الإعلانات قد عُلقت بجميع أنحاء الجامعة وقد تمت دعوة العديد من أصدقاء السودان من مختلف الدول العربية ممن كانوا

يدرسون أو يعملون هناك. وتحركنا بالحافلة من محطة بغداد متوجهين نحو الموصل. توقفنا في مدينة (**تكريت**) بلد الرئيس صدام حسين وتوقفنا ثانيةً عند أحد المزارات، ولما نزلنا هناك وجدنا قبراً طويلاً يزيد عن الخمسة أمتار قيلَ إنه قبر نبي الله (**دانيال**) عليه السلام. بقينا فترةً طويلة عند ذلك الضريح، ثم واصلنا سفرنا إلى الموصل التي وصلنا إليها في السابعة والنصف مساءً. كانت الأمطار تهطل بغزارة والبروق تضوي كل أرجاء المكان.

ومن موقف الحافلات ركبنا سيارة تاكسي إلى شقة أحد الطلبة السودانيين وهو (**عادل موسى الغندقلي**) الذي كان يدرس البيطرة في جامعة الموصل. وبعد تناول العشاء الذي برع الطلاب في طهيه خرجنا إلى دار اتحاد الطلبة السودانيين التي اكتظت بالحضور من السودانيين وأصدقائهم.

وقبل البدء قلتُ لمقدم الحفل: ((**أرجو أن تعتذر للطلبة عن عدم حضور بقية أفراد الوفد**)). فقال لي: ((**هم يعرفون ذلك لأننا أخبرناهم قبل ساعتين عندما اتصل بنا الأخ علي السيد من بغداد وأخبرنا بأنك ستأتي لوحدك**)). قلت له: ((**إذن فلتكن ليلتنا حديثاً عاماً حول قضايا الأدب والثقافة والإعلام تتخللها قراءات شعرية**)). قال لي: ((**وهو كذلك**)). استمرت الليلة طويلةً ودارت حول الكثير من قضايا الأدب والثقافة في السودان حيث غلب عليها الجانب التأريخي لتطور الحركة الفكرية من أيام الفونج مروراً بفترة

التركية ثم المهدية إلى العهد الوطني. وكان التركيز على دور الكلمة في تأجيج الصراع السياسي حول الهوية والحرية. وانهالتْ أسئلة الطلاب عن كل شيء يخص الشعر والإذاعة والأدب والسياسة التي يحلو للطلاب السودانيين الحديث حولها. وانتهت الليلة التي تحولت إلى ليلة سياسية بحماسة الطلاب ووطنيتهم. وفي ختامها قدم لي اتحاد الطلبة السودانيين بالموصل وشاحاً تذكارياً عليه شعارهم وبعض الهدايا الرمزية.

بعد ذلك انتقلنا إلى شقة الطالب (**عادل موسى الغندقلي**) التي شهدت أحلى سويعات الأنس التي امتدت إلى شروق شمس اليوم الجديد. بعد ذلك عُدتُ إلى بغداد برفقة ثلاثةٍ من الطلاب السودانيين الذين أوصلوني حتى بوابة الفندق ببغداد ثم عادوا أدراجهم إلى الموصل.

انتهت ليالي المهرجان، وسافر معظم أعضاء الوفود إلى بلادهم، فغادرتُ بغداد في صبيحة اليوم التالي الثالث من أيار مايو 1984م متوجهاً إلى دولة (**الكويت**) في طريقي إلى الخرطوم. كانت زيارتي للكويت بدعوة من أسرة السيد (**محمد عبد الله قلندر**) الذي كان يعمل مستشاراً بصندوق النقد الكويتي منذ سنوات طويلة وتربطنا به أوثق علاقات النسب.

مكثت أسبوعاً في الكويت كان حافلاً بكل شيء ومليئاً بالزيارات التي نظمها لي بعض الأصدقاء على رأسهم (**عبد المنعم**

النعمان) وشقيقُه (**إسماعيل النعمان**) والأستاذة الإذاعية القديرة (**فوزية يوسف**) وغيرهم من الأصدقاء الذين يعملون بالكويت والذين كان معظمهم يسكنون في حي (**الجابرية**) أحد أحياء الكويت العريقة.

وقضينا أياماً بعمارة (**حنقة أخوان**) التي امتلأت بأفراد أسرة الصديق (**أحمد عبد الله حنقة**) زميلنا بالإذاعة الذي ورد الحديث عنه في بداية هذا الكتاب. وكان قد بعث بمعظم أفراد أسرته من الشباب للعمل بالكويت في شركة المواصلات بحكم علاقاته الوطيدة مع المسؤولين بالدولة.

حاول بعض الأصدقاء أن يبقوني بالكويت للعمل هناك، حيثُ إن الرواتب أعلى بكثير مما يتصور الإنسان، كما أن الكويت بلادٌ هادئة وبها الكثير من فرص التطور الذاتي في مجالات المعرفة بكل ضروبها المختلفة. ولكني رفضت ذلك الأمر بشدة ورجعتُ إلى السودان تملؤني الأشواق للأهل والأصدقاء والعشيرة، وكان وصولي في صبيحة العاشرمن شهر أيار مايو عام 1984م.

جهاز الأمن يتابعني

عدتُ إلى السودان بعد رحلة العراق والكويت، وبعد وصولي مباشرةً جاءني صديق كنتُ قد تعرفتُ عليه قبل سنوات وهو يعمل بمكتب استقبال الإذاعة واسمه (**محمد علي**) وقال لي: «**ما هذا الذي**

فعلته بالعراق؟» قلت له: «**ماذا تعني بهذا السؤال؟**» قال لي: «**لقد جاء تقريرٌ إلى جهاز الأمن عنك من العراق فيه اتهامهم لك بأنك تحرض الطلبة ضدَّ النظام، وقد كلفوني بكتابة تقرير عن هويتك السياسية، وعندما سألوني أنكرت لهم بشدة انتماءك لأي تنظيم سياسي معارض حسب معرفتي اللصيقة بك. وقلتُ لهم لا بد أن يُفهم الحديث الذي أدليتَ به فهماً مغايراً للذي توصل إليه التقرير، وعموماً إنَّ الجهاز بصدد توجيه استجواب لك حول هذا الأمر بعد اكتمال المعلومات لهذا الملف**».

قلتُ له: «**وأنتَ ما علاقتك بجهاز الأمن؟**» وكان هذا السؤال صادقاً مني لأنني لم أكن أعرف حتى تلك اللحظة أنَّ جميع موظفي الاستقبال بالإذاعة كانوا من رجال الأمن، فضحك محمد علي وقال لي: «**هل أنت جادٌ في هذا السؤال؟**» ولما أقسمتُ له أنني لا أدري علاقته بالجهاز أفصح لي عن هويته وأطلعني على بطاقته الأمنية التي كانت بجيبه وقال: «**أنا من جانبي سأحاول جاهداً أن يُغلق هذا الملف فوراً لأنني أعرف صدقك فيما تقول، وأنت رجل صديق، لذلك أتمنى أن تتحفظ كثيراً عن الحديث في مثل هذه المناسبات حفاظاً على نفسك وسمعتك الأدبية لأنك معروفٌ للجميع**». قلت له: «**أشكرك يا محمد على هذا الحديث، ولكن ثق أنني مندهش أشد الاندهاش لجهاز أمنٍ يطارد إنساناً يتحدث عن هموم الثقافة وتاريخ الأدب في موطنه ويترك عشرات النصابين من**

كبار موظفي الدولة ينهبون ثروات العباد والبلاد ويتجولون في أنحاء الدنيا بكل طمأنينة وكأنهم أباطرة الزمان. وأعجب لجهاز أمنٍ يطارد إنساناً قضى معظم عمره الوظيفي في تجميل صورة وطنه من خلال الإعلام ويترك حدود الوطن نهباً لقادة النهب المسلح ولفلول الخارجين على القانون يعيثون فيها فساداً حتى وصلت إلى ما وصلت إليه في وضح النهار».

وقبل أن أسترسل في تصوير غضبتي على ذلك التقرير وذلك السلوك من جهاز الأمن غادرني محمد بانتظار رجال التحقيق. وعندما جاء وقت التحقيق زارني اثنان من رجال الأمن بمكتبي بالإذاعة وأغلقا الباب ليسألاني سؤالاً واحداً: «**ما هو لونك السياسي؟**» فقلت لهما: «**إنَّ لوني السياسي والديني والفكري هو الأسود من لون بلادي السودان التي تشربت بحبها طول حياتي**». وفاجأني رجلا الأمن بقبول إجابتي التي كنتُ أحسب أنها إجابة فلسفية لا علاقة لها بالسؤال ولم يزيدا عليها وانتقلا إلى السؤال الثاني: «**ماذا قُلتَ في الموصل للطلبةِ البعثيين؟**» قلتُ لهما: «**لم أقل شيئاً للطلبة البعثيين الذين لا أدري من هُم ولا أينَ هم، وإنما تحدثت للطلبة السودانيين كافةً وأصدقائهم من الطلبة العرب عن هموم الثقافة والأدب في وطني**». قال لي أحدهما: «**وماذا قلت لهم عن الرئيس؟**» قلتُ له: «**لقد قلت لهم رداً على سؤالٍ باتهامي بالعمل في إذاعة النظام إنَّ الإذاعة ليست إذاعة هذا النظام أو غيره، والوطن**

ليس ملكاً للنميري أو غيره وإنني أعلم أنكم تقفون ضد نظام نميري وقد ارتضيتم أن تعيشوا في هذا المنفي، وأنا أحسب أنكم قد سلكتم الطريق الخطأ، والأفضل لكم وللوطن إذا أردتم محاربة النظام أن تعودوا للسودان وتحاربوه من الداخل لأنَّ وجودكم خارج الوطن يجعلكم كالمتسولين على فتات الموائد ويجعلكم تتمشدقون بما لا تفعلون. وفي تقديري أن رجلاً واحداً معارضاً في الداخل أجدى وأنفع للوطن من ألف رجل معارض بالخارج لأن الذي يعيش في صلب القضية ليس كمن يسمع عنها من أفواه الآخرين وليس من رأى كمن سمع».

كتبَ الرجل كل ما قلتهُ له في المحضر، ثم ودعني وانصرف على أمل الاتصال بي مرةً أخرى. ولم أره منذ ذلك اليوم لأنَّ جهاز الأمن برمته قد أصبح في خبر كان بعد ما يزيد على العام من ذلك التحقيق. ولكني قد علمتُ فيما بعد أنَّ الصديق محمد علي قد سعى جاهداً لإغلاق ذلك الملف داخل الجهاز، ولم يُخطرني بذلك إلا عندما التقيت به في زواج أحد الأصدقاء الإذاعيين بعد ما يزيد على العام.

محكوم بالإعدام يطلب مقابلتي بسجن كوبر

طَرقَ أحدُهم بابَ منزلنا في الصباح الباكر فخرجتُ لأرى مَن الطارق فكان العم (**عبد السلام الحكيم**) أحد سائقي الإذاعة قد

جاء بسيارته التي يميزها شعار الإذاعة المكتوب على جانبيها بخط أنيق ظل يلفت الانتباه إليها وهي تجري في شوارع العاصمة، حياني العم عبد السلام وقال: «**مدير الإذاعة يريد مقابلتك فوراً فأرجو أن تأتي معي**»، قلت له: «**حاضر**»، ولبستُ ملابسي على الفور وخرجت معه متوجهين صوب الإذاعة.

لدى دخولنا بالبوابة الرئيسية استوقفني أحد رجال الحرس قائلاً: «**أرجو أن تنزل لحظةً**». لم أتردد ونزلت من السيارة فقال لي الضابط: «**سلم على هذين الأخوين**» سلمت عليهما وكانا ضابطين من سجن كوبر يرتديان زيهما الرسمي وقالا لي: «**لقد ظللنا ننتظرك منذ أكثر من ساعة**».

وأخذني أحدهما جانباً وقال لي: «**يا أخ عوض لدينا نزيل بسجن كوبر محكوم بالإعدام اسمه ع. س (وأعطاني الإسم كاملاً) والمفروض أن يتم تنفيذ الإعدام فيه بعد فترة وجيزة، وحسب اللوائح القانونية فإننا نسأل كل محكوم بالإعدام عن أي وصايا أو أشياء مهمة يريدها قبل تنفيذ الإعدام فقال هذا المحكوم إنه يطلب مقابلة المذيع عوض إبراهيم عوض قبل تنفيذ الإعدام وقد بعثتنا إدارة السجن لاستدعائك لمقابلته**».

شعرت بأنَّ قدمي لا تقويان على حمل جسدي الذي هده سماع ذلك الكلام العجيب ودارت الدنيا برأسي وسألت الضابط ما اسم هذا المحكوم؟ فكرر لي الإسم مراراً فقلت له: «**أنا لا أعرف هذا

الشخص ولا تربطني به أي علاقة من أي نوع وأي موضوع قاله لكم هذا الرجل عني يُعتبر تلفيقاً لا أساس له من الصحة». قال لي الضابط: «**هون عليك ولا تنزعج فالأمر ليس أمر تلفيق ولا تهمة ولا أي شيء من هذا القبيل فالقضية قد انتهت وصدر فيها الحكم وبقي التنفيذ فقط، وهذه المقابلة لا علاقة لها بالقضية لا من قريب ولا من بعيد. قد يكون هذا الرجل أحد معارفك أو أقاربك أو يريد أن يوصيك بشيء قبل إعدامه**».

دارت برأسي العديد من التساؤلات التي ظلت بلا إجابة حول هذا الرجل وسألت الضابط: «**هل لا بد أن أجيء معكم الآن؟**» قال: «**كلا يمكنك أن تجيء في أي وقت تشاء خلال الأسبوعين القادمين فقد تركنا اسمك ببوابة السجن لتدخل وقتما تريد**».

في تلك الأثناء كان مدير الإذاعة خارجاً بسيارته من البوابة الرئيسية فوقف أمامي وقال لي: «**أنا بعثت إليك العم عبد السلام لماذا لم تحضر إلى مكتبي؟**» قلت له: «**أنا الآن في طريقي إلى مكتبك ولكن استوقفني بعض الإخوة هنا لأمر طارئ فما الأمر؟**» قال لي: «**أرجو أن تجهز نفسك سريعاً للسفر غداً مع رئيس الجمهورية إلى القاهرة، وأرجو أن تتصل بإدارة الإعلام الخارجي أو بالقصر الجمهوري لتنسيق أمر السفر الذي سيكون في الصباح**». كانت تلك الرحلة المفاجئة إلى مصر هي المخرج لي من دوامة التفكير في أمر ذلك السجين المحير. وسافرنا في الصباح الباكر إلى

القاهرة مع رئيس الجمهورية. كان بجانبي في مقعد الطائرة الأستاذان (**فضل الله محمد**) رئيس تحرير جريدة الصحافة و(**حسن ساتي**) رئيس تحرير صحيفة الأيام، وتحدثنا في كثير من الأمور التي تشغل بال الإعلاميين وكان السؤال الذي لم نجد له إجابة هو لماذا هذه الرحلة المفاجئة اليوم إلى مصر؟

وصلت بنا طائرة البوينج السودانية إلى مطار القاهرة وكانت بانتظارنا طائرتان مروحيتان نقلتا أعضاء الوفد الذين لم يزيدوا على العشرة بمن فيهم الإعلاميون وحرس الرئيس وتوجهنا مباشرةً إلى (**قصر عابدين**) مقر الحكومة المصرية، وهناك استقبلنا الرئيس (**حسني مبارك**) عند المطار الداخلي بمقر الحكومة.

وعلى الفور دخل الرئيسان نميري ومبارك إلى غرفة مغلقة لم يعلم أحد حتى اليوم ما دار فيها من حديث استمر لمدة ساعتين ونصف. وبقينا طوال هذا الوقت نتجاذب أطراف الحديث والكل لا يدري ما يدور في الداخل بين الرئيسين.

تجولتُ ببصري في فن المعمار المصري القديم الذي بُني به مقر الحكومة المصرية وكان آيةً في الجمال أعاد عبقريات الفراعنة القدماء في طلاء الجدران ونقش الحوائط بالأشكال الهندسية ذات الأبعاد المتناسقة. ولفت انتباهي وجود الحراسة المكثفة داخل المبنى وخارجه فتذكرتُ حادثة اغتيال الرئيس أنور السادات وما آل إليه حال الأمن بعدها في مصر. لقد ظلَّ الرئيس مبارك يتجول في

القاهرة بالطائرة المروحية الخاصة بدلاً عن السيارات التي قلَّ استخدامها في تنقلاته. ورغماً عن أنَّ السبب المعلن لذلك هو اكتظاظ شوارع القاهرة بالسيارات إلا أنَّ الحقائق تؤكد أنَّ احتياطات الأمن هي السبب الرئيسي في ذلك الخيار. وقد صدرت الأوامر بها من الرئيس شخصياً.

وازداد عدد الحرس الشخصي للرئيس إلى عشرة أشخاصٍ مُداومين بدلاً عن ثلاثة كانوا هم الذين يرافقون الرئيس الراحل أنور السادات، ومن خلف هؤلاء العشرة المباشرين عَشراتٌ لا تراهم العين ولكنهم أقرب من حبل الوريد إذا حدث ما يثير شكوك الرئيس. وتغيرت استراتيجية العلاقات المصرية بجيرانها وأشقائها من العرب والأفارقة والآسيويين.

كل ذلك بفعل الحادث المباغت لاغتيال الرئيس السادات ثم عُزلة مصر التي فرضتها الدول العربية جميعاً عدا السودان وعُمَانْ كنتيجة لزيارة السادات إلى القدس وتطبيع العلاقات مع إسرائيل. ورغماً عن غياب مفجر تلك السياسة عن الساحة وهو الرئيس السادات إلا أن خلفه الرئيس مبارك قد دفع الثمن أغلى لأنه واصل ذلك المخطط الذي لم تشك كثيرٌ من الحكومات أنَّ وراءه الحكومة الأمريكية التي فرضت على مصر ذلك التوجه. ورغماً عن نفي مصر المتكرر لوجود أي دورٍ أمريكي في هذا الأمر إلا أنَّ الأحداث والوقائع والأرقام تؤكد وجود ذلك الضغط الذي كان من بين

بنوده الأساسية المساومة بكوتة القمح الأمريكي التي تتسلمها مصر كل عام كجزءٍ من صفقة العلاقات الخصوصية بينها وبين الولايات المتحدة القائمة لحساب العلاقة مع إسرائيل.

كانت كل المؤشرات تؤكد أنَّ أسلوب حراسة الرئيس وحراسة مؤسسات الدولة قد أصبحت أكثر تشدداً من أي وقتٍ مضى حتى أيام عبد الناصر التي وُصفت بأنها أكثر الأيام سطوةً لرجال الأمن الذين دربهم وصقلهم (**صلاح نصر**) بمراوغته وحثه المتواصل للرئيس عبد الناصر بضرورة تكثيف وجودهم من أجل بقاء الثورة ورجالها.

والملاحظةُ الآن أنَّ رجال الأمن المصريين أصبحوا متميزين بأحجامهم الضخمة وطولهم الفارع وقوة بنيتهم الجسدية التي لا تُخفي شخصياتهم عن أحد. بعد ساعتين ونصف من الحوار خرج الرئيسان مبارك ونميري من القاعة ممسكان بأيدي بعضهما البعض وكأنهما خرجا من مخاضٍ عسير فرضته شئون السياسة المستعصية على الطرفين. وقال الرئيس مبارك:

«**نأسف لأننا تركناكم وقوفاً لمدةٍ طويلة، والآن يمكنكم أن تتفضلوا إلى تناول شيء من المرطبات**». وخرجنا إلى قاعة مجاورة وُضعت عليها موائد المشروبات والفواكه وأصناف الحلويات العربية التي يجيد المصريون صناعتها مثلهم مثل أهل الشام. وكنا بالفعل في حاجةٍ إلى ذلك بعد عناء السفر وطول الوقوف في صالة الانتظار.

بعد ذلك طلب منا الرئيس مبارك أن نتوجه إلى الصالة المقابلة حيث أُعد المكان لإجراء مؤتمرٍ صحفي. وكعادة قاعات المؤتمرات الصحفية فقد حوت القاعة عدداً من مكبرات الصوت ومنصة صغيرة يقف عليها المتحدثون وأخرى شبيهة يقف عليها رئيس الجلسة وعدد غير كبير من الكراسي التي يجلس عليها الصحفيون ورجال الإعلام الممثلون لوسائل الإعلام المختلفة. وفي البدء قال الرئيس مبارك:

«نحن ليس لدينا حديث نقوله وإنما نترك المجال لكم أنتم كإعلاميين لتسألوا ما تشاءون».

وكان من نصيبي أن أبتدر الأسئلة في ذلك المؤتمر فتوجهتُ نحو الميكرفون وقلتُ للرئيس مبارك: «**لعل الجميع هنا حائرون في أمر هذا اللقاء المفاجئ بينك وبين الرئيس نميري ولذا فإنَّ سؤالي هو ماذا دار في هذا اللقاء وما الذي دعا إليه في هذه العُجالة؟ ثانياً إنَّ الجميع يعلمون أنَّ الحكومة السودانية قد أبدت تحفظات كثيرة على دعوة العقيد معمر القذافي بضرورة قيام الوحدة بين ليبيا ومصر والسودان وقالت الحكومة إنَّ ذلك يجب أن ينبع من القاعدة التي لم تتهيأ بعد لهذا الأمر مما اعتبره البعض رفضاً صريحاً من حكومة السودان للتوجهات الليبية، في حين سرت بعض الشائعات أنَّ الحكومة المصرية تتبنى الآن موقفاً مغايراً تريد أن تمليه على حكومة السودان وهو الذي استدعى هذا اللقاء السريع فما هي حقيقة الأمر؟**» ردَّ الرئيس مبارك على السؤال بجملةٍ واحدة

هي: «**أنا رأيي هو رأي أخي جعفر**» ولم يتحدث عن أسباب اللقاء بينه وبين نميري في ذلك الصباح. وظل جميع الصحفيين يسألون عن سبب ذلك اللقاء فلم يرد الرئيس مبارك تصريحاً ولا تلميحاً، إلا أنَّ الرئيس نميري عندما بدأ إجاباته قال:

«**لقد أكثرتم من الأسئلة حول أسباب هذا اللقاء وفي الواقع هذا لا يحتاج لأسباب وإنما هو شيء طبيعي ظللنا نفعله في كل الأوقات مع مصر الشقيقة التي لا تحتاج لقاءاتنا معها إلى بروتوكولات أو ترتيبات مسبقة**».

ويبدو أنَّ ذلك الحديث للرئيس نميري لم يقنع أحداً إنْ لم يكن قد زاد حجم التكهنات في أذهان الصحفيين حول هذا اللقاء المفاجئ. واستمر المؤتمر الصحفي لمدة ساعة من الزمان تحدث فيها الرئيسان حديثاً عاماً وفضفاضاً عن مختلف القضايا المطروحة في ساحات السياسة. ورغم إصرار الصحفيين على معرفة أسباب ذلك اللقاء المفاجئ لم يفصح أحدهما عن ذلك السر.

بعد انتهاء المؤتمر مباشرةً توجهنا إلى مطار القاهرة فوجدنا الطائرة رابضةً بالمطار فامتطيناها وعدنا إلى الخرطوم. اتصلتُ بالإذاعة التي بعثت إليَّ بالعم عبد السلام ليقلني من المطار وأعطيتُ الزميل المحرر (**محمد كُتِّي**) محرر الوردية بقسم الأخبار حصيلة الرحلة، وعدت فوراً إلى البيت بعد عناء السفرية التي استغرقت كل اليوم بين القاهرة والخرطوم. وأثناء نزولي من السيارة أمام منزلنا

رأيت الزميل والصديق الصحفي (**محجوب عبد الحفيظ**) واقفاً بالباب وكان يهم بالمغادرة فحياني وقال: ((**أنا واقفٌ هنا منذ ساعة وما في واحد يفتح الباب**)). حييتهُ وأخبرته بأنني قادمٌ لتوي من القاهرة. وعندما تحدثنا عن موضوع ذلك السجين أصر على حتمية ذهابي لمقابلته وأنه سيذهب معي. فوافقتُ على الذهاب ما دام هو سيكون معي.

واتفقنا أن نذهب في صبيحة يوم السبت المقبل إلى سجن كوبر. انتظرتُ ذلك اليوم بفارغ الصبر وكتمت الأمر عن بقية الأصدقاء حسب رجاء الأخ محجوب عبد الحفيظ ليكون سراً صحفياً يستأثر به وحده دون الآخرين. وجاءني محجوب في الوقت المحدد بالضبط فتوجهنا إلى سجن كوبر.

عند البوابة أبرزنا بطاقات هويتنا وطلبنا من الضابط المسؤول أن يسمح لنا بالدخول لمقابلة ذلك الشخص. غادرنا الضابط لفترة من الوقت ثم عاد إلينا قائلاً: ((**لقد تم تحويل هذا السجين قبل أيام إلى سجن الباقير وهو الآن بمقر السجون على شارع الظلط المؤدي إلى ود مدني جنوب مدينة الخرطوم**)). قلت لمحجوب: ((**الحمد لله الذي أراحنا من هذا الكابوس فقد قمنا بما علينا ولسنا مسؤولين عن البحث عنه بعد هذا**)). قال الأستاذ محجوب: ((**كلا وألف كلا يا عوض، لا بد أن نذهب إلى الباقير الآن فهذا موضوع لا يمكن إهماله بأي حالٍ من الأحوال**)). كان محجوب

ينظر للأمر بحسه الصحفي في حين نظرتُ إليه أنا بإحساسي العاطفي، وكان محجوب متعجلاً للقاء ليعرف حقيقة ذلك الرجل في حين كنتُ أنا خائفاً من مجرد التفكير في أمره، كان محجوب يريد الوصول إلى النتيجة في حين كنتُ أنا خائفاً من تلك النتيجة، كان محجوب متحمساً لأن يشغل الرأي العام بأمر ساخن وأنا لا أريد أن أشغل بالي بأكثر مما لديَّ. وتحت إصراره الشديد توجهنا إلى سجن الباقير.

كان مقر السجون واضحاً للعيان لأنه يقع على الشارع الرئيسي الذي يؤدي إلى ود مدني. ودخلنا من البوابة الأمامية حيث يوجد مكتب صغير للاستقبال عليه ثلاثة من كراسي الجلوس الصغيرة ومنضدة جلس عليها أحد رجال السجون بزيه الرسمي وكان يجلس بالقرب منه أحد الضباط الشباب. وبمجرد أن رآني ذلك الضابط الشاب هبَّ من كرسيه وأقبل نحوي قائلاً:

«الأستاذ عوض إبراهيم عوض الحمد لله أنك جئت الآن لتريحنا من هذا الأمر». قلت له: «**أي أمرٍ تعني؟**» قال: «**الراجل دا يسأل عنك بشدة منذ أن كان بسجن كوبر**». قلت له: «**من هو؟ هذا الرجل ولماذا يريد مقابلتي**». قال لي: «**هو... وسنحضره لك الآن**». جلسنا على الكراسي الخشبية الصغيرة في غرفة الاستقبال المتواضعة وكنت أنظر لمحجوب وهو ينظر إليَّ، وبعد دقائق مرَّتْ كالدهور عاد إلينا الضابط ومعه شاب في العشرينيات من عمره

أسمر اللون طويل القامة شعره أسود كثيف ويرتدي منطالاً وقميصاً في غاية الأناقة والنظافة لا تمت لملابس السجن بأي علاقة ولا تشبه زي المساجين الذي نعرفه جميعاً. وما أن رآني ذلك الشاب حتى أخذني بالأحضان وبدأ يجهش بالبكاء ويقول: «**الحمد لله الذي أحياني حتى أراك يا أستاذ عوض وبعدها فليكن ما يكون**».

لم أصدق عيني، وشعرت أنني أمام إنسانٍ رقيق أو أخ شقيق أو صديق رفيق قادته مقادير الحياة إليَّ في غفلةٍ من الزمان. بادلته تحيةً بتحية وعناقاً بعناق. بعد ذلك سلّم بحرارة على الأستاذ محجوب عبد الحفيظ الذي ظل يرقب كل ذلك بشغف واهتمام ويرصد كل حرف قيل في هذا الحوار.

وجلس قربي لحظةً يتأملُ في وجهي، ثم هبَّ واقفاً كأنه تذكر شيئاً وقال للضابط: «**أرجو أن تسمح لي بأن أصنع عصيراً للأستاذ عوض**». قال له الضابط: «**تفضل**». وعاد بعد قليل يحمل ثلاثة أكواب من عصير الليمون، وترددتُ في الشرب لولا أنني رأيت الضابط قد احتسى كوبه في لمح البصر وكذلك فعل محجوب عبد الحفيظ، فتناولت كوب العصير وشربته مثلي مثل الآخرين. بدأ ذلك الشاب يتفحص في ملامحي ويسألني عن أحوالي وعن صحتي وبرامجي الإذاعية وكأننا نتعارف منذ سنوات طويلة. كانت عشرات الأسئلة تدور في رأسي ويُلجمني حرج الموقف وحرارة اللقاء عن الإفصاح عنها. ولم أعرف كيف أبدأ، ولكنه كان لماحاً

شديد الذكاء حيث أدرك أنني أسعى لمعرفة كل شيء خصوصاً السؤال الذي عشعش في خيالي وهو لماذا استدعاني؟ وبدأ يتحدث بنبرات واثقات وصوت هادئ لم يزعزعه موقفه كمحكوم بالإعدام ولا عُمره الصغير الذي لم يتجاوز الخامسة والعشرين بأي حال من الأحوال ولا شبح الموت الذي ينتظره بعد أيام قليلة وقال لي:

«قد تتساءل يا أستاذ عوض عن سبب استدعائي لك بالسجن في هذا الظرف العصيب، ولكن قبل أن أحكي لك سر هذا النداء دعني أحكي لك ما قادني إلى حبل المشنقة. إذا كان في هذا الكون مظلومٌ واحد فهو أنا، ولكنَّ الله هو المستعان على كل حال. فأنا من أبناء سنار، وظللتُ أعمل فيها منذ عدة سنوات وجئت إلى الخرطوم في مهمة عاجلة لأعود بعدها إلى مقر عملي، وأقمتُ مع أحد أقاربي بالكلاكلة ريثما أنتهي من مهمتي. وفي يوم من الأيام ذهبت إلى سينما الخرطوم غرب وبعد انتهاء الفيلم حاولت الرجوع إلى المنزل فلم أجد حافلةً أو بصاً للكلاكلة، وفي النهاية اضطررت لركوب أحد البصات المتجهة نحو الشجرة، ونزلت في نهاية المحطة لأكمل المشوار سيراً على الأقدام. كان الوقت قد تأخر جداً وغطى الظلام كل أرجاء المكان حتى لا يستطيع الإنسانُ أن يتبين الذي أمامه، وأثناء سيري داهمني شخصان لا أعرف من أين ظهرا في تلك اللحظة وحاولت الفرار لأنجو بنفسي ولكنهما أمسكاني بقوة وهدداني لأخذ ما عندي من نقود. وكنتُ أحمل معي كل ما أملكُ

من مال لتلك الرحلة، وقد استفزني الموقف وحاولتُ المقاومة حتى لا أفقد مالي الذي هو كل ما أملك وأنا أنوي العودة إلى سنار. وأثناء تلك المشاجرة العنيفة في جنح الظلام نزع أحدهما ساعتي من يدي حتى تسبب في هذا الجرح الذي ما زال بيدي (وأراني أثر الجرح) وبقي الثاني يضربني في كل مكان محاولاً إخراج النقود من جيبي. ولما كنت شديد الدفاع عن نفسي أخرج أحدهما مطواةً حادة من جيبه وأراد غرسها في صدري ولكنَّ عناية الله جعلتني أتصرف بشكل غير إرادي ودون أن أدري وجدتني أنزع منه تلك المطواة وأضربه بها وفجأة شعرت بنزيف الدم يخرج من جسده ولم أكن أدري حتى مكان الجرح. في تلك الأثناء هرب الرجل الثاني واختفى في جنح الظلام وبقي هذا المجروح ينزف أمامي ويتلوى بعد أن انكفأ على بطنه. في الواقع كان بإمكاني أن أهرب منه وأكمل مشواري إلى البيت، ولكنَّ نفسي لم تطاوعني أن أتركه وهو في تلك الحالة من النزيف. ومشيت نحو الشارع الرئيسي أنتظر أي سيارة تساعدني في أخذ هذا الرجل إلى المستشفى. وكانت أول سيارة تمر أمامي لغرابة الصدف هي سيارة البوليس فاستوقفتهم وشرحت لهم كل التفاصيل وأرشدتهم إلى مكان ذلك الرجل الجريح وكنت أحمل تلك المطواة التي ما زالت في يدي. وركبت معهم بجانب ذلك الرجل الذي فارق الحياة قبل الوصول إلى المستشفى. وتم نقله إلى مشرحة مستشفى الخرطوم بعد أن أخذوني إلى الحراسة تحت ذمة

التحقيق وإجراءات المحاكمة. كنت واثقاً أنني بريءٌ براءة الذئب من دم ابن يعقوب ولم يساورني الشك في أنَّ هذه القضية ستنتهي بسلام وسأخرج إلى حال سبيلي، ولكن جاء حكم القاضي كالصاعقة عليَّ حيث أصدر حكمه بالإعدام، وأنا أعلم أنني بريءٌ من كل ذلك. وكدت أجن من فرط المفاجأة ولكني تصبرت على هذا القدر الذي لا مفر منه. وأودعوني سجن كوبر بانتظار تنفيذ حكم الإعدام وسألوني داخل السجن الذي وجدت فيه معاملةً كريمةً إلى أبعد الحدود عما أريده قبل تنفيذ الإعدام فقلت لهم لا أريد شيئاً غير مقابلة المذيع عوض إبراهيم عوض. وقد وعدوني بتنفيذ تلك الرغبة وظللت أنتظر أياماً وأياماً حتى فقدتُ الأمل في حضورك إليَّ، وها أنت اليوم تُعيدُ إليَّ الابتسام، فشكراً لك على اهتمامك وتلبية رغبتي، وبعد هذا فليكن ما يكون».

أفاق محجوب عبد الحفيظ من متابعة الكتابة حيث كان يسطر كل حرف قاله ذلك الشاب وقال له: «**ولكن كيف يُعقل أن يطلب شخص محكوم بالإعدام مقابلة شخص لا تربطه به أي علاقة أو معرفة بدلاً من طلب مقابلة أهله وأصدقائه وأقاربه؟**»

قال الشاب: «**في الواقع لقد ظللت طوال السنوات الماضية أستمع للأستاذ عوض من خلال الراديو والتلفزيون وتأثرت بكل ما يقول. وكان هو واحداً من أهم الأسباب التي جاءت بي إلى العاصمة حيث تمنيتُ أن أقابله وذهبت بالفعل إلى الإذاعة قبل الحادث وعلمت**

أنه خارج العاصمة في مأمورية. ولما حدث لي هذا الأمر وطلبوا مني أن أفصح عما أريد قبل الإعدام تمنيت أن أراه وأتحدث إليه وهاهو الحلم قد تحقق الآن». قلتُ له: «**والله إنني لا أعرف كيف أعبر لك عن شكري على هذا التقدير العظيم الذي جعلني فخوراً بك، ولا أحسب أنَّ إنساناً بمثل رهافة حسك يكون في عداد المجرمين، وأحسب أنَّ القدر أراد أن نلتقي لما هو أكبر من مجرد الإعجاب»**.

قال لي: «**وأنا كذلك عندي نفس هذا الإحساس نحوك يا أستاذ عوض ولكني لا أدري ماذا أسمي هذا الإحساس، وبالمناسبة فإنني ظللت على الدوام أحفظ ما تقوله عبر الميكروفون عن ظهر قلب دون أي جهد أبذله في هذا الحفظ»**.

وهنا قاطعه الضابط الذي كان يتابع ذلك الحديث باهتمام بالغ ووجه حديثه إليَّ قائلاً: «**في الواقع الراجل دا ما عندو حديث غير عوض والإذاعة، وفي كل يوم يُسمعنا العشرات من كلماتك الإذاعية التي يحفظها عن ظهر قلب»**. نظرتُ إلى محجوب عبد الحفيظ، وكانت دموعه قد غالبته وهو يسجل كل ذلك الحديث على الورق. وانتابني إحساسٌ قوي بأنني أمام إنسان يملؤه الصدق حتى الثمالة وتملؤه الطهارة والنقاء حتى النخاع وأنه قد يكون أحد ضحايا الظلم أو عدم العدالة الذي قد يشوب إجراءات المحاكم لمجرد ظهور محامٍ حصيف او غياب أدلةٍ كافية. ورفع الأستاذ محجوب عبد الحفيظ رأسه وقال لذلك الشاب «**كيف**

تصف شعورك الآن وأنت تواجه تنفيذ حكم الإعدام بعد أيام قليلة؟» قال: «طبعاً إحساسٌ بالظلم الذي ملأ هذه الدنيا من كل جوانبها، ولا أشكو حالي إلا إلى الله الذي هو وحده القادر على الانتقام». قلتُ له «يا أخي إنَّ للكعبة رباً يحميها، ولن نقنط أو نزهد يوماً في عدالة السماء بإذن الله تعالى، ويجب ألا تستسلم، بل عليك أن تبدأ فوراً في إجراءات الاستئناف».

قال لي: «لقد استنفذتُ كل طاقاتي ووقتي في هذا الأمر وحاولت المستحيل ولم أوفق». قلت له: «دعني أحاول معك ولا بد أن نأخذ هذه الأوراق إلى النائب العام الذي يقوم مقام وزير العدل لإخطاره بهذا الأمر الخطير والغريب على مجرى العدالة السودانية المشهود لها بالنزاهة والتجرد خصوصاً في أمر الجنايات الكبيرة مثل هذه». قال لي: «وهل تعتقد أنه ما زال في حياتي أمل؟» قلتُ له: «أملٌ كبيرٌ بإذن الله، فأنا رجل قانوني قبل أن أكون إذاعياً ودعني أحاول، خصوصاً وأنك كما قلت لي لم تتمكن من إحضار محامين أكفاء للدفاع عنك واكتفيت بجهود النيابة العامة».

في تلك اللحظة حاول الأستاذ محجوب عبد الحفيظ تغيير مسار ذلك الحديث المأساوي الأليم وبادره بسؤال: «إنك قد قُلتَ إنك تحفظ ما كان يقوله الأستاذ عوض في الإذاعة والتلفزيون فهل نسيت تلك العبارات بعد صدور حكم الإعدام؟» ضحك وقال: «لم أنس حرفاً واحداً من ذلك، وأنا أردد ذلك داخل

السجن، وبالمناسبة أنا عندي مقدرة فائقة على تقليد صوت الأستاذ عوض»، وبدأ يذيع علينا العديد من المقاطع التي سبق لي أن قلتُها من خلال البرامج الإذاعية وحتى نشرات الأخبار، فأحسست حباً عميقاً نحو هذا الإنسان الذي بدأ يلمس شِغاف قلبي بظُرفِه ورقته وإحساسه العفوي الذي جعلني أحترم مهنة الإذاعة التي اخترتها لنفسي والتي خلقت مثل هذا الجسر الوجداني بيني وبين مَن لم أعرف.

وأحسستُ أنَّ دوري لن يكون مجرد زيارته بالسجن وإنما يجب عليَّ أنْ أفعل شيئاً أكبر من ذلك. وودعته بحرارة وقلت له غداً موعدنا. خرجت مع الأستاذ محجوب عبد الحفيظ من سجن الباقير تملؤنا شتى الأحاسيس الإنسانية تجاه ذلك الموقف. وقال لي محجوب سأكتب كل هذا الذي دار بينكما بصحيفة الأيام وسأجعله حلقاتٍ مسلسلة ولكن قبل ذلك أحسب أننا يجب أن نفعل شيئاً تجاه هذا الشاب المظلوم. قلتُ له: «**يا محجوب سأذهب غداً للدكتور حسن الترابي النائب العام وأخبره بهذا الأمر أو حتى إلى الرئيس نميري إذا استدعى الأمر**».

وفي اليوم التالي تملكني إحساسٌ عارم بأن أذهب إلى مكتب الرئيس بدلاً من النائب العام فذهبتُ إلى القصر الجمهوري طالباً لقاء الرئيس نميري الذي لم يكن موجوداً بالقصر. وشرحتُ الأمر بتفاصيله لكبير الياوران الذي نصحني بالذهاب إلى مكتب النائب

العام وإذا استعصى الأمر يمكنني أن أعود إلى الرئيس، فخرجت من هناك مباشرةً إلى مكتب النائب العام أحمل معي كل تفاصيل القضية من الألف إلى الياء. نظر الدكتور (**حسن الترابي**) في الشكوى المقدمة باسم ع. س وفي تلك الأثناء كان الأستاذ محجوب عبد الحفيظ قد بدأ نشر القصة بتفاصيلها كاملةً على صفحات جريدة (**القوات المسلحة**).

ولعلَّ الإخوةَ القُراء يذكرون تلك السلسلة من المقالات التي نشرتها صحيفة القوات المسلحة تحت عنوان (**محكوم بالإعدام يطلب مقابلة مذيع مشهور**). كان الاتفاق قد تمَّ بيني وبين الأستاذ محجوب وإدارة الصحيفة ألا يتم ذكر اسمي في تلك المقالات لا تصريحاً ولا تلميحاً حتى تنتهي تلك القضية الحساسة. في واقع الأمر كانت هناك العديد من العقبات التي واجهت الأستاذ محجوب عبد الحفيظ في نشر تلك المقالات حيث عرضها أولاً على جريدة الأيام فاعتذرتْ عن نشرها بحجة أنها قد تمس نزاهة القضاء وهذا الأمر قد لا يَرضى عنه سيادة الرئيس. وقال محجوب لرئيس التحرير الأستاذ (**حسن ساتي**): «**إنها لا تمس نزاهة القضاء بل إنها على العكس تماماً تساعد على تحكيم العدالة، والصحيفة ملأى بمثل هذه الأمور التي تلمس وجدان الناس هنا وهناك**»، ولكنَّ المحرر أصرَّ على عدم نشر الموضوع الذي طلب محجوب أن يكون سلسلةً في حلقات. بعد ذلك ذهب محجوب إلى الأستاذ (**فضل الله محمد**)

رئيس تحرير صحيفة الصحافة فرفض بدوره نشر المقالات لأسباب شخصية تتعلق بتعامل الصحيفة مع الأستاذ محجوب. بعد ذلك حاول إرسالها إلى مجلة صباح الخير المصرية إلا أنه عدَّلَ عن رأيه عندما وافق رئيس تحرير صحيفة القوات المسلحة الأستاذ (**العقيد محمود قلندر**) على نشرها بصفحات الجريدة.

وبالفعل نشرت صحيفة القوات المسلحة تلك المقالات المثيرة وتابعها القراء بشغف شديد رغم أنهم لم يعرفوا نهايتها إلى يومنا هذا، حيث توقف محجوب عند نقطة وداعنا للصديق ع. س في مبنى السجون بالباقير وابتسامات الأمل التي ارتسمت على وجهه عند الوداع. وكان محجوب مصراً على الوقوف في تلك النقطة بغرض تشويق القارئ، وقال لي: «**بهذه الصورة نجعل القارئ يفكر في النهاية بطريقته على أسلوب الأفلام السينمائية الحديثة**»، ولكني لم أكن مقتنعاً بتلك النهاية فقلت له: «**إنني أحسب أن الموضوع بهذه الصورة سيكون مشوهاً وناقصاً ولا بد من كتابة بقية التفاصيل حتى النهاية**»، ولكنّ محجوب أصرَّ على موقفه فلم أخض معه أكثر من ذلك.

ظللتُ أتردد على مكتب النائب العام بغرض تحريك تلك الشكوى لأسابيع طويلة وفجأةً وفي صباح أحد الأيام الرائعات المشرقات التي لم أنس ألقها وأريجها وبشرها وترحابها وكرمها

الشديد طرق شخص باب منزلنا في الصباح الباكر فخرجت من الغرفة وفتحت له الباب فإذا به الصديق العزيز (ع. س) يقابلني بالأحضان والدموع تفيض من عينيه ويقول لي: «**لقد نجح المسعى يا عوض وها أنا ذا أمامك لأشكرك على كل شيء، فقد صدر حكم من رئيس القضاء بالإفراج عني وتبرئة ساحتي واعتبار المدة التي قضيتها بالسجن أثناء إجراءات المحاكمة كافيةً كعقوبة على القتل غير العمد دفاعاً عن النفس**».

إحتضنته كشقيق لم أجد في الأرض أنقى ولا أطهر منه بين آلاف المظاليم الذين امتلأت بهم ساحات الحياة. وعرّفني على المرأة التي كانت معه في تلك اللحظة والتي كانت تعلو ثغرها ابتسامة الفرح العريضة، وقال لي: «**هذه هي أمي جاءت لتشكرك على كل حال وتتعرف عليك بعد أن عرفت سر العلاقة التي جمعت بيني وبينك داخل السجن**». رحبتُ بها أشد الترحاب وقلتُ لها: «**إنَّ ابنَكِ هذا أعظمُ أصنافِ الرجال ولم أر في حياتي من كان أشجع منه في مواجهة المصائب، ويقيني أن رجلاً مثله جديرٌ بصداقتي إلى الأبد لأنه تصرف بتفاؤل وأمل لا أحسب أنَّ أحداً منا يستطيعه في هذا الزمان الصعب**».

أمضينا ساعتين من الزمان لم تسعني فيهما جدران منزلنا من الفرح الغامر الذي اعتراني وأنا أنظر إليه وينظر إليَّ طوال سويعات اللقاء في ذلك الصباح الجميل. وقرأت من خلال تلك

اللحظات الكثير من القيم التي ظللتُ أجتر حروفها مثل الشجاعة والأخلاق والوفاء والمحبة.

أسبوع الأخوّة بين مصر والسودان بدمنهور

بدعوة من السيد (**عبد الأحد جمال الدين**) وزير الرياضة المصري والسيد (**علي محمد شمو**) وزير الرياضة السوداني والأمين العام للمجلس القومي للرياضة ورعاية الشباب سافرتُ مع زميلي الإذاعي الأستاذ (**صلاح طه**) الذي أصبح فيما بعد مديراً لإذاعة ود مدني ثم نائباً لمدير عام إذاعة أم درمان مع وفد الشباب السوداني المكون من 140 شاباً وشابة، حيث وصلنا إلى القاهرة في السادسة من صباح الخميس 20 أيلول سبتمبر 1984م ضمن وفد من شباب السودان ضم فريق الشباب لكرة القدم وكرة السلة وفرقة الأكروبات السودانية والفرقة القومية للفنون الشعبية وفرقة موسيقية مصاحبة للمطربة (**حنان النيل**) والمطرب (**عماد أحمد الطيب**).

كانت المناسبة هي إقامة أسبوع الأُخُوَّة الشبابي بين مصر والسودان والذي هو جزءٌ من إفرازات بروتوكول التكامل بين مصر والسودان. حيث اتفق الرئيسان نميري ومبارك على إقامة هذا الأسبوع كل عام في إحدى المدن المصرية أو السودانية بالتناوب. وكان اللقاء الأول بالإسكندرية والثاني بود مدني ثم جاء هذا

الثالث بدمنهور عاصمة (**محافظة البحيرة**) المصرية. كان الوفد السوداني برئاسة السيد (**طه محمد طه**) الأمين العام للمجلس القومي للرياضة ورعاية الشباب. ومنذ البداية تحدث إلينا السيد طه بأنَّ دورنا كإعلاميين سيكون تغطية الأنشطة والفعاليات كاملةً لأنَّ دور الإعلام في مثل هذه المناسبات هو الأكبر وهو الغرض الأساسي من هذا الأسبوع. ووافقنا على بذل أقصى الجهود من أجل إنجاح الأسبوع بعد أن تكفلت الوزارة بتسهيل مهمتنا بكل الأساليب.

ولدى وصولنا إلى مطار القاهرة كان في استقبالنا وفد الشبيبة المصري المشارك في الأسبوع، ووسط الحفاوة والترحيب توجهنا إلى (**فندق شهرزاد**) بقلب المدينة وهو مقر نزولنا. بعد أن عرفنا مكان النزول ووضعنا أمتعتنا توجهتُ مع الزميل (**صلاح طه**) بسيارة أجرة إلى مبنى الإذاعة والتلفزيون على كورنيش النيل وقابلنا السيد (**فؤاد عمر**) مدير إذاعة (**وادي النيل**) ونسقنا معه كل تفاصيل العمل بغرض مساعدتنا على بعث الرسائل الصوتية اليومية التي سنعدها لإذاعة أم درمان عن طريق الخط التلفوني اليومي لإذاعة وادي النيل.

وكانت إذاعة وادي النيل قد أنشأت ذلك الخط الساخن لتسيير الخدمات اليومية حيث تتسلم إدارة الإذاعة بالقاهرة رسالةً صوتيةً يومية من مكاتبها بالخرطوم التي يرأسها الأستاذ الإذاعي

والشاعر (**سيف الدين الدسوقي**). وجدنا بمكتب الأستاذ فؤاد عمر الزميل المخرج الإذاعي (**محمود ياسين**) الذي كان يعمل وقتها بإذاعة وادي النيل بالقاهرة منتدباً من إذاعة أم درمان فاقترح علينا أن نستفيد من وجود الأخ (**محمد حشّاد**) مذيع وادي النيل الذي سيرافق بعثتنا إلى دمنهور لتغطية كل أنشطة المهرجان.

وكان الاقتراح يقضي بأن نسجل رسائلنا الإذاعية ونسلمها للأخ محمد حشاد فيبعثها مع رسائله إلى إذاعة وادي النيل التي تبعثها بدورها إلى أم درمان يومياً عن طريق ذلك الخط الساخن على أن يقوم الزميل محمود ياسين بمتابعة هذا الأمر من داخل الأستوديو. بعد ذلك الاتفاق عدنا مع صلاح طه إلى مقر بعثتنا حيث انعقد في المساء لقاء بين قيادات الجانبين السوداني والمصري تفاكر فيه المجتمعون حول سير البرنامج.

بعد انتهاء الاجتماع أقيم لنا حفل عشاء فاخر بالفندق. وعندما جلسنا على مقاعدنا حول المائدة أشار أحدهم للعاملين بإحضار الطعام فخرج أربعة رجال يحملون سمكةً مطهيةً بالفُرن لم أر أضخم منها في حياتي. وقد برع الطاهي في تجهيز تلك السمكة التي تبدو بكامل هيئتها وكأنها قد أخرجت لتوها من البحر. وطاف أولئك النفر بالسمكة التي حملوها على خُوانٍ مستطيل طوله متران، وكان على كلٍ منا أن يأخذ ما يكفيه عندما يمر عليه الشباب الأربعة الذين كانوا يحملون تلك السمكة. وضحك

الجميع من غرابة المشهد خصوصاً الذين جاءوا من بقاعٍ لا نهر فيها ولا بحر مثل حالتي، ونهلنا من ذلك الطبق العملاق حتى شبعت أوصالنا من السمك الشهي وبقي من تلك السمكة العملاقة ما يكفي كثيراً من الرجال والنساء.

وفي صبيحة اليوم التالي الجمعة 21 أيلول سبتمبر خرجنا مع أعضاء الوفد لزيارة المتحف المصري، ثم بعد ذلك كان الغداء بمطعم (**دي لاروز**) بمنطقة أهرامات الجيزة حيث زرنا الأهرامات وأبو الهول وأخذنا العديد من الصور التذكارية في شارع الهرم الذي طبقت شهرته الآفاق. وفي صبيحة السبت 22 أيلول سبتمبر تحركنا بالحافلات إلى مدينة (**دمنهور**) بمحافظة البحيرة حيث تقام ليالي المهرجان.

كان هناك استقبالٌ شعبيٌ بديع بدأ من خارج مدخل المدينة، حيث استقبلتنا الدُفوفُ والزَّفةُ المصرية على بُعدِ ثلاثة أميال خارج المدينة مشيناها راجلين وسط الأحياء والحواري والمزارع الخضراء حتى وصلنا إلى مقر إقامة البعثة. وهناك تم توزيع أعضاء الوفد على أماكن السكن، حيث أنزل الأمين العام للمجلس القومي للشباب والرياضة والقيادات الرسمية للوفد باستراحة (**كفر الدوار**) وخصص فندق (**عرفات**) لأعضاء البعثة الإعلامية وأعضاء الجانب الثقافي والفرق الرياضية، ووضعت فرقة الأكروبات والفنون الشعبية والطلائع بفندق (**التيسير**) وكان الجميع يلتقون للغداء في صالة

فندق عرفات مما يسر لنا أمر التفاكر وترتيب البرامج والأنس بعد ساعات العمل الشاقة. ولما شعرنا بأهمية توثيق هذه المناسبة قررنا أن نولي الجانب الصحفي أكبر الاهتمام أثناء ليالي المهرجان فقمنا بتكوين فريق إعلامي لإعداد مجلة يومية تغطي الأنشطة والفعاليات. وكانت أسرة تحرير هذه المجلة تتكون من الأساتذة (**الجيلاني عبد الحافظ**) من جريدة الصحافة، (**صديق أحمد جبارة**) من جريدة الصحافة، (**زين العابدين أحمد محمد**) من جريدة الأيام، (**حامد محمد حامد**) من إعلام ودمدني و(**صلاح طه**) و(**عوض إبراهيم عوض**) كممثلين للإذاعة وكان الجميع بالطبع ضمن الوفد المرافق للبعثة.

أطلقنا على المجلة اسم (**سلامات يا زُول**). وقد ركزنا على كلمة زول بحكم نكهتها السودانية المميزة التي فرضتها علينا كبديل لكلمة شخص في كثير من الأحيان وهي بالطبع كلمة عربيةٌ فصيحة شأنها شأن معظم الكلمات السودانية العامية وقد استخدمها العرب القدامى في حديثهم بنفس هذا المعنى حيث أشار إليها (**ابن منظور**) في (**لسان العرب**) وقال إنها تُجمع على (**أزوال**). والطريف أنَّ معظم العرب يحسبون أنها كلمةٌ من صنع السودانيين ولا علاقة لها بالعربية الفصحى.

ظللنا طوال اليوم الثاني من وصولنا وهو الأحد 23 أيلول سبتمبر نعمل على إصدار العدد الأول من المجلة والذي خرج في

حوالي الحادية عشرة صباحاً، في حين ظل بقية أعضاء الوفد في تدريبات للفرق خاصةً فريق كرة القدم والأكروبات ومعاينة أماكن تنفيذ البرنامج واجتماعات القيادات المشتركة من الجانبين.

من خلال تدريبات الفرق الرياضية ثبت أن اللاعبين كانوا في غاية الإرهاق والفتور بحكم عناء السفر والمشاق المتواصلة والاشتراك في الأنشطة الترفيهية الكثيرة التي شملها الأسبوع خصوصاً الزيارات المتلاحقة وقد تخوف الجميع من عدم تقديم عرض مشرف في أمسية اليوم التالي. وفي المساء تم افتتاح معرض الفنون التشكيلية بنادي الألعاب بدمنهور. ثم كان العشاء بدعوة من السيد (**محافظ البحيرة**) بنفس النادي.

كان فريق كرة القدم القومي السوداني للناشئين المشارك في ذلك المهرجان حديث التكوين معظم عناصره من فرق الأشبال والأندية الصغرى بالعاصمة. حيث تم في المرحلة الأولى اختيار 150 لاعباً تمت تصفياتهم إلى 49 أُدخلوا معسكراً مقفولاً بفندق (**أراك**) بالخرطوم وهو نفس الفندق الذي كان يعسكر فيه الفريق القومي السوداني. ثم تمَّ تقسيم الناشئين لفريق أول يلعب باسم السودان دولياً في تصفيات بطولة العالم للناشئين تحت سن 16 ولعب ضد يوغندا بكمبالا في يوم 29 أيلول سبتمبر 1984م. وفاز بمباراة الذهاب المنتخب السوداني بهدف دون مقابل. وتقرر أن يلعب الفريق

الثاني أمام مصر في أسبوع الأخوة الثالث بدمنهور. كان أبرز نجوم منتخب السودان الذين رافقونا في ذلك المهرجان (**قُلَّة الصغير**) من فريق المريخ و(**كرار أبو علي**) من فريق الهلال.

وكان كابتن فريق الناشئين هو اللاعب (**الجقر**) الذي تسجل بعدها بثلاثة شهور لفريق الموردة و(**مبارك سليمان**) الذي كان طالباً وقتها بمدرسة الخرطوم التجارية ولعب لرابطة أشبال المايقوما ثم فريق الخرطوم ثلاثة ثم سجل لنادي الهلال. واستمرت استعدادات المشاركين لتقديم العروض، وفي صبيحة الإثنين 24 أيلول سبتمبر وصل إلى مدينة دمنهور الدكتور (**أحمد عبد العزيز**) رئيس المجلس القومي للرياضة ورعاية الشباب من الخرطوم لحضور الافتتاح الرسمي للأسبوع وبعد حضوره مباشرةً تم افتتاح المنافسات الرياضية باستاد دمنهور. كانت المباراة الأولى في كرة القدم في الساعة السابعة مساءً بين فريقي مصر والسودان القوميين للناشئين.

أما المباراة الأولى في كرة السلة بين فريقي الناشئين فقد بدأت في الثالثة والنصف مساءً. وقد لعب شبيبة السودان أعظم مبارياتهم رغم ظروف السفر والخوف من التجربة. **وكانت المفاجأة أن هزم فريق الشباب السوداني الفريق المصري للناشئين في جميع المباريات التي لعبت بدمنهور**. وكان ذلك الفوز حدثاً عظيماً أثلج صدورنا، فانهمرت دموع الفرح من عيوننا ونحن نرى أشبال السودان

يهزمون أشبال مصر في عُقر دارهم بعد ثلاثين عاماً لم يهزم فيها فريق سوداني أي فريق مصري بتلك الصورة الباهرة. ولكن كان هناك أمر محزنٌ حقاً أفسد علينا كل حلاوة الانتصار، حيث إنَّ الصحف المصرية قد نشرت في صباح اليوم التالي النتيجة معكوسةً تماماً حيث جاءت عناوين الصحف القاهرية تقول بالخط العريض (**مصر تهزم السودان في منافسات دمنهور**).

لم نصدق أعيننا ونحن نتصفح صحف القاهرة. ما هذا الظلم الذي كان واضحاً أنه مُتعمد وليس سهواً!! وعلى الفور ذهبنا إلى الدكتور (**عبد الأحد جمال الدين**) رئيس المجلس الأعلى للشباب والرياضة بمصر متظلمين له من ذلك التزوير السافر الذي ينم عن الحقد وسوء القصد. قابلنا سيادته بهدوء شديد وكأن شيئاً لم يكن ووعدنا بالتحقيق فوراً في هذا الأمر ومعاقبة جميع الصحف التي عكست تلك النتيجة. قلنا له: «**يا سيادة الوزير لا بد أن تعتذر جميع هذه الصحف وتنشر النتيجة الصحيحة على صفحاتها الأولى بنفس هذا الحجم**» ووعدنا الوزير خيراً فعدنا إلى الفندق بانتظار صحف الصباح.

وفي اليوم التالي خرجت الصحف وقد كتبت في زاويةٍ باهته من صفحاتها الداخلية (***نعتذر عن الخطأ غير المقصود الذي جاء بنتيجة المباريات في دمنهور بين الشبيبة السودانية والشبيبة المصرية والذي جاء سهواً بغير قصد فنرجو المعذرة***). واكتفت الصحف

المصرية بتلك العبارة دون أن تقول إلى يومنا هذا ما هي النتيجة الحقيقية لتلك المباراة. كان لذلك الأمر تأثيرٌ بالغ في نفوس لاعبينا وكل أعضاء الوفد من رياضيين وموسيقيين وإداريين وغيرهم، ولكن ماذا نفعل !!

في الساعة التاسعة من مساء يوم الافتتاح قُدم العرضُ الفني والموسيقي حيث شاركت فيه فرقة الفنون الشعبية بعدد من رقصاتها وبادلتها فرقة الفنون المصرية بعرض مماثل، وقدمت فرقة الأكروبات عرضاً بديعاً نال استحسان جميع الحاضرين حتى أعضاء الفرق المصرية. وغنت حنان النيل أعذب أغنياتها ثم أعقبها عماد أحمد الطيب الذي أطرب الحاضرين بما اختاره من أغنيات خصوصاً الأغنية النوبية الكون كله بدور للفنان محمد منير. وفي صبيحة يوم الثلاثاء 25 أيلول سبتمبر قمنا بزيارة إعلامية شارك فيها جميع أعضاء الوفد إلى (**محافظة الإسكندرية**). وفي يوم الأربعاء 26 أيلول سبتمبر قمنا بزيارة لمصنع السجاد بدمنهور ثم زيارة مزارع جناكليس. بعد ذلك أقيم لنا غداء على الطريقة البدوية بالمزارع وقد برع المزارعون في طهي الطعام الشهي على طريقتهم البدوية المعروفة.

في الساعة السادسة مساءً أقيم اللقاء الأدبي والثقافي بدار الإعلام والذي قدمتُ فيه قصيدتي (**بيني وبينك**) وشارك فيه من السودان الشاعر الشاب (**بدر الدين حمد**) والشاعر الصحفي (**زين**

العابدين أحمد محمد)، ولما كان عدد الشعراء السودانيين قليلاً فقد ألقى صلاح طه قصيدة الشاعر الراحل (**إسماعيل حسن**) ديل أهلي. وكان الجانب المصري قد حشد إثني عشر شاعراً شاباً قدموا قصائد في غاية الروعة في تلك الليلة. في الجانب الآخر من الفعاليات استمرت المنافسات الرياضية في اليوم التالي، حيث كانت المباراة الثانية في كرة القدم والحفل الثاني للفنون الشعبية على مسرح دمنهور الصيفي.

وفي صبيحة اليوم التاسع الجمعة 28 أيلول سبتمبر تحركنا إلى (**كفر الدوار**) حيث زرنا مصانع (**شركة النسيج**) ثم صلينا الجمعة بمسجد كفر الدوار. وبعد الغداء عدنا إلى (**القاهرة**) حيث زرنا في طريقنا مسجد العارف بالله (**السيد البدوي بطنطا**). بعد وصولنا إلى القاهرة قمنا بجولات حرة حيث أقيم في المساء ختام الندوة الفكرية الثقافية بقاعة الاجتماعات العامة بمبنى الشباب والرياضة في (**ميت عُقبة**) وقد شارك فيها الفائزون في مسابقة (**بحوث التكامل**) التي كانت قد بدأت قبل ثمانية شهور. وشارك فيها ثمانية من الشباب السوداني وثمانية من الشباب المصري.

كان الفائز الأول في تلك المسابقة أحد الشباب السودانيين وهو (**صِديق الصادق الزين**) الذي كان يعمل بمعهد الكليات التكنولوجية بالخرطوم، وكان في الماضي زميلاً لنا بإذاعة أم درمان. وقد تسلم تلك النتيجة قبل شهور من مجيئه لمصر، وعندما وصل

إلى القاهرة للمشاركة في الندوة فوجئ بأنه قد وُضِع في المرتبة الثانية ووضع بدلاً عنه في المرتبة الأولى شابٌ مصري اسمه (**عادل شحاتة**). وعندما نما إلى علمه ذلك الأمر اشتاط غضباً وأعلن احتجاجه الصريح لإدارة المهرجان وأبرز جميع المستندات بما فيها الخطاب المرسل إليه قبل شهور والذي يقول بالنصّ (**لقد تمَّ فرزُ أوراق المسابقة وكانت النتيجة فوزكم بالمرتبة الأولى**).

ورغم كل ذلك اعتذر له مُنظمو المهرجان عن وضعه في المرتبة الثانية التي أجبروه على قبولها فنصحناه بأن يقبل ذلك الأمر حتى لا يسقط اسمه نهائياً من قائمة الفائزين فقبل الأمر على مضض. بعد ذلك أقام الدكتور عبد الأحد جمال الدين حفل عشاء تكريماً للقيادات السودانية بنادي فريق التحرير الرياضي. وفي اليوم التالي الأحد 30 أيلول سبتمبر كان الحفل الختامي للفنون الشعبية والموسيقية على مسرح (**الجمهورية**)، وقد قُدمت الدعوات لعدد كبير من أبناء الجالية السودانية بمصر لحضوره.

حدث أمرٌ طريفٌ أثناء الحفل حيث إنه وأثناء نزول الطالبات المصريات من تقديم وصلةٍ غنائية رائعة على المسرح كان أعضاء فرقة (**الكمبلا السودانية**) يتأهبون لصعود الخشبة وهم يرتدون زي الكمبلا الذي من إحدى مكوناته طاقيةٌ بها قُرون ثورٍ حقيقية، وشاهدت إحدى الفتيات المصريات ذلك المشهد فحسبت أنَّ ثيراناً ضخمةً تهجم عليها فصرخت صرخةً سقطت على أثرها

مغشياً عليها ونُقلت على الفور إلى المستشفى الذي ظلت به إلى أن عُدنا إلى السودان. كانت تلك نهاية أسبوع الأخوة الشبابية الثالث بين مصر والسودان والذي اكتملت جميع لياليه الساهرة في أمسية الأول من شهر تشرين أول أكتوبر عام 1984م فعدنا إلى أرض الوطن.

الموسم الثقافي السادس بمصر

لم يمر أسبوع على عودتي من مصر حتى تلقيت دعوةً أخرى من (**الاتحاد العام للطلبة السودانيين بمصر**) تدعوني للمشاركة في (**الأسبوع الثقافي السادس**) للاتحاد والذي سينعقد في كانون أول ديسمبر المقبل. وافقت على الدعوة بلا تردد، وعلى النقيض من الإحساس الذي جابهني به جهاز الأمن عند زيارتي في نيسان أبريل 1984م للعراق كان شعور الطلاب في مصر هذه المرة. حيث كنت أقوم بتقديم محاضرات بعنوان (**الإعلام السوداني الماضي والحاضر والمستقبل**) في تسع جامعات مصرية ضمن أسبوع السودان الثقافي المنعقد في الفترة من 10 إلى 20 كانون أول ديسمبر 1984م.

وصلنا إلى مطار القاهرة وكان في استقبالنا (**السموأل خلف الله القريش**) رئيس الاتحاد العام للطلبة السودانيين دورة 84 - 1985م بمصر و(**محمد إبراهيم نُقُد**) السكرتير العام للاتحاد و(**عبد القادر إمام**) السكرتير الثقافي. وكان معي في تلك الدعوة

كوكبة من المتحدثين في مجالات مختلفة هم الأساتذة (**د. أبو بكر عوض**) الذي يتحدث في نفس موضوعي حيث كنا نتحدث بالتناوب، (**الطيب محمد الطيب**) عن الأدب الشعبي في السودان وكان معه (**ثنائي الدبيبة**) اللذان يقدمان نماذج حية من الأغنيات، (**إمام علي الشيخ**) الذي يتحدث عن مسار الأغنية السودانية قديماً وحديثاً، (**د. إبراهيم الكباشي**)، (**د. عبد الرحيم علي**) و(**د. محمد وقيع الله**) الذين كانوا يتحدثون عن القضايا السياسية بالسودان مثل مشكلة الجنوب والنظام السياسي والتنمية. وقد اعتذر الأستاذ (**إبراهيم عبيد الله**) والأستاذ (**ألدو أجو دينق**) عن حضور الأسبوع لظروفٍ خاصة.

كان كل منا يسافر مع مرافقيه إلى المدينة المحددة حسب جدول منظم بدقة فائقة ثم يتحول إلى مكان آخر بنفس الأسلوب. وقد كان من نصيبي أن أتحدث بتسع جامعات مصرية هي جامعات؛ المنصورة، الإسكندرية، الزقازيق، طنطا، شبين الكوم، القاهرة، حلوان، السويس، وأسيوط.

كان حديثي عن تاريخ الإعلام في السودان مبتدئاً من فترة الثورة المهدية حيث إن المرحلة التي سبقتها كانت فترة التركية التي لم يتبلور فيها شكل الدولة الوطنية. وكنت قد أكدت أن تلك النشأة كانت ذات طابع ديني بحكم الظروف التي نشأ فيها الإعلام المكتوب أيام الثورة المهدية، حيث بدأت مع إرهاصات الصراع على فكرة

المهدية ذاتها، حيث قاد الأتراك حملة لتجنيد بعض الأزهريين للكتابة ضد فكر المهدية مثل الشيخ الأمين الضرير وردَّ عليهم بعض مؤيدي المهدية أمثال الشيخ إسماعيل عبد القادر الكردفاني والشيخ الحسين الزهراء وأحمد علي قاضي الإسلام وغيرهم. واستمر السرد حتى مرحلة الإعلام الحديث الذي شمل الصحافة والإذاعة والتلفزيون والسينما.

لاحظتُ أنَّ تنسيق الأسبوع كان في غاية الدقة والتنظيم بحيث كانت التغطية شاملةً لكل الجامعات التي أجريت فيها المحاضرات. وكانت تلك الفترة فرصةً لي للتعرف عن قرب على الأساتذة المشاركين الذين لم أحظ برفقتهم قبل ذلك خصوصاً الأستاذ (**إمام على الشيخ**) والأستاذ (**الطيب محمد الطيب**) والدكتور (**عبد الرحيم علي**) والدكتور (**إبراهيم الكباشي**).

وفي إحدى الأمسيات كنتُ أستمع لبعض الأخبار من الراديو وكان البرد قارساً كعادة القاهرة في هذا الوقت من السنة، فطرق باب غرفتي طارق، ولما فتحتُ له وجدته الأستاذ (**الطيب محمد الطيب**) الذي كانت ابتسامته قد سبقت تحيته لي وكان الفرح بادياً على وجهه وكل قسماته بشكل لم يمكنه حتى من ترتيب العبارات وهو يحدثني، وقال لي: «**قُم يا عوض وبارك لي فهذا أسعد أيام حياتي**»: قلتُ له: «**ألف ألف مبروك يا أستاذ الطيب ولكن قل لي ما الخبر؟**» قال لي: «**لقد تم قبل قليل في الخرطوم الإفراج عن**

السيد الصادق المهدي من المعتقل». قلتُ له ألف ألف مبروك وعقبال بقية المعتقلين السياسيين. كان السيد الصادق معتقلاً بسجن كوبر لفترةٍ هي الأطوال في تاريخ اعتقالاته إبان فترة حكم الرئيس نميري. وقد تدخلت العديد من الحكومات الأجنبية مُطالبةً حكومةَ السودان بإطلاقِ سراحه فضلاً عن منظمات حقوق الإنسان الدولية والإقليمية.

طاف الأستاذ الطيب محمد الطيب على جميع غرف الأصدقاء واحدةً تلو الأخرى ينقل ذلك الخبر السعيد. ولأول مرة يُفصح لي الاستاذ الطيب الذي عرفته منذ بداية أيامي مع الإذاعة والتلفزيون في عام 1975م عن هويته السياسية والتي تشربها أباً عن جد ولاءاً صادقاً لحزب الأمة وطائفة الأنصار. وظل يحكي وسط ذلك الفرح الغامر عن علاقته الوطيدة بأسرة المهدي خصوصاً السيد الصادق وأبنائه.

في حقيقة الأمر لم يكن الأستاذ الطيب قبل ذلك حريصاً على إظهار لونه السياسي بحكم موقعه الإعلامي من قلوب كل أبناء السودان الذين يكنون له حباً عميقاً وتقديراً خاصاً لجهوده العظيمة في جمع وتنقيح التراث السوداني بشتى أشكاله. ولم أره حتى بعد ذلك اليوم في أروقة السياسة إلا عندما دعتنا السيدة (**حفية مأمون حسين شريف**) حرم السيد (**الصادق المهدي**) رئيس الوزراء في مطلع عام 1987م لتكوين جمعية الإمام المهدي الخيرية فقابلته في

الاجتماعات التي عقدناها خصيصاً لذلك الأمر بقاعة الصداقة بالخرطوم. وظلَّ الأستاذ الطيب أباً روحياً لتلك الجمعية التي تركت بصماتٍ واضحة في خارطة العمل الخيري والثقافي ولم تتوقف إلا بعد الإطاحة بحكومة السيد الصادق المهدي حيث صدر قرارٌ من المجلس العسكري الذي استولى على السلطة بحل كل الجمعيات والمؤسسات ومن بينها جمعية الإمام المهدي الخيرية متهمين إياها بالتبعية لحزب الأمة المحلول.

أثناء حديث الأستاذ الطيب عن ذكرياته مع السيد الصادق المهدي وكان الجميع قد تحلقوا حوله يهنئونه بذلك الحدث، دخل الأستاذ إمام علي الشيخ الذي جاء لتوه من الخارج وكان مهموماً متنكداً وكأنَّ الدنيا قد سقطت على رأسه. ولما سألناه عن السبب قال: ((**لقد ضاع مني مبلغٌ ضخمٌ من الدولارات بعثها معي أحدهم لتسليمها لأحد الأشخاص بالقاهرة، ورغم حرصي الشديد على حملها معي طوال تحركاتي إلا أنني قد نسيتها في سيارة تاكسي ولا أعرف رقم التاكسي ولا اسم صاحبه**)).

وفجأةً تبدل جو الفرح الذي أشاعه خبر الإفراج عن السيد الصادق إلى حزنٍ عميق، لأن الأستاذ إمام قطعاً لا يملك ما يغطي به تلك الأمانة الضائعة ولا يملك أحدٌ منا ما يمكن أن يساعد به. ولا يعرف الأستاذ إمام ماذا يقول لصاحب المال الذي استأمنه عليه دون الآخرين. وقررنا إبلاغ الشرطة ونقابة التاكسي إلا أن الجميع

قد كانوا مقتنعين بأنَّ ذلك لن يُجدي بأي حالٍ من الأحوال بحكم الصورة الشائهة في أذهان الجميع عن الكثير من سائقي التاكسي في مصر. وقال أحدهم مازحاً: ((**إنَّ هذا السائق لا بد أن يكون قد غادر القاهرة اليوم حاملاً هذا الكنز الثمين إلى أي محافظة من المحافظات، ولن يعود إلا بعد أن يستثمر هذا المال فيما يعود عليه بالربح الوفير**)).

وعلى العموم كان الإحباط قد سرى في كل ساكني الشقة من أعضاء الوفد والطلاب المرافقين لنا. وتبددت فرحة الأستاذ الطيب بالإفراج عن السيد الصادق لأنَّ الجميع قد انخرطوا في التفكير في كيفية الخروج من هذا المأزق. وفي اليوم التالي خرج الجميع لإلقاء محاضراتهم حسب الجدول المعلن، ثم عدنا مُنهكين من عناء السفر وطول المحاضرات والجدل الذي أثارته خصوصاً من الطلاب ذوي الميول السياسية بشقيها اليميني واليساري والذين ظلوا ينحون بالمواضيع دوماً منحىً سياسياً يخدم وجهة نظر كلٍ منهم وأطروحاته الفكرية والسياسية.

وأثناء نزولنا من السيارة كانت المفاجأة التي ما تصور أحدٌ أن تحدث. ركض نحونا رجلٌ كبيرٌ في السن يسألنا بإلحاح هل معكم رجلٌ وصفُه كذا وكذا من أخواتنا السودانيين؟ فقلنا له: ((**نعم هو الأستاذ إمام علي الشيخ**)). فقال أريد مقابلته الآن لو سمحتم. وعلى الفور أخذناه معنا إلى غرفة الأستاذ إمام الذي أعياه

الأمر إلى حد أن لزم الفراش طوال اليوم. وما أن رآه حتى صاح الرجل نعم نعم إنه هو وقال للأستاذ إمام: «**يا أخي أنت كنتَ في سيارتي بالأمس وقد نسيتَ حقيبتك ولما فتحتُها وجدتُ بها مبلغاً ضخماً من الدولارات وظللتُ أبحث عنك في كل مكان حتى اهتديت إلى هذه الشقة الآن**» هبَّ الأستاذ إمام من سريره وكأنه في حلم رهيب وقال بلهفة شديدة: «**نعم نعم هل أنتَ سائقُ التاكسي؟**» فقال الرجل: «**نعم وها هي الحقيبة والمبلغ**».

لم يصدق أحدٌ منا ما كان يجري، ولم يتصور أحدٌ أنَّ هناك سائق تاكسي بهذه الأمانة والنزاهة، وقام الجميع إليه يصافحونه ويحيون شهامته وأمانته وعظمة أخلاقه. وكانت الحقيبة سالمةً بكل ما حوته من المال. فقال له الأستاذ إمام علي الشيخ: «**والله يا أخي لقد بهرتني بهذه الشجاعة ولا أدري كيف أعبر لك عن شعوري، ولكني حتماً لن أنسَ لك هذا الجميل ما حييت، وخذ يا أخي هذا المبلغ وهو نصيبك الشرعي من هذا المال وهو عشرة في المائة من المبلغ الذي بالحقيبة**».

وفي الحال تغيرت ملامح الرجل وقال: «**أستغفر الله يا أخي، أنا لم آتي لهذا ووالله العظيم لن آخذ مليماً واحداً ويكفيني أن أجدك يا أستاذ لرد أمانتك حتى تطمئن نفسك وأنا ذاهب الآن لأداء عملي والشكر لله وحده**». زادنا ذلك الموقف دهشةً على دهشتنا من سلوك هذا الرجل النبيل. وشعر الأستاذ إمام بحرج شديد من

حديث ذلك الرجل فقال له: «**يا أخي أنا أُقدر شهامتك وعزة نفسك وأنا لم أعطك هذا المال إلا على سبيل التعبير عن الإخاء والمودة لموقفك الكريم هذا**». فقال الرجل: «**إذا كنتَ تريد التعبير عن الإخاء والمودة حقاً فهناك طريقٌ واحد فقط وهو أن تتفضلوا عندي جميعاً غداً لتناول العشاء بمنزلي تأكيداً للمودة والصداقة بيننا ولا أريد غير ذلك**».

وأقسم الأستاذ إمام أن يذهب لمنزل الرجل تلبيةً لتلك الدعوة. وذهب معه عدد من أعضاء الوفد من الأساتذة الذين أعجبهم ذلك السلوك الإنساني. ورغم أنني كنتُ حريصاً على الذهاب إلى هذا الرجل النادر إلا أنني كنتُ مرتبطاً بمحاضرةٍ في جامعة الزقازيق فلم أتمكن من الذهاب معهم. وعندما عاد الجميع أخبروني بشهامة ذلك الرجل الذي أفاض في إكرامهم بشتى أصناف المأكولات الشهية والمشروبات.

كان ذلك الموقف الكريم والشهم من رجل التاكسي المصري الذي لم نتشرف بالتعرف على اسمه إلى اليوم قد قلب الموازين في تفكيري حول الناس خصوصاً بعض القطاعات التي ظللنا نكيل لها السباب أو الانتقاد دون تحفظ. ومن يومها آليتُ على نفسي ألا آخذ الناس بالشبهات حتى تثبت لي حقيقة نواياهم وأقسمتُ أن أعتبر كل إنسانٍ في هذه الدنيا نزيهاً طاهراً حتى يُثبتَ لي بنفسه العكس. وقررتُ أن أقدم العون للمحتاجين مهما تكن الظروف، وأن

أقابل المخطئين بالصفح عن أخطائهم طالما كانت هناك فُسحةٌ للعفو والتسامح.

زيارة الجنوب مع نميري

عُدتُ من مصر يوم 24 كانون أول ديسمبر 1984م وبعد ثلاثة أيام فقط من وصولي للسودان اتصل بي الأستاذ (**بخيت أحمد عيساوي**) نائب مدير الإذاعة وقال لي: «**لقد قرر السيد رئيس الجمهورية أن يقدم خطاب الاستقلال من مدينة جوبا، وسيسافر غداً إلى واو ثم بعدها إلى جوبا وقد اختارتك الإذاعة لتمثيلها في الوفد المرافق لسيادة الرئيس فنرجو الاستعداد للسفر لتنفيذ هذه المهمة العاجلة**». قلت للسيد عيساوي: «**إنني كنت أستمع بالأمس لنشرة أخبار السابعة مساءً من إذاعة البي بي سي وقال المذيع بالحرف الواحد إنَّ قوات التمرد بقيادة العقيد جون قرنق قد دخلت مدينة جوبا فكيف يقرر الرئيس السفر إليها في هذا الوقت العصيب؟**»

قال لي الأستاذ عيساوي: «**هذا هو السبب الذي جعل الرئيس يقرر السفر إلى جوبا ليؤكد أنَّ هذا الخبر الذي تناقلته وسائل الإعلام نقلاً عن إذاعة البي بي سي ليس صحيحاً**». قلت له: «**ومَن قال يا أخي إنَّ هذا الخبر ليس صحيحاً؟**» قال لي: «**هو خبر كاذب قطعاً وليس له أي أساس من الصحة حسب تقارير الناطق**

الرسمي باسم القوات المسلحة، وعموماً سيتضح هذا الأمر من خلال ما ستوافينا به أنتَ من جوبا، فكن مستعداً للسفر غداً». عدت إلى البيت وكان جميع أفراد الأسرة مُشفقين من أمر سفري للجنوب لأنهم قد استمعوا لنفس ذلك الخبر من إذاعة لندن، وحاولوا إثنائي عن المشاركة في هذه المخاطرة فقلت لهم: «**في واقع الأمر أنا أصبحت الآن أشدَّ حرصاً على هذه الرحلة، حيث إنها فرصتي الوحيدة لكي أقف بنفسي على مصداقية هذا النبأ الذي سمعته مع غيري من هيئة الإذاعة البريطانية التي أعتقد أنها إذاعة جادة ولا تجازف بمصداقيتها**».

حزمت حقيبتي وتوجهت صوب مطار الخرطوم في الزمن المحدد لأجد بالمطار نفراً من الزملاء الإعلاميين من مختلف المؤسسات والصحف. ووصل الرئيس للمطار ودخل صالة كبار الزوار ريثما تقلع الطائرة. بعد ذلك صعد جميع أعضاء الوفد الإعلامي والمرافقين وأخذوا أماكنهم بالطائرة بانتظار صعود الرئيس والوزراء. وهنا كانت الدهشة حيث انتظرنا لفترة طالت ثم طالت إلى أن مللنا الانتظار.

كانت أمام أعيننا غرفة كبار الزوار التي كنا نشاهدها بوضوح من شباك الطائرة، وكان الرئيس يجلسُ بداخلها. وهذا الأمر بالطبع ليس مألوفاً أبداً في الرحلات الرئاسية حيث جرت العادة ألا يمكث الرئيس غير دقائق محدودة بالمطار ثم تقلع الطائرة

بعد صعوده مباشرةً. وسألنا أفراد طاقم الطائرة عما إذا كان هناك إشكال فني بالطائرة يستدعي كل هذا التأخير فأكدوا لنا أنها جاهزة وتنتظر فقط صعود الرئيس.

وعندها بدأت التكهنات والشكوك بين أعضاء الوفد المرافق للرئيس، حيثُ قال بعضهم: (**إنَّ هناك إشارة من الجنوب تدعو إلى عدم سفر الرئيس لخطورة الموقف**)، وقال البعض: (**إنَّ الرئيس بانتظار طائرات مقاتلة من سلاح الطيران لترافق طائرته إلى الجنوب**). وقلتُ لمن كان معي من الزملاء: «**دعوني أستفسر لكم عن حقيقة هذا الأمر من الرئيس نفسه**».

وذهبتُ لصالة كبار الزوار للاستفسار فوجدتُ قبالتي السيد (**علي أحمد علي**) كبير الياوران يجلس على كرسي قرب المدخل فسألته عن حقيقة تلك التكهنات وسبب تأخير قيام الطائرة، فأكَّدَ لي -والرئيس ينظر إلينا - أنَّ كل هذه الشائعات لا أساس لها من الصحة، وأضاف قائلاً: «**كل ما في الأمر أنَّ السيد الرئيس ينتظر شخصيةً سترافقه في هذه الرحلة وهي في الطريق إلى المطار الآن**».

وكان أغرب ما في هذا الأمر أن ينتظر رئيس الجمهورية شخصاً طوال هذه المدة بالمطار اللهم إلا أن يكون هذا الشخص مَلِكاً أو رئيس دولة. وعدت لإخطار زملائي بالطائرة فبدأت التكهنات من

جديد حول هذا الشخص الذي ينتظره الرئيس. وأول ما تبادر لأذهاننا هو أن أحد الرؤساء سيأتي، ولكن تُرى مَنْ هو هذا الرئيس الذي يمكنه أن يُجازف بمثل هذه الزيارة مع نميري في مثل هذا الظرف غير المستقر؟ ولم تُسعفنا الذاكرة بأي اسمٍ من أسماء الرؤساء.

وأثناء ذلك التفكير جاءت سيارة بيضاء تحمل شيخاً ممسكاً بسبحة طويلة ويلبس جبةً خضراء من جُبب الدراويش ويحمل في يده اليسرى إبريقاً وعصا. وما أن أنزلته السيارة أمام الطائرة حتى هبَّ الرئيس نميري ومرافقوه من الصالة وركب الجميع الطائرة بمن فيهم ذلك الشيخ وتوجهنا نحو الجنوب.

وصلنا إلى مطار (**واو**)، وكانت مدينةً هادئةً وساكنة على عكس ما تصورناه، وقد تزينت شوارعها بالأعلام وأقواس النصر ولافتات الترحيب بالرئيس التي كُتبت باللغتين العربية والإنجليزية. ولكن كان واضحاً جداً أن ترتيبات الاستقبال بل والزيارة نفسها قد اتُخذت على عجلٍ ودون تنسيق كافٍ، لأنَّ الفارق بين الزيارة واتخاذ القرار بشأنها لم يتعد يوماً واحداً.

تحركت بنا السيارات من المطار إلى مقر حامية بحر الغزال العسكرية حيث خاطب الرئيس جنود الحامية بعد أن قدمه القائد العسكري. وبعد ذلك توجهنا إلى مقر الحكومة الإقليمية. كنت أنظر للشوارع والبيوت والأشجار والمباني بشغف شديد لأنَّ الجنوب

بالنسبة لي لغز محير وبقعة نادرة غلفتها ظروف التاريخ وجدل السياسة والحروب بسربالٍ مُختلف وكأنها ليست جزءاً من لحمنا ودمنا. نظرتُ للتلال المتراصة على الأفق البعيد والبيوت المتراصة على جنبات الطريق فانتابني أحساسٌ بفرحٍ غامر بهذه الزيارة التي أتاحت لي رؤية الجنوب على الطبيعة. كان كل شيء بالنسبة لي جديراً بالتسجيل والملاحظة. بعد ذلك ودعنا أهل المدينة وتوجهنا نحو المطار حيث أقلتنا الطائرة إلى (**جوبا**) عاصمة الاستوائية.

العيد في جوبا

كانت جوبا هادئةً وساكنةً ومخضرة لا يفوح منها إلا أريج الدعاش ورذاذ المطر الذي ظل يغازل صفحة الأرض الناعمة بخضرتها وأزاهيرها المنتشرة في كل مكان. وقد خرج جميع أهل المدينة إلى المطار ليكونوا في استقبال الرئيس. ونزل الرئيس من الطائرة وصافح كبار مستقبليه من المدنيين والعسكريين وعلى رأسهم حاكم الإقليم الاستوائي.

وكانت بين المستقبلين في المطار الزميلة ميري سريسيو إيرو النائبة البرلمانية فسألتها: ((**يا ميري هل صحيح أنَّ هذه المدينة قد سقطت في أيدي المتمردين؟**)) فقالت لي: ((**نعم ألا ترى هذا الكلاشنكوف الذي في يدي؟**)) وكان واضحاً أنها تسخر من سؤالي وقالت لي: ((**أنظر حولك واحكم**)). فإذا عدد كبير من الراقصين

يدقون طبولهم ويرقصون على أنغامها الصاخبة في إيقاعٍ رشيق. وتوجه نميري نحو هؤلاء الراقصين وخاض في وسطهم يلوح بعصاه لهم ويرقص معهم في نشوة واضحة، مما جعل رجال حرسه يركضون خلفه في قلق واضح.

كان الشيخ ذو الجبة الخضراء الذي انتظرناه لساعاتٍ بمطار الخرطوم يحمل إبريقه ويقف خارج الساحة ينظر كالآخرين للرقصات الشعبية التي أداها بعضهم وهم عراة الأجسام إلا مما هو أرق من ورقة التوت. بعد ذلك توجهنا إلى مقر الحكومة الإقليمية بجوبا، وبعد فترة وجيزة عاد الجميع إلى السيارات لتنقلهم إلى مواقع السكن حيث إننا سنقضي الليلة في مدينة جوبا.

كانت الليلة ليلة رأس السنة، ولذلك استعد معظم أعضاء الوفد للذهاب إلى الأندية لقضاء هذه المناسبة السعيدة بين أصدقائهم الجنوبيين. وجاءني من ينقلني إلى النادي الذي زرناه في تلك المناسبة وكان نادياً صاخباً ذكرني بأندية أوربا التي لا تعرف الصمت ليلاً أو نهاراً. وكانت موسيقى البوب تنبعث من مكبرات الصوت المنتشرة في كل مكان.

وقد اختلط صوت جيمس براون James Brown في رائعة الستينات Cherappa بصوت المطربة الشهيرة تينا تيرنر Tina Turner في رائعتها Every One Should be Allright Tonight التي انساب من خلالها صوت ديفيد بوي David Boy الدافئ القوي. وجاء من بعيد صوت

ميريام ماكيبا Miryam Makeba في دويتو مع هيو مسكيلا فأحال ليل جوبا إلى عرس بهيج بنغمات Saweto Blouse متحدياً كل تقارير المراسلين التي سمعتها عن سقوط مدينة جوبا وما حولها في أيدي قوات التمرد.

انتهى ليل المدينة عند ساعات الصباح الأولى، ولم يذق أحدٌ منا طعم المنام حيث استعد الجميع للذهاب إلى مقر الاتحاد الاشتراكي لنقل الاحتفالات بأعياد الاستقلال. وخاطب نميري الأمة من مدينة جوبا مؤكداً أن المدينة لم تزل آمنةً مطمئنة ولم تطأها أيدي التمرد.

كان المفروض أن يعود الرئيس والوفد المرافق له إلى المطار للسفر إلى الخرطوم بعد انتهاء الاحتفال مباشرةً، إلا أن نميري أصرَّ أن يتجول في ربوع المدينة بالسيارات ليتفقد أحوالها. هنا أحسستُ أنَّ المسألة قد بدأت تدخل في طور الخطورة حيث إنه لا يأمن أحدٌ خلو مثل هذه الأحياء الشعبية من المسلحين. لكنها شخصية نميري المليئة بالعناد خصوصاً في المواقف التي تتميز بالتحدي وروح الإقدام.

لم يكن يقبل بأنصاف الحلول أو الركون إلى السلامة، وهكذا عهدته في كل المواقف التي عايشتها معه. كان يميل إلى الحسم واتخاذ القرار الصعب مهما كان شكله ثم ينتظر النتائج بلا مبالاة أو تقدير للأصوات المترددة. وأصرَّ الرئيس نميري على التجول

في المدينة بسياراتٍ مكشوفة رغماً عن كل تحذيرات رجال الأمن الشخصي له من مثل هذه الجولة. وبالفعل تجولنا في أنحاء المدينة خلف سيارة الرئيس. وطفنا حول أطرافها النائية من حامية الجيش حتى مكاتب الحكومة مروراً بحي الملكية العريق. وتمادى الرئيس في توجيهاته لقائد القافلة حتى وصل إلى أقصى ركنٍ في جنوب المدينة حيث خرج العديد من السُكارى من داخل الأنادي وهم يهتفون بحياة الرئيس.

وأثناء الطواف عبرت السيارات مقابر المدينة فطلبتُ من سائق السيارة التي تُقلنا التوقف عندها وترحمت على روح والدي الذي ترقد رفاته في تلك المقابر النائية عن مسقط رأسي مدينة النهود. وبعد ذلك تحركنا إلى المطار لنجد طائرة الخطوط الجوية السودانية رابضةً بانتظارنا وعليها أفراد طاقمها. في تلك الأثناء أخبرني قائد حامية جوبا الذي سألته عن الأحوال الأمنية بالإقليم أنَّ أحدَ المتمردين قد وُجِدَ مختبئاً بين الحشائش يحمل مدفعاً مضاداً للطائرات بالقرب من مدرج المطار وقد تمَّ القبض عليه عندما كان متأهباً لضرب طائرة الرئيس عند وصولها.

سألت ذلك الضابط عن مكان وجود هذا الرجل فأخبرني بأنه قد اعتُقل، إلا أنني قد علمتُ داخل الطائرة أنه قد أبيد في لحظة القبض عليه بعد أن حاول المقاومة بكل الأساليب. وسألتُ قائد الحامية عن حقيقة دخول المتمردين في مدينة جوبا فقال لي: «**هذا**

ليس صحيحاً على الإطلاق، وأنت الآن قد تجولتَ في المدينة فهل رأيتَ أثراً لأي احتلال؟» قلتُ له: «**إذن فهي على وشك السقوط أليس كذلك؟**» قال لي: «**أبداً وهذا لن يحدث إلى الأبد فالتحصين الذي يجريه الجيش لجوبا أكبر من أن تسقط في أي يوم من الأيام ولو سقطت جميعُ مُدن السودان وذلك لأهميتها الاستراتيجية والسياسية، ولذلك فكل ما تسمعه عن سقوط جوبا أو محاصرتها سيظل ضرباً من ضروب الخيال والوهم السياسي الذي سيعشعش في رؤوس قوات التمرد إلى ما شاء الله**».

دخلنا الطائرة وقد توجهتُ مباشرةً نحو كابينة القيادة للصديق الكابتن (**محمد ياسين محمد أحمد**) الذي هو زميل دراستي منذ الصبا حيث درسنا جميع المراحل سوياً بمدينة النهود ولم نفترق إلا كباراً حيث عملتُ أنا بإذاعة أم درمان وعمل هو بشركة الخطوط الجوية السودانية منذ أواخر السبعينيات.

وبعد أن حييته وأخبرته بما حكاه لي قائد الحامية من اعتقال متمرد مسلح بالقرب من مدرج المطار سألته عما إذا تمَّ إخطاره بذلك الأمر أم لا؟ وكيف سيتصرف تحسباً لوجود مسلحين آخرين على مدرج هذا المطار؟ فقال لي: «**نحن نتوقع مثل هذه الأشياء ولكن لا نخشاها لأننا نعمل كل احتياطاتنا اللازمة في مثل هذه الظروف**». قلتُ له: «**وكيف إذن ستأمنون عواقب هذه الرحلة؟**» قال لي: «**سنطير إلى أعلى عمودياً ونظل ندور بالطائرة في**

شكل حلزوني لا يتعدى إطار منطقة المطار المُؤَمَنة حتى نصل إلى مدىً لا تدركه المدافع ولا الرشاشات ثم بعد ذلك نتجه شمالاً نحو الخرطوم». وبالفعل حدث ما حكاه لي كابتن محمد ياسين، حيث ظلت الطائرة ترتفع في حلقة ضيقة حتى اختفت معالم المدينة وما جاورها عن أنظارنا ثم توجهت شمالاً وعدنا بسلام إلى الخرطوم لنكمل بقية احتفالات الاستقلال.

كان ذلك آخر عيد استقلال يحضره جعفر نميري وهو رئيسٌ لجمهورية السودان، حيث أُطيحَ به بعد ثلاثة شهور فقط من تلك الرحلة، أي في السادس من شهر نيسان أبريل 1985م. نفسُ ذلك الطيار الصديق (**محمد ياسين**) كان مع نميري في رحلة اللاعودة إلى أمريكا، وقد شهدتُ بعضَ فصول تلك الرواية وأنا بالقاهرة حيث تمَّ انتدابي للعمل بإذاعة وادي النيل.

العمل بإذاعة وادي النيل

كان مقرراً أن أسافر إلى إنجلترا لعمل كورس إذاعي مدته ستة شهور مع الزميلة (**ليلى المغربي**) والزميل المهندس (**محمد المهدي خليل**) ولكن البريطانيين اكتفوا بشخص واحد هو الزميل المهندس محمد المهدي بعد دخولنا المعاينات. ولذلك استدعاني الأستاذ (**محمد سليمان**) وقال لي: «**أنا قررت أن أعوضك عن سفر لندن بالسفر إلى مصر لمدة ستة شهور للعمل بإذاعة وادي النيل**

وأعتقد أن هذه ستروق لك لما فيها من حوافز كثيرة». قبلت ذلك العرض فوراً وشكرته عليه لأنَّ في قلبي حباً شديداً لمصر التي زرتها أكثر من سبع مرات وفي كل مرة أزداد شوقاً إليها. وجهزت نفسي للسفر ضمن فريق يتكون من شخصي وثلاثة أشخاص آخرين هم: المذيع (**الزبير عثمان الطيب**) الذي يعمل الآن بإذاعة صوت أمريكا والزميل المحرر (**حسين أبو العائلة**) والمخرج (**محمود ياسين**) الذي كان أصلاً بالقاهرة ضمن الوفد السابق حيث تقرر أن يبقى معنا لمدة ستة شهور أخرى تقديراً لظروفه الصحية وحاجته لمواصلة العلاج بمصر.

حجزتُ للسفر صبيحة يوم 26 آذار مارس 1985م مع الزميل الزبير عثمان الطيب، وقبل السفر بيوم واحد كنا في مكتب الخطوط الجوية نؤكد حجزنا وفجأةً سمعنا أصوات المظاهرات الصاخبة ضدَّ الحكومة، وكان المتظاهرون يهتفون بسقوط نميري وزمرته فكانت تلك هي بداية الانتفاضة التي عُرفت لاحقاً بانتفاضة مارس أبريل أو انتفاضة رجب شعبان.

في ذلك اليوم كان مقرراً أن يغادر نميري إلى الولايات المتحدة الأمريكية في رحلة توخى فيها أن تقدم له الحكومة الأمريكية دعماً بعد تفاقم الأزمة الاقتصادية وانهيار المؤسسات وانفراط عقد الأمن والنظام بالدولة. ووسط تلك المظاهرات الصاخبة أخبرتُ الأخ الزبير بأنني أريد الذهاب إلى الخرطوم 2 حيث

إنَّ هناك مأتماً لأحد أعمامنا الذي توفي بالأمس وهو العم (**محمد صالح الفكي**) الذي عمل على مدى ما يزيد على الثلاثين عاماً فِحيصاً في معمل استاك للتحاليل الطبية بالخرطوم. وعرضَ عليَّ الزبير أن يقوم بتوصيلي إلى بيت المأتم ثم يعود إلى بيته الذي هو في الخرطوم 2 أيضاً على أن نلتقيَ غداً بالمطار. وصلنا إلى بيت المأتم وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية بقليل فقلت للزبير: ((**إذن لا بدَّ أن تتناولَ معنا وجبة الغداء ثم تغادر**)) فوافق الزبير ودخلنا في الصيوان المنصوب أمام المنزل كعادة أهل السودان في ليالي المآتم والأفراح وسلمنا على الحاضرين ثم جلسنا.

كان ضمن الحاضرين رجل يسمي (**الشيخ بابكر**) اشتُهر بالتحدث عن أمور غيبية كثيرة لا نفهم سرها. وكان يتحدث في تلك اللحظة عن بعض الأمور الدينية عندما سمعنا صوت طائرةٍ تمر من فوقنا، فرفع رأسه ونظر إليها وقال للحاضرين: ((**هذه طائرة نميري الذي يسافر الآن إلى الولايات المتحدة، ووالله المعبود بالحق لن يعود مرةً أخرى رئيساً للجمهورية وإنما سيظل خارج الوطن، وستؤول مقاليد الحكم في هذا البلد إلى رجل عسكري من رجال الختمية. وسيبحث الناس عن جعفر نميري يميناً وشمالاً لمحاكمته إلا أنهم لن يظفروا به أبداً ولن يحاكمه أحد**)). وهنا توجهتُ إليه بسؤالٍ مباشر: ((لماذ لا يظفرون به لمحاكمته؟)) فقال لي: ((**إنَّ الله قد أكرمه بإقامته للحدود**)). إلتفتَ إليَّ الزبير قائلاً: ((**ما هذا الكلام الفارغ؟**

أحسن أمشي إلى بيتنا من الاستماع لمثل هذه الخطرفات» قلت له: «**يا زبير من الأحسن أن تستمع لكلام هذا الرجل لأن حديثه ظلَّ يتحقق كرؤيا العين وأنا لي عدة تجارب معه في مثل هذه الأمور**». قال لي الزبير: «**هذه تخاريف أنا ما فاضي ليها، وجعفر نميري سيعود من أمريكا رئيساً للسودان رضي الناس أم أبوا**». وودعني وانصرف.

وفي صبيحة اليوم التالي التقينا بالمطار وسافرنا إلى القاهرة وتسلمنا عملنا بإذاعة وادي النيل. وبعد أسبوع من ذلك وفي صبيحة السادس من نيسان أبريل 1985م اتصل بنا الأستاذان (**فؤاد عمر وفاروق الجوهري**) من إذاعة وادي النيل بشقتنا بشارع شامبليون بوسط القاهرة قائلين لنا: «**نرجو أن تأتوا بسرعة إلى الإذاعة فقد وقع انقلاب في السودان أطاح بحكومة جعفر نميري الذي لم يعد بعد من رحلته لأمريكا**». قلنا لهم: «**ومن هو قائد هذا الانقلاب؟**» قالوا هو الفريق (**عبد الرحمن محمد حسن سوار الذهب**).

قال لي الزبير: «**هذا هو كلام الشيخ بابكر فسوار الذهب من أبناء الختمية المعروفين**». قلت له: «**ألم أقل لك إنَّ هذا الرجل يقول كلاماً غريباً، دعنا إذن ننتظر هل سيطالب الشعب بمحاكمة جعفر نميري ولا يستطيع ذلك أم أنها ستكون مجرد تنبؤات في غير محلها**». وظللنا نتابع أخبار النظام الجديد في الخرطوم بشغف شديد. وفي غمرة الأحداث بدأت الاتهامات بالانتماء لجهاز الأمن

تطال كل أهل الطرب والإعلام والشخصيات المعروفة بالسودان. ولعلها قد طالت معظم المذيعين الذين اتهمهم البعض جزافاً بالانتماء لجهاز الأمن وتعذيب الناس وما إلى ذلك. وقد نشرت صحيفة (**الأنباء الكويتية**) أن هناك عدداً من المذيعين السودانيين ثبت أنهم كانوا يعملون بجهاز أمن نميري ونشرت الصحيفة أسماء عدد من المذيعين والفنانيين المنسوب إليهم ذلك الانتماء الوهمي وكان بينهم اسم عوض إبراهيم عوض.

جاءني أحد الطلبة السودانيين الذين كانوا يدرسون بالقاهرة يحمل الصحيفة وقال لي: «**أنظر ماذا تقول هذه الصحيفة الجائرة**»، وقرأت الموضوع لأجد اسمي في صدر قائمة المتهمين بالانتماء لجهاز الأمن، ولم أدر ما أفعل تجاه ذلك الإفك والنفاق والتضليل والغرض الرخيص الذي يحمله الخبر العاري من الصحة جملةً وتفصيلا. وقال لي ذلك الصديق: «**لا بد أن ترفع شكوى للقضاء وتطالب هذه الصحيفة برد اعتبار**»

قلتُ له: «**أنا لن أرفع شكواي إلى القضاء ولكني سأرفعها إلى الله**» ورفعت يدي للسماء قائلاً: «**اللهم إنك تعلم أني مَغلوبٌ فانتصِرْ**» ولم أزد على ذلك حرفاً. وفي المساء فتحت الراديو لأستمع لنشرة الأخبار من إذاعة لندن فإذا بأول خبر يقول: (**أطلق مجهولون اليوم ستَ عشرةَ طلقةً من مسدس كاتم للصوت على رئيس تحرير صحيفة الأنباء الكويتية السيد أحمد الجار الله وقد نُقل إثرها إلى**

المستشفى). جاءني نفس ذلك الصديق مذهولاً وقال لي: «**والله إني أشهد أنَّ اللهَ قد انتقمَ لك، لأنَّ هذا الهجوم قد تمَّ على رئيس تحرير الصحيفة التي كالت لك الاتهامات زوراً وبهتاناً**». قلتُ له: «**هذا الرجل هو الذي نشر الخبر، ولكني واثقٌ أنَّ من لَفَّقَ هذا الخبر من أبناء السودان سيكون مصيره أسوأ من هذا لأنَّ دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب، وأنت تعلم أنني الآن بعيدٌ عن وطني ولا أستطيع أن أدافع عن نفسي وأرد على هذه الأصوات الحاقدة التي ترمي اتمهاماتها الجائرة جزافاً على الأبرياء**».

بعد أيامٍ من ذلك الحدث وفي الساعة العاشرة صباحاً جاءني بشقتي بشامبليون شابٌ في مقتبل العمر يبدو من ملامحه أنه من أبناء شرق السودان، وعرَّفني على نفسه قائلاً: «**أنا ابنُ الرئيس واسمي م. س** (وقد ذكر لي اسمه كاملاً)، **قد جئتُ إليك الآن في مهمة كبيرة لا أحسب أننا سنجد أفضل منك لينفذها لنا**».

قلتُ له: «**ماهي هذه المهمة؟**» قال لي: «**بصراحة لدينا أموال كثيرة نريدك أن تُدخلها لنا في السودان لأنك شخصية معروفة ولا يعترضك أحد وسنستلمها منك في السودان وتكون بذلك قد قدمت لنا خدمةً لن ننساها لك مدى الحياة**».

فكرتُ سريعاً في الأمر وقلتُ لنفسي ربما كان هذا الأمر كميناً آخر يريد بعضهم أن يضعني فيه وسط هذا الغليان السياسي الذي تشهده بلادنا. ولم أقل له شيئاً غير أنني أخبرته بأنني لن أعود

إلى السودان إلا بعد ستة أشهر على الأقل. قال لي: ((**عموماً فكّر في هذا الأمر وسأتصل بك لاحقاً إن شاء الله**)) ثم ودعني وانصرف. بدأتُ أفكر في أمر هذا الشاب طوال الأيام اللاحقة، وأكثر ما أزعجني أنه قال لي إنه ابن الرئيس وأنا أعلم أنَّ الرئيس ليس له أبناء، ثم إذا كان الأمر متعلقاً بالرئيس فلماذا لا يتصل بي هو شخصياً وهو يعلم أني موجود بالقاهرة. وبدأتُ أقنع نفسي بأنَّ هذا الشخص منتحل شخصية أو أنه أحد المتلاعبين وما أكثرهم بين السودانيين الذين نزحوا إلى القاهرة خلال تلك السنوات، وربما أراد أن يستغل اسم الرئيس لتنفيذ غرضٍ خاصٍ به.

بعد أسبوعٍ من ذلك الحوار جاءني بمنزلي بشارع شامبليون بوسط القاهرة مبعوثان من الرئيس نميري هما (**سامي مبارك عثمان سنادة**) وهو ابن السيدة (**فاطمة خليل**) شقيقة حرم الرئيس نميري (**بثينة خليل**) والدكتور (**مصطفى كامل**) طبيب الرئيس الخاص وهما من الأصدقاء الذين ربطتني بهما صلةٌ قديمة بدأت مع بداية علاقتي بالرئيس نفسه من خلال الأسفار الكثيرة التي جُبنا فيها كل ربوع السودان شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً فضلاً عن العديد من بلاد العالم في آسيا وأفريقيا وأوروبا. وعلاقة السفر تظل دائماً أعمق من كل أشكال العلاقات بين البشر. وقال لي سامي: ((**لقد بعثنا الرئيس نميري يطلب تسجيلاً للمقابلة التي أذاعتها إذاعة القاهرة أمس مع الفريق عبد الرحمن محمد حسن سوار**

الذهب لأنه يريد أن يحتفظ بها للتاريخ». قلت لسامي ودكتور مصطفى كامل: «**في الحقيقة إنني أحسب أنَّ هذا الأمر به كثير من الحرج في هذا الوقت بالذات بحكم الوضع الخاص لنميري، ثم إنكم قد قرأتم سيل الاتهامات التي انهالت علينا من كثيرٍ ممن لا يعرفون حقائق الأمور بعضها بغرض وبعضها بجهل بأننا من زبانية جهاز الأمن المحلول وما شابه ذلك من السخافات ولذلك أحسب أنَّ هذا الأمر سيقابل بكثير من التعقيد وسوء الظن لو حاولتُ أنا القيام به، فأرجو أن يطلب نميري هذا الشريط عن طريق مكتب الرئيس مبارك وسيأتيه فوراً لا محالة**». شكرني سامي ودكتور مصطفى وقالا لي: «**نحسب أنَّ هذا اقتراح وجيه وسننقله إلى الرئيس**».

كان هذا الشريط عبارة عن لقاءٍ إذاعي أجرته إذاعة القاهرة مع المشير عبد الرحمن محمد حسن سوار الذهب بعد أسابيع قليلة من تسلمه أعباء منصبه كرئيسٍ لمجلس قيادة الثورة. وقد طرحتْ عليه المذيعة كل الأسئلة التي كانت تدور في الساحة عن ملابسات تسلم السلطة وقضية تسليم نميري وما إلى ذلك.

ومن ضمن الأسئلة التي وجهتها إليه، «**ماذا تمَّ بشأن الأموال التي قيلَ إنَّ الرئيس المخلوع نميري قد نهبها من الدولة؟**» فقال لها المشير عبد الرحمن سوار الذهب: «**إنَّ أول قرارٍ اتخذتُه بعد تسلمي أعباء هذا المنصب هو تكوين لجنة من المختصين وبعض رجال**

التجمع لرفع تقريرٍ مفصل لي عن هذه الاتهمات بنهب نميري لأموال الشعب، وقد عكفتْ هذه اللجنة على دراسة هذا الأمر من كل جوانبه بعد أن توفرت لها كل المستندات والظروف وكل ما طلبته، وفي النهاية رفعت اللجنة تقريرها إليَّ وهو يقول بالنص إنَّ جعفر نميري لم يأخذ مليماً واحداً من أموال الشعب السوداني وكل الذي يقالُ عن هذا الأمر مجرد مكايدات وشائعات لا أساس لها من الصحة».

عند خروج سامي سنادة ودكتور مصطفى كامل من الشقة جذبتُ سامي من يده بعيداً وقلت له: «**يا سامي هل تعرف شاباً اسمه م. س ووصفه كذا وكذا؟**» قال لي: «**نعم هذا ابنُ الرئيس**». وتجمدت العبارة في فمي من ذلك الرد وقلت له: «**ومتى كان للرئيس أبناء يا سامي؟**» قال لي: «**في الواقع هذا الشاب تبناه الرئيس ضمن عدد من الأطفال قبل سنوات طويلة ونشأ في كنفه كأحد أبناء البيت وظلَّ معه حتى الإطاحة بالحكومة وهو الآن موجود بالقاهرة**».

قلتُ له شكراً ولم أخض في أي تفاصيل أخرى، وتأكدت أنَّ أمر ذلك الشاب كان جاداً وليس هزلاً كما تصورته، ودارت برأسي عشراتُ الأسئلة التي ظلت بلا إجابة. وبدأتُ أفكر في الإجابة إذا عاد إليَّ الأخ (م. س) مرةً أخرى. ومرَّتْ الأيام دون أن أراه. وقبل أن يحين الموعد الذي توقعتُ فيه مجيئه إليَّ حدثت بعض الأمور التي أثرت

على بقائنا بمصر، وهي أمور تتعلق بإذاعة وادي النيل التي ظللنا طوال تلك الفترة نعمل بها كفريق سوداني إلى جانب الزملاء المصريين.

الصراع المصري السوداني بإذاعة وادي النيل

كانت تلك الفترة التي أعقبت الانتفاضة فترةً مليئةً بالتوتر بالنسبة لإذاعة وادي النيل شأنها شأن الجو السياسي نفسه في تلك الأيام. حيث كانت سياسات القادة الجدد بالسودان خصوصاً رجال التجمع الوطني غير مفهومة بالنسبة للمصريين. وكان وجود نميري بالقاهرة أثناء تلك الفترة بمثابة الزناد الذي أُلقي على برميل البارود. وظلت المناوشات الكلامية على أعمدة الصحف تُلهب الأجواء بشكلٍ لم يتحمله المصريون الذين ظلوا على الدوام حذرين متوجسين في مراقبتهم لتطورات الأحداث بالسودان. وفي مثل هذا الجو ما كان لإذاعة وادي النيل أن تؤدي دورها نظراً لأنها إذاعة مُشتركة بين البلدين. وحسب قرار نشأتها فإنها تحمل وجهة نظر الدولتين في تقديم خدماتها الثقافية والسياسية والإعلامية.

والآن بدأتْ وجهات نظر البلدين في التباين خصوصاً وأنَّ على قمة الجهاز السياسي الآن قادةٌ حزبيون توجسوا على مرِّ السنوات من دور مصر في السودان. بل وإنَّ حزب الأمة صاحب الثقل

البرلماني في كل العهود الديمقراطية يسيطر الآن على أجواء السياسة من خلال الوجود الفاعل للسيد (**الصادق المهدي**) على قمة التجمع الوطني وهو معروفٌ بعدم المزاج في الكيانات المصرية الحاكمة منذ أيام جده عبد الرحمن، ثم إنه رئيس الحزب الذي ما نشأ إلا ليناقض دور مصر في السودان الذي كان شعاراً لأحزاب الأشقاء والوطني الاتحادي في منتصف عام 1945م. وفضلاً عن ذلك فإنَّ أحزاب اليسار برمتها تنظر لموقف مصر الرافض لتسليم نميري بكثير من المرارة والألم والرغبة في الانتقام. كل ذلك قد انعكس سلباً على دور إذاعة وادي النيل وهي تصارع الأحداث لتجد منفذاً لها على الأثير. ولما كان مقرها الرئيسي في القاهرة فقد ظلت سيطرة الخطاب المصري هي الغالبة على خدماتها طوال تلك الفترة.

وأخيراً حزمت أمرها أن تضرب بتوجهات السودان عُرض الحائط وتؤدي برامجها من خلال وجهة النظر المصرية دون وضع أي اعتبارٍ لسياسة السودان. وكان أول ما بدأت به الفكاك من ربقة السياسة السودانية هو الانتقاد اللاذع لشخصية وسياسات الزعيم الليبي معمر القذافي الذي كان وقتها في زيارةٍ رسمية للخرطوم لتهنئة القادة الجدد باندحار حكومة نميري ونجاح الانتفاضة. وعندما بدأت الإذاعة ذلك التوجه ذهبتُ إلى مكتب المدير الأستاذ (**فؤاد عمر**) ووجدتُ معه الأستاذة (**ثريا جودت**) مديرة إذاعة ركن

السودان سابقاً وأول مديرة لوادي النيل عند تأسيسها وكانت قد انتقلت في تلك الفترة لتعمل في إحدى إدارات شبكة صوت العرب التي تتقاسم مع إذاعة وادي النيل نفس الأستديوهات وقلتُ لهما: ((**الحمد لله أنكما الآن موجودان بالمكتب لأنَّ الأمر الذي جئتُ من أجله يهمكما سوياً**)) رحب كلاهما بي وقالا لي تفضل وقل ما عندك. قلتُ لهما: ((**إنني أريد أن أسجل الآن صوت لومٍ واحتجاجٍ على استفزاز مشاعر السودانيين من خلال ما آل إليه توجه هذه الإذاعة خلال الأيام الماضية. حيث إنني أعتقد أن هذا الهجوم على ليبيا ورئيسها في الوقت الراهن ليس له ما يبرره من إذاعة وادي النيل إلا إذا كان المقصود إحراج حكومة السودان الجديدة لأن هذه الإذاعة تمثل شراكةً بين السودان ومصر، وأنتم تعلمون أن حكومة السودان قد أعادت علاقاتها مع ليبيا بعد سنوات طويلة من القطيعة دامت لأكثر من أحد عشر عاماً فلماذا تدخلوها الآن في هذا الحرج؟ ثم إننا نسبح الآن ضد تيار بلادنا، وأحسب أنَّ هذه الإذاعة يجب أن تعود إلى حيادها الذي كانت عليه تجاه الأمور الحساسة إكراماً لشريكها السودان**)).

وكان رد الاثنين واحداً وهو أنَّ هذا الحرج يحس به جميع العاملين بالإذاعة الآن ولكنها تعليمات السيد (**صفوت الشريف**) وزير الثقافة والإعلام والتي هي في النهاية تعليمات الرئيس مبارك. ولذلك ما علينا إلا الصبر وانتظار ما تسفر عنه الأيام القادمة.

قالت لي ثريا جودت: «**أغلب الظن أنَّ هذا التوجه أملته مكايدات الساسة الذين يتعاملون بردود الأفعال، حيث إنَّ الإعلام في السودان الآن يكيل أقذع السباب لمصر بحكم إيوائها لنميري، ولذلك أرادت مصر أن تتعامل بالمثل وتكيلَ الصاعَ صاعين لحكومة السودان الجديدة**».

قلتُ لها: «**إذن ما ذنبنا نحنُ أعضاء الجانب السوداني في وادي النيل؟ إذا كان لا بد من ذلك فالأفضل أن نأخذ إجازةً مفتوحة إلى أن ينجلي الأمر أو أن تعفونا أنا وزميلي الزبير عثمان الطيب من قراءة أي تعليقات سياسية أو مواد خبرية خلال هذه الفترة الحساسة، ونستعيض عن ذلك بقراءة المواد الثقافية**». وكان الرد أن نصبر قليلاً ريثما ينجلي هذا الأمر بمجيء الطرف السوداني في إذاعة وادي النيل خلال الأسبوع.

بعد ثلاثة أيام من ذلك الحوار وصل إلى القاهرة الأستاذان (**معاوية حسن فضل الله**) مدير عام الهيئة القومية للإذاعة والتلفزيون بالسودان و(**سيف الدين الدسوقي**) مدير إذاعة وادي النيل بالخرطوم (حيث إن لإذاعة وادي النيل مديران واحد بالقاهرة وواحد بالسودان) لحضور اجتماعات اللجنة العليا لبرامج إذاعة وادي النيل والتي تعقد سنوياً بشكل دوري بالتناوب مرةً في القاهرة ومرةً في الخرطوم. واستقبلناهما أجمل استقبال سائلين عن أحوال الأهل والعشيرة والوطن بعد قيام الانتفاضة. وكعادة السودانيين

عند استقبال الضيوف أقمنا لهما مأدبة إفطار بشقتنا حيث كنا في شهر رمضان المبارك. وأثناء المأدبة شرحتُ لهما كل ما دار بيني وبين مدير إذاعة وادي النيل والأستاذة ثريا جودت. وقلتُ لهما في ختام حديثي: ((**إننا في نهاية الأمر قررنا أن نعتذر عن قراءة أي تعليقات سياسية أو أخبار لا تتماشى مع سياسة السودان الراهنة وخصوصاً تلك المتعلقة بليبيا ورئيسها القذافي ما دام السودان على وفاق معها الآن ويسعى لفتح قنوات أخرى للتعامل معها بعد كل هذه السنوات من القطيعة والتناحر**)).

قال لي الأستاذان معاوية وسيف الدسوقي: ((**في الواقع إنَّ هذا الأمر يبدو معقداً وحساساً إلى حدٍ كبير، ولذلك وتفادياً لأي حرج نرى أن تتعاملوا معه كمذيعين فقط ولا تتدخلوا بآرائكم في رسم سياسة الإذاعة. وكما تعلمون فالمذيع يجب ألا يعترض على ما تقرره إدارة الإذاعة بل عليه أن ينفذ ما يأتي إليه من تعليمات مثل الجندي، وهذا هو المخرج الوحيد حتى لا تدخلوا في أي حرج مع الجانب المصري**)).

قلت لهما: ((**هل يعني هذا أن نكون كالببغاء؟**)) قالا: ((**بالضبط كالببغاء**)). قلت لهما: ((**أنا سأفعل ذلك ما دام هذا هو رأي الجانب السوداني في إدارة الإذاعة، ولكن ثقوا أنَّ العواقب لن تكون إلا وبالاً علينا وعلى الإذاعة، وثقوا أنني سأفعل ذلك دون اقتناع ولننظر ما تُسفر عنه الأيام القادمة**)). في صبيحة اليوم التالي

كان عليَّ أن أقرأ التعليق السياسي، ولما تسلمته من مكتب الأخبار وجدته يفيضُ استفزازاً وإساءةً للنظام الليبي وشخصية العقيد القذافي فقرأته كما هو دون تحريف أو تعديل، وكانت الحسرة تملأ قلبي ليس محبةً أو كرهاً في أحد، وإنما تحسراً على وطني الذي لم تُحترم إرادته ولا توجهات أبنائه في أحرج منعطفات السياسة. وتألمت لتلك الإذاعة التي أبت إلا أن تسبح ضد تيار السودان الشريك في هذه المؤسسة.

عاد الأستاذان (**معاوية حسن فضل الله**) و(**سيف الدين الدسوقي**) بعد أسبوع حيث حضرا اجتماعات الدورة الجديدة لإذاعة وادي النيل. وظل الحال على ما هو عليه. وفي صبيحة أحد الأيام رنَّ جرسُ الهاتف في منزلي ورفعت السماعة فإذا بالمتحدث في الطرف الآخر هو الأخ (**أسامة صلاح نقد الله**) السكرتير الثالث بسفارة السودان بالقاهرة وهو نجل السيد (**صلاح نقد الله**) أحد الرجال العظماء الذين عرفتهم منطقة (**سنار المدينة**) وهو أحد كبار أقطاب طائفة الأنصار وحزب الأمة وصاحب أضخم مكتبة ثقافية عرفتها منطقة سنار طوال سنواتها، قلت له: «**مرحباً بك يا أسامة**».

فرد عليَّ قائلاً: «**في الواقع لقد تسلمنا اليوم برقيةً عاجلة من حكومة السودان تطلب فيها استدعاءك فوراً مع الزميلين الآخرين الذين يعملان معك بإذاعة وادي النيل، وتقول البرقية يجب أن تكونوا بالخرطوم خلال ثلاثة أيام للمثول أمام لجنة تحقيق**». قلتُ

له: «**ما الذي حدث يا أسامة؟**» قال لي: «**لا أدري، وأنا مثلك فوجئت بهذه البرقية**». قلت له: «**وإذا لم نعُد إلى الخرطوم فما الذي سيحدث؟**» قال لي: «**هذه مسؤوليتنا نحن كسفارة، لا بدَّ أن نعمل على إعادتكم بأي وسيلة**».

قلتُ له: «**إنني لا أعترض على مبدأ العودة إلى بلادي، ولكني أريد أن أعرف سبب هذا الاستدعاء الذي لا أرى له أي تبرير، وعلى العموم فإنني سأبلغ الزملاء على الفور**». أخبرتُ الزملاء الزبير عثمان الطيب وحسين أبو العائلة ومحمود ياسين بذلك الاستدعاء المفاجئ، وبدأنا نتكهن بالأسباب التي دعت له. وفي المساء زارنا الزميل محمود ياسين بشقتنا بشارع شامبليون وقال: «**إنني قد تشاورتُ في هذا الأمر مع أسرتي، وقررتُ ألا أعود إلى السودان حتى ولو أدى ذلك إلى فصلي من العمل**». فقلتُ له: «**أما أنا فقد حزمتُ أمري على العودة غداً أو بعدَ غد لمواجهة هذا الأمر مهما كان الثمن**». واتخذ الزميلان الزبير وحُسين أبو العائلة نفس القرار، فحزمنا أمتعتنا وسوينا أمورنا مع الإذاعة والسفارة استعداداً للعودة إلى أرض الوطن. وفي اليوم الرابع لذلك القرار وهو السادس والعشرون من شهر أيلول سبتمبر 1985م كنا جميعاً بالخرطوم.



الفصل السابع

سنوات الديموقراطية

الفصل السابع

﴿سنوات الديمقراطية﴾

* * *

العودة إلى السودان

عُدتُ إلى السودان من مصر في ظل نظام جديد لم أكن أعرف ملامحه، وسمعت الكثير من المفردات التي لم تطرق أذني من قبل مثل كلمة (**سدنة**) والتي أصبحت مدلولاً على كل من عمل في إطار حكومة مايو في سنواتها الأخيرة حيث استثنى الذين أطلقوا هذه الكلمة التنظيمات والأفراد الذين تعاملوا مع مايو في بداياتها عندما تفجرت في عام 1969م مدعومةً بقوى اليسار وعلى رأسها (**الحزب الشيوعي السوداني**). ومعظم الذين أُطلقت عليهم تلك الكلمة هم من الذين عملوا تحت مظلة (**الاتحاد الاشتراكي السوداني**) الذي أنشأه نميري على غرار الاتحاد الاشتراكي العربي الذي أسسه عبد الناصر في مصر مع بدايات الثورة.

كنتُ مشتاقاً طوال فترة وجودي بمصر لمعرفة الشخصيات الجديدة التي أفرزتها حركة الشارع الرافضة لكل ما هو قديم. ولكن كان اشتياقي أكثر لمسقط رأسي وأهلي وعشيرتي بالنهود الذين طال الفراق بيني وبينهم، خصوصاً وأنني لم أتشرف بزيارتهم لفتراتٍ

طويلة قبل سفري إلى مصر. وقبل أن تهبط الطائرة بمطار الخرطوم قررتُ أن أذهب إلى النهود قبل المثول أمام لجان التحقيق. وبالفعل فقد طلبتُ من سائق التاكسي الذي استأجرته من المطار أن يذهب بي إلى مكتب حجز الخطوط الجوية السودانية بشارع الجمهورية بالخرطوم، وهناك وجدتُ الصديق (**أحمد آدم**) الذي ظلَّ يعمل بمكتب حجز سودانير لسنواتٍ طويلة يقابل الجمهور بابتسامته الودودة وصبره الطويل على متاعب العمل، حتى خلقَ وجهاً مشرقاً لشركة الخطوط الجوية السودانية على مدى الأعوام.

وكان أحمد قد زارني بالقاهرة ومكث معي أياماً رائعةً في طريقه إلى (**كوبنهاجن**) التي ظلَّ مغرماً بها إلى حد الجنون، حتى أنه قد آلَ على نفسه أن يزورها في كل عامٍ مرةً أو مرتين ويقضي بها ما شاء له الله أن يقضي. أخبرته بأني أريد شراء تذكرةٍ للسفر إلى الأبيض بغرض زيارة الأهل بمدينة النهود. وعلى الفور سلمني تذكرةً محجوزاً عليها في طائرة الغد المغادرة إلى الأبيض في الساعة السادسة صباحاً.

حملت تذكرتي وأمتعتي وذهبتُ إلى المنزل بحي الملازمين بأم درمان. وبعد أن حييتُ الأهل والأصدقاء أخبرتهم بأني مسافرٌ غداً صباحاً إلى النهود، وسأعود خلال أسبوع أو عشرة أيام لا أكثر. وتوجهت في الصباح الباكر إلى الأبيض ثم اتجهت مباشرةً إلى موقف السيارات وامتطيت أول عربة متوجهة نحو النهود مع السائق

الشاب (**بدر الدين مصطفى عبد الجليل**) الذي آنسني طوال الطريق، مبدداً وحشة البعد عن الأهل والعشيرة وآلام السياسة التي فجرتها تقلباتُ إذاعة وادي النيل. وصلت إلى مدينة النهود التي اشتقت إليها كثيراً وإلى رمالها وأهلها وأحيائها العامرة بالمكارم والفضائل. وكان مجيئي بشكل مفاجئ دون سابق إنذار، فقضيت أياماً رائعة بين التلال وكثبان الرمال، يحفني كرم الأهل والأصدقاء.

ماذا قلت في محضر التحقيق

بعد ذلك الأسبوع الحافل بالجمال والظرف في مدينة النهود غادرت إلى الخرطوم التي جئتها شبعاناً من ثمارٍ ونَبَقْ، ومُرتوياً من حَنانٍ وألَقْ. وعلى الفور ذهبت إلى الإذاعة حيث وجدت استدعاءً فورياً يقول: «**إن الوزير بانتظارك خصوصاً وأنَّ جميع أعضاء الوفد قد بلغوا بالوصول إلا أنت**».

كنتُ لا أعرف الوزير ولا شكله حيث حدثت الانتفاضة وأنا خارج الوطن، وكان معظم الوزراء الجدد من التكنوقراط الذين جاءت بهم لقاءات التجمع الوطني، وكثير منهم لم يكونوا معروفين في أروقة السياسة ولا العمل التنفيذي العام بالسودان وبينهم وزير الثقافة والإعلام السيد (**محمد بشير حامد**) الذي كان يعمل محاضراً بجامعة الخرطوم، وقد عُرف بين أصدقائه بأنه كثير

الصمت عميق التفكير بارعٌ في رسم الكاريكاتير واللوحات الفنية فضلاً عن موسوعيته في المجال الأكاديمي الذي برع فيه طوال سنواته بحقل التعليم. ذهبت إلى مكتبه بوزارة الثقافة والإعلام وقال لي مدير مكتبه:

((إنَّ الوزير قد سافر في مهمة خارج العاصمة، وترك لك هذه المذكرة التي تقول إنَّ الحكومة الليبية قد بعثت بشكوى عن طريق وزارة الخارجية تدين فيها تعليقات قرأها المذيع عوض إبراهيم عوض من خلال إذاعة وادي النيل مما اعتُبِرَ إساءةً وصفعاً للعلاقات بين السودان وليبيا ولذلك قررت حكومة السودان استدعاءك للمثول أمام لجنة تحقيق كونها السيد وزير الثقافة والإعلام)).

كانت المسألة أنَّ الرئيس الليبي معمر القذافي قد تقدم بشكوى لحكومة السودان عن طريق وزارة الخارجية وبعث بشريط مسجل بصوتي عليه تعليق يسيء إلى ليبيا ورئيسها القذافي. وقد نصت الشكوى عل اعتراض ليبيا على الإساءة لرئيسها من مذيع سوداني وعبر إذاعة سودانية في الوقت الذي يزور فيه العقيد القذافي الخرطوم مهنئاً النظام الجديد بنجاح الثورة.

ومثلتُ أمام المحققين الذين واجهوني بحيثيات الاتهام الموجه لي وفق رسالة الرئيس الليبي، وقلت في التحقيق: ((**أولاً لتعلم حكومة السودان أنَّ هذا الأسلوب الذي أرادت أن تعالج به هذه القضية ليس أسلوباً حكيماً ولا مجدياً، وخذوها عني كلمةً**

وتحذيراً إنكم إنْ تمسكتم بقراركم بسحب وفد السودان من إذاعة وادي النيل فإنكم ستكونون الخاسرين لا مصر. حيث إنَّ الحكومة المصرية ظلت تتحين الفرص للانفراد بهذه الإذاعة وتذيع فيها ما تشاء باسم السودان الذي هو شريك فيها رضي أو لم يرضَ. وأنتم الآن تُقدمون لها هذه الفرصة على طبقٍ من ذهب. ثانياً إنني عندما قرأت هذا التعليق كانت هناك مقدمات كثيرة قد سبقت هذا الأمر»، وسردت عليهم ما دار بيني وبين فؤاد عمر وثريا جودت ثم ما دار بيني وبين الأستاذين معاوية حسن فضل الله وسيف الدين الدسوقي. ثم قلتُ في التحقيق:

«**إذا كانت القيادة الجديدة تريد تسوية هذه القضية بطريقة حكيمة لا يتضرر منها السودان فالأمر في غاية البساطة ولا يعدو أن يكون اتصالاً مباشراً بين وزير الثقافة والإعلام السيد محمد بشير حامد بالسيد وزير الإعلام المصري يوضح له فيه خصوصية هذه الإذاعة وأهمية الالتزام ببروتوكول تأسيسها الذي ينص على خدمتها لمصالح البلدين دون إحراجٍ لأي طرف، على أن يوضح الوزير شكل السياسة التي تنتهجها إذاعة وادي النيل الآن والتي يجب عليها المحافظة على مصالح السودان الذي يحاول فتح آفاق جديدة لسياسته الخارجية لا تضر بالمصالح المصرية بأي حال من الأحوال، وإنني على يقين أن هذا الأسلوب وحده هو الذي سيوقف الجانب المصري مما يفعله الآن بإذاعة وادي النيل. وأخيراً، إنني أحسب أن**

مصر الآن تحتاج لأي بادرة مثل هذه تفهم بها نوايا النظام الجديد بالسودان وتطمئن إلى مسار العلاقات معها بعدما شابها ما تعرفون جميعاً من جراء محاولات إرجاع نميري للسودان وعبارات التجمع المستفزة لمصر وحكومتها».

انتهى التحقيق، وكتبت رسالةً مطولةً بذلك المضمون، بعثتها إلى السيد (**محمد بشير حامد**) وزير الثقافة والإعلام. وسعدت سعادةً غامرة عندما جاءني الرد عملياً بأنَّ الوزير قد تبنى ذلك الاقتراح واتصل بوزير الثقافة المصري طالباً منه إعادة النظر في توجهات إذاعة وادي النيل بما يخدم مصلحة البلدين، وأنَّ سياسة الحكومة الجديدة لا تعادي مصر وإنما هي على العكس تعتبرها صديقاً وشريكاً في كل الظروف.

وعلى الفور أصدر صفوت الشريف تعليماته بإيقاف جميع الحملات والتعليقات الموجهة من إذاعة وادي النيل التي لا تتماشى مع سياسات السودان الجديدة ولا مع علاقاته الخارجية وعلى رأسها موضوع ليبيا والرئيس معمر القذافي. وعادت الأمور إلى نصابها رغم أننا لم نعد إلى القاهرة، ولم يتم تكوين فريق يخلفنا إلا بعد عامٍ كامل من ذلك القرار. حيث تأثر جو العمل بأجواء السياسة، ولعبت البيروقراطية دورها في طمس ملامح العمل العام، وأصبح الروتين والتلكؤ في حسم الأمور سمةً من سمات تلك الأيام المشحونة بكثير من المغالطات والبحث عن الطريق القويم وسط المسارات

المتشعبة والمتضاربة في كثيرٍ من الأحيان. وظلت إذاعة وادي النيل بلا سودانيين. ولذلك كانت تذيع ما تشاء من الأخبار والتعليقات التي تروقُ لها وتتماشى مع سياسة الحكومة المصرية دون انتباهٍ لما قد يثير حفيظة أي شخص غير المصريين.

إنشاء إذاعة عطبرة

مثلما كان لي شرف ابتداء إذاعة كردفان في أول خطواتها فقد فعلت الأمر ذاته في مدينة الحديد والنار (**عطبرة**). حيث سافرنا بقطار الشمال مع الزميل الفني (**عبد الحفيظ السر**) والزميل المخرج (**كمال عبادي**) لنعد برنامجاً إذاعياً يذاع لأول مرة من إذاعة وليدة كان علينا أن نفتتحها في مدينة عطبرة.

وكان المقرر أن نعد برنامجاً ليوم واحد هو يوم افتتاح الإذاعة ثم نسلم الأعباء إلى فريق متكامل يأتي من الخرطوم برئاسة الزميل الأستاذ (**عمر عثمان**). وصلنا إلى مدينة عطبرة برفقة السيد (**محمد بشير حامد**) وزير الثقافة والإعلام ولاحظت أنَّ الرجل كان مهموماً وكأنه يعاني من ثقل الأعباء التي تقاطرت عليه من جرَّاء متاعب الوزارة خصوصاً وأنه جاء إليها في أحلك الظروف من مؤسسة أكاديمية هي (**جامعة الخرطوم**). وبدا وكأنه يتعجل الأيام لتنتهي الفترة الانتقالية ويرتاح من هذه المسؤولية الجسيمة التي أُلقيت على عاتقه. افتتحنا الإذاعة، وكان يوماً حافلاً حشدنا له

كل ما توفر لدينا من مواد ثقافية ومعلومات تاريخية عن أهل الشمالية وعن نضال مدينة عطبرة عبر السنوات منذ الاستقلال ومروراً بالعهود الوطنية. وقد أحضرنا الفنان (**حسن خليفة العطبراوي**) ليكون معنا على الهواء، فقدم سرداً تاريخياً لنضاله ضد المستعمرين خصوصاً وأنه قد أُدخل سجون الإنجليز مراراً لترديده نشيد لا لن أحيد ولا لن يكون.

وفي ختام اليوم ودعنا المستمعين وأخذنا حقائبنا معنا إلى حفلِ وداعٍ أقامه أهالي المدينة تكريماً للوزير والوفد المرافق له. وأثناء الحفل فُوجئ الحاضرون بحقائبنا التي وضعناها جانباً في صالةِ الاحتفال، وسألونا عمَّا إذا كنا سنبقى أم سنغادر مدينتهم، فقلنا لهم إننا سنغادر بعد هذا الحفل مباشرةً وعلى نفس قطار السيد الوزير. وهنا قامت الدنيا ولم تقعد، حيثُ تجمهر كل المحتفين بنا حول الوزير وقالوا له: ((**يا سيادة الوزير نرجوك أن تُقنع هؤلاء الإخوة الإذاعيين بالبقاء معنا لأنهم إذا سافروا معك اليوم فلن نسمع صوت الإذاعة غداً**)).

وكان هذا الكلام صحيحاً مائة في المائة حيث لم يحضر الفريق الإذاعي الذي كان مقرراً أن يتسلم منا العمل في نفس اليوم لنعود مع الوزير بعد الافتتاح. وناداني الوزير قائلاً: ((**طبعاً هذا كلام معقول ولا بد أن تبقوا هنا في عطبرة لتواصلوا ما بدأتموه وإلا فلن تكون هناك إذاعة غداً**)). قلتُ له: ((**يا سيادة الوزير إننا لم نحضر هنا**

لنبقى وإنما لنعود في هذا المساء، ولذلك فإننا لا نملك أي تخطيط أو تصور للاستمرارية، وإنما كل الذي لدينا هو برنامجٌ ليومٍ واحد هو يوم الافتتاح، وفوق هذا وذاك ليست معنا أمتعة ولا ملابس ولا نقود نعيش عليها يوماً واحداً في هذه المدينة».

وما كان من الوزير إلا أن أدخل يده في جيبه وأخرج ورقة من فئة المائة جنيه وقال لي: «**خذ هذه علها تساعدكم قليلاً، وأنا أتعهد بإرسال الوفد البديل خلال يوم أو يومين على الأكثر مع كامل مخصصاتكم المالية لتساعدكم على هذا البقاء المؤقت**».
شعرت أنَّ أي رفض لهذا الطلب لن يكون من الأخلاق، وأنَّ الأمر لا يحتمل المساومات ولذلك لا بد أن نرضخ للواقع مهما كان الثمن وأخبرتُ زملائي بذلك فقررنا البقاء في عطبرة بانتظار الوفد الذي سيأتي من الخرطوم بعد يومين لتسلم العمل.

طالت بنا أيام الانتظار التي تعهد الوزير بأن تكون يومين فامتدت إلى شهرين بالتمام والكمال قضيناها ضيوفاً على منزل السيد (**هاشم علي مالك**) مدير تلفزيون عطبرة الريفي الذي كان مثالاً للكرم وحسن الضيافة والبساطة حتى أحسسنا بأننا في بيتنا وعُقر دارنا. وخلال تلك الفترة التي لم تتوقف فيها الإذاعة يوماً عن العمل أعددتُ هيكلاً متكاملاً للإذاعة الجديدة والتي كانت الوحيدة في كل الإقليم الشمالي في تلك الفترة. وقام الزميل المخرج (**كمال عبادي**) بدور المنسق الذي ربطنا بكل مرافق الدولة والمؤسسات العامة

بالمدينة بحكم أنه من أبناءِ الدامر المجاورة لعطبرة. واستعنا ببعض أبناء عطبرة المهتمين بالثقافة وعلى رأسهم السيد (**أمين عبد المجيد**) مدير بنك الخرطوم بعطبرة والسيدة (**سميرة عواض**) مديرة العلاقات العامة بهيئة السكة الحديد والزميلين (**عبد المنعم قمر الدين الكتيابي**) و(**عبد الرحمن جلود**) من إعلام عطبرة والسيد (**هاشم علي مالك**) مدير التلفزيون.

كان أهل عطبرة قد غمرونا بكرمهم وطيبتهم مما ساعدنا على تمضية تلك المدة بلا صعوبات. وعندما حان أوان الرحيل بعد وصول وفد الإذاعيين برئاسة الزميل الأستاذ (**عمر عثمان**) أقامت لنا عطبرة حفل وداعٍ بهيج شارك فيه كل الأصدقاء والمسؤولين بهيئة السكة الحديد ومكاتب الثقافة والإعلام والمؤسسات التعليمية. وركبنا القطار من محطة عطبرة التي اكتظت بالمودعين لنا من النساء والرجال. وعندما وصل القطار إلى محطة الدامر التي لا تبعد أكثر من ربع ساعة من عطبرة وجدنا العشرات من المودعين قد سبقونا إلى الدامر ليعبروا عن شكرهم وتقديرهم لتلك الأيام التي قضيناها معهم والتي حملت صوت مدينتهم لأول مرة في تاريخها الطويل عبر الأثير.

وكان أكثر ما أثار عاطفتي وعشعش في وجداني وخلد في ذاكرتي صوت امرأةٍ عجوز في محطة الدامر كانت تركض بين عربات القطار وتنادي بأعلى صوتها عوض إبراهيم عوض. ولما سمعتُ

نداءها أخرجت رأسي من نافذة القطار ملبياً نداءها بقولي: ((**أنا هنا يا والدة**)). ركضتْ نحوي وكانت تحمل صندوقاً من الورق المُقَوَّى ملأته بشتى أصناف الطعام وقالت لي: ((**الحمدُ لله الذي مكنني من إدراك القطار حيثُ إنني جهزتُ لكم طعاماً للتزود به في الطريق وقد فاتني القطار بدقائق فقررتُ لحاقه في الدامر فهاكم هذه الأشياء البسيطة علها تكون لكم زاداً في الطريق**)).

أخذتُ منها الطعام وعجلات القطار تتحرك على القضبان ولساني لا يجد العبارات التي أصف لها بها إحساسي وشعوري على ذلك النبل وكرم الأخلاق، خصوصاً وأننا لم نتشرف بمعرفتها في يومٍ من الأيام وإنما كانت كل العلاقة أنها ظلت تستمع إلينا عبر الراديو وعرفت من خلال البرامج أننا سنغادر في هذا القطار.

وكان معي في تلك اللحظة الزميل الفني (**عبد الحفيظ السر**) فقال لي: ((**والله لولا هذه المرأة النبيلة لكنا في عداد الميتين من الجوع**))، وفتح صندوق الطعام وبدأ في التهامه بشراهة لأننا كنا فعلاً في حاجةٍ إلى الطعام بعد يومٍ طويلٍ وحافلٍ بالزياراتِ والمجاملات ووداع الأصدقاء.

كانت تلك من أجمل الذكريات التي خلدت في الوجدان عن أهل عطبرة وأريحيتهم وكرمهم الذي ما يزال يعيش في وجداننا كأجمل ما تكون الذكريات. وهناك الكثير الذي لا تسمح هذه المساحة من الذكريات بسرده لأنه يحتاج إلى مئات الصفحات.

عملي كمراسل لإذاعة صوت أمريكا

جئت من عطبرة لأجد رسالة بانتظاري من إذاعة (**صوت أمريكا**) أرسلها إليَّ السيد (**سلمان حلمي**) مدير القسم العربي لصوت أمريكا بواشنطن. وكانت الرسالة عبارة عن تهنئة لي وإخطاري بنجاحي في امتحان الدخول لإذاعة صوت أمريكا وقرار الإذاعة بتعييني مراسلاً لها بالسودان. وقد حمل لي الرسالة السيد (**أحمد عمر**) الذي ظلَّ يعمل بالمركز الثقافي الأمريكي منذ تأسيسه وهو شقيق الأستاذ الفاضل (**عبد الله عمر**) والأستاذ المربي (**إبراهيم عمر**) أول مفتش تعليم بمدينة النهود ومنطقة ريفي حمر.

كان جلوسي لامتحان إذاعة صوت أمريكا قد تمَّ بعد عودتي من مصر بحوالي شهرين حيث كان الزميل (**الزبير عثمان الطيب**) يعمل مراسلاً لها بالسودان وعندما تم قبوله مذيعاً بها انتقل إلى واشنطن تاركاً منصب المراسل شاغراً. وقد تمَّ إخطارُه بالقبول مذيعاً بصوت أمريكا عندما كنا بالقاهرة في إذاعة وادي النيل حيث اتصل به الأستاذ (**إبراهيم عابدين**) مراسل صوت أمريكا بالقاهرة وزفَّ إليه ذلك النبأ. ومن يومها قررتُ أن أكون مراسلاً لهذه الإذاعة العالمية خلفاً له بالسودان.

وتقدمتُ بطلبٍ مكتوب للإذاعة عن طريق السفارة الأمريكية بالخرطوم. وبعد وصول الزبير إلى واشنطن جاءتني إشارة من إدارة الإذاعة للاتصال بالمركز الثقافي الأمريكي بالخرطوم لإجراء

اختبارات الصوت والقدرات. وأخيراً جاءت الموافقة بالعمل. عملتُ مراسلاً لصوت أمريكا منذ يوم تسلمي لذلك الخطاب وحتى يوم مغادرتي للسودان في أيلول سبتمبر عام 1990م عندما تم تعييني محاضراً بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، فبعثت برسالةٍ للأستاذ (**سلمان حلمي**) مُخطراً إياه بسفري وعدم تمكني من مواصلة العمل كمراسل لصوت أمريكا بالسودان. وطلبَ مني ترشيح خلفٍ ليكون مراسلاً لهم بعد سفري، فرشحتُ لهم الزميل محمد الكبير الكتبي، ولكن لعله آثر الذهاب إلى قناة الجزيرة بدولة قطر التي لا يزالُ يعمل بها إلى اليوم.

كان العمل بإذاعة صوت أمريكا ذا طبيعة خاصة تحكمها قوانين الإعلام الأمريكية التي تتخير من الأخبار ومن المعلومات ما لا يتعارض مع سياستها التي هي في نهاية المطاف سياسة الحكومة الأمريكية. حيث إنَّ راديو صوت أمريكا ظلَّ يقدم برامج لكل شعوب العالم الثالث وعلى رأسها العالم العربي الذي تربطه بأمريكا علاقاتٌ ذات خصوصية وتفرد على مدى العقود الأربعة الماضية. وإذاعة صوت أمريكا تعتبر من أهم القنوات للحكومة الفدرالية الأمريكية التي اعتبرتها قسماً من أقسام وكالة الاستعلامات الأمريكية American Information Agency. وهي بذلك تتبع لوكالة الإعلام الدولي الحكومية منذ عام 1978م حيث صدر القرار بتبعيتها لتلك الوكالة من إدارة الرئيس الأمريكي الأسبق (**جيمي**

كارتر). ووفقاً لتلك الوضعية المتميزة فإنَّ مدير إذاعة صوت أمريكا مكلف بتقديم تقرير دوري كل ستة أشهر لمكتب رئيس الجمهورية في البيت الأبيض، بالإضافة إلى ضرورة التعاون والتنسيق الكامل مع وزارة الخارجية الأمريكية في كل البرامج والأخبار التي تتعلق بالسياسة الخارجية للولايات المتحدة، والتي يجب على الإذاعة مراعاتها وتوخيها بصرامة ودقة أثناء أدائها لرسالتها ودورها الإعلامي والدعائي للولايات المتحدة.

وكانت الإذاعة قد اعتمدت في عام 1962م عدداً من البرامج لدول شرق ووسط وشمال أفريقيا لأداء دورٍ استراتيجي رسمته وزارة الخارجية في أعقاب نيل العديد من الدول الأفريقية استقلالها بنهاية عِقدِ الستينيات. ثم أضافت إذاعة صوت أمريكا في عام 1979م برامج جديدة لمستمعيها المنتشرين في وسط وغرب أفريقيا. وقد نجحت في خلق برمجةٍ خاصة لدول أفريقيا الناطقة بالفرنسية نسبةً لما قامت به هذه البرامج من تصويرٍ دقيق لواقع الحياة الأفريقية ونقلٍ متواصل لأنماط الإبداع المحلي الذي انعكس في الموروثات الثقافية التي يمتلىء بها قاموس الحياة لدى هذه الشعوب الغنية بتراثها.

وبحكم أنَّ راديو صوت أمريكا قد ظلَّ يهتم بالشؤون السياسية لكثير من دول العالم فقد أفرز هذا الاهتمام سياسة برامجية خاصة بكل واحدة من هذه الدول. ولذلك كثيراً ما

كانت تأتي نشرات توضح سياسة الإذاعة تجاه ما يفعله المراسلون وكانت كلها تنصب في إطار السياسة الأمريكية. وفي أحد الأيام تسلمتُ رسالةً من السيد سلمان حلمي مدير القسم العربي يطلب مني فيها إجراء حوارات مع السيد الصادق المهدي والسيد الجزولي دفع الله رئيس الوزراء بمناسبة انتهاء الفترة الانتقالية وتسلم الحكومة المنتخبة مقاليد السلطة، وشعرت أنَّ الفرصة المواتية الوحيدة لتحديد موعدٍ معهما ستكون في مدينة ودمدني حيث تقرر أن أسافر ضمن وفد الإذاعة لتغطية احتفالات ذكرى الانتفاضة التي ستحين بعد أيام، والتي سيحضرها جميعُ الساسة وقادة الأحزاب وأعضاء السلك الدبلوماسي بالسودان.

الذكرى الأولى للانتفاضة

أقيم العيد الأول للانتفاضة بود مدني في يوم السادس من نيسان أبريل 1986م. وجئنا في وفد كبير من الإذاعة لتغطية وحضور تلك الاحتفالات برئاسة الأستاذ (**حمزة مصطفى الشفيع**). وقد زيَّن أبناء الجزيرة الخضراء استاد ودمدني بالشعارات التي تحمل فكر الانتفاضة وتدين فترة مايو ورموزها.

وتقاطر الناس من كل مكان لحضور تلك المناسبة الأولى في ظل انتفاضة أبريل. وتفحصتُ في وجوه الساسة الجدد لأنهم عندما جاءوا إلى الحكم كنتُ في مصر بإذاعة وادي النيل ولم

أتشرف بمعرفة معظمهم إلا في تلك الأيام بود مدني. وأثناء الاحتفال أذن أذان المغرب فتوجه الجميع نحو الصلاة فسمعت أحدهم يناديني قائلاً: ((**يا عوض حمداً لله على السلامة وألف أهلاً بالعودة إلى أرض الوطن**)). التفتُ إليه فإذا به الفريق (**عبد الرحمن محمد حسن سوار الذهب**) رئيس المجلس العسكري الانتقالي. هرولت إليه وقابلته بالأحضان وقلت له: ((**ألف مبروك تعيينك رئيساً للسودان في هذه المرحلة المهمة من عمر الوطن**)).

فقال لي: ((**إنها مسؤولية جسيمة لا محالة، وأرجوكم أن تدعو لنا بالتوفيق**)) ثم أضاف قائلاً: ((**لقد سمعتُ بوصولك من مصر ولكني لم أرك لا في القصر ولا في المحافل العامة حتى الآن فأين أنتَ؟**)). قلت له: ((**والله أنتم مشغولون بالعمل الدئوب في هذه المرحلة الخطيرة من عمر بلادنا ونحن كذلك، ولكنكم في الخاطر والوجدان في كل حين، وسآتي لزيارتك إن شاء الله**)).

قال لي: ((**إنني بانتظارك**)). وقادني من يدي حتى المُصَلَىْ الذي أُقيمَ في وسط الميدان لأداء صلاة المغرب. وقفتُ إلى جانبه في الصلاة وكان على يساري السيد الصادق المهدي زعيم حزب الأمة، يليه السيد الجزولي دفع الله رئيس الوزراء، والسيد محمد عثمان الميرغني زعيم الحزب الاتحادي الديمقراطي، وعدد من الوزراء الذين التف حولهم عددٌ من قادة التجمع الوطني. بعد ذلك قابلت الدكتور (**الجزولي دفع الله**) رئيس الوزراء وهنأته بثقة أبناء

السودان فيه، ثم طلبتُ منه تحديد موعد لزيارته بالمنزل لتسجيل حوارٍ معه لإذاعة صوت أمريكا التي طلبت مني ذلك. رحَّبَ د. الجزولي بذلك ووعدني بترتيب الموعد عند عودتنا إلى الخرطوم. وقابلت بعد ذلك السيد (**الصادق المهدي**) والسيدة (**فاطمة أحمد إبراهيم**) والسيد (**أمين مكي مدني**) حيث اتفقتُ معه على تسجيل لقاءاتٍ إذاعية. وقال لي السيد أمين إنه يرحب بحضوري غداً إلى منزل شقيقه بحي القيادة الوسطى، فوافقتُ على الحضور في الموعد المحدد مع الزميل حمزة الشفيع.

بعد ذلك عدتُ إلى ميكرفون الإذاعة المنصوب باستاد ود مدني لمواصلة نقل وقائع الاحتفال. وقد عبرتُ للزميل حمزة الشفيع عن دهشتي من عبارات المشير عبد الرحمن سوار الذهب وقلتُ له: «**يا حمزة كيف يتذكر هذا الرجل مثل هذه الأشياء البسيطة مثل عودتي من وادي النيل وعدم ظهوري بالقصر وغيرها في غمرة هذه المسؤوليات الجسيمة التي تقع على عاتقه كرئيس للسودان في أحلك ظروفه التاريخية**».

فقال لي حمزة: «**إنَّ هذا هو أسلوب سوار الذهب، وهو رجلٌ ود بلد وقد ظلَّ يتعامل بهذا التواضع والبساطة مع الجميع رغماً عن جسامة المسؤوليات التي وُضِعَتْ على كاهله منذُ يوم الانتفاضة الأول**». بدأ الاحتفال وتحدث فيه عدد من الساسة هم على التوالي السيد الصادق المهدي رئيس حزب الأمة، السيدة فاطمة أحمد

إبراهيم ممثلة للحزب الشيوعي، الدكتور الجزولي دفع الله رئيس الوزراء، ثم المشير عبد الرحمن سوار الذهب. وكان حديث الجميع صريحاً وناقداً لمرحلة الفترة الانتقالية التي شابتها الكثير من العثرات في تنفيذ توجهات الانتفاضة ومحو آثار مايو ووضع قانون الانتخابات وغيرها من الأمور التي طُرحت بعد الإطاحة بحكومة جعفر نميري.

بعد ذلك غني الفنان (**محمد وردي**) وصلةً غنائية طويلة أطرب فيها ألوف الحاضرين والذين رقصوا على أنغام أناشيده الجديدة؛ عُرس السودان، عُرس الفداء، يا شعباً لهبك ثوريتك، حدق العيون وغيرها من الأناشيد والأغنيات الوطنية. كان إحساسي بأنَّ كل هؤلاء الناس قد جاءوا ليتنفسوا الصعداء بعد أعوام من الحكم المايوى التي كبلتهم بقيود السياسة خصوصاً وأنَّ معظمهم كانوا من اليساريين الذين لم يجدوا فرصاً للتعبير طوال سنوات حكم النميري.

وفي الصباح ذهبتُ مع الأستاذ حمزة الشفيع إلى منزل شقيق الأستاذ أمين مكي لإجراء الحوار الإذاعي الذي اتفقنا عليه، وجلسنا في غرفة الصالون بانتظار الوزير. وبعد قليل خرج إلينا مُحْمَرَّ العينين ولا يَقْوَ على الكلام. فهمستُ لحمزة بأن نلغي هذا التسجيل ونتفق معه على موعدٍ آخر، ولكنَّ حمزة أصر على أن نجريه رغماً عن كل شيء فإن كان صالحاً أذعناه وإلا فإننا في حِلٍ

من إذاعته. وأجرينا الحوار الذي احتفظ به حمزة في ذاكرة الأرشيف ولم يجد طريقه إلى الأثير. انتهت الاحتفالات وعاد معظم الناس إلى الخرطوم، وبقيتُ أنا حتى اليوم التالي حيثُ عدتُ ومعي الفنان (**محمد وردي**) على أحد البصات التجارية. كنا نتحدث طوال الرحلة عن هموم الفن والإعلام والسياسة وعن احتفالات عيد الانتفاضة وتلك الفتاة الجنوبية التي كانت ترقص على إيقاع النشيد بقدها الأبنوسيِّ الفارع.

وكان بالقرب منا أحد الرُكاب يتابع حديثنا بشغفٍ واهتمام، وعندما وصلنا إلى نقطة التفتيش عند منطقة سوبا قال لنا الرجل: ((**بصراحة أنا أحمل معي مسدساً لم يتم ترخيصه بعد وأنا الآن في طريقي للخرطوم لترخيصه، كما أن معي بعض الدولارات التي أحملها لشقيقي بالخرطوم وطبعاً كلا هذين الأمرين محظور هذه الأيام وأخشى أن يصادرني رجال الأمن ويدخلوني في متاهات لا يعلمها إلا الله، ولذلك أتمنى أن تساعدوني لأنكم شخصيات معروفة ولا يرفض أي شخص لكم طلباً فساعدوني ساعدكم الله**)).

كان ذلك الشاب يتحدث وينظر لمحمد وردي في استعطاف واضح وقد ملأ الخوف عينيه قال له وردي على الفور: ((**والله ياخي نحن ما ممكن نعمل حاجة ضدَّ القانون ونتوسط في مثل هذا الأمر، ولكن يمكنك أن تقف خلفنا أثناء التفتيش فربما يكون**

هذا في صالحك لأن رجال الأمن حتماً سيتعاملون معنا بظرف)).
ووقف الرجل خلفنا في الطابور وعندما جاء دورنا نظر إلينا رجال التفتيش وقالوا مرحباً بكم أنتم أساتذة الإعلام والطرب في بلادنا لا يمكن أن نفتشكم وطلبوا من جميع الواقفين في الطابور أن يصعدوا إلى البص دون تفتيش. ابتسم ذلك الرجل وعاد معنا إلى مقعده بالبص قائلاً: ((**والله إنكم قد أنقذتموني ولا أدري كيف أشكركم على هذا الدور العظيم؟**))

فقال له محمد وردي: ((**لا تشكرنا نحن بل أشكر اللهَ الذي نجاك من هذا المأزق، وأنا أنصحك أن تعمل كرامة شكراً لله الذي غطى عليك، وأن تحذر مثل هذا السلوك مستقبلاً**)). قلتُ لوردي: ((**ما كنتُ أحسبُ أنك تؤمنُ بأمور الكرامات والحوليات التي يُغرمُ بها معظمُ الناس في السودان**)). فردَّ على الفور قائلاً: ((**هذا إرثنا يا أخي وأنا مقتنعٌ به تماماً**)).

وعلى ذكر الفنان محمد وردي فقد طالت غيبته عن أرض الوطن طوال السنوات الأولى لعقد التسعينيات كما طالت غيبتي عن الوطن في نفس الفترة. وبعد أن عدتُ للسودان في منتصف عام 2002م كانت لي وقفات أخرى معه أيام علاجه من الفشل الكلوي، حيث شاركته في تقديم عدد من حفلاته التي أقيمت خصيصاً لصالح علاجه. وبعد أن عاد من إجراء العملية الجراحية الناجحة له بالخليج دعاني ثانيةً لأشارك بتقديم الحفل الكبير الذي أقامه

بنادي الضباط بالخرطوم. وقد وافقت على الفور على تلبية دعوته التي حدد لي زمانها ومكانها. وفي أمسية يوم الحفل رن جرس هاتفي لأجده المخرج الفنان شكر الله خلف الله يقول لي بدعابته المعهودة أنا عارف إنك جاهز ولكني أردت أن أطمئن على حضورك فالجمهور الآن امتلأت به جنبات المسرح من كل الزوايا. أجبته بأني في الطريق وسأكون عنده بأسرع ما يكون.

كان شكر الله قد هاتفني قبل هذا ثلاث مرات بغرض تقديم الحفل الذي قرر التلفزيون أن يسجله من الألف إلى الياء ليس بكاميرات التغطية المعتادة وإنما بعربة التلفزة الجديدة التي ضنَّ بها على الكثير من المناسبات قبل هذا الحفل بحكم ازدحام برنامج التغطيات. وبالفعل وصلت العربة الفارهة بكل طاقمها المتكامل من مصورين وفنيي صوت وإضاءة وتشغيل ومساعدين قبل وقت مبكر وأخذت مكانها داخل ساحة النادي.

وبعد دقائق كنت في صالة مسرح القوات المسلحة بقلب الخرطوم والدهشة قد عقدت لساني من حجم الحضور المكثف على غير العادة، حيث امتلأت جنبات المسرح حتى فاضت بروادها. وكان الجمهور رغم اتساع المكان يقف على الأقدام دون كلل أو ملل بعد أن ضاقت بهم الكراسي على سعتها. ولكنها مشيئة الجمال والمحبة التي أبت إلا أن يتفاعل هذا الجمهور مع محمد وردي الذي بادله حباً

بحب وقدم له كل آيات العرفان والتقدير والمحبة اعترافاً بدوره الكبير في خارطة الغناء السوداني. وسط هذا الجو البديع من الترقب واللهفة وجدت نفسي أصعد خشبة المسرح لأقدمه للجمهور. وفي الواقع لم أدر ما أقول أول الأمر عندما تبعثرت الكلمات والمعاني في فمي وكأنها أرادت أن تحتفي هي الأخرى بهذه الأمسية السعيدة. ووسط التصفيق والصفير الذي ارتفع عالياً ممتزجاً بهتاف الفرح بعودة الفنان الكبير تراءت أمامي صور الجمال المتناثرة من خلال حضور الجمهور وجمال اللحظة وروعة اللقاء فاستلهمت منها عبارات مقتضبة عبرت عن قيمة الفن البديع.

استلهمتُ روح اللحظة ونسجت منها عبارات لم أعرف ما حوته إلا عندما أسمعني إياها بعض الحاضرين من أجهزة تسجيلهم عبر التلفون النقال بعد انتهاء الحفل. كانت أجهزة التسجيل بالعشرات في صالة المسرح وكأن الجميع قد أرادوا أن يوثقوا هذه اللحظات لئلا تفلت منهم رغم أن الإذاعة القومية قد مثلت حضوراً إلى جانب التلفزيون. ووسط بهرجة الضجيج والسكون المطرز بالجمال والفرح، والموشى بالأريج، والمضمخ بالمزاج المعتق صعد محمد وردي على خشبة المسرح مستهلاً إطلالته الأولى بعد نجاح العملية، فحمد الله وشكره على أن أنعم عليه بنعمة العافية، ثم أردف بعبارة أكثر تأثيراً حين قال: «**لقد كنت واثقاً أن الله سيعيدني**

إليكم لأنه هو واهب الجمال والحب والفنون، وأنا أعلم أن الله قد شفاني ببركة دعائكم وتضرعكم له بأن يشفيني من هذا الداء الأليم وأنا لذلك مدين لكم بكل هذا الجميل». بهذه العبارات الموجزات بدأ وردي وصلته الغنائية التي جعلت المكان يضج أكثر بالتصفيق والاحترام. وازداد المكان جمالاً بروعة الغناء وكأن وردي لم يُغَنِّ من قبل. نفس النداوة في الصوت الذي زادته نوائب الأيام تعتقاً وجمالاً.

ونفس القوة التي ظلت تلازمه على مر السنين، وقد غنى واقفاً بعد أن اضطره المرض قبل السفر للتغني جالساً. والأكثر إدهاشاً أنه قد قدم أغنيةً جديدة تفوق بها على نفسه عنوانها (**سلاف الغُنا**). وكانت بالفعل حدثاً بديعاً أضافه وردي لباقة الأغنيات التي قدمها في تلك الليلة.

كنتُ أحسب عندما تحدثت لشاعرها الذي ظللت طوال الحفل جالساً بقربه أنها أغنية خفيفة وصغيرة تتناسب مع ظروف وردي الصحية لأنه لحنها في فراش المرض، ولكنها كانت أغنية كبيرة على شاكلة جميلة ومستحيلة وجيل العطاء والحزن القديم. كانت تلك بعض من الذكريات مع محمد وردي فرضتها تداعيات احتفال عيد الانتفاضة الذي يفصله عن هذه الحفلة أكثر من عشرين عاماً. وبالعودة لأعياد الانتفاضة بود مدني أذكر أنني

عدت بعد انتهائها إلى الخرطوم، وفور عودتي اتصلت بمنزل الدكتور (**الجزولي دفع الله**) رئيس الوزراء الذي كنت على موعد سابق معه لتسجيل حوار لإذاعة صوت أمريكا التي كنت مراسلها بالخرطوم. وكانت قد طلبت مني إجراء هذا اللقاء ليتزامن مع تسليم السلطة للحكومة المنتخبة. وذهبت في الموعد المحدد لمنزل دكتور الجزولي برفقة الزميلة الإذاعية (**عفاف الصادق حمد النيل**) التي كانت هي الأخرى على موعدٍ مع رئيس الوزراء لتسجيل حلقة من برنامجها (**ظلال في حياة إنسان**) الذي كان عبارة عن حلقات مسلسلة معه لإذاعة أم درمان.

دخلنا منزل رئيس الوزراء وبقينا زهاء الساعة بمنزله ننتظر مجيئه من مجلس الوزراء فجاء متأخراً مرهقاً ورغم ذلك أبى إلا أن يسجل معنا ذلك الحوار. فسجلتُ معه لقاءاً لإذاعة صوت أمريكا أكّدَ من خلاله أنَّ حكومته عازمة على تسليم السلطة في موعدها، ثم سجلتْ معه الزميلة عفاف حوارها.

تعييني كبيراً للمذيعين

بعد عودتي من ودمدني بأسبوع أي في يوم 22 نيسان أبريل 1986م صدر قرار من مدير عام الإذاعة بتعييني كبيراً للمذيعين. وأحسست أن ذلك قد أضاف أعباءً جديدةً ومسؤوليات جساماً كان

لا بد من التصدي لها بعزم وقوة. وفي الواقع فإنَّ منصب كبير المذيعين هو الطموح الذي يسعى إليه كل مذيع اشتغل بهذه المهنة رغم أنه لا يخلو من المسؤوليات والمتاعب التي تتعلق بوضع جداول العمل للمذيعين وتقسيم الفرص بين الجميع للتغطيات وتسجيل المواد اليومية وما إلى ذلك. كنتُ في بداية الأمر أشعر بشيءٍ من الحرج من تقسيم الأدوار بين الزملاء بحكم أنَّ هناك زملاء أكبر مني سناً وأَقدَمُ مني في المهنة ولكنها طبيعة الحياة التي تقتضي الكثير من التضحيات.

كان أكثر ما أسعدني في مهمتي الجديدة هو تدريب المذيعين الجدد الذين تم تعيينهم بالإذاعة. حيث كان ذلك أول عملٍ رسمي قمتُ به بعد صدور قرار التعيين وهو تدريب أربعة من المذيعين ما زلت أعتز بهم واعتبرهم مصدرَ فخرٍ وتقدير وهم (**المقداد شيخ الدين**) الذي انتقل بعد ذلك للعمل بالتلفزيون ثم هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليعمل مذيعاً بإذاعة بصوت أمريكا، (**إبراهيم أبو كواية**) الذي عمل ردحاً من الزمان بالقسم السياسي ثم انتقل مديراً لإذاعة كردفان ثم هاجر إلى الجماهيرية الليبية وأخيراً انخرط في سلك التعليم الجامعي بكردفان، (**عَمَّار عبد الرحمن**) الذي عمل بقسم المذيعين ثم القسم السياسي بالإذاعة ثم هاجر إلى ليبيا وأخيراً عاد إلى السودان ليعمل مذيعاً بالتلفزيون، (**محمد بشير القراي**) الذي عمل بقسم الثقافة ثم انتقل إلى رحمة

الله في حادث أليم بين وديان كردفان عندما سقطت السيارة التي كانت تُقلهم ضمن مجموعة من الإعلاميين في إحدى المهام الإذاعية و(**فاطمة أحمد على**) التي عملت بقسم الثقافة بالإذاعة. وأثناء تدريب هؤلاء المذيعين كنتُ أترسم خطا الأستاذ ياسين مَعَنِّي الذي علمنا أبجديات العمل الإذاعي عندما كنا في بداية الطريق. وحاولتُ جاهداً أن أنقل تجربتي لهؤلاء المذيعين الجدد من خلال الاستفادة من الأخطاء واستغلال كل الإمكانات المتاحة لصقلهم وتزويدهم بالمعلومات والتجربة.

وكان أكثر ما ركزتُ عليه وظللتُ أركز عليه حتى بعد تركي للعمل الإذاعي وانخراطي في سلك التعليم الجامعي هو بناء الشخصية الإذاعية والإعلامية للفرد أكثر من التركيز على مهارات التحدث أو الكتابة حيثُ إنني ما زلتُ أؤمنُ بأنَّ الشخصية الإذاعية ليست فقط صوتاً جميلاً أو لغةً صحيحة وإنما هي تكامل الكثير من الصفات وعلى رأسها الشجاعة والطموح والاطلاع وبناء الذات المصادمة في معترك الفكر والمعرفة.

انتخابات الجمعية التأسيسية 1986م

كانت الفترة الانتقالية برئاسة المشير (**عبد الرحمن سوار الذهب**) فترةً مليئةً بالتجارب والمحاولات الدائبة على مستوى القطر كله لأجل استكشاف طاقاتٍ جديدة في القوى الحديثة التي فرضت

وجودها وسط خضم السياسة. وكانت العديد من العناصر قد برزت للساحة في مجالات العمل العام من خلال الأحزاب العديدة والتنظيمات التي حاولت جاهدةً أن تجد لها موطئ قدمٍ وسط دهاقنة الماضي المعتقين من أتباع الأحزاب الكبيرة.

ولأول مرةٍ في تاريخ الحركة الوطنية بدأت النقابات والتنظيمات تفرض آراءها ورؤاها على مسار العمل الإعلامي. وكان من أكثر ما تدخلت فيه عناصر القوى الحديثة هو شكل البرمجة التلفزيونية والإذاعية. ورغم أنَّ الكثير منها لم تكن لديه الخبرة الكافية لتسيير هذه المرافق إلا أنَّ روح التنافس ومحاولة إثبات الذات وحتى الانتقام من الماضي المرير كانت كلها دوافع فرضت على تلك القوى أن تستميت في السيطرة على قنوات الاتصال.

وساد بين الجميع إحساسٌ بأنَّ هذا التدخل حقٌ مشروع لهذه القوى خصوصاً عندما تتذكر قبضة النظام المايوي على قنوات الاتصال من إذاعة وتلفزيون وصحف. وقد خلق هذا التوجه كثيراً من الصراعات وعدم التوافق بين العاملين في هذه الأجهزة وقادة الحركة السياسية الجدد. ونتج عن ذلك تغيير عدد من مواقع القياديين بالأجهزة الإعلامية خصوصاً الإذاعة والتلفزيون.

وكان من ضمن تلك التغييرات أن تبوأ الأستاذ (**عباس أحمد التوم**) منصب مدير عام الهيئة القومية للإذاعة والتلفزيون فبادر بتكوين لجنة إعلامية للانتخابات العامة للجمعية التأسيسية

كواحدة من مقررات التجمع الوطني. وقد كان اسمي ضمن أعضاء هذه اللجنة التي أوكل لها وضع تصورٍ كامل لتنوير المواطنين بدور الجمعية التأسيسية وقيادة حملة التعبئة والدعاية الانتخابية ثم تغطية جميع مراحل الانتخابات بشكل متكامل.

وبعد عدة اجتماعاتٍ عقدناها بإدارة الهيئة القومية للإذاعة والتلفزيون أصدرنا العديد من القرارات التي كانت خلاصتها أن تتوخى هذه اللجنة النزاهة والحياد في عكس وقائع الانتخابات قبل وأثناء وبعد عملية الاقتراع. وقررنا من خلال تلك اللجنة أن نقوم بتسجيل برنامج في شكل مناظرة يطرح فيها كل حزب وجهة نظره وبرنامجه السياسي تجاه العديد من المواضيع المطروحة على الساحة. على أن يختار كل حزب من يمثله في هذا البرنامج الذي يذاع من الإذاعة والتلفزيون.

وبالفعل بدأنا أول هذه المناظرات وقد اشترك فيها السيد (**الصادق المهدي**) ممثلاً لحزب الأمة والسيد (**محمد إبراهيم نقد**) ممثلاً للحزب الشيوعي و(**د. حسن عبد الله الترابي**) ممثلاً للجبهة الإسلامية القومية والأستاذ (**عبد الله الصافي**) ممثلاً لحزب البعث العربي الاشتراكي. وقد تغيب عن الحضور ممثلو الحزب الاتحادي الديمقراطي والحزب القومي السوداني وبقية الأحزاب الجنوبية والشمالية. وسارت الأمور وفق ما رسمناه لها في جوٍ ديمقراطيٍ أتاح قدراً كبيراً من حرية الرأي والتعبير من خلال الراديو والتلفزيون.

وفي نهاية المطاف انتخب أبناء الشعب السوداني ممثليهم لكل الدوائر الانتخابية التي فاز فيها حزب الأمة برئاسة السيد (**الصادق المهدي**) بأغلبية لم تمكنه من تكوين حكومة منفردة مما اضطره للائتلاف مع الحزب الاتحادي الديمقراطي.

وكانت الجبهة الإسلامية الوليدة بقيادة الدكتور (**حسن عبد الله الترابي**) قد نالت جميع مقاعد الخريجين البالغ عددها خمسين مقعداً لتمثل بذلك جناح المعارضة في الجمعية التأسيسية. ولما كان العداء مستفحلاً بينها وبين الحزب الشيوعي وبعض الأحزاب الأخرى فقد تكونت عدد من المعارضات داخل البرلمان هي المعارضة الإسلامية بقيادة الجبهة الإسلامية القومية، والمعارضة الأفريقية بقيادة كتلة الأحزاب الجنوبية الثلاثة بالبرلمان، والمعارضة الديمقراطية بقيادة الحزب الشيوعي السوداني الذي كان رئيسُهُ الأستاذ (**محمد إبراهيم نُقُد**).

وقاد نُقُد مع زميله (**عز الدين علي عامر**) مُعارضةً اتسمت بصلابة المواقف الرافضة لعدد من الأطروحات التي قُدمت للبرلمان، وذلك رغم العدد الضئيل من المقاعد الذي فاز به الحزب الشيوعي متفوقاً على بقية الأحزاب اليسارية السودانية التي لم تَحْظَ بالفوز بأي مقاعد في البرلمان. كان انقسام المعارضة إلى ثلاثِ كُتل قد أضعف إلى حدٍ كبير دورها في تقويم سياسات الحكومة، حيث إنها سبحت ضدَّ تيار البرلمانات العالمية التي تسعى دائماً لتوحيد المعارضة

في كتلةٍ واحدة بغرض تفعيل دورها في مواجهة القوى المسيطرة على مقاليد الحكم، والتي دائماً ما تكون صاحبة الأغلبية في البرلمان. وقد شهدت تلك المرحلة الكثير من الإفرازات السياسية من خلال التنافس الذي كان على أشده بين القوى السياسية. وقد انعكس ذلك على العمل الإعلامي بشكلٍ واضح حيث بدأ البعض يتدخل في عمل الأجهزة الإعلامية محاولاً أن يستأثر بنصيبٍ أوفر من خارطة البرامج والتغطيات.

أثناء تلك المنافسات السياسية التي يبدو أنَّ لها ما يبررها كان السيد الصادق المهدي يعمل جاهداً على رأب صدوع السياسة ويفتح قنوات الاتصال مع العديد من الجبهات التي تأثرت علاقاتها سلباً بالسودان إبان فترة الحكم المايوي. ومن ضمن تلك الجبهات كانت جبهة الاتحاد السوفيتي التي تصدعت أكثر من غيرها بإغلاق جميع النوافذ بينها وبين السودان. وإمعاناً في إعادة تلك العلاقات قرر السيد الصادق زيارة الاتحاد السوفيتي في صيف عام 1986م. وكان لي شرف مرافقته في هذه الزيارة المهمة على المستويين السياسي والاقتصادي للسودان.

إلى الاتحاد السوفيتي مع الصادق المهدي

حزمتُ أمتعتي للسفر إلى روسيا بعد أن تمَّ اختياري لأداء تلك المهمة وهي الأولى من نوعها لمسؤول سوداني بحجم رئيس دولة

إلى الاتحاد السوفيتي بعد ما يزيد على العشرين عاماً. وظللتُ أفكر في هذه الرحلة التي أعتبرها الأهم في كل زياراتي خارج الوطن، ذلك لأن الاتحاد السوفيتي ظلَّ لغزاً محيراً وعالماً مجهولاً بالنسبة لنا في العالم العربي والإسلامي. وقد غذى ذلك الغموض سيلُ الدعاية التي ظلت تُطالعنا ليل نهار عن هذه البلاد من خلال الإعلام.

ولعل سياسات الكرملين التي ظل ينتهجها تجاه قضايا العالم منذ قيام الثورة البلشفية في عام 1917م والتي كان قاسمها المشترك هو معاداة الإمبريالية الغربية قد أسهمت في تلك الدعاية. حيث إنَّ الغرب عندما قاد تلك الدعاية تأثرت بها معظم البلاد العربية والإسلامية، وأطرت بذلك نظرتها للاتحاد السوفيتي من خلال المنظور الغربي.

ولا يخفى دور التعاليم الإسلامية التي ظلت تغذي تلك الدعاية ضدَّ الاتحاد السوفيتي وكل دول المنظومة الاشتراكية التي يعتبر الاتحاد السوفيتي محورها وقطب رحاها.

وأحسستُ بأهمية هذه الرحلة التي تتيح الدخول إلى هذا العالم الغامض بالنسبة للسودانيين بحكم أنَّ العلاقات بين السودان وروسيا قد ظلت متوترةً ومقطوعةً منذ فشل تجربة الانقلاب الشيوعي الذي قاده الرائد (**هاشم العطا**) ضد نظام نميري عام في شهر تموز يوليو 1971م. حيث ظلت العلاقات بين البلدين مقطوعةً

إلى أن كسر السيد الصادق المهدي هذا الحاجز بقراره بزيارة موسكو. كان الوفد المرافق كبيراً يتكون من 28 شخصاً بينهم السيد (**محمد يوسف أبو حريرة**) وزير التجارة والتموين والسيد (**فوزي أحمد الفاضل**) القائد العام للقوات المسلحة. وكان مقرراً أن نستقل طائرة الخطوط الجوية الفرنسية إلى (**باريس**) حيث نبقى بها يومين ثُمَّ نطير إلى موسكو التي ننتظر فيها مقدم السيد رئيس الوزراء بطائرة خاصة من الخرطوم.

أيام في باريس

تحرك الوفد كله ما عدا رئيس الوزراء وثلاثة من أعضاء الوفد الرسمي في صبيحة يوم الأربعاء 6 آب أغسطس 1986م ووصلنا إلى مطار ديجول الدولي في باريس حيثُ كان في استقبالنا أعضاء السفارة السودانية وبينهم (**د. حيدر حسن حاج الصديق**) الشهير ب (**علي قاقرين**)، وكان يعمل وقتها كدبلوماسي في منصب السكرتير الأول في سفارة السودان بباريس.

أخذنا أمتعتنا وتوجهنا إلى الفندق الباريسي الجميل، ولم أصدق أنني في قلب الشانزليزيه وأرض الثورة الفرنسية التي شهدت صولات القياصرة ومقصلة روبسبير التي قصلت المئات من المناوئين لقصر الإليزيه ثم التفَّت حول رقبته هو في آخر المطاف. باريس التي ارتبطت في ذهني بعشرات الأسماء بدءاً بعطر سوار دي باري ونهايةً

بكرستيان ديور. الكل في باريس يمثل بالنسبة لي هدفاً أريد اصطياده، ولكن لا أدري لماذا عشعشت في خاطري شوربة الضفادع وأنا أضع قدمي على درجات مدخل الأوتيل الأنيق. لم أتردد في طلبها بمجرد أن جلست على مائدة الطعام، ولكن للأسف لم يكن الفندق الذي نزلنا به يقدمها للضيوف. وأبديت امتعاضي لفتاة المطعم التي أخبرتني بعدم وجود ذلك الطبق بين الأصناف التي يقدمونها وقلت لها: «**كيف يكون هذا المطعم فرنسياً بدون حساء الضفادع؟**» فقالت: «**لدينا ما هو أكثر فرنسيةً من الضفادع**».

إنها النفس التواقة لخوض التجارب وركوب المخاطر. لم أتعلم أن أعرف الأشياء من أفواه المتحدثين بل أخوض التجارب بنفسي حتى أقتنع. ولذلك ليس في قاموسي ما هو مرفوض إلا بمقياس الحلال والحرام الذي لا تقوَ نفسي على خوض غماره. وهو الحد الوحيد الفاصل بيني وبين الأمور. قبلت الهزيمةَ في عدم وجود حساء الضفادع وطلبت طبقاً من (**الكافيار**) فأتوا به وسط شرائح الجبن الكرافت وقطع البطاطس المحمر والصوص الحارق.

أمسكتُ بالشوكة والسكين بكل ما أوتيتُ من شراهةٍ وأقبلتُ على الطعام. وبمجرد أن وضعت يدي على الخوان لاحظتُ وجود علبةٍ من عُلب البيرة المثلجة فتبعثرت أناملي التي لم تَسْعَ إلى ذاك الشراب على مدى سنوات العمر. وناديت الجرسون وقلت له: «**أنا لم أطلب خمراً فأرجو أن تأخذها من هذا الخوان**»، فقال لي: «**هذه لا**

يطلبها الزبون، وإنما نقدمها تلقائياً مع كل أصناف الطعام». قلت له: «**أنا لا أتعاطاها، وأرجوك أن تستبدلها بأي نوعٍ من العصير المثلج**». أخذ الجرسون علب البيرة ولم يعد، فاتصلت به ثانيةً أطلب الماء والعصير فعاد إلى يحمل نفس العُلب، وأحسست بأنَّ كل خلجة في جسمي قد ارتعدت من الغليان والغضب ولما صرخت في وجهه بأن يُغير هذا بعصير ذهب ولم يعد إلى اليوم. وظللت أشرب الماء من الحنفية الملحقة بالغرفة حتى غادرت أرض باريس.

كل هذا حدث قبل الخروج إلى شوارع باريس الساحرة، وبعده جاءت الحافلة وأخذت الجميع للطواف بمعالم المدينة. لا شيءَ في التاريخِ أجمعِهِ يُشبه شوارع باريس التي غطتها الأضواء المتلاصفة، ورقصت على ضفافها كرنفالات النجوم القادمين من كل بقاع الدنيا ليسهموا في زيادة الصخب الذي غطى كل أرجاء المدينة.

كان الكل مندفعاً نحو الأمام بسرعة جنونية حتى السيارات والدراجات النارية والقطارات والفتيات والقطط والكلاب في شارع (**شارل ديجول**). عشراتُ المسارح تضج بالحاضرين إلا مسرحاً واحداً كان معظم رواده من العجزة والمسنين وبعض المراهقين. كانوا يقفون صفاً من أجل الحصول على تذكرة الدخول يتأبط كلُ واحدٍ منهم كفَّ زوجته العجوز أو صديقته العزيزة ويمسك بغليونه الطويل أو لفافة السيجار الضخمه التي يسهم دخانها بقدر

وافر مع دخاخين المصانع والسيارات والمقاهي والدراجات النارية في تلويث البيئة الفرنسية المجنونة. أُطفئت الأنوارُ داخل المسرح فبدا فتىً يغازل فتاتَه التي لم تبلغ العشرين من عمرها ويناجيها بكل مفردات العشق والغرام، وتميل إليه الفتاةُ في كسلٍ يشابه تحنان العذارى في ألف ليلة.

كانت تلك هي باريس التي اقشعرت لها أبداننا خوف المجهول. وعاشت في مخيلتنا كمدينة متمردة خلعت حجاب الرهبنة يوم أن سكبت على ملابس القديس أرتال النبيذ، وأطفأت شموع عيد الميلاد بدماء المقاتلين والبؤساء الرافضين لغطرسة ماري أنطوانيت وجبروت لويس السادس عشر. ما كان لها أن تنام أو تغفو لأنها تخشى أن يجرفها تيارُ الحياة إن هي نامت في العشية. مدينةٌ اختلط ليلُها بنهارها، واختلط رجالها بنسائها، واختلط حياؤها بسفورها، واختلط جحيمها بنعيمها، ورقصت على بلاط الهوى حتى غسلت جبينها بماءِ الوجه في كثيرٍ من الأحيان.

إنها باريس التي لا بد لكل من أراد أن يعرف الخيط الرفيع بين حواف الجحيم والنعيم أن يدخلها، ولكن يجب أن يغتسل سبعاً بعد الخروج. مكثنا فيها يومين مرّا كدقيقتين كان لابد فيهما من إماطة الأذى عن ذلك الطريق تبركاً وتقرباً إلى ربٍ بعيدٍ عن أذهان الراكضين بين حواريها وشوارعها العريقة. سألت د. حيدر حسن حاج الصديق عن الزميلتين (**ليلى المغربي وهيام المغربي**) وكانتا قد

وصلتا إلى باريس قبل مجيئنا بعدة أيام فقال لي إنهما الآن في إمارة موناكو القريبة من باريس. وضاعت عليَّ الفرصة لزيارة إذاعة مونتكارلو التي كنتُ أعتزم الذهاب إليها معهما قبل مغادرة فرنسا حيث كانت ليلى تعمل بها لبضعة شهور وفقاً لتعاقدٍ مؤقت.

في أحد أركان الحديقة جلست شابة ترسم وجوه الحاضرين بفرشاتها الساحرة التي تمسكها بأناملها الرقيقة لتعطيك صورةً ملونةً لوجهك في بضع دقائق مهما كانت التجاعيد وخطوط الزمان وألوان الخدود.

وعلى جانب منها ارتفع تمثال لرجل أفريقي أسود وقف عارياً كما ولدته أمه. وأبى خيال الفرنسيين إلا أن يجعله رجلاً قليل الحياء يعتز بجسده العاتي فاغراً فمه العريض ليلتهم الفرنكات الفرنسية بشراهة شديدة. واصطف الشباب والشيب والأطفال ليضعوا بعض قطع النقود على فمه ليعطيهم آيسكريماً من الشيكولاتة الطازجة، وكل ما في الأمر أنها ماكينة آيسكريم من الطراز الباريسي المجنون.

مكثنا في تلك المدينة الغجرية الصاخبة ما شاء لنا القدر أن نمكث ثم غادرناها متوجهين نحو الاتحاد السوفيتي لنؤدي مهمتنا التي خرجنا من أجلها وهي تغطية زيارة رئيس الوزراء، والكل يرسم في مخيلته صورةً لتلك البلاد النائية جغرافياً وحضارياً وفكرياً وروحياً عن أذهاننا أو هكذا أراد لها أساطين الدعاية أن تكون.

من باريس إلى موسكو

آن أوان الرحيل من عاصمة الترف والجنون باريس إلى مدينة موسكو عاصمة الاتحاد السوفيتي الذي تفكك بعد زيارتنا بسنواتٍ قليلة وتحول من ذلك الاسم إلى جمهورياتٍ ودويلات لا يربطها إلا رابط الكومنولث الذي ظلَّ اسماً على الورق أكثر منه على خارطة الواقع. والمسافة بين باريس وموسكو كالمسافة بين المشرق والمغرب. هبطت بنا الطائرة في مطار موسكو الدولي وكان أعضاء السفارة السودانية وعلى رأسهم السفير (**عوض الكريم فضل الله**) بانتظارنا تحت رزاز المطر.

امتطينا سيارات (**الكريملين**) وانطلقنا من المطار نحو المدينة. هل أنا في صحوٍ أم في منام؟ هل هذه هي موسكو التي ظلت حلماً يراودني كما يراود كل أذهان الشباب؟ ألف سؤال وسؤال في خاطري ولا أدري من أين أبدأ.

انعقد اللسان، وسبقتني عيوني إلى كل الاتجاهات تريد أن تدرك كل شيء في أسرع من لمح البصر. وأحسست منذ الوهلة الأولى أن لغة الكلام لا تجدي في هذا المقام ولذا أطلقت العنان لبصري وبصيرتي لتجيب عن كل التساؤلات. الخيال الجامح طاف بي في كل الزوايا وخاض في كل المعتركات. وكلما لاحت أمامي بعض المعالم القديمة نسبياً تذكرت إرهاصات الثورة ضد القياصرة. لم تكن في التاريخ ثورة أعنف من ثورة البلاشفة التي قضت على رجال

القصر والمناشفة على حد سواء. كانت الشوارع خاليةً من المارة ونظيفة كأنما غسلتها المتاعب من طول الركوض خلف طوابير المجمعات الاستهلاكية والكوميونات المنتشرة في خمسة عشر جمهوريةً هي كيان الدولة السوفيتية.

وطافت بخاطري صرخات (**تروتسكي**) ضد غدر رفيق نضاله (**لينين**) في بدايات أيام الثورة، وتذكرت أرتال الجيش الأحمر الزاحف على (**بطرسبيرج**) لتمشيط آخر معقل للبرجوازية بعد استتباب الأمر في عاصمة روسيا البيضاء. وتذكرت حمّامات الدم التي أراقها (**استالين**) حينما تمردت تجمعات الفلاحين وصغار العمال في الغوغاز والطاجيك وعلى ضفاف نهر الفولجا. وقبل أن أكبح جماح الخيال المجنح توقفت السيارة المقلة لنا أمام فندق الحزب الشيوعي المجاور لساحة (**الميدان الأحمر**) حيث يقف مبنى (**الكريملين**) شامخاً وشاهداً على الحضارة التي تمردت على كل عنجهيات الغرب لأطول حرب باردة في تاريخ البشرية.

دخلنا غرفنا، وكان كل شيء أمامنا يبدو غريباً ومثيراً للشكوك والتساؤلات بحكم الخلفية الثقافية والإعلامية التي تلقيناها طوال حياتنا عن الاتحاد السوفيتي. إنتابني إحساسٌ وأنا أدخل الفندق بأني لن أجد طعاماً حلالاً ولا ماءً حلالاً ولا قِبلةً أتوجه إليها إذا أذن الفجر في هذه البلاد التي لا تعرف الفجر. وتذكرتُ ماءَ الحنفية الذي استعضتُ به في باريس عن علب السايدر

وقلتُ لنفسي إذا كانت تلك هي باريس فالحال حتماً سيكون أفظع في موسكو لأنَّ باريس على الأقل تعرف الفرق بين القرآن والإنجيل والتوراة. كان هذا هو إحساسي وأنا أدخل الفندق العريق في وسط المدينة والتابع لقيادة الحزب الشيوعي السوفيتي. وحتى مجلس الوزراء السوداني لم يكن على ثقة من أريحية السوفيت ولذلك أعطى كُلَّ واحدٍ منا (**مبلغ ألفين وستمائة**) دولار أمريكي لزوم النثريات والطعام والسكن إذا لم يقم الروس بإيوائنا كوفد مرافق لرئيس الوزراء.

وكان الواقع عكسَ ما توقع مجلس وزرائنا الموقر وعكس ما توقعنا وعكس ما توقعت كل الكتب التي دبجت صفحاتها بالحديث عن خواء الإنسان الروسي. كان الواقع صفعةً في خد الدعاية التي ظللنا نروج لها على مدى سنوات التاريخ وهذا هو الدليل. دخلتُ مع زملائي قاعة استقبال الفندق فجاء إلينا شابٌ وسيم الطلعة موفور الشباب وحيانا بلغة الإسلام الفصيحة قائلاً: (**السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومرحباً بكم في دياركم**).

نظرنا إلى بعضنا البعض ورددنا عليه التحية بأحسن منها. سلمنا مفاتيح الغُرف، وذهبنا خلفه نحو المصعد بعد أن حمل عُمال الفندق حقائبنا وسبقونا إليها. كان الفتى الذي أوصلنا إلى الغرف حريصاً على الاطمئنان على كل شيء حتى توزيع خيوط الشمس التي بدأت تغازل بعض أركان الغرف. جلستُ على الأريكة الأنيقة

بالغرفة، وراعني عندما قال لي إذا أردت الصلاة فالقبلة على هذا الاتجاه، وأشار بيده إلى جهة القِبلة. وعندئذٍ تشجعتُ وسألته والحرج يملأ نفسي: ((**كم سندفعُ مقابل الأكل والإقامة أثناء الزيارة؟**))، فقال لي: ((**عيبٌ أن تقولوا مثل هذا الحديث، إنكم ضيوفُنا، وكلُّ شيءٍ هنا بالمجان بدءاً بالطعام ومروراً بحمامات السباحة والمواصلات وانتهاءاً بالمكالمات التلفونية، حيث يمكنكم أن تتحدثوا مع ذويكم في أي بقعةٍ من بقاع الأرض دون التوجس من دفع الفواتير، فالكل هنا مفتوحٌ بالمجان بغرض ضيافتكم الكريمة. ثم إنَّ أيَّ طعامٍ نُقدمه لكم سيكون حلالاً لأننا نعرفُ أنكم مسلمون فلا داعي للسؤال**)).

وخرجتُ من غرفتي مثل أرخميدس أصيح على الرفاق (**وجدتها وجدتها**). ورأيتُ في الممر الزميل (**بابكر الصديق**) محرر الأخبار بالتلفزيون الذي كان متوجساً مثلي وقلتُ له: ((**تصور أنَّ هذا الشاب قد دلني حتى على قبلة الصلاة وبشرني ألا خوف من الطعام ولا المشروبات ولا المكالمات التلفونية**)).

وكانت دهشتي عندما أخبرني أعضاء الوفد أنَّ إدارة الفندق لم تكتف بوصف القبلة بل أحضرت لبعضهم سجاداتٍ للصلاة. ورجعت إلى غرفتي أسطر ذلك للتاريخ. وفي الساعة الواحدة من ظهر اليوم التالي لوصولنا والذي وافق يوم الأحد 10/8/ 1986م تحركنا إلى مطار (**فونوكوفو**) بموسكو وهو المطار الرسمي الذي تستقبل به الدولة كبار زوارها، حيث وصل (**السيد**

الصادق المهدي) والوزراء المرافقون له بطائرةٍ خاصة من الخرطوم. وكان في استقباله بالمطار رئيس الوزراء السوفيتي السيد (**نيكولاي ريشكوف**) وأعضاء السلك الدبلوماسي الأجنبي المعتمدون لدى الاتحاد السوفيتي.

وكان الوفد المرافق للسيد الصادق يتكون من (**د. حسين سليمان أبو صالح**) وزير الصحة والرعاية الاجتماعية، (**د. محمد يوسف أبو حريرة**) وزير التجارة والتعاون والتموين، السيد السفير (**الطيب أحمد حميدة**) مدير الشئون السياسية بوزارة الخارجية السيد (**اللواء أ. ح فوزي أحمد الفاضل**) ممثلاً للقوات المسلحة، السيد (**عبد الله محمد جبارة**) مدير المراسم بوزارة الخارجية، السيد (**قِدْوِنْ جُمعة**) مدير إدارة شرق أوربا و(**الدكتور على كمبال**) مدير مستشفى سوبا الجامعي، وممثلين لوزارات المالية والتخطيط الاقتصادي، التجارة والتعاون والتموين، الصناعة، والري. كما انضم للوفد بعد الوصول للاتحاد السوفيتي السيد (**عوض الكريم فضل الله**) سفيرُ السودان بموسكو.

وسألتُ السيد عوض الكريم فضل الله: ((**لماذا ضم هذا الوفد كل هذه التخصصات المختلفة؟**)) فقال لي: ((**إن هذا التشكيل جاء ليواكب تطلعات الحكومتين من أجل بناء قنوات للتعاون في مختلف المجالات بين السودان وروسيا خصوصاً وأن العلاقات ظلت منعدمةً تقريباً على مدى العقدين الماضيين**)). وفي الساعة الثالثة

والنصف من مساء الإثنين 11 آب أغسطس انعقد لقاء بجميع أعضاء الوفد في قاعة (**إيكاتيدينسكي**) داخل قصر الكريملين. وقد ترأس الجانب السوداني رئيس الوزراء السيد (**الصادق المهدي**) والجانب السوفيتي السيد (**نيكولاي ريجكوف**) رئيس الوزراء.

رحب رئيس الحكومة السوفيتية بالسيد الصادق المهدي واصفاً الزيارة بأنها نقطة تحول بين حكومة السودان والحكومة الروسية. ثم تحدث بعده السيد الصادق المهدي فسرد طويلاً الظروف التي أملت فتح صفحة جديدة مع الاتحاد السوفيتي، وانتقد سياسة جعفر نميري التي توجهت بكلياتها نحو الغرب.

الطواف بالكريملين

بعد ذلك أتيح للوفد الزائر أن يطوف بالكريملين بغرض مشاهدة الأجنحة والصالات التي حوت كل شيء من تاريخ القياصرة حتى آخر أنشطة الحكومة السوفيتية الحاضرة. وسألوا السيد الصادق: ((**هل تحبون أن تطوفوا من الداخل أم من الخارج؟**)) فقال السيد الصادق: ((**أعتقد من الداخل أحسن**)). وهذه العبارة سجلتُها على الشريط الإذاعي لأني كنتُ أسجل كل حرف في هذه الزيارة الأولى من نوعها بغرض التوثيق والأمانة، ولما أذعتها من خلال البرنامج الذي أعددته عن الزيارة استغلتها بعض الصحف المناوئة للسيد الصادق وقالت إحداها في صفحتها الأولى (**ذهب**

الصادق المهدي ليطوف ويركع أمام قبر لينين). وهي بالطبع مغالاة جانبتها الحقيقة جملةً وتفصيلاً. طفنا بجوانب الكريملين غرفةً غرفة وصالةً صالة. وكانت كل الأجنحة تُنبئ بالذوق الفني الرفيع في تصوير كل الحقب المتعاقبة على هذه الإمبراطورية العريقة. وفي الجناح المخصص للزعيم الشيوعي الراحل (**فيلاديمير لينين**) كان كل شيء قد وضع في مكانه بنفس الكيفية التي كان يستخدمها لينين حتى الأحذية وفرش الأسنان والملاعق ومحابر الكتابة.

وعلى مبعدة من ذلك الجناح كانت أجنحة القياصرة القدماء في مرحلة ما قبل الثورة البلشفية 1917م. حيث وضعت مقتنيات كل قيصر والرسومات التي تحدد معالم سياسته وتاريخه والأشياء التي فعلها من خلال اللوحات والمعلومات المكتوبة وغيرها. ودخلنا بعد ذلك قاعة (**مجلس السوفيت الأعلى**) وجلسنا على كراسي النواب، فجاءنا صوت لينين منبعثاً من مكبرات الصوت الموزعة على جنبات القاعة وكأنه يرأس الجلسة.

خرجنا بعد ذلك لزيارة قبر لينين في مدخل الكريملين قبالة الميدان الأحمر فوجدناه راقداً يلبس بدلته الرمادية الداكنة ويضع منديله في جيب الجاكيتة. وتأملت ذلك الرجل الذي غير ملامح العالم لنصف قرن من الزمان. كان قصير القامة نحيف الجسم معروق الوجه صغير الرأس والوجه كثيف الحاجبين وكأنه غارق في تفكير عميق. وحول قبره كانت هناك قبور قادة السوفيت

المتعاقبين على الزعامة بالترتيب منذ عصور ما قبل الثورة الشيوعية وإلى آخر الراحلين وهو (**شيرنينكو**). خرجنا من الكريملين إلى (**الميدان الأحمر**) الذي يقع أمام الكريملين مباشرةً في قلب موسكو. ودهشتني الجموع الغفيرة من الناس الذين يدخلون ويخرجون من الكريملين بشكل طبيعي وعادي دون اعتراضٍ من أحد. وسألتُ عن السر في ذلك فقيل لي:

«إنَّ هذا هو أسلوب الروس منذ نشأ الكريملين، لا يُغلق في وجه أي إنسانٍ مهما كان، بل وحتى في أثناء وجود القادة السوفيت يمكن لأي فرد من أفراد الشعب أن يدخل وقتما يشاء ويخرج وقتما يشاء ويطرح كل ما عنده من مشاكل أو تساؤلات».

وعندما جاء المساء أقامت الحكومة السوفيتية حفل عشاء بقاعة (**فيرانوفيتايا**) تكريماً للسيد الصادق المهدي والوفد المرافق.

دخلنا قاعة العشاء الفاخرة وتناولنا الطعام الذي كان قاسمه المشترك وجبة السمك الطازج والخضروات المتبلة بأشهى أنواع التوابل التي تزخر بها بلاد الاتحاد السوفيتي خصوصاً الجمهوريات الواقعة في قلب آسيا الوسطى. وفي العشاء قُدِمتْ لنا أطباقُ التحلية وكان الدخان يتصاعد منها فانتظرناها حتى تبرد ويتوقف تصاعد الدخان منها لنأكلها. ولكنَّ الدخان ظل متصاعداً طوال مكوثنا في القاعة ولم يتوقف أو يتلاشى، وعندما رأينا الروس يأكلون أطباقهم رغم ذلك الدخان توكلنا على الله وقلنا

فلنأكلها ساخنةً وأدخل كلٌ منا ملعقته في الإناء متحسبين لسخونة محتوياته فكانت المفاجأة أنها (**آيسكريم**) وما ذاك الدخان إلا منظرٌ وهمي بغرض تجميل الآيسكريم ولا يتوقف حتى يفرغ الإناء بكامله، وضحكنا من أنفسنا لأن الجميع قد خدعهم ذلك الدخان حتى رئيس وزرائنا السيد الصادق المهدي.

بعد تناول الطعام وقف السيد (**نيكولاي ريجكوف**) رئيس مجلس وزراء الاتحاد السوفيتي وحيا وفد السودان ممثلاً في شخص السيد الصادق وأثنى ثناءاً حاراً على إعادة العلاقات مع هذه الدولة الصديقة التي قطعتها ظروف السياسة عن صداقة بلاده لسنواتٍ طويلة. وقد توقف الجميع عن تناول طعامهم أثناء إلقاء كلمة السيد ريجكوف التي استغرقت مع ترجمتها زهاء العشر دقائق. ولما كانت تلك الكلمة أول خطابٍ رسمي يُقالُ أمام حاكم سوداني من القادة الروس بعد سنواتٍ من الخصومة والقطيعة فقد حرصتُ أن أسجلها كاملةً وأضعها بين يدي القارئ للتاريخ، حيث قال:

السيد رئيس مجلس الوزراء المحترم،

من دواعي سرورنا أنه أتيحت لنا فرصة لنرحب بكم وبجميع ممثلي جمهورية السودان الرسميين الحاضرين هنا بصفتهم ضيوف الحكومة السوفيتية ولنعبر لكم عن مشاعرنا الودية المخلصة. حدث منذ ثلاثين عاماً حدثٌ تاريخيٌ في حياة الشعب

السوداني عندما تكلل نضاله الطويل من أجل الحرية وضدَّ السيطرة الأجنبية بنجاح، وأصبح السودان دولةً مستقلةً ذات سيادة. ورحب الاتحاد السوفيتي بهذا الحدث ترحيباً حاراً، وكان في مقدمة دول العالم التي اعترفت بجمهورية السودان. وأرسيت في ذلك الحين أسس للتعاون السوفيتي السوداني الودي الذي كان الاتحاد السوفيتي يتطلع في إطاره دائماً وبكل الإخلاص إلى تقديم المساعدة للشعب السوداني لإزالة آثار الاستعمار وتطوير الاقتصاد الوطني، الأمر الذي ظهر فيه الخط المبدئي للسياسة الخارجية السوفيتية التي تعتمد دائماً على مبادئ احترام سيادة واستقلال ووحدة أراضي جميع دول العالم وعدم التدخل في شئونها الداخلية، هاهي السياسة التي أوصى بها لنا لينين العظيم والتي ظلَّ الاتحاد السوفيتي دائماً وفياً لها. وعلى الشعب السوداني ألا يشك في أنَّ الاحترام العميق والعواطف المخلصة التي يكنها له الاتحاد السوفيتي ستظل إلى الأبد، أما الوقفة في العلاقات السوفيتية السودانية فلم تكن مرتبطة بتغييرات ما في السياسة السوفيتية بل كانت ناتجة عن الخط السياسي الذي كان يتبعه نظام نميري لأنَّ الشعب السوداني رفض تلك السياسة مما خلق اليوم من جديد ظروفاً ملائمةً للتعاون السوفيتي السوداني. إننا نعتقد أنَّ علاقات الاتحاد السوفيتي مع البلدان المتحررة تُبنى على أساس المصالح المشتركة. ويؤيد الاتحاد السوفيتي تأييداً كاملاً تطلع هذه البلدان إلى تطوير اقتصادها

بالشكل الذي يخدم ثرواتها الطبيعية وجهود شعوبها الإبداعية لما فيه خير هذه الشعوب حتى تُبنى العلاقات الدولية الاقتصادية على أساس المساواة في الحقوق والمراعاة الكاملة لمصالح هذه الشعوب. إنَّ تطابق وجهات نظرنا مع وجهات نظر شعوب البلدان النامية يظهر كذلك فيما يتعلق بالقضية الرئيسية لعصرنا الحديث وهي قضية السلام، إذ يوجد لدينا التفهم المشترك بأنَّ العالم يواجه اليوم الخطر الواقعي لإبادة البشرية، وإنَّ هذا الخطر لا بد أن نحول دون وقوعه. كما أننا ننطلق من تفهمنا المشترك بأن مسائل النضال من أجل السلام وإزالة التوتر الدولي الخطير وفي سبيل نزع السلاح مرتبطةٌ ارتباطاً عضوياً بحل القضايا الملحة للإنماء الاقتصادي. ونستطيع أن نشير بارتياح عميق إلى أنَّ تطابق مصالح الاتحاد السوفيتي وغيره من البلدان الاشتراكية ومصالح مجموعة كبيرة من الدول النامية المستقلة يظهر اليوم بوضوح أكثر ويصبح مصدراً للمبادرات البناءة ذات الأهمية الكبيرة. ومما يؤكد على ذلك بيان (**ميخيكو**) الذي أصدره منذ عدة أيام قادة حكومات الدول الست، والذي يعكس القلق العميق للناس من قارات الكرة الأرضية كافةً من الوضع الخطير الذي نشأ اليوم في العالم، ويدل على عزمها على عمل كل ما يمكن لوضع حد لمثل هذه الحالة. إننا نقدر تقديراً عالياً هذه الجهود التي تتجاوب مع المبادرات السوفيتية السلمية الرامية إلى حلٍ فعالٍ ومقبول للجميع للقضايا الملحة في مجال

توطيد الأمن الدولي. لقد أصبحت هذه المبادرات معروفةً جيداً على الصعيد الدولي وإنها تتعلق بالحظر الكامل والشامل لتجارب الأسلحة النووية، والحيلولة دون بسط سباق التسلح على الفضاء الكوني، والتقليص الجذري للترسانات النووية وإبادتها فيما بعد، والحظر الشامل للأسلحة الكيماوية. وإن برنامج تأمين الأمن الدولي والتعاون السلمي في منطقة المحيط الهادئ وآسيا الذي طرحه السكرتير العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي الرفيق م. س غورباتشوف في فيلاديفوستوك في 28 من شهر تموز يوليو الماضي يكتسب أهميةً بالغةً من حيث مصالح تطبيع الأوضاع الدولية. إنَّ هذا البرنامج الذي يخلق ممهدات ملائمة لحل عدد من القضايا بما فيها التسوية السياسية للأوضاع حول أفغانستان يدل دلالةً عميقة على الإرادة والنوايا الطيبة للاتحاد السوفيتي. وتشكل مجموعة التدابير المتضمنة في هذا البرنامج، بما فيها عدم جواز نشر وزيادة الأسلحة النووية وتقليص نشاطات الأساطيل البحرية العسكرية وتقليص القوات المسلحة والأسلحة التقليدية. إنَّ هذه التدابير في مجملها تشكل أساساً متيناً للأمن الإقليمي في منطقة المحيط الهادئ وآسيا بأكملها. ليس ذلك فحسب، بل إنَّ من شأنها كذلك أن تشكل نموذجاً لتوفير الأمن في مناطق أخرى. واليوم لا يستطيع أحد أن يفصل أفريقيا فصلاً تاماً عن القضايا العالمية العامة، بل بالعكس تتشابك حلول كثير من المشاكل الحيوية

للدول الأفريقية مع مسائل السياسة الدولية. ومما أثار الأزمات الخطيرة في جنوب أفريقيا والشرق الأوسط هو تصرفات غير مسؤولة ومغامرة لنظام بريتوريا العنصري وإسرائيل. ولكن هذه الأعمال كانت مستحيلةً لو لم تؤيدها الولايات المتحدة الأمريكية. ويعتبر وضع حد للجرائم المرتكبة ضد الشعوب العربية في الشرق الأوسط ووضع حد لجرائم العنصريين في جنوب أفريقيا ضرورةً ملحةً للغاية. وينبغي إيقاف تقديم الدعم لنظام بريتوريا من قبل الأوساط الإمبريالية وحكومات بعض الدول الغربية. ويوجد أسلوب فعال وشرعي لكبح جماح تصرفات العنصريين، وهو فرض عقوبات ملزمة وشاملة على دول التمييز العنصري وفقاً لميثاق هيئة الأمم المتحدة. إنَّ الاتحاد السوفيتي وتأييداً تطلعات شعوب الدول الأفريقية إلى تصفية الاستعمار والتفرقة العنصرية كان ولا يزال يقف إلى جانب تطبيق هذه العقوبات بلا تريث. إنَّ جمهورية السودان بصفتها عضواً في الأسرتين العربية والأفريقية لا يمكنها أن تتخذ موقف اللامبالي بالنسبة للأوضاع في الشرق الأوسط وجنوب أفريقيا. وإننا نعلم أنَّ السودان يتضامن مع النضال العادل للشعوب العربية بما فيها الشعب الفلسطيني ومع نضال المجابهة الأفريقية. وإنَّ موقف الاتحاد السوفيتي في هذا الصدد معروف بصورة جيدة. لا يمكن كبح جماح المعتدين وإجبارهم على احترام الحقوق المشروعة للشعوب إلا من خلال الجهود المشتركة لجميع القوى المحبة للسلام

والحرية مما يفتح الطريق أمام التقدم الاقتصادي والاجتماعي والتغلب على مشاكل الشعوب الحادة التي ورثتها من الاستعمار في الماضي. وإننا نقدر تقديراً عالياً رغبة حكومة السودان الجديدة في تطوير علاقاتها الودية مع الاتحاد السوفيتي في مختلف المجالات. وإننا مستعدون من جانبنا أن نسير في نفس الاتجاه. إنَّ تبادل الآراء حول العلاقات الثنائية الذي تمَّ اليوم سيصبح نقطة الانطلاق وتوسيع التعاون الودي بين الاتحاد السوفيتي والسودان. أما من جانبنا نحن فسوف تجد الحكومة السودانية موقفاً مؤيداً ومؤازراً لمواصلة توسيع وتعميق العلاقات والاتصالات الثنائية. ونتمنى للشعب الصديق في جمهورية السودان نجاحات في تطوير الاقتصاد الوطني وحل قضاياه الحيوية، كما نتمني له نجاحاً في التقدم الاجتماعي. واسمحوا لي يا سيادة رئيس الوزراء أن أتمنى لكم نجاحاً في نشاطاتكم المقدرة وشكراً.

ثم رد عليه السيد الصادق المهدي بكلمة مماثلة قال فيها:

السيد المحترم نيكولاي ريجكوف

رئيس مجلس وزراء الاتحاد السوفيتي،

الأصدقاء الأعزاء،

إنه لمن دواعي غبطتي أن أعرب لكم أصالةً عن نفسي ونيابةً عن الوفد المرافق لي عن خالص شكرنا وفائق تقديرنا للاستقبال الودي الحار

والحفاوة البالغة التي غمرتمونا بها منذ لحظة وصولنا إلى بلادكم العظيمة. كما يسعدني أن أنتهز هذه الفرصة لأعبر لكم عن سرورنا البالغ بتلبية دعوتكم الكريمة للقيام بهذه الزيارة التي نتطلع أن تكون إيذاناً واستشرافاً لفاتحة عهد جديد مشرق من العلاقات المتطورة في كافة المجالات بين بلدينا الصديقين بعد أن أصابها التصدع طيلة فترة نظام الحكم المايوي المباد بسبب سياساته الخرقاء التي ألقت بظلالها الكالحة ونتائجها السلبية على علاقات بلادنا مع العديد من دول وشعوب العالم الأخرى، وبتخبطه العقيم الذي أدى إلى انهيارٍ كامل وشللٍ تام في جميع أوجه حياة شعبنا وعرَّض وحدة البلاد الوطنية للتمزق، وأورثنا كارثة المجاعة والجفاف والتصحر، وأقعد بلادنا من القيام بدورها في المحافل الإقليمية والدولية، الأمر الذي دفع بجموع شعبنا الأبية إلى تفجير الثورة الشعبية التي أطاحت بذلك النظام الفاسد في السادس من أبريل من العام الماضي، مؤكدةً عظمة شعب السودان وإرادته الغلابة في تفرده بإسقاط نظام حُكمين عسكريين دكتاتوريين وهو أعزل من السلاح مستمداً قوته وعزته من تاريخه المجيد الحافل بالنضال والبطولات التي اتصلت حلقاتها عبر السنين والأجيال في ثورات عارمة ضد القهر والتسلط والمستعمر الدخيل. الأصدقاء الأعزاء، هكذا تتواصل هذه الحلقات من الفرائد والمنجزات لشعبنا الذي أعلن للملأ تمسكه وانحيازه للخيار الديمقراطي بحيث تمكنا من إجراء انتخابات عامة

رغم كل السلبيات المحيطة بالبلاد جاءت بممثلي الشعب إلى الجمعية التأسيسية. وتم انتخاب مجلس رأس الدولة وتشكيل الحكومة الديمقراطية المنتخبة والتي تأتي في مقدمة أولوياتها تصفية آثار حكم مايو المباد وتركته المثقلة باقتلاع جذور الفتنة الدينية والعرقية. حيث شرعنا في إجراء الاتصالات وفتح قنوات الحوار تمهيداً للتحضير اللازم والإعداد المثابر لعقد المؤتمر الدستوري الذي ستشارك فيه كافة الفعاليات السياسية في البلاد بغرض التوصل إلى الصيغة الملائمة للكيفية التي سيحكم بها السودان التزاماً بنهجنا القومي الذي نسلكه لترسيخ دعائم وحدتنا الوطنية. كذلك فقد عقدنا العزم على إحداث إصلاحات اقتصادية جذرية تنتشل البلاد من اقتصاد خائر منهوك إلى اقتصاد مُعافى ومزدهر يكفينا شرور الاعتماد على الغير ويقودنا إلى مجتمع الكفاية والعدل. كما أننا قد التزمنا أمام شعبنا بتنفيذ ما تبقى من بنود ميثاق الانتفاضة وميثاق الدفاع عن الديمقراطية والميثاق الاقتصادي الذي تبناه المؤتمر الاقتصادي القومي. فنحن نحرص على إعطاء الديمقراطية بُعداً اجتماعياً يعود على المجتمع بالتوازن والتعاون والعدالة. الأصدقاء الأعزاء، إننا نبذل قصارى جهدنا لنقل بلادنا إلى مجتمع يبني علاقاته مع الأسرة الدولية على أسس السيادة والمساواة والاحترام المتبادل والمنفعة المشتركة وعدم التدخل في الشئون الداخلية للغير واحترام الخيارات العقائدية والفكرية

والسياسية والاجتماعية للشعوب وحرية اتخاذ القرار الوطني بما يؤهل بلادنا لأخذ موقعها اللائق بها بين الأمم ويمكنها من أن تلعب دوراً بناءً من خلال سياسة خارجية إيجابية تجسد مُثُلَنا وانتماءاتنا وتحقق مصالحنا المشروعة وتساهم في عملية توطيد أركان السلام العالمي وتعزيز التعاون الدولي. وترتكز مبادئ سياستنا الخارجية هذه على تأكيد انتمائنا الإسلامي والعربي والأفريقي كبوتقة انصهار للثقافات العربية والأفريقية ووسيلة لتحقيق التعاون العربي الأفريقي، والالتزام بمواثيق المنظمات الإقليمية والدولية، والسعي لتعديلها لزيادة فعاليتها، والعمل على تصفية الاستعمار بكل أشكاله وألوانه، والتمسك بحق الشعوب في تقرير مصيرها. فعلى الصعيد العربي يقف السودان بصلابة مع أمته العربية في نضالها العادل ضدَّ مؤامرات الصهيونية والإمبريالية من أجل تحقيق السلام العادل والدائم في الشرق الأوسط الذي لن يتأتى إلا بانسحاب إسرائيل الكامل وغير المشروط من كافة الأراضي المحتلة منذ عام 1967م بما فيها القدس الشريف وتمكين الشعب العربي الفلسطيني بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية ممثله الشرعي والوحيد من استرداد حقوقه المشروعة وغير القابلة للتصرف بما في ذلك حقه في إنشاء دولته المستقلة على ترابه الوطني وفق إرادته الحرة. وفي هذا الإطار ينبغي التأكيد على أهمية عقد المؤتمر الدولي للسلام في الشرق الأوسط بمشاركة كل الأطراف المعنّية بما فيها منظمة التحرير

الفلسطينية وعلى النحو الذي تضمنه إعلان جنيف الخاص بالقضية الفلسطينية والصادر في السابع من سبتمبر 1983م والذي أجازته الجمعية العامة للأمم المتحدة لحل هذه القضية على أساس من الحق والعدل والشرعية الدولية. كما أننا نسعى لإزالة أسباب الخلاف والفرقة بين أشقائنا الفلسطينيين ليتحدوا في ظل منظمة التحرير الفلسطينية، وذلك في إطار سعينا الدؤوب لتحقيق التضامن العربي وصولاً للوحدة العربية الشاملة كهدف استراتيجي يحقق لشعوبنا القوة الاقتصادية والقدرات الدفاعية. وعلى الصعيد الأفريقي يقف السودان بحزم مع قارته الأفريقية في كفاحها التحرري ضد تسلط النظام العنصري البغيض في جنوب أفريقيا الذي لا زال يمارس أبشع أساليب القمع وسياسات التفرقة العنصرية والتمييز العرقي ضد الأغلبية السوداء من السكان، ويواصل تحرشه وعدوانه السافر على الدول الأفريقية المجاورة في خط المواجهة. إنَّ إرهاب وتنكيل حكومة الأقلية البيضاء لن يفلح في إطفاء جذوة المقاومة الباسلة لشعب جنوب أفريقيا البطل والتي أصبحت اليوم ثورةً عارمةً تبشر بالنصر القريب. وإننا نُنادي بضرورة تضييق الخناق على حكومة بريتوريا وإحكام عزلتها وفرض المقاطعة التامة وتطبيق المزيد من العقوبات الاقتصادية عليها. ولا يفوتنا أن نحيي في هذا المقام المناضل الأفريقي الجسور نلسون مانديللا ونطالب بالإفراج عنه وإطلاق سراحه فوراً مع رفاقه من الثوار

الأحرار. إننا نؤكد مجدداً أنَّ الأساس الوحيد للتسوية السلمية لمشكلة ناميبيا يكمن في تنفيذ قرار مجلس الأمن رقم 435 القاضي بمنح الاستقلال التام لهذا الإقليم الذي لا زالت حكومة بريتوريا تتحدى الأسرة الدولية باحتلالها له وفرض سيطرتها عليه. وإنَّ السودان يرفض الربط بين منح الاستقلال لناميبيا وأية قضايا أخرى، ويساند كفاح شعب ناميبيا الصامد بقيادة منظمة سوابو ممثله الشرعي والوحيد، ويدعو إلى تقديم الدعم لها بكافة الوسائل والسبل. الإخوة الأعزاء، يتابع السودان شعباً وحكومةً وبأسىً واهتمام بالغين استمرار الحرب بين العراق وإيران اللتين تربطنا بهما أوثق الروابط الروحية والتاريخية. ونحن نحس كغيرنا من الشعوب المسلمة والصديقة بمرارة هذا الصراع الذي خلَّف آثاراً مدمرةً على طاقات وموارد البلدين الجارين وأخَلَّ بأمن واستقرار منطقة الخليج بأسرها. وقد أكدت الأسرة الدولية في العديد من المناسبات على ضرورة التوصل إلى حل سلمي لهذا النزاع. كما بذلت منظمة المؤتمر الإسلامي ودول عدم الانحياز الكثير من الجهد من أجل التوصل إلى تسوية سلمية من شأنها إيقاف هذه الحرب الدامية. وسوف يستمر السودان في دعم كل المساعي الرامية لإيجاد حل سلمي وعادل للنزاع ووضع حد للحرب. إننا في السودان نسعى لتحقيق أهداف ومبادئ سياستنا الخارجية من خلال تمسكنا بمبادئ وأهداف حركة عدم الانحياز بوصفنا أحد الأعضاء المؤسسين لها،

وذلك بما يضمن الحياد التام والابتعاد عن المحاور والأحلاف. كما نعمل من أجل تعزيز علاقات حسن الجوار وترقية التعاون المشترك إقليمياً ودولياً بعد أن فتحنا أبوابنا مشرعةً لصداقة الجميع. الأصدقاء الأعزاء، إنَّ الحديث عن الأمن والسلام الدوليين أصبح اليوم أكثر إلحاحاً وأبلغ خطراً في عالم يعيش تحت كابوس الرعب النووي الذي يهدد البشرية بالفناء. وإننا في السودان كبلد محب للسلام نُنادي دوماً ببذل كافة الجهود والمساعي لوضع حد نهائي لسباق التسلح ونزع السلاح نزعاً تاماً، وإلى ربطٍ عُضويٍ بين نزع السلاح وتوجيه نفقاته الباهظة لتحقيق رفاهية الشعوب وتنمية البلدان الفقيرة. كما نطالب بتحريم التجارب النووية وعدم انتشار السلاح النووي إلى الفضاء الخارجي، وتسخير وتوظيف الطاقة النووية للأغراض السلمية، وفتح المجال أمام الجهود المبذولة لتحقيق نظام اقتصادي عالمي جديدٍ وعادل. الأصدقاء الأعزاء، أرجو أن أعرب لكم مجدداً عن رغبتنا وصادق عزمنا على تطوير وترقية العلاقات الثنائية بين بلدينا في كافة المجالات والعمل على وضعها في مسارها الطبيعي انطلاقاً بها إلى آفاق أرحب تشمل شتى ضروب التعاون بما يعود بالمنفعة المشتركة على شعبينا الصديقين. وفي الختام أرجو أن تسمحوا لي مرةً أخرى بإزجاء أخلص آيات الشكر والتقدير على حُسن ضيافتكم وما عبرتم به نحونا من المشاعر الودية الطيبة. إنني سعيد بأن أكون المسؤول السوداني الذي قام

بدور في بناء العلاقات السودانية السوفيتية من جديد على أساس المحبة والمودة والتعاون. عاشت الصداقة والمودة بين الشعوب في خدمة التقدم والسلام، وعاشت العلاقات بين شعبينا وشكراً.

انتهى السيد الصادق المهدي من إلقاء خطابه، وعاد إلى مكان جلوسه وسط تصفيق الجانب السوفيتي الذي تأكد بأنَّ هناك صفحةً جديدة حقيقية من العلاقات قد فُتِحت بين البلدين. وخرجنا من قاعة الطعام نحو الفندق لنأخذ قسطاً من الراحة ثم نستعد لبرنامج اليوم التالي الذي يشمل عدداً من الزيارات التفقدية لبعض المعالم الروسية.

متحف الإرميتاج

لعل أهم معلمٍ بالاتحاد السوفيتي خارج مدينة موسكو هو متحف (**الإرميتاج**) الكائن بمدينة (**لينتجراد**) أو (**سان بطرسبيرج**) بعد أن تغير اسمها للمرة الثالثة بحكم أنه ظل على مر السنوات واحداً من أكبر المتاحف الفنية في العالم إن لم يكن أكبَرَها على الإطلاق مما جعل زيارته لأي زائر للاتحاد السوفيتي أمراً حتمياً بلا شك. ومما يفرضُ مشاهدته أنه ظل مثار لغط كبير لم يزل دائراً إلى اليوم حول أحقيته هو أم متحف اللوفر بباريس بالمرتبة الأولى بين متاحف العالم الفنية؟؟!. وسواءٌ كان هو الأول أو الثاني فذلك لا يهم كثيراً، حيث إنَّ تفرده بين كل متاحف الدنيا يُعطيه

الأولوية في كثير من الأمور. فالأرميتاج متحفٌ عريق يعود تاريخه إلى القرن الثامن عشر، حيثُ أُنشئَ إبانَ سطوة الإمبراطورية الروسية أيام القياصرة. وقد قام ببنائه أحد المهندسين الإيطاليين ويُدعى (**راستريللي**) بأمرٍ من الإمبراطورة (**كاترين الثانية**)، وهي تُعتبر من القياصرة الذين تركوا بصماتهم في التاريخ الروسي سياسياً وعسكرياً وثقافياً. حيث أمرت كاترين المهندس المعماري راستريللي ببناء الإرميتاج في عام 1764م كما أشارت إلى ذلك العديدُ من اللوحات الضخمة التي وُضعت في مدخله.

وقد جمع القياصرة المتلاحقون بعد كاترين آلاف اللوحات والأعمال الفنية النادرة من مختلف أنحاء العالم ووضعوها في الإرميتاج. فهو متحف للفن الإنساني الذي لا يعرف الحدود الجغرافية أو الدينية أو السياسية. وفي أركانه المتعددة وُضعت إلى جانب اللوحات الزيتية والمائية وغيرِها العديدُ من التماثيل والمنحوتات والصور المحفورة على أُطر من الأبنوس والعاج والرخام والفخار والجبس وغيرها من مواد صناعة اللوحات الفنية التي وُضعت بتنسيقٍ بديع في مختلف زوايا المتحف.

كما أن الإرميتاج يحوي مئات المخطوطات النادرة من مختلف بقاع العالم، والعديد من الجواهر واللآلئ النادرة التي تُشير كلُ واحدةٍ منها إلى العصر الذي جُلبت فيه، واسم الشخص الذي أهداها أو اشتراها، والمكان والزمان الذي أُنتجت فيه بتفصيلٍ في غاية

الدقة. ومن خلال النظر لمعظم اللوحات لاحظتُ أنَّ العديد منها فضلاً عن المنحوتات والمقتنيات الفنية الأخرى قد دخلت المتحف عن طريق الشراء، حيث ظلَّ الدبلوماسيون الروس على مدى السنين يحرصون على شراء المقتنيات النادرة من الدول التي يمثلون بلادهم فيها، ثم يُحضرونها إلى الإرميتاج.

ولعل ذلك التقليد قد أصبح سارياً منذ عهد الإمبراطورة كاترين التي أوعزت لسفرائها في عام 1764م أن يُسهموا بجمع هذه المقتنيات النادرة للمتحف بغرض إثرائه وجعله قِبلةً للسواح والمهتمين بالفنون، وبغرض لفتِ الانتباه إلى روسيا ذاتها. وشيئاً فشيئاً بدأت الدول الأوربية خصوصاً المجاورة لروسيا تُحس بأهمية أنْ تجد لفنونها مكاناً بالإرميتاج، حيث أصبح قبلةً للزوار والمهتمين بالإبداع الإنساني من مختلف أنحاء العالم. فأرسلت هذه الدول العديد من لوحاتها الثمينة وأعمالها النادرة إلى المتحف، حيثُ أصبح وضعُ أيَّةِ لوحةٍ فيه بمثابة الاعتراف بقيمتها الفنية.

وأثناء التجول بصالات الإرميتاج يرى الإنسانُ أرتالاً من البشر يتجولون في الأقسام المختلفة، ولكنْ كان هناك جناحٌ ظل يستحوذ على إعجاب الرواد بشكلٍ أكثر من غيره ويتحلَّقَ المئاتُ حوله، وهو جناح الفنان الإيطالي العالمي (**ليوناردو دافنشي**) الذي لم يدخل تاريخَ الفنونِ العالمية إلى اليوم مبدعٌ في حجم قامتهِ. كل لوحات دافنشي التي في هذا المتحف هي لوحاتٌ أصلية لم يتطرق

إليها الغِشُ ولا التدليس. وبالقرب من جناح دافنشي وقف الفنان العظيم (**مايكل أنجلو**) ببعض تماثيله الرائعة التي نحتها في فترة شبابه.

وعلى جانب آخر من المتحف وُضعت لوحات الفنان الإيطالي الشهير (**رافائيل سانزيو**). وهناك تمثالٌ ضخمٌ من البرونز يزن ألفي كيلوجرام، كُتبت عليه عباراتٌ باللغة العربية تقول إنه (**مِرجلٌ مخصص لصب المياه**). وقد كُتبتْ عليه عبارةٌ باللغة العربية تقول إنه من صُنع المسلمين الإيرانيين. وكان قد دخلَ الإرميتاج كهدية من (**تيمور لنك**) الذي يُقالُ إنه قد أهداه إلى مسجد (**الحاج أحمد**) ثم بعد ذلك انضم إلى المتحف مثله مثل كثير من المقتنيات الإسلامية التي آلت لهذا المتحف بمرور الزمن وهي في الأصل إما تابعة للمساجد أو لقصور الأمراء والسلاطين الإسلاميين الذين توالوا على الحكم خلال العصور المختلفة.

وعلى مقربةٍ من ذلك الأثر الإسلامي وُضعت العديد من المنحوتات واللوحات المصرية التي تعود إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد. وبين هذا وذاك برزت المئات من الأعمال الفنية ذات الأحجام المختلفة من أوربا وآسيا وأفريقيا والأمريكتين وأستراليا وغيرها من أصقاع الدنيا. وقد أصبح الإرميتاج بحكم تفرده بين متاحف العالم تاريخاً قائماً بذاته للحياة الروسية في مختلف العصور حتى عصر الثورة الشيوعية التي أبقت على فنون الإرميتاج وطورته رغماً عن

قضائها على القيصرية من جذورها. وقد احتفظت الدولة السوفيتية بالمقتنيات والموروثات الروسية من خلال الإرميتاج عبر الحقب المتعاقبة رمزاً لحركة التطور البشري، كما أنها حرصت على توفير كل سبل الراحة داخل الإرميتاج لكل من يريد زيارته من ضيوف الدولة.

وفي نهار يوم الثلاثاء 12 آب أغسطس ذهبنا مع السيد الصادق المهدي كي يضع إكليلاً من الزهور على (**ضريح لينين**) داخل الكريملين. وكانت فرصةً سانحةً لي أن أتأمل في وجه لينين الذي يرقد مسجىً داخل الضريح الزجاجي الذي احتفظ بجثته في كامل هيئتها وهو يرتدي بدلته الكاملة وكأنه ينتظر ضيوفاً. ثم وضعَ بعده إكليلاً آخر على قبر (**الجندى المجهول**).

وفي نفس اليوم عقد السيد الصادق لقاءاً مع السيد (**بيوتر ديميتشيف**) النائب الأول لرئيس هيئة رئاسة مجلس السوفيت الأعلى، ثم بعد ذلك زار متحف ومكتبة لينين في الكريملين وبلاط الأسلحة الذي أُقيمَ في أحدِ أطراف موسكو. وفي المساء كان جميعُ أعضاء الوفد على موعدٍ مع حفل العشاء الذي أقامته السفارة بغرض إتاحة الفرصة لأعضاء الجالية السودانية وأصدقائهم للقاء السيد الصادق المهدي والسادة الوزراء.

حفل السفارة بموسكو

توجهنا إلى السفارة السودانية حيث كان اللقاء مُطولاً بين السيد الصادق وأعضاء الجالية. وكان اللقاء مفتوحاً أمه جميعُ أبناء السودان بالاتحاد السوفيتي، حيثُ أجاب رئيس الوزراء على كل استفسارات الحاضرين الذين كانوا سعداء بفتح صفحة جديدة من العلاقات مع هذه الدولة العظمى. ثم تحدث الدكتور (**محمد يوسف أبو حريرة**) وزير التجارة عن توجهات وزارته الجديدة التي وضع على رأس أجندتها الانفتاح نحو الأسواق الخارجية خصوصاً فيما يتعلق باللحوم والأقمشة الشعبية.

وبعد انتهاء اللقاء الرسمي وحفل الاستقبال للوفود الدبلوماسية بقاعة استقبال السفارة خرجتُ من القاعة وكان يقودني الصديق (**السر محمد الحسن**) وهو صديق قديم من أبناء مدينة سنار جاء إلى موسكو بغرض الدراسة، حيث أكمل دراسته الجامعية وبقى لتحضير الدراسات العليا. قادني إلى أستاذ روسي يعمل في قسم اللغات بجامعة موسكو. ولما سألتُ ذلك الأستاذ عن مجال دراسته لرسالة الدكتوراه أخبرني بأنه قد أجراها حول لغة النساء السودانيات. وقال إنَّ المرأة السودانية هي الوحيدة بين نساء العالم التي لها لغتها الخاصة التي لا يستخدمها الرجل. ولو استخدمها الرجل فإنَّ ذلك يُعتبرُ عيباً لا يسامح فيه المجتمع. قلتُ له مثل ماذا؟ قال لي: «**مثل سَجَمِي، كُرْ عَلَيْ، وُوب عَلَيْ وهلمَّ جرا**».

أحسستُ بطرافة تلك الأطروحة وأجريتُ معه لقاءاً مطولاً للإذاعة السودانية، وكان الغريب أنه لم يزر السودان إلا بعد أن أنهى تلك الدراسة ونال بها درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف. وتساءلتُ بعد ذلك: «**هل هناك من أبناء السودان مَنْ تصدى لدراسة هذا الموضوع المهم؟ وإذا لم يكُن فهل مِن مُبادرٍ الآن؟**».

كان من الذين أبدعوا في تنظيم ذلك اللقاء وكل اللقاءت الأخ (**بدر الدين عمر الحاج موسى**) الذي كان يعمل ضمن بعثتنا الدبلوماسية بموسكو. لقد ظلَّ بدر الدين يرعى كثيراً من تحركاتنا وكان نعمَ الأخ الذي لم يبخل علينا بأي معلومةٍ طلبناها بغرض تغطية الزيارة. وحتى رحلتي للإرميتاج كانت بتنسيق وتشجيعٍ منه. بعد انتهاء ذلك اللقاء الأخوي الساهر بدار السفارة عُدنا إلى غُرفنا بالفندق مع سُويعات الصباح الأولى لنستعد للسفر إلى أوزبكستان.

أيام بجمهورية أوزبكستان

أقلتنا طائرة الإيروفلوت الروسية إلى جمهورية (**أوزبكستان**) حيث هبطنا في مطار (**طشقند**) العاصمة. وأوزبكستان إحدى ست جمهوريات إسلامية تتبع للاتحاد السوفيتي السابق وهي كازاخستان، تركمانستان، طاجيكستان، قرغيزيا، أذربيجان، وأوزبكستان. وفي حين أنَّ أذربيجان هي الوحيدة التي تقع بمنطقة

القوقاز من هذه الجمهوريات الست فإنَّ بقية الخمس جمهوريات وبينها أوزبكستان تقع جميعاً في وسط قارة آسيا لتربط الاتحاد السوفيتي الذي تقع معظم جمهورياته البالغ عددها خمس عشرة جمهورية في قارة أوربا.

وأوزبكستان شأنها شأن جمهوريات آسيا السوفيتية ظلت أقل حظاً في التقدم التقني والاقتصادي والسياسي رغماً عن خصوبتها وقابليتها لزراعة جميع أنواع الخضر والفاكهة والبقوليات. وهذه الخصوبة العالية والمساحات الشاسعة قد جعلت أنظار الروس تتجه نحوها بشراهة للدرجة التي قرر فيها مجلس السوفيت الأعلى بنهاية الحرب العالمية الثانية في عام 1945م أن يحتفظ لها بوضع خاص وذلك بربطها بشبكة جوية مستديمة مع جمهورية روسيا البيضاء ومنطقة سايبريا التي حظيت بأسوأ المناخات في المنطقة بأسرها مما قلل من إنتاجها الغذائي.

ونسبةً للبُعد الجغرافي السحيق بين جمورية روسيا البيضاء التي بها العاصمة الفيدرالية موسكو وهذه الجمهوريات الآسيوية فقد تقرر أن يكون بكل مطار من مطارات عواصم هذه الجمهوريات النائية عدد مائة طائرة رابضة في كل حين. ولا يجوز أن يقل العدد عن مائة طائرة بأي حالٍ من الأحوال. وهذه المائة غير الطائرات المتحركة بين المطارات خلال ساعات الليل والنهار. كل ذلك بغرض ربط أطراف الدولة المترامية الأطراف والتي ما فتئت تجتر

بمرارة ما حدث لها إبان الحرب التي قضت على معظم محصولاتها الزراعية وثروتها الحيوانية. وصلنا إلى جمهورية أوزبكستان وفي الذاكرة كثيرٌ من التساؤلات عن وضع المسلمين ومدى معايشتهم للأوضاع القائمة على أساس النظرية الماركسية، وحجم الضغوط التي تحدثت عنها المجلات الإسلامية العديدة التي ظلت تبكي على أوضاع المسلمين في الأصقاع النائية خارج إطار البلاد الإسلامية.

كان في استقبالنا السيد (**سليموف**) رئيس جمهورية أوزبكستان الذي بدأ فترته الرئاسية قبل عامٍ واحد من زيارتنا. حيث ينص الدستور الأوزبكي على أن يتولى رئيس الجمهورية المنتخب منصبه لمدة خمس سنوات لا يجوز أن تُجدد لأكثر من دورة واحدة بعد ذلك بحيث لا تزيد مدة رئاسة أي شخص عن عشر سنوات متصلة.

وكان سليموف من جيل الشباب الذي كسر حاجز الديناصورات كما يسميهم المراقبون الغربيون حيث جاء لكرسي الرئاسة وهو لم يتجاوز الخمسين من عمره. كانت أولى فقرات البرنامج الذي وضعته لنا حكومة أوزبكستان هو زيارة (**الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاخستان**).

وبالفعل قمنا بزيارة هذه الإدارة المهمة التي تعتبر في حد ذاتها حدثاً لا يقل عن حدث زيارة الاتحاد السوفيتي نفسه. والسبب في ذلك أنَّ كل ما يتعلق بالمسلمين في أنحاء الاتحاد السوفيتي

تنظمه هذه الإدارة التي هي واحدة من أربع إدارات رئيسية تُسمى الإدارات الدينية. حيث تقوم الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاخستان بقيادة الشئون الدينية للمسلمين في أوزبكستان وقازاخستان وطاجيكستان وقرغيزيا وتركمانيا.

ومقر هذه الإدارة هو مدينة طشقند. والإدارة الدينية الثانية بالدولة هي إدارة ما وراء القُفقاس، وهي ترعى شئون المسلمين في أذربيجان وجورجيا وأرمينيا ومقرها في مدينة باكو. والإدارة الثالثة هي إدارة مسلمي شمال القُفقاس، وهي مسؤولة عن شئون المسلمين في جمهوريات داغستان وكاباردين بلقار وتشيتشين أنغوش وأوسيتيا الشمالية وبقية المقاطعات ذات الحكم الذاتي وهي كاراتشايفو تشيركس وأديغيا. ورئاسة هذه الإدارة بُنيت في مدينة مخاتش وهي واحدة من أهم المدن في داغستان.

أما الإدارة الدينية الرابعة فهي إدارة مسلمي الجزء الأوربي من الاتحاد السوفيتي السابق وسيبيريا. وهي ترعى شئون المسلمين بكل مقاطعات الجزء الأوربي من الدولة ما عدا شمال القُفقاس وداغستان، ومقر هذه الإدارة في مدينة أوفا. وعلى رأس كل واحدة من هذه الإدارات الأربع زعيمٌ إسلامي يسمى (**المفتي**) ما عدا إدارة مسلمي ما وراء القفقاس التي يُسمى رئيسها (**شيخ الإسلام**). وجميع هذه الإدارات تعمل وفقاً لتعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية، ومسؤوليتُها تشمل كل شئون العبادة وتنظيم حياة المسلمين. وهي

تحتكم لأحكام تنظيماتها الداخلية التي يتم إقرارها من قِبَلِ مؤتمرات ممثلي الجمعيات الإسلامية التي يُعتبرُ المؤتمرُ أعلى هيئاتها الدينية. وهذه التجمعات تعمل على عقد لقاءاتٍ على مستوى الدولة لجمع كلمة المسلمين.

كان أهم هذه اللقاءات هو (**مؤتمر طشقند**) الذي عُقد في شهر تشرين أول أكتوبر عام 1970م تحت شعار (**في سبيل وحدة وتعاون المسلمين في النضال من من أجل السلام وضد العدوان الإمبريالي**). وقد حضر هذا المؤتمر جميع مسلمي الاتحاد السوفيتي بلا استثناء. وقد أمَّنَ ذلك المؤتمر من ضمن توصياته على دور المفتي في هذه الإدارات الدينية في إصدار الفتاوى في كل ما يتعلق بشئون المسلمين في إطار الجمهوريات والولايات الإسلامية التابعة للاتحاد السوفيتي.

وبعد زيارة الإدارة الدينية تواصلت زيارتنا لمدينة طشقند حيث وقفنا على آثار ما دمره زلزالها الشهير في عام 1968م. وكانت حكومتها فخورةً بجهود أبنائها وأصدقائهم من أرمينيا وموسكو وسيبريا وأوكرانيا الذين أسهموا في إعادة التعمير بشكلٍ أفضل مما كان في الماضي. وقد زرنا العديد من المعالم والأحياء السكنية التي وقفت شاهداً على الصداقة والجهود الجبارة لأبناء الاتحاد السوفيتي في إعادة البناء والتعمير. ومن طشقند توجهنا إلى (**سمرقند**)، تلك المدينة التاريخية القديمة التي امتلأت بموروثاتها الحضارية وآثارها

الإسلامية القديمة ومساجدها العريقة وشوارعها التي تسبح بحمد الإله. وكان مظهر الناس في الشوارع يوحي بتغلغل الإسلام في حياتهم، فهم يلبسون طاقيةً سوداء مزركشة بخيوطٍ لامعة تجذب إليها الأنظار، وتميزهم عن بقية الديانات والمعتقدات في الدولة. ولاعتزازهم الشديد بهذه الطاقية التي أصبحت رمزاً لهم أهدوا لكل واحدٍ منا واحدةً منها للذكرى.

وهناك نُظمت لنا زيارةٌ إلى ضريح الإمام البُخاري في قرية خرتنك التي لا تبعد كثيراً عن مدينة سمرقند. وكان يوم الخميس 13 آب أغسطس هو يوم عيد الأضحى المبارك فطلبت إدارة مسجد المدينة الكبير من السيد الصادق المهدي أن يقدم خطبة العيد للمسلمين الذين تقاطروا من كل أنحاء سمرقند حتى ضاق بهم المكان على سعته. والغريب أنَّ كل رجال الأمن والحرس الروسي من أعضاء الحزب الشيوعي المرافقين لنا قد حضروا معنا تلك الصلاة حُفاةً خاشعين داخل المسجد وكأنَّ لسانَ حالهم يرجو المتاب إلى رب العباد.

بعد ذلك توجهنا مع الرئيس سليموف إلى الكلوخوزات، وهي المزارع الجماعية التي استنبطتها الدولة بعد إنهاء النظام الإقطاعي الذي كان يسيطر على رؤوس الأموال ويستغل طاقات الفلاحين والعمال البسطاء. وقد كانت زيارتنا لكلوخوز (**لينينيزم**) في ضاحية (**ماري**) حيث مررنا بمزارع العنب والبطيخ والشمام التي

تشتهر بها الجمهورية. وبكل الصراحة أقول إنني لم أر بطيخاً في حياتي بهذه الكثرة، حيث تمتد المزارع على مد البصر. وعرفت أنها تمون به موسكو وكل جمهوريات الاتحاد السوفيتي المختلفة.

مسقط رأس الإمام البخاري

بعد ذلك سافرنا بالسيارات إلى مدينة (**بُخَارَىْ**) مسقط رأس (**الإمام البخاري**) ووصلنا إليها وسط حفاوة أهلها الذين جاءوا للترحيب بنا. وزرنا مسجد الإمام البخاري ذا البناية الضخمة والذي حوى مكتبةً إسلاميةً كبيرة وأقساماً لتحفيظ القرآن ورياضاً للأطفال.

والإمامُ البخاري ليس هو الوحيد بين أئمة وعلماء المسلمين الذي جاء من تلك البلاد وإنما شهد تاريخ الإسلام لأوزبكستان وقازاخستان وأزربيجان بالفضل في دفع الإسلام بفطاحلة العلماء والمجاهدين بينهم الإمام البخاري، وأحمد بن محمد الخوارزمي، والحافظ أبو عيسى الترمذي، وأحمد بن شعيب النسائي، وأحمد بن حنبل، وأبو نصر طرخان الفارابي، والإمام أبو منصور الماتريدي، وأبو محمد بن عبد الرحمن الدارمي، وأبو القاسم محمد الزمخشري وغيرهم من عظماء الإسلام.

وأثناء طوافنا بمجمع الإمام البخاري قدم لنا المضيفون بطيخاً وشماماً ذا مذاقٍ فريد هو من إنتاج جمهورية أوزبكستان التي

اشتُهرت بهذا النوع من الفواكه وأصنافٍ أخرى كثيرة ظلت تُمون بها كل جمهوريات الاتحاد السوفيتي الأخرى خصوصاً جمهورية روسيا حيث العاصمة القومية للاتحاد موسكو. كان في أحد زوايا المبنى الفاخر للمعهد الإسلامي التابع لمسجد الإمام البخاري والذي هو جزءٌ من هذا المجمع الكبير جناحٌ للقرآن الكريم، وطلبوا من السيد الصادق المهدي زيارته فوافق. ولما دخله مع أعضاء الوفد فوجئ باسم جعفر محمد نميري مكتوباً بالخط العريض على لوحاتٍ مُعلقة في مداخل الجناح، ونظرتُ للسيد الصادق الذي لم يتمكن من إخفاء امتعاضه من ذلك، فقال مُرافقُه:

«إنَّ هذا الجناح بجميع ما فيه من المصاحف وأمهات المراجع الدينية جاء هدية من الرئيس جعفر محمد نميري لمسلمي آسيا عندما كان رئيساً لجمهورية السودان، ولذلك رأينا أن نكتب اسمه على كل أركان الجناح وفاءاً وتقديراً لهذه الهدية القيمة». وكجزء من رحلتنا في مدينة بُخارى قمنا بزيارة ضريح الشيخ (**النقشبندي**) شيخ الطريقة النقشبندية العريقة. حيث أقيم له ضريحٌ بالقرب من مدينة بخارى، وأُنشئ بالقرب من الضريح مسجدٌ وإيوانٌ كبير اعترافاً بفضله في حياة المسلمين.

خرجنا من ذلك المسجد وامتطينا السيارات لمواصلة التجوال عبر أركان الجمهورية الواسعة. وأثناء مرورنا على الحقول الخضراء ومزارع العنب المتناثرة في كل مكان شاهدنا نهراً يمر

بالعديد من المناطق الآهلة بالسكان ويسقي آلاف الهكتارات من مزارع الخضر والفاكهة، فقال لنا السيد (**سليموف**) رئيس جمهورية أوزبكستان: ((**إنَّ هذا النهر صنعه استالين ولم يكن موجوداً في هذا المكان**)). قلنا له: ((**وكيف ذلك؟**)) فقال السيد سليموف:

((**في أحد أيام أعياد الثورة البلشفية جاء إلى هذه الجمهورية السيد ستالين وقال لأعضاء الحكومة المحلية هنا ضمن ما قال من الأفضل أن تحولوا مجرى هذا النهر ليمر بالقرى والمدن بدلاً من جريانه في سهول غافرة لا يستفيد منها أحد. وذلك بغرض الاستفادة من مياهه في زراعة الخضر والفواكه لا سيما العنب. ووافقت حكومة أوزبكستان على ذلك. وقال لهم استالين إذن يمكنني أن آتى في العام القادم في مثل هذا الوقت لافتتاح النهر أو جزء من المشروع. وسافر استالين إلى موسكو ولم يسأل عن النهر، وفي العام التالي وفي الوقت المحدد بالضبط فاجأ حكومة أوزبكستان بنزوله ضيفاً عليها وقال لهم أريد أن أفتتح الآن مشروع تحويل النهر. فقال له الجميع لم نحسب أنك كنت جاداً في هذا الأمر، فغضب استالين غضباً شديداً وطلب اجتماعاً عاجلاً لكل كبار المسؤولين في الجمهورية، واجتمع المسؤولون في قاعة كُبرى تابعة لمجلس نواب الجمهورية فأغلق استالين بوابة القاعة وأطلق الرصاص على جميع من فيها، وغادر الجمهورية قائلاً سآتي العام القادم لافتتاح المشروع. وفي العام القادم جاء في موعده ليجد هذا النهر الذي أمامكم وقد**

تحول كلياً عن مجراه القديم ليمر بعدد من القرى والمدن ويروي آلاف الهكتارات من مزارع العنب والخضر والفاكهة، وقد أقيمت على ضفتيه العديد من مزارع الدواجن والأبقار».

بعد انتهاء زيارتنا لجمهورية أوزبكستان ودعنا الرئيس سليموف في مطار طشقند بعد أن صافح السيد (**الصادق المهدي**) متمنياً له رحلةً طيبة وتوفيقاً في مساعي حكومته خلال المرحلة القادمة. ووعدهم السيد الصادق بزيارة الجمهورية مرةً أخرى وفي فرصةٍ أوسع توطيداً لدعائم العلاقة بين الاتحاد السوفيتي والسودان. ولكن شاءت الأقدار ألا يبقى أحد الطرفين، لا الصادق المهدي ولا الاتحاد السوفيتي. حيث لم تُعمر حكومة السيد الصادق طويلاً وأطاح بها الانقلاب العسكري في منتصف عام 1989م وتفككت أوصالُ الاتحاد السوفيتي بعد ذلك بقليل فعادت كل جمهورية لاستقلالها القديم تحت مظلة ما عُرف بالكومونولث الروسي. وقد يغيب عن بال الكثيرين خصوصاً أبناء الأمة الإسلامية أنَّ هذه الجمهوريات الإسلامية الست التابعة للاتحاد السوفيتي السابق لم تكن تتمنى في يومٍ من الأيام أن تخرج من إطار الاتحاد السوفيتي رغماً عن تبنيه للنظرية الماركسية التي هي ضدَّ الأديان برمتها بما فيها الإسلام دين غالبية السكان في هذه الجمهوريات.

والسبب في ذلك بسيط وهو أنَّ هذه الجمهوريات جميعاً ظلت تشعر بالحماية والقوة في ظل انضوائها تحت ثاني أكبر قوةٍ

عسكريةٍ واقتصادية في العالم، الشيء الذي لم يتوفر لرصيفاتها الإسلاميات من دول آسيا وأفريقيا. والعجيب أنَّ مسلمي البلاد السوفيتية وحتى أئمة مساجدهم لم يكونوا يمتعضون بانتمائهم لدولةٍ شيوعية قامت على أساس هدم الدين.

بل والأعجب من ذلك أنهم ظلوا ينظروف لقرار فصل الدين عن الدولة الذي اتخذه لينين منذ أيام الثورة الأولى التي فرضت الشيوعية على البلاد في عام 1917م على أنه قرار مناسب لهم بحجة أنه قد أدى للمساواة بين معتنقي الديانات المختلفة في الدولة. ويحسبون أنه لولا ذلك الفصل لكان التنافس قد أفضى إلى كثيرٍ من المنازعات بين السكان.

وقد سمعتُ هذا الرأي من إمام مسجد طشقند، وسمعته في خطبة عيد الأضحى التي حضرناها بأوزبكستان، وسمعته من نائب مدير الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الذي كان ضمن مستقبلي السيد الصادق المهدي بطشقند. بل وقد حفلت به معظم الكتابات التي كتبها القادةُ الإسلاميون في هذه الجمهوريات وعلى رأسهم المفتي (**ضياء الدين خان بن إيشان باباخان**).

والشيخ ضياء الدين ليس بالرجل الذي يُطلق الكلام على عواهنه، وإنما عُرف بأنه شيخٌ وقورٌ وعالمٌ نحرير في أمور الدين والتاريخ الإسلامي. وقد كتب عدة مؤلفاتٍ حفلت بها المكتبات الإسلامية في معظم بلاد شرق وغرب آسيا. ولعل أهم ما كتب في

هذا الشأن كتابه (**الإسلام والمسلمون في البلاد السوفيتية**).حيث قال بالنص في ص 72 السطر الخامس: [كان فصل الديانة عن الدولة يعني أنَّ الديانة والمنظمات الدينية كفت عن أن تكون دائرة من الجهاز الحكومي، وليس لأجهزة الدولة أي حق بالتدخل في الشئون الداخلية للمؤسسات الدينية، وقد حررت الديانة من التبعية المادية والتنظيمية. وقد تضمن مرسوم فصل الديانة عن الدولة والمدرسة عن الديانة أعمق المفاهيم الديموقراطية حول مساواة كافة الأديان أمام القانون وأصبحت كافة الجمعيات الدينية منذ ذلك الوقت خاضعةً للأحكام العامة للجمعيات والاتحادات الخاصة. وكفت الكنيسة الأرثوذكسية عن التمتع بأي نوعٍ من أنواع الامتيازات الحكومية والمساعدات المالية من الدولة. وتساوت جميع الأديان الأخرى في الحقوق معها بما في ذلك الدين الإسلامي. وإذا أخذنا في الاعتبار أنَّ الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا القيصرية كانت قلعةً حصينةً للطبقات الحاكمة، فإنَّ المرسوم الذي أشاع المساواة في الحقوق بين الأديان كان يتسم بطابعٍ إنساني عميق ويتجاوب مع آمال شعوب الشرق السوفيتي قبل كل شيء. والمعروف أنَّ التحديدات التي اتُبعت في روسيا القيصرية على جميع الأديان - باستثناء الدين الأرثوذكسي دين الدولة -كانت تقليصاً لمصالح شعوب القوميات الأخرى وإهانة لكرامتها].

عدنا من أوزبكستان إلى موسكو صباح الجمعة 15 آب أغسطس لنعود إلى السودان عن طريق باريس، ولكننا وجدنا طائرة البوينج 707 التابعة لشركة الخطوط الجوية السودانية تنتظرنا بالمطار بدلاً من طائرة السيد الصادق الخاصة.

وكان بالمطار عدد كبير من أفراد طاقم الطائرة السودانية بينهم كابتن (**خالد الحلاوي**) فسألته عن سر مجيئهم وعدم مجيئ طائرة الرئاسة التي كانت متوقعة فقال لي: ((**لقد تعطلت طائرة السيد الصادق في سماء القاهرة وأعيدت إلى الخرطوم، ولذلك طلب القصر الجمهوري من سودانير تجهيز هذه الطائرة على جناح السرعة للسفر إلى موسكو لإعادة الوفد**)).

كان أسوأ ما في هذا الأمر أننا لن نرى باريس مرةً ثانية، حيث إننا سنعود مع السيد الصادق في نفس الطائرة التي ستطير بلا توقف من موسكو إلى الخرطوم. وكان معظمنا قد أرجأ شراء حاجياته من باريس إلى رحلة العودة خصوصاً وأننا سنكون أحراراً بعد انقضاء مهمتنا الرئيسية. وندبنا حظنا الذي لم يكتب لنا العودة إلى باريس. وقف جميع أفراد طاقم الطائرة السودانية أمام طائرتهم في المطار ليلتقطوا صورةً تذكارية، وعندما سألناهم عن سبب ذلك قالوا إنَّ هذه أول رحلة لطائرة من شركة الخطوط الجوية السودانية منذ سنواتٍ طويلة هي سنوات القطيعة بين

السودان وموسكو. وبعض الطيارين لم يتشرفوا برؤية هذه البلاد النائية إلا اليوم، ولذلك أرادوا أن يُخلدوا هذه اللحظات بالصور التذكارية. وكان بعضهم بالطبع قد تلقى تعليمه في مجال الطيران بالاتحاد السوفيتي مثل كابتن خالد الحلاوي.

في تلك الأثناء كانت الطائرة السودانية تتزود بالوقود، مما يستدعي أن ننتظر لأكثر من ساعة بالمطار قبل الإقلاع إلى الخرطوم. وعلى الفور قرر السيد (**الصادق المهدي**) عقد لقاءٍ سريع لجميع أعضاء الوفد السوداني بإحدى قاعات المطار.

هنا تغيرت ملامح رجال الأمن المرافقين للسيد الصادق وذهب إليه السيد طلال رئيسُ الحرس قائلاً ((**عفواً سيادة الرئيس، إننا نرى ألا يُعقد هذا اللقاء في هذا المطار، حيث إننا كسودانيين نتكلم بصراحتنا المعهودة في تقويم هذه الرحلة وكل ما يدور حولها، ونحسب أنَّ هذا من الأسرار التي قد تفسرها الحكومة السوفيتية تفسيراً آخر لوجود أجهزة التصنت في كل زاوية من زوايا هذا المطار، فأنت يا سيادة الرئيس في أخطر بلدٍ برع في إجراءات التصنت والتجسس**)). رفض السيد الصادق الرضوخ لتوصية قائد الحرس وأصرَّ على عقد الاجتماع في تلك القاعة من قاعات مطار (**فونوكوفو**) الحربي. تحدثنا جميعاً في ذلك اللقاء وأبدى كل واحدٍ منا وجهة نظره في نتائج الزيارة. ورغماً عن تحفظات رجال الحرس إلا أنني شهدتُ في ذلك الاجتماع كيف أنَّ السيد الصادق

يتمتع بقدرٍ كبيرٍ من الديمقراطية التي جعلته يستمع لكل فردٍ منا مهما كان حديثه من الألف إلى الياء. لم يُقاطع أحداً ولم يجرح شعور أحد ولم ينتقد أسلوب أحد رغم أنَّ كل ذلك كان ممكناً.

وبعد ساعة ونصف من الحديث والحوار السوداني الخالص أعطانا قائد الطائرة إشارةً بأنَّ الطائرة جاهزة الآن، فخرجنا من القاعة إلى الطائرة مباشرةً عائدين إلى أرض الوطن.

كانت رحلة الاتحاد السوفيتي ناجحة بكل المقاييس. وكان أهم ما فيها هو فتحُ قنوات الحوار والاتصال بين البلدين بعد سنوات القطيعة التي ربما كان لها ما يُبررها إلا أنها طالت أكثر مما يجب. ثم جاء توقيعُ البروتوكول التجاري بين السودان والاتحاد السوفيتي فُرصةً أخرى لربط البلدين في المجال الاقتصادي. حيث نصَّ البروتوكول على إغراق السوق السودانية بالأقمشة الشعبية والآلات الزراعية التي تُساعد في زراعة وحصاد محصول السمسم.

ولكنَّ المؤسفَ حقاً أنَّ معظم بنود ذلك البروتوكول لم تُنفذ، وذلك لعدم إكتمال مراسم التوقيع عليها والتي كان مقرراً لها أن تتم بالخرطوم. ثم إنَّ الظروف السياسية قد اختلفت ببروز خلافاتٍ حادة بين رئيس الوزراء (**السيد الصادق**) والدكتور (**محمد يوسف أبو حريرة**) وزير التجارة الذي وقعَّ ذلك البروتوكول. وفوق هذا وذاك كانت زيارة السيد رئيس الوزراء إلى (**الولايات المتحدة الأمريكية**) التي أعقبت زيارته لموسكو بفترةٍ وجيزة قد أثارت بعض

الشكوك لدى الحكومة السوفيتية في مسار تلك الصفقات التي ظلَّ معظمها حِبراً على الورق حتى اليوم.

تعييني محرراً بصحيفة الأضواء

بعد أيام من عودتي من الاتحاد السوفيتي اتصل بي الأستاذ (**فراج الطيب**) قائلاً إنَّ الأستاذ (**محمد الحسن أحمد**) رئيس تحرير صحيفة (**الأضواء**) يطلبني لزيارته بمكاتب الصحيفة. وعندما ذهبت إليه قال لي: «**إنَّ إدارة تحرير الصحيفة قد قررت ضمك إلى أسرة التحرير وأن يُسند إليك تحرير الملف الثقافي بشقيه الأدبي والفني فماذا ترى؟**» وسألته عن سبب اختيارهم لي وأنا رجل إذاعة وليس رجل صحافة. فقال لي: «**في الواقع هذا الترشيح أجمع عليه عدد من الناس ذوي العلاقة الوطيدة بالصحيفة وبمجال الإعلام، أما عن أسمائهم فدعها تكون سراً**».

قلتُ له: «**ولكنني أعلم يا أستاذ محمد أنَّ هذا الملف الثقافي مسؤول عنه الأستاذ محمد نجيب محمد علي وهو صديق حميم ورجلٌ عزيزٌ عليَّ فلماذا أوقفتموه عن العمل؟**» قال لي: «**في الواقع حدثت بعض المشاكل من كتاباته التي أساءت للعديد من الأدباء الكبار من الذين نكن لهم احتراماً وتقديراً خاصاً، والصحيفة لا تؤمن بأسلوب الشتائم والمهاترات، وكل الصحفيين الذين يعملون بهذه الصحيفة لهم وزنهم الصحفي والسياسي والاجتماعي والعلمي**

حيث يعمل معنا في تحريرها الآن الدكتور الجزولي دفع الله رئيس الوزراء السابق ومحمد سعيد معروف ود. إبراهيم دَقَش والأستاذ كامل محجوب والدكتورة بخيتة أمين وغيرهم ولا نريد للصحيفة أن تقع في مزالق الحساسيات الفكرية واصراعات الأيديولوجية، ولذلك اخترناك لأننا نثق أنك ستقوم بأداء هذه المهمة بجدارة وكفاءة».

قلت له: «**إنني عاجز عن الشكر ولكنني لابد أن ألتقي بالأخ محمد نجيب محمد علي أولاً لأتحدث معه في هذا الأمر حتى لا تبدو المسألة وكأني قد خنتُ صداقته من أجل الظفر بتحرير الملف الثقافي وثانياً لتسلم الأعباء منه بصورةٍ رسمية**».

وظللتُ أياماً طويلةً أركض خلف محمد نجيب ولم أعثر عليه، وفي النهاية حزمت أوراقي وجهزت أول ملف للنشر فصدر في عدد أول نيسان أبريل 1987م وكنت سعيداً عندما اتصل بي الصديق محمد نجيب بعد صدور العدد مباشرةً مباركاً ذلك الجهد وشاكراً على مبادرتي بالبحث عنه. ظللتُ مواظباً على إعداد الملف الثقافي بالصحيفة طوال الأسابيع بعد أن اكتشفتُ حلاوة العمل الصحفي. وانتهجتُ سياسةً هي فتح القنوات أمام الأدباء والكُتاب الشباب الذين قد لا يجدون فرصاً بالصحف الأخرى،. وظهر من خلال الصفحة كُتَّابٌ أصبح لهم شأنهم فيما بعد في مجال الصحافة والإعلام مثل (**عبد المنعم حسن الملك**)، (**الهادي أرباب**)،

(**علي محمد علي ود الشجرة**)، (**الخير عبد الله محجوب**)، (**برير جاد الله**)، (**عبود سلطان**) وغيرهم. وأثناء دوامة العمل الصحفي مع الأضواء كان لا بُدَّ أن أغيب لفترةٍ عن أرض الوطن لأنَّ إدارة الإذاعة قد طلبت مني السفر مجدداً مع السيد الصادق المهدي رئيس الوزراء في جولة رسمية تشمل هذه المرة خمساً من الدول العربية هي (**العراق، الكويت، دولة الإمارات العربية المتحدة، قطر، والمملكة العربية السعودية**). وتحركنا مرةً أخرى مع السيد رئيس الوزراء مبتدئين زيارتنا بدولة العراق.

كل شيءٍ جائز إذا غضب صدام

في صبيحة اليوم الرابع من شهر تموز يوليو عام 1987م غادرنا مطار الخرطوم على متن طائرة الخطوط الجوية السودانية برفقة السيد الصادق المهدي رئيس الوزراء متوجهين نحو بغداد في أول رحلة رسمية لها من السيد الصادق المهدي بعد أن أصبح رئيساً للوزراء. كان الوفد المرافق لرئيس الوزراء يتكون من السادة (**محمد توفيق أحمد**) وزير الخارجية (**الدكتور بشير عمر**) وزير المالية والتخطيط الاقتصادي (**الدكتور مأمون سنادة**) وزير الثقافة والإعلام (**نصر الدين الهادي المهدي**) من مكتب رئيس الوزراء (**عبد الرازق ميرغني**) عضو الجمعية التأسيسية عن حزب الأمة (**تاج السر منوفلي**) عضو الجمعية التأسيسية عن الحزب الاتحادي

الديموقراطي (**بدر الدين طه**) عضو الجمعية التأسيسية عن الجبهة الإسلامية القومية (**عبد الصمد أمبو راجا**) عضو الجمعية التأسيسية من جنوب السودان (**الفريق أركان حرب السر محمد أحمد**) عن القيادة العامة للقوات المسلحة (**سيد علي زكي**) وكيل وزارة التخطيط (**حسن الأمين البشير**) السفير بوزارة الخارجية (**أحمد محمد نور**) مدير الإدارة العربية بوزارة الخارجية (**محمد أحمد حمد**) وكيل وزارة التجارة بالإنابة (**عبد الفتاح محمد صالح**) المدير العام للمؤسسة العامة للبترول (**إبراهيم على إبراهيم**) مدير مكتب رئيس الوزراء و(**العميد الهادي بُشرى**) من القيادة العامة للقوات المسلحة. وطوال الرحلة على متن الطائرة كنت أسائل نفسي عن كيفية وشكل الحوار بين الحكومة العراقية والسيد الصادق المهدي، خاصةً ما كان يدور من لغط عن إحساس الحكومة العراقية تجاه شخصية السيد الصادق وحكومته.

وصلنا إلى مطار (**صدّام الدولي**) ببغداد، وكان على رأس المستقبلين السيد (**عزت إبراهيم**) نائب رئيس الوزراء وعضو مجلس قيادة الثورة العراقي ووزير الخارجية وعدد من أعضاء السلك الدبلوماسي المعتمدين لدى العراق. وبعد مراسم الاستقبال التي أجريت بالمطار حملتنا السيارات إلى فندق قصر الرشيد بقلب بغداد فأنزلنا حقائبنا وحمل كل واحدٍ منا مفتاح غرفته بمن فينا رئيسُ الوزراء وصعدنا إلى الغرف. كان هذا الصعودُ إلى الغرف هو أول

وآخر شيء في رحلةِ العراق. لا لقاء، لا استقبال، لا زيارة، لا دعوات، لا عشاء، لا اجتماعات، لا بروتوكول، لا توقيع اتفاقيات، لا لا لا.. وقد بدأت القصة منذ دخول الفندق حيث تسلمنا برنامجاً مطبوعاً عن زيارة رئيس الوزراء وهو برنامجٌ حافلٌ بكل شيء حسبما هو مكتوب على الأوراق، وأول ما فيه زيارةُ قبر الجندي المجهول ووضع إكليل من الزهور عليه. وكان مقرراً أن يكون ذلك بعد حوالي ساعةٍ واحدة من وصولنا. فأخذنا أجهزتنا ونزلنا إلى صالة الفندق بانتظار السيارات والخروج.

انتظرنا وانتظرنا وانتظرنا ولم تأتِ سيارةٌ ولا مرافقون ولا مصورون ولا يحزنون. وطال مكوثنا بصالة الفندق لأكثر من أربعِ ساعاتٍ متواصلة نرقب نزول رئيس الوزراء لبدء التحرك. ولما مللنا الانتظار وكثرت التكهنات حول الأمر وتداخلت أزمنة الفقرات المكتوبة على جدول البرنامج الذي بحوزتنا صعدَ بعضنا إلى غرفهم واستسلموا لنومٍ عميق.

لم يُساورني أيُّ شكٍ أنَّ هناك شيئاً يجري في الخفاء لإفشالِ هذه الزيارة، ولكن مَا هو؟ اللهُ أعلم. وعندما كاد الغروب أن يُخيم على سماء بغداد تأكد لنا أنَّ هذا البرنامج لم يكن إلا حبراً على ورق، فجمعتُ الزملاء الإعلاميين وقلتُ لهم: ((**فلنخرج أيها الإخوة إلى الأسواق لتمضية هذا المساء، لأنه واضحٌ أنَّ هذا البرنامج الذي معنا لن يُنفَذَ منه شيء**)). اقتنع الجميعُ بالفكرة فطلبنا حافلةً

تنقلنا إلى النُزهة خارج إطار برنامج رئيس الوزراء. وعلى الفور حضرت حافلةٌ يقودها أحد رجال الأمن العراقيين وصعدنا عليها بعد أن أعاد كلُ واحدٍ منا الأجهزة التي بحوزته من كاميرات ومسجلات وأوراق وغيرها إلى الغرفة. وعندما تحرك السائق قلتُ له بحكم معرفتي التامة ببغداد التي زرتها كثيراً: ((**نرجو يا أخي أن تأخذنا إلى شارع السعدون**)).

قال لي السائق بلهجةٍ في غاية الجفاف: ((**أنا عندي تعليمات بالمكان الذي أذهب إليه**)). وهنا شعر الجميع بالانزعاج من ذلك الأسلوب الجاف ومن ذلك الرد القاطع فأشاروا إليَّ بأن أصمت ولا أتحدث مع هذا الأخ مرةً أخرى. ووسط الصمت الذي خيَّمَ على الحافلة من ردِّ سائقها دخلنا في أزقةٍ وشوارع لم نرها من قبل.

سار بنا جنوباً حتى انتهت كل البيوت والأسواق والشوارع والعمارات ولم تعد هناك إلا بنايةٌ مهجورةٌ نائية في مكانٍ قصيٍ لا يصدق أحدٌ أنه سيكون مكاناً للنزهة أو السياحة. غرفةٌ صغيرة جلس أمامها أربعةٌ من الرجال يلعبون الورق على ضوءٍ خافت وبجانبهم تلفزيونٌ عتيق وُضع على منضدةٍ صغيرة يبثُ برامجه بالأبيض والأسود ولا يتابعه أحدٌ منهم. وقال لنا السائق ((**أنزلوا هنا**)). لم يصدق أحدٌ منا ما يرى!! ولكننا نزلنا مُجبرين والخوفُ يملأ نفوسنا مما يجري. وكل الذي فعلناه أن قلنا لذلك السائق ((**هل هذا هو المكان؟**)) قال: ((**نعم**))، فقال له أحد المصورين: ((**أرجو أن تُعيدنا الآن**

إلى الفندق»، ولما شعرتُ بأنَّ هذا الأمر قد يُدخلنا في ما لا تُحمد عُقباهُ قلتُ له: «**يا أخي نرجو أن تعود إلينا بعد رُبعِ ساعة لأننا سنعود إلى الفندق لبعض الالتزامات الأخرى**» فهز رأسه بالموافقة وضغط على بنزين سيارته وانصرف.

تسمرنا جميعاً في أماكننا وعشراتُ الأسئلة تدور في رؤوسنا عن جريمتنا التي اقتضت كل هذا العقاب. لماذا نحنُ هاهنا؟ وما هو هذا المكان؟ وأينَ جمالُ العراق وخُضرتها وشوارعُها وأسواقُها وأريحيتُها وكرمُ ضيافتها الذي نعرفه على مرِّ السنين؟؟!! بعد رُبعِ ساعةٍ من الصمت الشديد والخوف الأشد عاد إلينا السائقُ بسرعةٍ جنونية ووقف أمامنا مثيراً الغبار في وجوهنا من فرط قيادته الجنونية فصعدنا في السيارة عائدين إلى الفندق.

لم ينبس أحدٌ منا ببنت شفة، وأخذ كل واحد مفتاحَ غرفته وصعدَ لينام ليلةً قاسمها المشترك الامتعاض والتساؤل ما الذي يجري الآن؟ في صبيحة اليوم التالي تكرر نفس الصمتُ المخيم على الجميع والذي ازدادت فيه التكهنات حول أمر هذه الزيارة الفريدة من نوعها بين زيارات رؤساء الدول. لم يتحرك رئيسُ الوزراء ولا مرافقوه لأي مكان، وإنما ظلَّ البرنامج في أيادينا حِبراً على ورق. وعند منتصف النهار نزل السيدُ الصادق إلى الصالة، فركضنا جميعاً خلفه مُمنيين أنفسنا بانفراج الموقف وهُرعنا نحو الأبواب، وسرعان ما أُغلقت الأبوابُ في وجوهنا بعد خروج السيد الصادق، فعدنا جميعاً

بمن فينا السادةُ الوزراء إلى المقاعد التي كنا عليها في صالة الاستقبال. وقال لنا الحراسُ العراقيون: «**غير مسموح بتحرك أي واحد وهذه هي التعليمات**».

هنا استشاط حرسُ السيد الصادق غضباً وخرج من الباب الذي دفعه بحركةٍ جنونية وصعد خلف السيد الصادق في السيارة التي تحركت بسرعة خارجةً من الفندق. كان الغضب قد ملأ حُراس الأمن العراقي على تصرف ذلك الحارس فبادرهم السيد محمد توفيق وزير الخارجية بقوله: «**هذا حرسُ الرئيسِ الشخصي، فكيف تمنعونه من مرافقة الرئيس؟**» عُدنا إلى الصالة ولم نفهم شيئاً مما يجري. وبعد حوالي ساعةٍ من الوقت عاد السيد الصادق ونزل من سيارته متوجهاً رأساً نحو المصعد ثم إلى غرفته. لم يَقُلْ حرفاً لأحد، وكان الغضبُ بادياً على وجهه بشكلٍ لم يَخْفَ على أحد.

وفي الحال صعد إليه الزميل أحمد سليمان ضو البيت مذيع التلفزيون ليسجل معه تقريراً أو تصريحاً فرفض، وحاول الجميع أن يستخرجوا منه تصريحاً عما يحدث فرفض وأحالنا إلى السيد محمد توفيق أحمد وزير الخارجية الذي كان هو الآخر لا يدري ما يُفسر به ذلك الموقف.

وتحدث وزير الخارجية متحايلاً على الكلمات وقال كلاماً فضفاضاً لم يُشِر فيه إلى ما يجري الآن وإنما استعاض بدلاً عن

ذلك بالحديث عن أهمية الجولة بالنسبة لحكومة السودان وفتح قنوات التعامل مع الأمة العربية الخ.. وأرخى الليلُ سدوله على مدينة بغداد فنمنا بانتظار الرحيل منها غداً إلى الكويت.

كانت تلك هي كل الزيارة، ليس فيها شيءٌ تسطره أقلامُ المراسلين رغم أنها حوت ملايين الأشياء التي يجب أن تسطرها أقلامُ المُحللين. ولم يهدأ لي بالٌ حتى جلستُ بالقرب من حرس الرئيس أستفسرُ عما يجري إن كان لديه تفسيرٌ لذلك. وطلب منى الصمت حتى نصل إلى الكويت.

وبمجرد نزولنا في الكويت بدأت أُلح في السؤال عن تفسير ما جرى بالعراق، وطرحتُ هذا السؤال على الوزراء والقادة العسكريين المرافقين وكبار أعضاء الوفد، وفي النهاية عرفتُ القصة من أولها إلى آخرها. خرج السيدُ الصادق من الفندق وامتطى السيارة، فوجد نفسه وجهاً لوجه أمام الرئيس صدام حسين. وبدون أي مقدمات قال له صدام: «**يا أخ صادق، عندما كان معظمُ القادة العرب يدعمون العراق بالخطب الرنانة والعبارات الجوفاء من خلال أجهزة إعلامهم بعثَ إلينا جعفر نميري رجالاً سودانيين وقفوا في الصفوف الأمامية مع الجيش العراقي وماتوا قبل العراقيين في المعركة، ولما جِئتَ أنتَ إلى الحُكم بدلاً من أن تفعلَ مثلَ ما فعل نميري عَبَرْتَ من فوق أجوائنا بطائرتكَ وذهبتَ إلى زيارة العدو في طهران، وإلى أن يثبتَ لنا أنَّ تصرفك هذا أفضل من تصرف النميري فسيكون استقبالنا**

لك أفضل من هذا، وشكراً»، وعاد السيدُ الصادق إلى الفندق لنرحل في اليوم التالي إلى الكويت.

واحتوانا أمير الكويت

هبطت بنا الطائرة في مطار الكويت الدولي، وكان الجميع متوجسين من تكرار تلك التجربة العراقية، ولكنْ من أول وهلة تبددت المخاوف. كان المطار مزداناً بأعلام السودان ولافتات الترحيب، وكان على رأس المستقبلين الشيخ (**سعد العبد الله السالم الصباح**) ولي العهد ورئيس مجلس الوزراء الكويتي وبرفقته الشيخ (**صباح الأحمد الجابر**) نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية، والسيد (**راشد عبد العزيز الراشد**) وزير الدولة لشئون مجلس الوزراء، والسيد (**سعود محمد العصيمي**) وزير الدولة للشئون الخارجية ورئيس بعثة الشرف.

وقد انضم لوفد السودان السيد (**محمد الأمين عبد الله**) سفير جمهورية السودان بالكويت والسيد (**حسن جاد كريم**) الوزير المفوض والمستشار (**عز الدين علي عباس**) والمستشار الاقتصادي (**ياسين عامر ياسين**). وتكونت بعثة الشرف الكويتية المرافقة للسيد رئيس الوزراء برئاسة السيد (**سعود محمد العصيمي**) وزير الدولة للشئون الخارجية، السيد (**عبد الله السريع**) سفير دولة الكويت لدى جمهورية السودان، الشيخ (**مبارك فيصل سعود الصباح**) مدير إدارة

التشريفات والعلاقات العامة بمكتب رئيس الوزراء، والسيد (**ناجح البغلي**) من إدارة المراسم بوزارة الخارجية الكويتية. اصطحب الشيخ سعد العبد الله الصباح السيد رئيس الوزراء إلى المنصة الرئيسية بالمطار وأدى حرس الشرف التحية العسكرية حيث عزفت الموسيقى السلام الوطني السوداني والسلام الوطني الكويتي. وبعد المراسم توجه السيد الصادق ووفده المرافق إلى قاعة التشريفات الكُبرى بالمطار ومنها إلى قصر السلام حيث قاعة الاحتفالات بالقصر. ومن ثم تحرك الوفد إلى جناح السيد رئيس الوزراء حيث أُقيم حفلُ غداء خاص بقصر السلام.

ذهبنا إلى فندق هيلتون الكويت حيث مكان نزولنا كوفد مرافق، في حين نزل رئيس الوزراء بقصر الضيافة. وجرت المباحثات في جو ودي أعاد لرئيس الوزراء والوفد المرافق الثقة والأمل في نجاح هذه الجولة العربية التي وضعت حكومة السيد الصادق عليها آمالاً عريضة. أثمرت تلك المباحثات عن توقيع عدد من البروتوكولات بين السودان والكويت. وفي مساء نفس اليوم أقام السيد الصادق المهدي لقاء مع أعضاء الجالية السودانية تحدث فيه عما يجري بالسودان والخطوات التي خطتها الحكومة في تطبيع علاقاتها مع دول العالم. ثم تحدث باستفاضة عن الوضع في مسرح العمليات العسكرية بالجنوب مذكراً بأنَّ حل المشكلة لا بد أن يكون بالمفاوضات السلمية وليس بزناد البندقية مهما طال أمد الاقتتال.

وخرجنا من لقاء الجالية السودانية بالكويت وتوجهنا إلى (**قصر الشعب**) بقلب مدينة الكويت حيث أقام سمو ولي العهد ورئيس مجلس الوزراء الشيخ سعد حفل عشاء تكريماً للوفد. وبعد مجيئنا للفندق زارني الصديق (**خوجلي الريح**) وهو الشقيق الأكبر للفنان (**حمد الريح**) ومعه شخص آخر وقالا لي:

«إن الأستاذ محجوب عبد الحفيظ مقدم برنامج الصلات الطيبة جاء قبل شهرين إلى الكويت وطلب من السودانيين هنا أن يجمعوا تبرعات للمعوقين المحتاجين للدعم، وقد جمعنا له مالاً وفيراً وبعض الأشياء العينية إلا أنه رفض رفضاً باتاً أن يحمل معه هذه الأشياء خوفاً من أي اتهامات قد يلحقها به بعض المغرضين وأصر أن تُرسل هذه الأشياء عن طريق إدارة التلفزيون مباشرةً أو وزارة الرعاية الاجتماعية ذات الصلة بالبرنامج ثم عاد إلى الخرطوم، وهاهي الأشياء والأموال التي جمعناها نريدك أن تأخذها معك إلى مدير التلفزيون أو وزارة الرعاية الاجتماعية بالسودان ليقوموا بتسليمها للمحتاجين».

وعدتهم بأخذها معي إلى السودان بعد أن شكرتهم بالإنابة عن الزميل محجوب عبد الحفيظ إلا أنهم تأخروا عن الحضور في موعد إقلاع الطائرة فلم أتمكن من حملها معي. كان خوجلي الريح رجلاً بشوشاً وكريماً ومضيافاً أمضى معنا وقتاً طويلاً، وظلَّ مرافقاً لنا طوال أيام الرحلة، وأصر على دعوتنا إلى مكتبه الذي تخصص في

طباعة الكروت والمستندات. وقد أهدى لي مجموعةً ضخمة من الكروت الفاخرة التي استخدمتها بعد شهر واحد في طباعة الدعوات لزواجي بالخرطوم.

وفي صبيحة يوم الثلاثاء السابع من شهر تموز يوليو التقى أمير الكويت الشيخ (**جابر الأحمد الصباح**) بالسيد الصادق المهدي بمقر الحكومة في (**قصر السيف**)، ثم زار السيد الصادق مقر رئيس الوزراء الكويتي وانعقدت جلسةٌ مطولة من المباحثات بين الجانبين ثم عاد أعضاء الوفد برفقة السيد الصادق إلى (**قصر السلام**) لمقابلة بعض ممثلي الهيئات الخيرية الطوعية.

وفي المساء عقد السيد الصادق مؤتمراً صحفياً بقصر السلام وبعده توجهنا إلى فندق (**كويت ريجنسي**) حيث أقام سعادة نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية مأدبة عشاء على شرف الوفد السوداني. بعدها عدنا إلى مقر إقامتنا بالفندق ليجد كُلٌّ منا هديةً أنيقةً بانتظاره من أمير الكويت الشيخ (**جابر الأحمد الصباح**)، وكانت كل هدية ممهورةً بإمضائه على بطاقة أنيقة تحمل شعار القصر الأميري لدولة الكويت.

كانت هديتي عبارة عن جهاز تسجيل صغير ملحق به جهاز راديو من النوع الفاخر الذي كلما تجولت بين محطاته تذكرتُ كرم الضيافة العربي الأصيل الذي غمرتنا به دولة الكويت الشقيقة. في يوم الأربعاء 8 تموز يوليو 1987م كانت رحلتنا

للكويت قد وصلت إلى نهايتها فغادرناها متوجهين إلى دولة قطر التي تمثل المحط الثالث في تلك الجولة الخليجية الأولى للسيد الصادق المهدي.

زيارة دولة قطر

وصلنا في الصباح إلى مطار الدوحة ومنه توجهنا إلى (**فندق ماريوت**) الذي بنته عبقرية المهندسين القطريين داخل مياه الخليج، فبدا كجزيرةٍ عائمة وسط المياه. وكان الفندق في الأصل قد بُني لفعاليات مؤتمر دول مجلس التعاون الخليجي عندما انعقد لأول مرة بالدوحة، ثم بعد ذلك اعتُبر فندق الدولة الرسمي الذي تعقد فيه المؤتمرات وينزل فيه كبار ضيوف البلاد من رؤساء الدول.

لم يكن أمير البلاد الشيخ (**خليفة بن حمد آل ثاني**) وقتها في البلاد حيث كان في رحلة خارج الدولة ولذلك استقبل السيد الصادق المهدي وليُ عهده السيد (**حمد بن خليفة بن حمد آل ثاني**) الذي أصبح فيما بعد رئيس الدولة عندما أطاح بوالده وأقصاه عن الحكم. كان الجانب الرسمي في الزيارة قد اقتصر على لقاء المباحثات الذي تم بين رئيسي البلدين ثم زيارة المتحف الوطني. بعد ذلك أجرى لقاء بين الصادق المهدي وأعضاء الجالية السودانية. وكانت زيارة قطر بمثابة فتحٍ لقنوات التعاون مع دول مجلس التعاون الخليجي برمتها. وكما قال لي السيد الصادق المهدي في

أحد الحوارات داخل مدينة الدوحة إنَّ تلك الزيارة قصد منها التحية والمجاملة وشكر قطر على مواقفها المؤازرة للسودان ولكنها لم تكن زيارة عمل بالمعنى المفهوم. ولهذا السبب لم تشهد تلك الزيارة توقيع أي بروتوكولات ذات أهمية تُذكر. وبعد انقضاء الأيام المحددة للزيارة وهي ثلاثة أيام غادرنا مدينة الدوحة بمثل الحفاوة التي استُقبلنا، بها وكان المفروض أن نذهب مباشرةً إلى دولة الإمارات العربية المتحدة ولكن!!

الزيارة المستحيلة لأبو ظبي

ظلّ الإعلان عن زيارة السيد الصادق المهدي لدولة الإمارات العربية المتحدة ملازماً للإعلان عن بقية الجولة حسب ما كان مقرراً في البرنامج المعلن سلفاً بالخرطوم. حيث كان موضوعاً أن تكون أبو ظبي هي المحط الرابع للرحلة، وقد ظل الإعلان عنها مستمراً في أجهزة الإعلام، ولكن كانت رياح السياسة تأتي بما لا تشتهي السفن. ولا يدري المرء حجم الأوجاع التي يسببها الأشقاء لأشقائهم بالقرارات الصعبة، ولم يكن الحكم على المواقف سهلاً في كل الأوقات. ففي آخر يومٍ لزيارتنا للكويت اتصل سفيرنا بأبو ظبي بالسيد رئيس الوزراء قائلاً له: ((**عفواً سيادة الرئيس، لقد اعتذرت حكومة أبو ظبي عن استقبالكم ونحن نأسف لهذا الموقف المحرج حقاً، وقد برر الإخوة الظبيانيون ذلك بأنَّ توقيت الزيارة هو يوم**

الجمعة ويوم الجمعة طبعاً يوم إجازة في الدولة ولا يعمل فيه عمال المراسم الذين يجب أن يكونوا في خدمة الاستقبال لذلك اعتذروا عن استقبالكم».

كان واضحاً أن ذلك العذر لم يُحسَنْ طبخُه لأنه لا يتصور أحدٌ أنَّ دولةً من الدول لا تستطيع استقبال ضيف بمستوى رئيس وزراء دولة شقيقة لمجرد أنَّ اليوم عطلة. ومن يصدق أن عمال المراسم ينامون في منازلهم أيام العطلات ولا تستطيع الدولة أن تأمرهم بالمجيء لاستقبال رئيس دولة ! خلق ذلك الاعتذار فجوةً زمنيةً مدتها ثلاثة أيام وهي بمقياس الحرج الذي خلفته تعتبرُ ثلاثة ملايين من السنين والدهور.

وقرر الملك فهد حسم المشكلة

وسط ذلك الحرج والقلق الذي أحدثه ذلك القرار تقدمت المملكة العربية السعودية بطلبٍ للسيد الصادق المهدي تدعوه أن ينزل ضيفاً عندها مدة هذه الأيام الثلاثة بغرض أداء العمرة ثم بعد ذلك تبدأ الزيارة الرسمية للمملكة التي كانت معلنةً أصلاً. وعلى الفور قبل السيد الصادق العرض، فتوجهنا إلى المملكة العربية السعودية التي ما إنْ وصلنا إليها حتى غمرتنا بحفاوتها البالغة، حيث أخذتنا السياراتُ الملكية من مطار جدة رأساً إلى قصر (**الملك فهد**) الذي أمر بأن نبقى فيه ضيوفاً حتى بداية الزيارة الرسمية.

كان الملك وقتها بمدينة الطائف ولكنه أمر مساعديه أن يوفروا لنا كل أسباب الراحة والحرية طوال تلك الأيام الثلاثة، وأن تكون كل إمكانات القصر تحت تصرفنا. ورأينا العَجَبَ في كرم الضيافة السعودي الأصيل.

وفَّرَ لنا البلاطُ الملكي كل أسباب الراحة والحركة داخل وخارج مدينة جدة. حيثُ كانت العديد من سيارات القصر الملكي تحت تصرفنا في أي وقت نشاء، فانتهزناها فرصةً لأداء العمرة أكثر من مرة. وكانت العمرة على درجة عاليةٍ من الراحة التي اقتضاها وجود السيد رئيس الوزراء، حيث درج جنود الحرم على إحاطة رؤساء الدول بسياج بشري حتى يؤدوا طوافهم بشكل مريح. وقد ساعدنا ذلك على تقبيل الحجر الأسود في كل الأشواط.

انتقلنا من الطواف إلى السعي بين الصفا والمروة حيث كنا جميعاً نركض خلف السيد الصادق المهدي الذي حباه الله قوةً في البنية والجسم لم يهبها لبقية زعماء السودان ولا غيرهم. كان يمشي وكأنه ينساب من جبل شامخ، وكانت خطوته قويةً وسريعة جعلت جميع أعضاء الوفد بمن فيهم رجال الحرس السعودي والسوداني يلهثون للحاق به طوال الأشواط السبعة.

وكان بين الساعين السيد (**محمد توفيق أحمد**) وزير الخارجية ولما لم يقو على مجاراة الصادق المهدي وأعياه التعب من الجري وراءه خرج من الصف بطريقة غير منظورة ودخل في صالة

مجاورة لمسار السعي لعلها تكون لكبار الزوار أو للساعين الذين يريدون أخذ قسط من الراحة بعد العناء. وعلى كل حال كانت أقرب إلى مكان الاستراحة الملحق بالجانب الغربي للحرم. وتابعته بنظراتي أثناء السعي حتى لا يضيع منا أو نضيع منه لأن الناس كثيراً ما يضيعون من بعضهم أثناء المناسك. ورأيته يحسب الأشواط على أصابعه حتى إذا ما جئنا للشوط الأخير دخل في الصف مرةً أخرى وصعد إلى المروة ثم حلق شعره لزوم التحلل.

وتعلق الوزير بأستار الكعبة

ومن الملاحظات الطريفة أيضاً أثناء طوافنا بالكعبة أنَّ السيد الدكتور (**بشير عمر**) وزير المالية قد تعلق بأستار الكعبة لزمن طويل أكثر من اللازم حتى حسبنا أنه قد فارق الحياة، ولما حاولنا تنبيهه للوقت بغرض العودة قال السيد محمد توفيق وزير الخارجية: «**أتركوا الوزير متعلقاً بأستار الكعبة لعلَّ الله يُفرج كربة وزارته ويفتح عليه خزائن الدنيا للخروج من هذه الضائقة المالية التي يعانيها**».

لقاء الملك فهد بالطائف

في اليوم الثالث لوصولنا للسعودية ركبنا الطائرة متوجهين إلى (**الطائف**) حيث المقر الصيفي للملك (**فهد بن عبد**

العزيز) عاهل المملكة العربية السعودية. ونزلنا بالمطار الذي يبعد كثيراً عن قلب المدينة، وأجريت مراسم الاستقبال الرسمي بالمطار ثم انتقلنا بالسيارات إلى قصر الملك.

هالني الإبداع والأبهة التي شيد بها هذا القصر، ولفت انتباهي شكل المزهرية التي توسطت صالة الاستقبال حيث كان ارتفاعها بارتفاع السقف، وقد توزع النجف والكريستال على جميع الأنحاء في مشهد يخلبُ الألباب. والأرضُ هي الأخرى فُرشت بسجادٍ لا أدري أين صنعوه حيث يكاد المرء يغوص في قطيفته الناعمة التي ما أحسب أنها قد رأت يوماً غبار الحياة.

ووُزعت الأرائك على طول الممرات الواصلة بين أجنحة القصر بشكل بديع. ورجال الحرس في زيهم الوطني الخاص يملأون جميع الساحات والردهات حتى كأن الهواء الداخل إلى الغرف لا يعرف طريقه قبل الاستئذان. وكان أريج المسك والعنبر والند يفوح من كل أرجاء المكان، والحوائط قد غُطيت جدرانُها الرائعات بنقوش رُسمت بماء الذهب وغطتها ستائر في غاية الانسجام مع بقية الألوان. خفق قلبي خفقات خفتُ ألا يعود بعدها إلى الخفقان من هذا القصر البديع، وعندما وصلنا إلى مكان الاستقبال أخذ السيد الصادق مكانه بعد أن حياه الملك تحيةً أخويةً دافئة حملت الكثير من المحبة التي بدت على عيون الحاضرين. وكانت خطوط العُمر قد خطت على جبين الملك رحالها فبدا أكبر مما كنت أتصوره.

وكان بادياً عليه الإرهاق والتعب بسبب السعال الذي ظل يفاجؤه بين الفينة والأخرى. وبدا بطيئاً في مشيته، ولكنه واثق الخطوة يعرف أين يضعها وفق ما يريد. وبدت علامات النعيم والطمأنينة من خلال مشيته التي قادنا فيها جميعاً بعد أن صافحنا واحداً واحداً وأجلسنا في إحدى الصالات الداخلية للقصر. بدأ الملك بأسلوبٍ مرح يتجاذب أطراف الحديث مع السيد الصادق. وكان عنصر الدعابة هو الطاغي على كل عباراته بشكلٍ لم أكن أتصوره عنه طوال حياتي. وقال ضمن حديثه:

«**أخي الصادق كيف أخبار الأمطار عندكم الآن بالسودان؟**» فرد عليه السيد الصادق: «**هي بخير الآن، وقد زرعنا الموسم الماضي وكانت الغلة مطمئنة ونحسب أنَّ هذا الموسم سيكون أفضل من موسم العام الماضي إن شاء الله**». قال الملك: «**نحن بحمد الله حبانا الله أمطاراً غزيرة في هذه السنة الطيبة، وزرعنا كثيراً من الحبوب والخضر، ولو استمر هذا المعدل فسوف نكتفي من هذه المحصولات في وقتٍ قريب بإذن الله**». بعد ذلك دعانا الملك قائلاً: «**تفضلوا فالطعام في انتظارنا**»، ومشينا خلفه خطوات كدنا نُحصيها من فرط التأني والروية. كان يرمي عباءته الرمادية على كتفه في دعة وتؤدة كعادة السعوديين عندما يستقبلون ضيوفهم في المنازل. ودخلنا قاعة الطعام الملحقة بالقصر، وكان مشهد المأكولات والفواكه والمشهيات المرصوصة على الخوان المُحلى

بالرخام والفضة يذكر الإنسان برياض الجنة ونعيمها، وجلسنا لنستمع لحديث الملك. كانت له في كل عبارةٍ قفشة وفي كل موضوعٍ نُكتة، ولذلك سَرَتْ في نفوس أعضاء الوفد طُمأنينةٌ عميقة على مسك ختام هذه الجولة في هذا الجو الملكي البديع.

بعد ذلك عدنا إلى الخرطوم لأجد العديد من الأمور أمامي في حاجة إلى المتابعة وعلى رأسها موضوع زواجي الذي تمَّ في اليوم السابع والعشرين من شهر تموز يوليو عام 1987م. وقُبيل الزواج بيومين جاءني الصديق الممثل (**الهادي الصديق**) يحملُ خبراً سعيداً وبينَ يديه عددُ الأسبوع من مجلة الموعد اللبنانية.

مذيع 87 ومجلة الموعد

كانت مجلة (**الموعد**) اللبنانية قد طرحت مسابقةً على مستوى العالم العربي لنجوم الشاشة البلورية. وكانت المسابقة ذات أقسام كثيرة تطالب المشاهدين العرب في كل دولهم أن يشاركوا باختيار أحسن ممثل وأحسن مذيع وأحسن مخرج في العالم العربي. ورصدت المجلة جوائز قيمة ستقدمها للفائزين من النجوم في العالم العربي.

وظهرت النتيجة بعد شهور من الفرز في 25 ديسمبر 1987م وكان نصيبي أن أكون المذيع الأول في السودان في تلك المسابقة وكان الممثل الأول هو (**الهادي الصديق**). وجاءني الأخ

الهادي الذي زفَّ إليَّ ذلك الخبر السعيد وهنأني على ذلك الفوز الكبير قائلاً: «**نحن الآن بانتظار الجوائز التي نتوقع أن تكون ذات قيمة مادية وأدبية**»، حيث بعثت إلينا المجلة برسائل تهنئ بتلك النتيجة وتعد بإرسال الجوائز. في الواقع لم تكن قضية الجائزة تشغل بالي كثيراً، بل كان الفوز بتلك النتيجة هو الأهم.

وفي حقيقة الأمر ظلت تلك النتيجة تتكرر طوال السنوات اللاحقة ولكن ليس من خلال مجلة الموعد وإنما من خلال مسابقة مذيع العام التي ظلت تنظمها صحيفة الهلال والتي كان يشرف على تلك المسابقة فيها فريق بقيادة الأستاذ الصحفي (**عابد سيد أحمد**). حيث شرَّفني المستمعون والمشاهدون باختياري مذيعاً لأعوام 87، 88، و1989م.

كان ذلك الاختيار والفوز بنتائج المسابقات حافزاً لي للعديد من المشاريع الثقافية والأدبية والإعلامية التي أحسستُ بأنها يجب أن تُتوج عملي بوسائل الاتصال. وقررتُ ألا يقتصر الجهد على الوسائل المقروءة والمسموعة بل لا بد من الانخراط في الأوساط الثقافية بشكلٍ أعمق. فكان لي نشاطٌ مكثف بجامعة الخرطوم وجامعة أم درمان الإسلامية وجامعة القاهرة فرع الخرطوم وجامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا.

وقد تمثل هذا النشاط في إقامة ليالي شعرية ومحاضرات وندوات بهذه المؤسسات العريقة. وقد أفضى كل ذلك للالتصاق

بالأوساط الأدبية بالشكل الذي أرضى كثيراً من الطموحات. وكان أكثر ما أسعدني في تلك الفترة انخراطي في مجموعة المربد التي تمثل السودان في ذلك المهرجان التاريخي العظيم بأرض الرافدين.

مهرجان المربد بالعراق

وصلتني بطاقة دعوة أنيقة من السيد (**لطيف نصيف جاسم**) وزير الثقافة العراقي يدعوني فيها لحضور مهرجان المربد التاسع بالعراق والذي سيعقد في الرابع والعشرين من شهر تشرين أول نوفمبر 1988م. وذهبت إلى هناك وكنا جماعةً كبيرةً من السودانيين ضمت الأدباء والشعراء؛ (**د. عبد الله الطيب، د. محمد الواثق، محمد الفيتوري، فراج الطيب، سيد أحمد الحردلو، مصطفى سند، محي الدين فارس، سيف الدين الدسوقي، مهدي محمد سعيد، جعفر حامد البشير، كمال حسن بخيت، عوض إبراهيم عوض، التجاني حسين دفع السيد، يوسف الحبوب، حديد السراج، والطيب صالح الذي انضم إلينا في بغداد**).

وما أن وصلنا إلى المطار وأخذتنا الحافلة نحو الفندق حتى أصر الشاعر محمد الواثق على سائق الحافلة أن يذهب أولاً إلى ضريح الشيخ (**عبد القادر الجيلاني**) قبل الذهاب إلى الفندق. واحتج الجميع قائلين إننا يجب أن نصل إلى الفندق أولاً ونرتاح قليلاً ثم نذهب إلى المعالم المختلفة ومنها ضريح الشيخ عبد القادر

الجيلاني. لكنَّ الواثق أصرَّ على تفيذ رأيه بلا تلكؤ، فذهبنا إلى الضريح وتمسح الواثق بجنباته كصوفيٍ متبتل في حب شيخه ثم جئنا إلى الفندق. بعد تلك البداية المتصوفة بدأت فعاليات المهرجان التي كانت أشبه بأيام أسواق عُكاظ وذي المِجن والمربد الأول أيام دولة بني أمية. كان قاسمها المشترك الأعظم هو الشعر والدراسات النقدية وزياراتٌ لمختلف معالم بغداد وبقية مدن العراق مثلها مثل مهرجان الأمة الشعري الأول الذي حكيتُ عنه في مكانٍ آخر من هذا الكتاب. وعلى مهمش المربد عقدنا ليلةً ثقافيةً عفويةً خاصة بمقر إقامتنا بالفندق شارك فيها الأساتذة (**الطيب صالح**)، (**عبد الله الطيب**)، (**سيد أحمد الحردلو**)، (**فراج الطيب**)، (**سيف الدسوقي**) وشخصي.

وتشعب الحوار في كل شيء إلى أن جاء إلى (**حنان النيل**) حيث قال الدكتور عبد الله الطيب إنَّ صوتها يصلح لأن تكون أول مغنية أوبرا سودانية. وتحدث الطيب صالح عن أدب الأستاذ الراحل الشيخ (**الطيب السراج**) وقال مخاطباً الأستاذ فراج الطيب: «**إنني أريد أن أنشر كل تراث الشيخ الطيب السراج على نفقتي الخاصة ولا أريد من ذلك إلا خدمة هذا الهرم الأدبي الشامخ في تاريخ بلادنا**» ووعده الأستاذ فراج بذلك.

ولما كنتُ أدرك ظروف الأستاذ فراج رحمه الله وانشغاله بكثير من المشاغل قلتُ للأستاذ الطيب صالح: «**أنا متأكد أن**

الأستاذ فراج لن يجد الوقت الكافي لإعداد دواوين الشيخ الطيب السراج، ولكني على استعداد أن آتي إليه وقتما يشاء لأساعد في جمع وترتيب وإعداد هذه الأعمال حتى ترى النور لأنَّ هذه دَينٌ على عواتقنا جميعاً».

ووافق الأستاذ فراج على ذلك العرض، فاتفقنا مع الطيب صالح على البدء في التنفيذ، ولكن كانت مشيئة القدر أقوى من تصميمنا حيث تفرق ثلاثتنا واحداً بالدوحة وواحد بماليزيا وواحدٌ بالسودان، ومرت السنوات دون أن نعود إلى المربد الذي أوقفته حرب الخليج، وبعدها جاءنا نبأ رحيل الأستاذ (**فراج الطيب**) إلى الدار الآخرة غشيت قبره شآبيب الرحمة والمغفرة بقدر ما أعطى لبلادنا وللعروبة ولكل الإنسانية المتعطشة للتأصيل والعودة إلى منابع العروبة الأصيلة.

بعد ذلك اتفقت مع الأستاذ (**الطيب صالح**) على إجراء حوار إذاعي لإذاعة صوت أمريكا التي كنتُ أعمل مراسلاً لها، وفاجأني الأستاذ الطيب بأنَّ له شرطٌ واحدٌ للتسجيل ولما سألته ماهو هذا الشرط قال لي: «**لا بد أن يتم في غرفة الأستاذ فراج الطيب بالفندق**».

وافقتُ على الفور للعلاقة الحميمة التي كانت تربطني بالأستاذ فراج، ويومها عرفتُ أنَّ الأستاذ الطيب صالح كان معجباً حتى الثمالة بالأستاذ فراج الطيب وبشعره وعصاميته وأسلوبه في

الحياة. ولذلك ظلَّ لصيقاً به طوال أيام المربد والمرابد التي تلته والتي ظللنا نحضرها تباعاً حتى نشوب أزمة الخليج التي قضت على الكثير من المناسبات ومنها المربد.

جاءت ليلة توزيع الجوائز في المربد، وفيها فاز شاعرنا وأديبنا الأستاذ (**محمد الفيتوري**) بجائزة صدام لعام 1988م وهي جائزة تُعطى في كل مربد لأحد المبدعين. فابتهج كل المشاركين في المربد لاسيما الشعراء والأدباء السودانيين من أصدقائه وزملاء دربه الطويل.

وأثناء وجودنا بالمربد في بغداد تحدثتُ طويلاً مع الأستاذ (**حديد السراج**) مدير التلفزيون عن البرامج والسهرات فاقترحَ عليَّ أن أقدم سهرةً جماهيريةً في الدورة الجديدة نسبةً لخلو هيكل البرامج من السهرات الجماهيرية بعد توقف الأستاذ حمدي بدر الدين من تقديم سهرته الناجحة فرسان في الميدان والتي استمرت لسنواتٍ عديدة.

ووافقتُ على ذلك الأمر على أن تكون السهرة جماهيرية مثلها مثل فرسان في الميدان التي أحبها الجمهور وكنتُ أنا أحد المشاركين فيها لسنواتٍ طويلة. ولكن كان لا بد من وضع فكرة مغايرة تماماً لسهرة فرسان من حيث التكنيك والتقديم وشكل الفقرات. وبالفعل فقد نفذنا الفكرة بعد شهرٍ من ذلك الحوار، وأطلقتُ على السهرة الجديدة اسم (**ليالي السمر**).

قبة المهدي في ليالي السَّمَر

كانت (**ليالي السمر**) من السهرات الجماهيرية التي نستضيف فيها مجموعةً من المشاركين الذين تربطهم مؤسسة واحدة مثل الكليات الجامعية والمعاهد وغيرها. وتعتمد على تقديم مسابقات وأسئلة ثقافية متنوعة ويشارك فيها عدد من المطربين.

وفي أحد الأيام اسضفتُ طلبة معهد الخرطوم الدولي للغة العربية وفي فقرة كتاب قرأته كان ضمن الكتب كتاب (**النيل الأزرق**) للكاتب البريطاني (**آلان مورهيد**) وسألت الضيف وهو الأستاذ (**معتصم يوسف**) عن الكتاب، ومن ضمن إجاباته عن الأسئلة تحدث عن قبة الإمام المهدي كما جاء السرد في الكتاب قائلاً: ((**إنَّ الكاتب ذكر أنَّ كتشنر قام بنبش القبر وأخرج الجثة وفصل الرأس عنها ورماها في البحر ويعث الجمجمة إلى الملكة لتتخذ منها محبرةً أو كأس خمر، فغضبت الملكة وعاتبته على ذلك الفعل الذي اعتبرته شنيعاً، وأمرت بإعادة الجمجمة التي أعيدت بالفعل ودُفنت بمنطقة حلفا مع جثث الجهادية الذين ماتوا في توشكي جنوب مصر**)). وما أنْ أذيعت تلك الحلقة حتى قامت الدنيا ولم تقعد، واتصل السيد (**الصادق المهدي**) رئيس الوزراء بالسيد (**عبد الله محمد أحمد**) وزير الثقافة والإعلام قائلاً له باللهجة السودانية الدارجة: ((**شِيلْ شيلْتَكْ مع الأنصار**)) فقال الوزير: ((**ماذا حدث يا سيادة الرئيس؟**)) قال له السيد الصادق: ((**لقد تحدث عوض إبراهيم**

عوض في التلفزيون ذاكراً أنَّ قبة الإمام المهدي قد نُبشت وأخرجت الجمجمة التي أراد الإنجليز أن يصنعوا منها كأس خمر الخ..» لم يكن السيد الوزير حاضراً وقت إذاعة الحلقة، ولذلك اتصل على الفور بمدير التلفزيون الأستاذ (**حديد السراج**) الذي دخل أستوديو البث المباشر وهو في غاية الانزعاج والغضب، وقطع الإرسال ليعتذر للجمهور عما جاء في السهرة. وقال حديد السراج بلهجة المتوعد: «**إنَّ التلفزيون سيعاقب كل من شارك في هذا الحديث غير المسؤول**».

كان سبب تلك الغضبة المضرية أنَّ شائعاتٍ قد سرت بأنَّ الأنصار قد ثاروا في الجزيرة أبا وفكر بعضهم في المجيء إلى الخرطوم للتعبير عن غضبتهم من ذلك الاستخفاف بشخصية المهدي معيدين للأذهان ما جرى في حوادث مارس 1953م.

في تلك الأثناء كنتُ موجوداً بالفندق الكبير بالخرطوم لتسجيل حلقة جديدة من نفس البرنامج (**ليالي السمر**) فأخبرني المخرج (**صالح مطر**) بما حدث في التلفزيون وعن بيان السيد المدير الذي أذيع على الهواء. وبدأت تسجيل حلقتي التي كانت مع طلبة كلية التربية بجامعة الخرطوم وقلتُ في البداية:

«**لعلكم سمعتم بيان السيد مدير التلفزيون عما ذكرناه في الحلقة السابقة من البرنامج عن قبة المهدي، ولعلكم قد سمعتم عن اتهامنا بتشويه المهدية من خلال البرنامج، وأنا أريد أن أؤكد هنا أنه لم يهتم برنامج في تاريخ التلفزيون بالمهدية كما اهتم بها**

برنامجنا هذا، حيث لم تخل حلقة واحد عن ذكر أحداثها والعبر المستقاة منها. والبرنامج لا يصنع التاريخ وإنما يعرض الأحداث كما هي. ولتوضيح اللبس الذي حدث في تلك الحلقة فإننا أوردنا معلومةً جاءت في كتاب ألن مورهيد ولم نعلق عليها رفضاً أو قبولاً».

كانت تلك الزوبعة قد أثارت حمية المشاحنات القديمة بين طائفتي (**الأنصار**) و(**الختمية**)، ولعلها وجدت هوىً في نفوس الختمية الذين يعتقدون جازمين بأنَّ هذه القبة ليس بها ولي تأكيداً لادعاء بعض المصادر بحادثة نبش القبر وإلقاء الجثة في نهر النيل. بعد ذلك استمر برنامج (**ليالي السمر**) لفترةٍ وجيزة سافرتُ بعدها في رحلة دائرية إلى أوربا استغرقت قرابة الثلاثة أشهر بالباخرة السودانية (**دارفور**) مما لم يمكنني من مواصلة تقديم البرنامج فتوقف ضمن ما توقف من برامج تلك الدورة.

نهاية الديموقراطية الثالثة

كان سفري في تلك الرحلة الدائرية بإيعاز من (**كابتن عابدون**) بشركة الخطوط البحرية السودانية الذي أخبرني في إحدى زياراتي لبورتسودان بمناسبة اليوبيل الذهبي لمدرستها الثانوية بما يُسمى بالرحلة الدائرية ودعاني للقيام بمثل هذه الرحلة التي ستكون في غاية المتعة على إحدى البواخر السودانية. وقررتُ تنفيذ

الفكرة التي اخترتُ لها شهر يونيو من عام 1989م. ففي أمسية الخميس التاسع والعشرين من يونيو عام 1989م صعدتُ مع الأخ التجاني رحمة الله الباخرة (**دارفور**) مبتدءاً تلك الرحلة المثيرة. والأخ التجاني رحمة الله الذي أوصلني إلى الباخرة زميلُ دراسةٍ قديم في المرحلة الثانوية بالنهود. وقد تعلق بعالم البحار حتى ذهب إلى يوغسلافيا ودرس البحرية هناك ثم التحق بعد تخرجه بشركة الخطوط البحرية السودانية فعمل ضابضاً ثانياً ثم ضابطاً أول إلى أن أصبح قائداً للباخرة.

كنتُ معه في منزله العامر بحي تَرَبْ هَدَلْ ببورتسودان حيث أمضينا أياماً من التجوال بين معالم المدينة انتظاراً لإقلاع الباخرة. أوصلني الأخ التجاني برفقة الأخ الرائد عبد الرحمن بشرطة الموانئ إلى السفينة. وهناك عرَّفوني بطاقم الرحلة الذي يقف علي رأسه الكابتن (**أحمد مختار**) من أبناء شرق السودان. ولما كان الكابتن منهمكاً في بعض المهم فقد أكملتُ إجراءات سفري مع كابتن (**شيبة**) الذي تسلم مني جواز السفر والأوراق الرسمية، ثم وجَّه أحدَ العاملين ويُدعى الحسين بتوصيلي إلى الغرفة رقم 316 ريثما يتم تجهيز الغرفة المخصصة لي بالسفينة وهي الغرفة رقم 210. حمل معي الحسين أمتعتي وأدخلني الغرفة وسلمني المفتاح بعد أن تمنى لي إقامةً سعيدةً لأنَّ هذه الغرفة ستكون نصب عيني علي مدى شهرين متتاليين هما عمر هذه الرحلة الطويلة. ولا أكادُ أصف

الفرح الغامر الذي اعتراني بتلك الغرفة الأنيقة. فكل شيء منظمٌ ومرتبٌ وجميل. تكييف الهواء مستمرٌ طوال الأربع والعشرين ساعة ويمكن التحكم فيه تخفيضاً أو رفعاً بكل بساطة. وهناك سريرٌ وثير به وسادتان وأريكةٌ طويلة يمكن أن تكون هي الأخرى سريراً عندما يتم سحبها إلى أسفل.

وإلى جانب دولابٍ واسعٍ ومحكم الإغلاق كانت هناك عددٌ من الأدراج لحفظ الحاجيات. وقد جُهزت الغرفة بتربيزة مكتب أنيقة ومعها كرسي مريح إذا أراد المسافر الكتابة أو القراءة فضلاً عن الستائر التي تغطي نوافذ الغرفة المطلة علي مقدمة السفينة. وكان بالغرفة تلفون يمكن الاتصال به في أي وقتٍ من الأوقات. وهناك جزءٌ من الغرفة يحتوي علي حمامٍ فاخر وحوض للغسيل ومنشفات وغير ذلك من المستلزمات.

كان كل ذلك مصدر فرحٍ غامر وسعادة، خصوصاً الهواء البارد الذي أنقذني من رطوبة بورتسودان حيث كانت حرارة شمسها لا تُطاق في تلك الأيام. وضعتُ أمتعتى في الغرفة وودعتُ الصديقين التجاني وعبد الرحمن وجلستُ أتأملُ تلك الغرفة المريحة التي ستكون ملاذاً حقيقياً من التعب والركض خلف متاهات الدنيا المتشعبة في العاصمة والإذاعة والتي لم أصدق أنني قد نجوتُ منها. وأثناء تأملي ودهشتي والتوهان في عالم الخيال العريض والأحلام والخيال الذي سرح بي بعيداً مع رحلة المجهول المرتقبة كانت عقارب

الساعة تشير إلى التاسعة صباحاً، وقبل أن أُكمل قراءة الصفحة الأولي من الصحيفة التي كانت بيدي سمعتُ طرقاً شديداً علي باب الغرفة.

نهضتُ مذعوراً لشدة الطرق وفتحتُ البابَ فإذا بالأخ (**سيد أحمد الدومي**) أحد مهندسي الباخرة يسألني مُنزعجاً: «**هل علمتَ بما حدث؟**» فأجبته كلا! قال: «**لقد استلم الجيش السلطة في الخرطوم، وأعلنَ أحدُ الضباط بيان الاستلام قبل قليل**».

لا أستطيع أن أُصوِّر إحساسي عند سماعِ ذلك النبأ، ولم أدرِ ما كان يدور بخلدي في تلك اللحظات التي مرت بشكلٍ لستُ أدريه. كلُ الذي أذكره موقفاً حدث لي قبل يومين من مغادرتي الخرطوم متوجهاً إلى مدينة بورتسودان. حيث كنتُ في زيارة أحد أقاربي من السياسيين القدامى وهو (**التيجاني عبد الله بدر**) الذي ورد الحديثُ عنه في الفصل الأول من هذا الكتاب. كان التيجاني من الكوادر النشطة في عقد السبعينيات للحزب الشيوعي السوداني، وكان من المنظرين الأذكياء الذين لعبوا دوراً في تأمين مسار الحركة الانقلابية التي قادها الرائد هاشم العطا ضدَّ حكومة جعفر نميرى في التاسع عشر من يوليو عام 1971م. وبعد ذلك اعتقلته سلطات الأمن بعد فشل المحاولة الانقلابية وأودع سجن كوبر مع رفاقه من كوادر الحزب الشيوعي. وبعد سنواتِ السجن حدثت للرجل تحولاتٌ فكريةٌ عميقة قادته من صفوف الشيوعيين إلى صفوف جماعة

الطريقة التيجانية، فبنى زاويةً للصلاة في منزله الكائن بحي أركويت بالخرطوم، وظلَّ هاجس السياسة يراوده في المجالس الخاصة ولكن من زاوية مختلفة تمام الاختلاف.

وكان قد أعاده للعمل السياسي صديقه ورفيق دراسته السيد (**علي حسن تاج الدين**) عضو مجلس السيادة إبّان فترة الديمقراطية الثالثة، فصار ألصق بصناع السياسة إبان تلك الفترة. كنا نتحدث عن مسار العمل السياسي في بلادنا، أنا من زاوية تفكيري كمراقبٍ للأحداث وهو من زاويته كأحد اللصيقين بالقصر الجمهوري والمنخرطين في دولاب العمل السياسي. حيث قلتُ له في ختام حوارنا الذي دام لأكثر من ثلاثِ ساعاتٍ قضيناها في صالونه الأنيق بحي أركويت بالخرطوم:

((**يا أخي التيجاني أنا مسافرٌ غداً إلى أوربا في رحلةٍ دائرية بالباخرة، وأنا واثقٌ أنني سأجد حكومةً أخرى عندما أعود إلى أرض الوطن وستكون هذه الحكومة حكومة انقلابٍ عسكري رضينا أم أبينا**)). ضحك التيجاني وقال لي: ((**وما أدراك بذلك؟**)). قلت له: ((**إنَّ استقراء الواقع السياسي الراهن يؤكد ذلك، خصوصاً إذا قرأناه على ضوء مُذكرتي الجيش وتبرم أعضاء البرلمان الذي قاد الشريف الهندي للتنبؤ بسقوط الحكومة خلال أيام، ثم إنني سمعت إبراهيم السنوسي وهو يُقدم الدكتور الترابي في ندوة عامة بميدان المولد بالسجانة قائلاً لقد خرج الترابي من حكومة الصادق ليدخل**

حكومة الشعب والتي سيأتيها على رأس الدبابة». كل هذه كانت مؤشراتٍ تُضاف إلى شكل الممارسة السياسية التي تعثرت كثيراً بين الائتلاف وفض الائتلاف ومحاولات الوفاق الكثيرة التي بدأت منذ التشكيل الوزاري الأول في عام 1986م. تذكرتُ كل ذلك عندما أخبرني المهندس سيد أحمد الدومي بخبر الانقلاب العسكري الذي وقع لتوه بالخرطوم. وخرجتُ معه إلى الصالون العام بالباخرة في الطابق الأرضي، حيث كان معظم أفراد الطاقم وبعض المسافرين مثلي قد التفوا حول جهازي الراديو والتلفزيون وهم يتابعون المارشات العسكرية انتظاراً للبيان.

انتظرنا لحظاتٍ مرّت كأنها الدهور بانتظار إعادة نصِّ البيان العسكري الذي أذيع قبل مجيئنا للغرفة. وبعد لحظات أُعيدَ البيانُ الذي ألقاه العميد أركان حرب عمر حسن أحمد البشير، والذي تسلم بموجبه مقاليد السلطة في السودان. كان الجميع يتحدثون عن ذلك البيان وملابساته والظروف التي أفضت إليه ومصير الديمقراطية الثالثة وما إلى ذلك. وظللنا طوال ذلك اليوم بالقرب من الراديو نتجاذب أطراف الحديث عن التجربة الديمقراطية وأسلوب الحكم الذي انتهجه السيد الصادق المهدي وعلاقة ذلك بالذي يحدث الآن من تغيير جاء من المؤسسة العسكرية للمرةِ الثالثة خلال أقل من نصف قرنٍ من الزمان. وغادرت الباخرة ميناء بورتسودان لتعود إليه بعد سبعين يوماً هي عمرُ الرحلة

الدائرية التي زرتُ فيها مصر وبريطانيا وبلجيكا وهولندا وألمانيا ويوغسلافيا والمملكة العربية السعودية. وقد أفردتُ لهذه الرحلة سِفراً آخر أسميته (**سبعون يوماً بين أمواج البحار**).

بعد ذلك عدتُ إلى أرض الوطن لأجد نظاماً سياسياً جديداً وبطاقةَ دعوةٍ في مكتبي تدعوني للمشاركة في مؤتمر السلام بقاعة الصداقة. وبعدَ أشهرٍ منها تسلمتُ بطاقةً أخرى تدعوني للمشاركة في مؤتمر السلام والتنمية بكردفان، فغادرت مرةً أخرى للأبيض في ظلِ نظامٍ جديد لم أعرف عنه سوى أنه جاء للسلطة وأنا في عُرض البحر.

مؤتمر السلام والتنمية بكردفان

وصلت إلى مدينة الأبيض في صبيحة اليوم الرابع والعشرين من شهر شباط فبراير 1990م، فوجدتُ العديد من أبناء كردفان الذين جاءوا من مختلف الأصقاع داخل وخارج الوطن لحضور ذلك المؤتمر. وقد تمَّ تقسيمُ المشاركين إلى لجان وكان نصيبي أن أكون عضواً بلجنة الإعلام التي اختير لرئاستها البروفيسور (**غبوش الضاوي**) الذي تبوأ منصب مدير (**جامعة كردفان**) فيما بعد. ومنذ أول وهلةٍ اعتذر بروفيسور غبوش للجنة تسيير المؤتمر قائلاً: ((**لا بد من إسناد رئاسة هذه اللجنة للأخ عوض إبراهيم عوض لأنه الوحيد بين أعضاءها المتخصص في مجال الإعلام، أما أنا فرجل متخصص**

في مجال البيطرة ولا أعرف شيئاً عن الإعلام». وبكل بساطة أُسندت رئاسة اللجنة لشخصي، فعقد ستة اجتماعاتٍ مع الأعضاء بمقر مركز الأبحاث الزراعية بالأبيض الذي كان يحتضن ليالي المؤتمر. وقُدمت توصيات اللجان المختلفة وكانت آخرها توصيات لجنة الإعلام التي تشرفتُ برئاستها فكانت أولى توصياتنا بأن يكون مبنى الأبحاث الزراعية هذا مقراً لجامعة الأبيض. ورغم أنَّ هذا الاقتراح قد يُغضب العاملين في هيئة الأبحاث الزراعية إلا أنني أحسب أنهم سيُقدرون مصلحةَ وظروف الإقليم ولن يبخلوا بهذا المبنى ليضم أول جامعة بإقليم كردفان.

كان دافعي لتقديم ذلك الاقتراح هو أنَّ المبنى كبيرٌ وواسع في حجم جامعة في حين أنَّ الأبحاث الزراعية ما زالت في طور التكوين. ويمكن للأبحاث أن تكون أكثر حيويةً إذا ما كانت في ظل جامعة تسندها وتُقويها. وصفق الحاضرون لذلك الاقتراح دليلاً على رضائهم التام به، وفي نهاية المطاف جاء رئيس الجمهورية فأجاز الاقتراح ضمن بقية توصيات لجنتنا التي تضمنها التقرير الختامي وأصبحت الأبحاث هي مقر جامعة الأبيض إلى اليوم.

وكان من أبلغ ما قُدم في ذلك المؤتمر المهم ورقة الأمير (**عبد القادر منعم منصور**) ناظر قبيلة الحمر بمنطقة النهود، وهو نجل الناظر منعم منصور أول ناظر لقبيلة الحمر، والذي ظلَّ في ذلك المنصب إلى أن توفاه الله فخلفه ابنه منصور وبعد وفاته آلت

النظارة لابنه عبد القادر. وفي عهده تغير الإسم من ناظر إلى أمير. جاء الأمير عبد القادر إلى مكان الاحتفال يحمل جوالاً ضخماً على ظهره وعندما اعتلى المنصة فتح الجوال وكان فيه مبلغ ضخم من أوراق النقد المالية، وقال أمامَ وفود الحاضرين: ((**هذه هي ورقة أبناء النهود للمؤتمر وليس عندنا غيرها لنبدأ تنفيذ ما أقره هذا المؤتمر فوراً**))، وتعالى تصفيق الناس وأثيرت العديد من التعليقات على تلك الورقة التي كانت أبلغ من كل سطور الكلام التي ظلَّ السياسيون يدبجونها في مثل هذه المناسبات. انتهى المؤتمر وعدتُ إلى الخرطوم ولكني لم أتمكن من متابعة تنفيذ توصياته لأنني بعد عودتي للعاصمة انشغلتُ بحزم أمتعتي للسفر إلى دولة ماليزيا لأعمل محاضراً بجامعتها الإسلامية العالمية، فتركت ورائي كل تلك الذكريات التي سطرتها من بلاد الملايو في هذه الصفحات التي اخترت لتسميتها عبارةً ترددت في عدة صفحات حسب المواقف وهي (**عفواً سيادة الرئيس**).

كلمة أخيرة

يعتبر العمل الإذاعي أكثر المهن حلاوةً وتجدداً حيث لا يشعر الإنسان فيه بالملل ولا الإرهاق الذي يحسه العاملون في المرافق الأخرى. ذلك لأن طبيعة العمل متجددة طوال الوقت، فالخبر الذي تقرأة اليوم لن تقرأه غداً والبرنامج الذي تقدمه اليوم لن تقدمه غداً

وهكذا. ويظل الإذاعيون في تطور مستمر وتعلم من خلال تثقيف الذات الذي تفرضه طبيعة المهنة. ويظل المذيع دوماً في وسطٍ ثقافي وعلمي وأدبي وفني لأنَّ كل الذين من حوله إما مطربون أو أدباء أو سياسيون أو رياضيون أو كتاب، وكل هؤلاء من صناع الثقافة والمعرفة، بل إنهم صناع الحياة. ولا تخلو ردهات الإذاعة على مدار اليوم من المبدعين لأنَّ العمل الإذاعي لا يعرف الانغلاق ولا العطلات ولا الأعياد. فحين يخرج موظفو دواوين الحكومة من مكاتبهم إلى البيوت يكون هذا أهم وقت يدخل فيه الإذاعيون إلى دار الإذاعة ليقدموا خدمةً لأولئك العائدين إلى ديارهم. وأيام الأعياد التي يرتاح فيها جميع الناس من عناء العمل يُضاعف الإذاعيون فيها عملهم لإسعاد أولئك المحتفين بالعيد في منازلهم أو بين أصدقائهم أثناء تجوالهم على البيوت والحدائق.

وكان أكثر ما أحزنني وأنا أغادر الإذاعة في شهر أيلول سبتمبر 1990م هو أنني لم أتمكن من فعل شيء في منصبي الجديد. حيث كان المدير قد أصدر قراراً بتعييني رئيساً لقسم (**البرامج الخاصة**) بالإذاعة. وسافرت بعد أيام قلائل من تسلمي أعباء ذلك المنصب تاركاً القسم ومن فيه وما فيه دون أن أتمكن حتى من التعرف على أعضائه. وبذا انقضت صفحاتٌ من الذكريات عشتها بين أروقة إذاعة أم درمان رغم أنني واثق أن الذي لم أسجله في هذه الصفحات أكثر بكثير مما سجلته فيها، وهو الذي أسعفتني به

الذاكرة، حيث إنني أكتب صفحات هذا الكتاب على ضفاف بحر الصين الجنوبي في أقصى جنوب شرق الكرة الأرضية بمدينة كوتشنج عاصمة ولاية سرواك التي تقع على جزيرة (**بورنيو**) التي تضم جزءاً من إندونيسيا وجزءاً من ماليزيا وكل دولة بروناي دار السلام. ومن هذ المكان القصي أبعث تحياتي لكل من عاش معي أحداث هذا الكتاب وكل من يتصفح سطوره عله يجد بينها ما يفيد أو يجعله جديراً بالقراءة، وإلى اللقاء.

